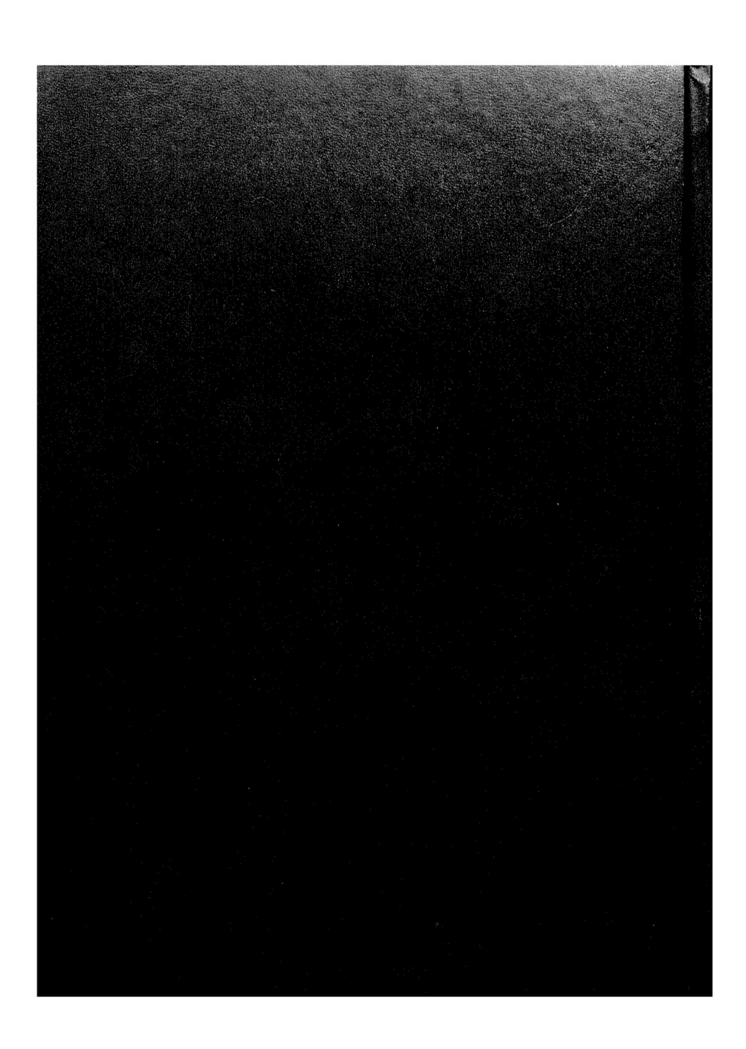


اهداءات ٢٠٠٢

أ/ رشاد كامل الكيلانى

القاهرة



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف
لجنة من العلماء
بإشراف
مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث

الحزب الثالث والأربعون

الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م

القاهرة
الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٧

* (وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾)

المفردات :

(وَمَن يَقْنُتْ) : ومن يطع ويخضع .

(لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَآءِ) : لفظ أحد أصله : وَحَد كما قال الزمخشرى ، وهو بمعنى واحد ، وُضِع فى سياق النفى العام ليستوى فيه المذكر والمؤنث ، والواحد والكثير ، والمعنى هنا : لستن كجماعة من جماعات النساء فى الفضل ، فمقامكن أرفع من مقامهن .

(فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ) : فلا تَجئْن بالقول خاضِعًا لَيِّنًا .

(فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ) أى : فجور .

(وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا) أى : قَوْلًا معروفًا بالجد .

(وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ) : أمر من قَرَّ يَقَرُّ على لغة أهل الحجاز من باب عَلِم يعلم ، دخلت عليه واو العطف وأصله :واقررْن فخفف بحذف الراء الأُولى ، وحذف ألف الوصل بعد تحريك القاف ، وهو من القرار فى المكان بمعنى الثبوت فيه ، كما قاله أبو حيان فى البحر .

وفتحُ القافِ فى (قَرْنَ) قراءة حفص ، وقرأ الجمهور بكسرها (وقِرْنَ) وهو من الوقار ، وفعله وَقِر يقِرُ ، والأمر منه للنسوة (قِرْنَ) بكسر القاف ، والواو قبله للعطف ، وأما واوه فقد حذفت كقولك (عِدْ) فى وَعد .

(وَلَا تَبَرَّجْنَ) : ولا تبدين من محاسنكن ما يجب ستره .

(لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ) : يبعد عنكم الذنب .

(مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ) أى : من القرآن الجامع لكونه آيات الله ، وكونه حكمة أو من القرآن والسنة .

(إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً) اللطف من الله :الرفق والتوفيق والعصمة. والخبير :الدقيق العلم.

التفسير

٣١ ـ (وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا) :

هذه الآية والتى قبلها ، واللاتى بعدها آدابٌ أمر الله بها نساء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونساء الأُمة تبعًا لهن .

والمعنى : ومن يخضع منكن لله ورسوله ، فلا يطالبنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما ليس فى طوقه ، ولا يبالين بزينة الحياة الدنيا ، وتستمر على عمل الصالحات ، من رعاية البيت ، ومراعاة شأْن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والصلاة والصيام وسائر خصال البشر ـ من يخضع منكن كذلك ـ نعطها أجرها مرتين ، مرة على قنوتها وخضوعها ، وأُخرى على عمل الصالحات ، وأَعددنا لها رزقًا عظيمًا فى الجنة زيادة على أَجرها .

وهذه المضاعفة للأَجر ، فى مقابل المضاعفة للعذاب ؛ إن أَتين بمعصية ؛ أخرج ابن أَبى حاتم عن الربيع بن أَنس قال فى حاصل معنى هذه الآية والتى قبلها : من عصى منكن فإن العذاب يكون عليها ضعف سائر نساء المؤمنين ، ومن عمل صالحًا منكن فإن أجرها يكون ضعف سائر نساء المسلمين .

وهذا يستدعى أنه إذا أُثيب سائر نساء المسلمين على الحسنة بعشر أَمثالها أثبنَ على الحسنة بعشرين مثلًا لها ، وإن زيد للنساء على العشر شىءٌ زيد لهن ضعفه .

قال الآلوسى : وكأَنه ـ والله تعالى أعلم ـ إنما قيل : (نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ) دون (يضاعف لها الأَجر ضعفين) كما قيل فى المقابل : يضاعف لها العذاب ضعفين ؛ لأَن أَصل تضعيف

الأَجر ليس من خواصهن ، بل كل من عمل صالحًا من النساء والرجال من هذه الأُمة يضاعف أجره ، فأخرج الكلام مغايرًا لما تقتضيه المقابلة رمزًا إلى أن تضعيف الأَجر على طرز مُغَاير لتضعيف العذاب .

٣٢ - (يَا نِسَآءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَآءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا) :

ذهب جمع من المفسرين إلى أن (أحد) وصف لمذكر محذوف ، وأن المعنى ليست كل واحدة منكن كشخص واحدة من النساء فى عصركن ، فكل واحدة منكن أفضل من كل واحدة منهن ، لما امتازت به من شرف الزوجية لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأُمومة المؤمنين ، وذهب الزمخشرى إلى أن (أحد) إذا وضع فى سياق النفى استوى فيه المذكر والمؤنث والواحد والجماعة ، وقد استعمل (أحد) بمعنى المتعدد فى قوله تعالى : « لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ » لأَن لفظ (بين) لا يدخل إلا على متعدد .

قيل : وهذا التوجيه أولى من سابقه ، على القول بفضل آسية امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران على نساء العالمين جميعًا ، فإنه لا يمنع من تفضيل جماعة زوجات الرسول على كل جماعة سواهن ، بخلاف الأَول فإنه يتعارض مع تفضيل كِلْتَيْهِمَا على كل واحدة من نساء العالمين ، وفى جملتهن زوجات الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

ومعنى الآية مجتمعة : يا نساء النبى : ليست جماعتكن مثل سائر جماعات النساء إن اتقيتن مخالفة حكم الله ورضا رسوله ، فلا يكن قولكن لينا كما كانت حال نساء العرب حين مكالمة الرجال بترخيم الصوت ، ولينه ، بل يكون قولكن جزلا ، وكلامكن فصلا ، حتى لا يطمع مَنْ فى قلبه مرض الفجور والفسوق وقلن قولا معروفًا بالصواب فى عرف الشريعة وكرام النفوس .

وبالجملة : فالمرأة تندب - إذا خاطبت الأَجانب والمحرمين عليها بالمصاهرة وغيرها - إلى الجِدِّ فى القول من غير رفع صوت ، فإن المرأة مأْمورة بخفض الكلام[1] والجد فيه .

(١) انظر الآلوسى ، والقرطبى .

٣٣ - (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) :

أمر الله - تعالى - نساء نبيه أن يقررن ويلزمن بيوتهن ونهاهن عن التبرج ، وهو كما قال مجاهد وقتادة وابن أبي نجيح : أن تلقى المرأة خمارها على رأسها ، ولا تشده فيوارى قلائدها وقرطها وعنقها ، ويبدو ذلك كله منها ، وقال أبو عبيدة : التبرج أن تبدى المرأة من محاسنها ما تستدعى به شهوة الرجال ، وأصله كما قال أبو حيان : من البَرَج وهو سعة العين وحسنها ، ويقال : طعنة بَرْجاء ، أي : واسعة .

ولهذا قال الليث فى معناه : تبرجت المرأة إذا أبدت محاسنها من وجهها وجسدها ، ويُرَى مع ذلك من عينها حُسْنُ نظر .

واختلف العلماء فى تأويل الجاهلية الأولى ، ومن أحسن ما قيل فى ذلك : إنها الجاهلية التى كانت قبل الإسلام ، وهى جاهلية كفر ، وأما الجاهلية الأخرى فهى جاهلية الفسق فى الإسلام ، ويعضده قوله - صلى الله عليه وسلم - لأبى الدرداء - رضى الله عنه - : « إن فيك جاهلية » . قال : جاهلية كفر أو إسلام ؟ قال : « بل جاهلية كفر » ، ويرى ابن عطية أنها ما قبل الإسلام ، وأن الأولى بمعنى السابقة وليس المعنى أن ثَمَّ جاهلية أخرى ، وقد أوقع اسم الجاهلية على المدة التى قبل الإسلام ، فقالوا فى شعرائها : شاعر جاهلى ، وبالجملة فالمقصود من الآية أن لا يشبهن نساء ما قبل الإسلام فى مشيتهن المنكرة ، وكلامهن اللين ، وإظهار المحاسن للرجال ، إلى غير ذلك مما لا يجوز شرعًا .

وهذا الحكم لا تختص به نساء النبى - صلى الله عليه وسلم - فكل نساء المؤمنين مأمورات بالتصون والاحتشام ، والشريعة مليئة بلزوم النساء البيوت ، والكف عن الخروج إلا لضرورة وإنما خص نساء النبى - صلى الله عليه وسلم - بالخطاب تشريفًا لهن ، لأنهن قدوة لسواهن .

قال ابن العربى : لقد دخلتُ نَيِّفًا على ألف قرية ، فما رأيت نساءً أصون عيالًا ، ولا أعف نساءً من نساء نابلس ، التى رُمى بها الخليل - صلى الله عليه وسلم - بالنار ، فإنى أقمت فيها ، فما رأيت امرأة فى طريق نهارًا إلا يوم الجمعة ، فإنهن يخرجن إليها حتى

يمتلىء المسجد منهن ، فإذا قضيت الصلاة ورجعن إلى منازلهن ، لم تقع عينى على واحدة منهن إلى الجمعة الأُخرى ، وقد رأيت بالمسجد الأقصى عفائف ما خرجن من معتكفهن حتى استشهدن فيه . اهـ.فليعتبر نساءُ عصرنا بهذا السلف الصالح .

والمعنى الإجمالى للآية : والْزَمْن بيوتكن يا نساء النبى ، ولا تظهرن محاسنكن للأَجانب كما كان يفعل نساءُ الجاهلية قبل الإسلام ، وأَدين الصلاة بأَركانها وشروطها ، وأَعطين الزكاة لأَصحابها ، وأَطعن الله ورسوله فيما يأْمركن به وينهاكن عنه ، ما يريد الله بما كلفكُنَّ به إلَّا أَن يذهب عنكم الذنب المدنس لعرضكم يا أهل بيت النبى ، ويطهركم منه تطهيرًا يليق بمكانة رسوله .

والمراد بأَهل البيت نساؤه - صلى الله عليه وسلم - كما يدل عليه النسق ، وقيل : نساؤه وأَهله الذين هم أَهل بيته ، وفيما يلى بيان آراء العلماء فى ذلك وأَدلتهم .

٣٤ - (وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا) :

يدل صدر هذه الآية على أَن المراد بأَهل البيت نساؤه ، وقد اختلف أَهل العلم فى ذلك فقال ابن عباس وعكرمة وعطاء : هن زوجاته بخاصة لا رجل معهن ، والمراد بالبيت على هذا مساكن النبى - صلى الله عليه وسلم - لقوله تعالى : (وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِى بُيُوتِكُنَّ) وقال آخرون - ومنهم الكلبى - : هم على وفاطمة والحسن والحسين ، واحتجوا بقوله تعالى : « لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ » ولو كان للنساء بخاصة لقال : (عنكن ويطهركن) بالنون ، وقد يجاب عن ذلك بأَنه روعى لفظ الأَهل وإن كان المراد النساء ، كما يقال للرجل : كيف حال أَهلك ؟ - والمراد امرأَتك أَو نساؤك - فيجيب : هم بخير ، وفى مثل هذا يقول الله تعالى : « أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ » قال القرطبى : والذى يظهر من الآية أَنها عامة فى جميع أَهل البيت من الأَزواج وغيرهم ، وإنما قال : « وَيُطَهِّرَكُمْ » - بضمير جماعة الذكور - لأَن رسول الله وعليًّا وحسنًا والحسين كانوا فيهم ، وإذا اجتمع المذكر والمؤنث غلب المذكر ، فاقتضت الآية أَن الزوجات من أَهل البيت ؛ لأَن الآية فيهن ، والمخاطبة لهن ، يدل عليه سياق الكلام - والله أَعلم .

وقد ذهبت الشيعة إلى تخصيص أهل البيت بفاطمة وعلى وابنيهما - رضى الله عنهم - لما روى : (أنه - صلى الله عليه وسلم - خرج ذات غدوة وعليه مِرْطٌ مُرَجَّل [1] من شعر أسود فجلس ، فأتت فاطمة - رضى الله عنها - فأدخلها فيه ، ثم جاء علىٌّ فأدخله فيه ، ثم جاء الحسن والحسين - رضى الله عنهما - فأدخلهما فيه ، ثم قال : « إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ » والاحتجاج بذلك على عصمتهم ،وكون إجماعهم حجة ضعيف.

والتخصيص بهم لا يناسب ما قبل الآية وما بعدها ، والحديث يقتضى أنهم من أهل البيت ، لاأنه ليس غيرهم .

والمقصود من ذكرهن آيات الله والحكمة ، أن يبلغن مايسمعن من آيات القرآن العظيم الجامعة بين كونها آيات الله وكونها حكمة ، وقيل : المراد بالحكمة السنة .

ويجوز أن يكون المراد تذكيرهن ما أنعم الله به عليهن ، من حيث إنه-تعالى-جعلهن أهل بيت النبوة ومهبط الوحى ، وما شاهدن من برحاء الوحى ، ممَّا يوجب قوة الإيمان ، والحرص على الطاعة ، حثًّا على الائتمار والعمل بما كلفن به ، وهذا المعنى أليق بسياق الآية مع ما قبلها .

والمعنى الإجمالى للآية : وتذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله القرآنية ، ومن سنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - فإن ذلك نعم جليلة من الله عليكن ، تقتضى الائتمار بما أُمِرْتُنَّ به ، والانتهاء عما نهيتنَّ عنه ، إن الله كان لطيفًا عظيم الرفق ، خبيرًا يعلم ويدبر مايصلح فى الدين ، ولذلك خيركن ووعظكن ، أويعلم من يصلح لنبوته ، ويعلم من يصلح أن يكون من أهل بيت نبيه .

وجوز بعضهم أن يكون التعبير بلطيف نظرا للآيات لدقة إعجازها ، وبخبير نظرًا للحكمة لمناسبتها الخبرة - انظر الآلوسى .

---

(١) المرط - بكسر الميم وسكون الراء - : كساء من صوف أو خز منتوف الشعر : قاموس .

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾

المفردات :

(وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ) : والمداومين على الطاعة والمداومات .

(وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ) : والمتواضعين لله بقلوبهم وجوارحهم والمتواضعات .

التفسير

٣٥ - (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ . . . الآية) :

بدأ الله بذكر الإسلام الذى هو مفتاح العصمة ، وأساس عمل الجوارح ، وثنى بذكر الإيمان الذى ينتفى به النفاق ، وتدور عليه النجاة يوم الدين أمَّا ما بعد ذلك فمرتب عليهما. وسبب نزولها ما أخرجه الإمام أحمد والنسائى وغيرهما عن أم سلمة - رضى الله عنها - قالت : (قلت للنبى صلى الله عليه وسلم : ما لنا لا نذكر فى القرآن كما يذكر الرجال ، فلم يَرُعْنى ذاته يوم إلا نداؤه على المنبر وهو يقول : (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ . . . . إلى آخر الآية) .

وأخرج ابن جرير عن قتادة قال : (دخل نساءٌ على نساء النبى – صلى الله عليه وسلم – فقلن : قد ذكركن الله –تعالى– فى القرآن وما ذُكرنا بشىء ، أمَا فينا ما يُذكر ، فأنزل الله : (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ . . .) ، وهناك روايات أُخرى غير ما ذكر ، ولا مانع أن تجتمع كلها فى سببية النزول .

ومعنى الآية : إن الداخلين فى السلم الخاضعين لحكم الله والخاضعات والمصدقين مايجب التصديق به والمصدقات ، والمطيعين الله تعالى والمطيعات ، والصادقين فى القول والعمل والصادقات ، والصابرين على الطاعات وعن المعاصى والصابرات ، والمتواضعين لله بقلوبهم وجوارحهم والمتواضعات والمتصدّقين بما يحسن التصدق به والمتصدقات والصائمين الصوم المفروض والصائمات ، أعد الله لمن اجتمعت فيهم هذه الصفات مغفرة لصغائر ذنوبهم ، وأجرًا عظيمًا على طاعتهم .

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾)

المفردات :

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ) : وما صح ولا استقام .

(إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا) أى : إذا قضى رسول الله ، وذكر لفظ الجلالة لتعظيم أمره – صلى الله عليه وسلم – بالإشعار بأن قضاءه من قضاء الله تعالى .

(الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ) : الخيرة : مصدر من تخير ، كالطِّيَرَة : مصدر من تطيَّر ، ولم يجئ مصدرًا على هذا الوزن سواهما – على ما قيل – أى : وما كان لهم أن يختاروا من أمرهم ما شاءوا ، وجمع الضمير فى (لهم) لرعاية المعنى ، لوقوع مؤمن ومؤمنة فى سياق النفى فتعمّ .

التفسير

٣٦ - (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا) :

نزلت هذه الآية فى زينب بنت جحش بنت عمة الرسول أميمة بنت عبد المطلب ، وأخيها عبد الله ، روى عن ابن عباس وقتادة ومجاهد وغيرهم أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خطبها لمولاه زيد بن حارثة ، وقال : إنى أريد أن أزوجك زيد بن حارثة فإنى قد رضيته لك ، فأبت وقالت : يا رسول الله لكنى لا أرضاه لنفسى ، وأنا أَيِّمُ قومى[1] وبنت عمتك ، فلم أكن لأفعل ، وفى رواية أنها قالت : أنا خير منه حسبًا ، ووافقها أخوها عبد الله على ذلك ، فلما نزلت هذه الآية رضيا وسلما ، فأنكحها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - زيدًا بعد أن جعلت أمرها بيده ، وساق لها عشرة دنانير وستين درهمًا مهرًا ، وخمارًا وملحفة ودرعًا وإزارًا وخمسين مُدًّا من طعام ، وثلاثين صاعًا من تمر ، وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد أنه قال : نزلت فى أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط ، وكانت أول امرأة هاجرت من النساء ، فوهبت نفسها للنبى - صلى الله عليه وسلم - فزوجها زيد بن حارثة ، فكرهت ذلك هى وأخوها ، وقالا : إنما أردنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فنزلت الآية بسبب ذلك ، فأجابا إلى تزويج زيد[2] - ولعل ذلك - كان بعد طلاقه لزينب .

ومعنى الآية : وما صح ولا استقام لرجل ولا لامرأة من المؤمنين إذا قضى رسول الله أمرًا أن يختاروا من أمرهم ما شاءوا ، بل يجب عليهم أن يجعلوا رأيهم تبعًا لرأيه واختيارهم تبعًا لاختياره ، فإنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلَّا وحى يوحى ، ومن يعص الله ورسوله برفض أمر قضاه رسوله - صلى الله عليه وسلم - فقد بعد عن طريق الحق بعدًا بينًا واضحًا .

---

(١) الأيم من النساء : من لا زوج لها بكرا كانت أو ثيباً . وكذا الأيم من الرجال .

(٢) انظر الآلوسى ، والقرطبى .

(وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾)

المفردات :

(لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ) : وهو زيد بن حارثة ، أنعم الله عليه بالإسلام ، وأنعم الرسول عليه بالعتق . وتبنَّاه فكان يدعى زيد بن محمد .

(أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ) : لا تطلق زينب .

(وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ) : وتخفى فى نفسك أمر تزوجها الذى شرعه الله لك ، حذرًا من قالة الناس .

(فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا) : حاجة ــ كناية عن أنه طلقها .

(حَرَجٌ) : ضيقٌ .

(فِىٓ أَزْوَاجِ أَدْعِيَآئِهِمْ) : فى أزواج من دعوهم أبناءهم وهم غرباء .

(وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولًا) : وكان حكمه وقضاؤه نافذًا .

(فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ) : في الرسل السابقين .

(وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا) : وكان حكم الله قضاء مقضيًا وحكمًا مفعولًا .

(حَسِيبًا) : كافيًا للمخاوف ، أو محاسبًا .

التفسير

٣٧- (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ : . . الآية) :

المراد بالذى أنعم الله عليه ، وأنعم الرسول عليه : زيد بن حارثة بن شرحبيل الكلبى ، وهو غلام عربى اشترته السيدة خديجة ، ووهبته للنبى - صلى الله عليه وسلم - فأعجبه ظرفه وأدبه فأعتقه وتبناه ، وأحسن تربيته ورعايته [1] .

وكان التبنى أمرًا سائدًا قبل الإسلام ، وكان من تبنى أحدًا كانت له حقوق الابن النسبى من الميراث وغيره ، وبحكم هذا التبنى خطب له الرسول - صلى الله عليه وسلم - بنت عمته زينب بنت جحش ، وزوجه إياها كما تقدم بيانه ، روى أبو عصمة نوح ابن أبى مريم مرفوعًا إلى زينب أنها قالت : (أمْسَى زيد فأوى إلى فراشه - قالت زينب - : ولم يستطعنى زيد ، وما أمتنع منه غير ما منعه الله منى فلا يقدر على) .

وكانت تؤذى زيدًا بلسانها ، وتفخر عليه بحسبها ونسبها ، فجاء زيد إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : إن زينب تؤذينى بلسانها ، وتفعل وتفعل ، وإنى أريد أن أطلقها ، فقال له : (أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ . . . الآية) فطلقها زيد فنزلت : (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ . . . الآية) .

وروى عن على زين العابدين بن الحسين - رضى الله عنهما ، ورب الدار أدرى بما فيها - أن النبى - صلى الله عليه وسلم - كان قد أوحى الله - تعالى - إليه أن زيدا يطلق زينب ، وأنه

---

(١) قال ابن كثير : وكان سيدا كبير الشأن جليل القدر حبيبا إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - يقال له : الحب ويقال لابنه أسامة : الحب ابن الحب ، قالت عائشة - رضى الله عنها - ما بعثه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى سرية إلا أمره عليهم ، ولو عاش بعده لاستخلفه - أخرجه الإمام أحمد بسنده عنها - اهـ .

يتزوجها بتزويج الله إياها له ، فلما اشتكى زيد للنبي – صلى الله عليه وسلم – خُلُقَ زينب وأنها لا تطيعه ، وأعلمه أنه يريد طلاقها ، قال له النبي – صلى الله عليه وسلم – على جهة الأدب والوصية : اتق الله فى قولك ، وأمسك عليك زوجك ، وهو يعلم أنه سيفارقها ويتزوجها ، وهذا هو الذى أخفى فى نفسه . ولم يرد أن يأمره بالطلاق ، لما علم أنه سيتزوجها ، وخشى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يلحقه قول من الناس فى أن يتزوج زينب بعد زيد ، وهو مولاه وقد أمره بطلاقها ، فعاتبه الله على هذا القدر من أنه خشى الناس فى شىء قد أباحه الله له ، بأن قال : « أَمْسِكْ » مع علمه أنه يطلق ، وأعلمه أن الله أحق بالخشية فى كل حال . قال القرطبي : قال علماؤنا : وهذا القول أحسن ما قيل فى تأويل هذه الآية ، وهو الذى عليه أهل التحقيق من المفسرين : كالزهرى والقاضى بكر ابن العلاء القشيرى ، والقاضى أبو بكر بن العربى وغيرهم . اهـ .

هذا وللقصَّاص كلام فيما كان يخفيه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من أمر زينب يدور حول حبه لها ، وحدوث رغبته فى طلاقها ليتزوجها ، وهذا الكلام من وضع الزنادقة ولا يليق إلصاقه بالنبى – صلى الله عليه وسلم – ولو كان يريد أن يتزوجها أو كان يحبها لكان قد خطبها بكرًا ، وكان ذلك أولى به – صلى الله عليه وسلم – من أن يتزوجها ثَيِّبًا بعد طلاق عتيقه ومتبناه لها ، ولكنها مشيئة الله لكى يقطع دابر عادة التبنى التى كانت فاشية فى العرب ، وكانت زوجة المتبنى حرامًا على أبيه بالتبنى كالنسيب سواءً بسواء وفى النص القرآنى ما يقطع بكذب هؤلاء الوضاعين ، فإن الآية دلت على أن النبى – صلى الله عليه وسلم – أخفى فى نفسه ما الله مبديه ومظهره ، والله لم يظهر حبه لها ، بل أظهر تزويجه إياها بقوله : (فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا) فهذا التزويج الذى أوحاه الله إليه تَحَرَّج منه النبى – صلى الله عليه وسلم – فأخفاه فى نفسه ، وهو الذى أظهره الله فى كتابه ، كما أظهره بين الناس ، قال الخفاجى : واضح أن الله – تعالى – لما أراد نسخ تحريم زوجة المتبنى أوحى إليه – عليه الصلاة والسلام – أن يتزوج زينب إذا طلقها زيد ، فلم يبادر له – صلى الله عليه وسلم – مخافة طعن الأعداء فعوتب عليه . اهـ – وهذا هو الحق الذى لا ينكره إلَّا حقود جهول ، وكذاب حقير .

أسـئلة وأجـوبة

قال ابن العربى : فإن قيل : لأى معنى قال له : « أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ » وقد أخبره الله أنها زوجه ؟

قلنا : أراد أن يختبر منه مالم يُعْلِمْه الله من رغبته فيها أو رغبته عنها ، فأبدى له زيد من النفرة عنها والكراهة فيها مالم يكن علمه منه فى أمرها ، فإن قيل : كيف يأمره بالتمسك بها وقد علم أن الفراق لابد منه ــ وهذا تناقض ــ قلنا : بل هو صحيح لإقامة الحجة ومعرفة العاقبة ، ألا ترى أن الله ــ تعالى ــ يأمر العبد بالإيمان وقد علم أنه لا يؤمن ، فليس لمخالفة الأمر لمتعلق العلم مايمنع من الأمر به عقلًا وحكمًا ، وهذا من نفيس العلم فتيقنوه وتقبلوه .

فخر زينب بتزويج الله إياها

ولقد صح من حديث البخارى والترمذى أن زينب ــ رضى الله عنها ــ كانت تفخر على أزواج النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ تقول : زوجكن أهاليكن وزوجنى الله من فوق سبع سمٰوات ، وأخرج ابن جرير عن الشعبى قال : كانت تقول للنبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ : إنى لأُدِلُّ عليك بثلاث ، ما من نسائك امرأة تُدِل بهن : أن جدى وجدك واحد ، وأنى أنكحك الله إياى من السماء ، وأن السفير لجبريل ــ عليه السلام ــ تعنى سفارته بين الله ــ تعالى ــ وبين رسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ .

المعنى الإجمالى للآية : واذكر ــ أيها النبى ــ حين تقول لزيد بن حارثة الكلبى الذى أنعم الله عليه بالإسلام ، وأنعمت عليه بالعتق والرعاية والتبنى ومختلف فنون الإحسان ، أمسك عليك زوجك زينب ولا تطلقها ، واتق الله فيما تقوله عنها فلا تذمها بالكبر وإيذاء الزوج ، وتخفى فى نفسك أنك مأمور بتزوجها مع أن الله سيبديه ويظهره علنًا ، وتخشى لائمة الناس لو قلت له طلقها ، إذ يقولون : أمر رجلًا بطلاق امرأته ، ثم تزوجها بعد أن طلقها ، والله ــ تعالى ــ أحق أن تستحيى منه وتخافه فلا تأمر زيدًا بإمساك زوجته بعد أن أعلمك الله أنها ستكون زوجتك ، فلما قضى زيد منها حاجة فطلقها زوجناكها بعقد شرعى لكى لا يكون على المؤمنين

ضيق فى التزوج من أزواج أدعيائهم إذا طلقوهن ، فالحكم بينك وبين الأمة فى ذلك سواءٌ ، وكان أمر اللهِ الذى تعلقت به إرادته مفعولًا ونافذًا .

٣٨ـ (مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ سُنَّةَ اللهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا) :

أى : ما صح ولا استقام أن يكون على النبى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من ضيق فيما قسم الله له وأحله من تزوج زينب التى طلقها زيد بن حارثة متبناه ـ طلقها ـ باختياره ، بعد أن نصحه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالإمساك ، وهذا حكم الله فى الأنبياء قبله ، لم يكن ليأمرهم بشىء فى النكاح وغيره كداود وسليمان ، وعليهم فى ذلك حرج ، وكان أمر الله الذى يقدره كائنًا لا محالة ، وواقعًا لا معدل عنه .

والآية رد على من توهم من المنافقين نقصًا فى تزوجه امرأة زيد مولاه ، ودعيِّه الذى كان قد تبناه .

٣٩ـ (الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا) :

قال الإمام ابن كثير فى تفسيرها : يمدح الله الذين يبلغون رسالات الله[1] إلى خلقه ويؤدونها بأمانتها ، ويخافونه ولا يخافون أحدًا سواه ، فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله ، وكفى بالله ناصرًا ومعينًا ، وسيد الناس فى هذا المقام ـ بل وفى كل مقام ـ محمد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإنه قام بأداء الرسالة وإبلاغها إلى أهل المشارق والمغارب ، إلى جميع أنواع بنى آدم ، وأظهر الله كلمته ودينه وشرعه على جميع الأديان والشرائع ، فإنه قد كان النبى يبعث إلى قومه خاصة ، وأمَّا هو ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فإنه بعث إلى جميع الخلق ـ عربهم وعجمهم ـ « قُلْ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا » ثم وَرَّثَ مقام البلاغ عنه أمته من بعده ، فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه

(١) يشير بذلك إلى أن الذين يبلغون منصوب على المدح ، أى : أمدح الذين ، ويجوز أن يكون مرفوعاً على المدح أيضا أى : هم الذين يبلغون الخ .

رضى الله عنهم- بلغوا عنه كما أمرهم به فى جميع أقواله وأفعاله وأحواله ، فى ليله ونهاره وحضره وسفره ، وسره وعلانيته ، فرضى الله عنهم ، وأرضاهم ، ثم وَرِثه كل خلف عن سلفهم إلى زماننا هذا ، فبنورهم يهتدى المهتدون ، وعلى منهجهم يسلك الموفقون .

وفى هذه الآية إشارة إلى أنه -صلى الله عليه وسلم- ليس عليه بأس من لائمة الناس فى أمر قضاه الله لنسخ عادة التبنى .

(مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾)

المفردات :

(وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ) : قرأ عاصم وحده بفتح التاء ، وقرأه منصوبًا بتقدير ولكن كان رسول الله وخاتم النبيين ، وقرأ ابن أبى عبلة وغيره بالرفع ، على تقدير : ولكن هو رسولُ الله وخاتمُ ، والقراءة بفتح التاء على معنى أنهم ختموا به - صلى الله عليه وسلم - فهو كالخاتم والطابع لهم ، والقراءة بكسر التاء هى قراءة الجمهور ، على معنى أنه ختمهم أى : جاء آخرهم ، وقيل : الفتح والكسر سواءٌ ، مثل طابَع وطابِع ودانَق ودانِق ، وطابَق من اللحم وطابِق[1] .

التفسير

٤٠ - (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا) :

سبب نزول هذه الآية : أنه لما قال المنافقون : تزوج محمد امرأة ابنه أفحمهم الله بإنزالها ، أى : ليس محمد أبا أحد من رجالكم نسبًا ، ولكنه رسول الله ، وخاتم النبيين ، فهو أبو أمته فى التبجيل والتعظيم ، وأن نساءه عليهم حرام .

---

(١) انظر : القرطبى .

وقد أفادت هذه الآية أنه لا نبى بعده ـ صلى الله عليه وسلم ـ بإجماع المسلمين خلفًا عن سلف ، ولصراحة الآية لم يستطع المارقون أن يدعوا النبوة ، بل ادعى بعضهم الرسالة كالبهاء ، وهذا إفك وكفر مبين ، فإنه إذا كان لا نبى بعده فلا رسول بعده بطريق الأولى ؛ لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة ، فإن كل رسول نبى ولا عكس ، وقد وردت الأحاديث متواترة عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه لا نبى بعده ، أخرج البخارى ومسلم بسنديهما عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إن لى أسماءً : أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا العاقب الذى ليس بعده نبى ولم يبق من النبوة إلَّا الرؤيا الصالحة » ، وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزءٌ من ستة وأربعين جزءًا من النبوة »[1] ولهذا قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ليس يبقى بعدى من النبوة إلَّا الرؤيا الصالحة » : وقد روى الإمام مسلم بسنده عن جابر قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « مثلى ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى دارًا فأتمها وأكملها إلَّا موضع لبنة ، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها ويقولون : لولا موضع اللبنة . قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : فأنا موضع اللبنة ، جئت فختمت الأنبياء » ونحوه عن أبى هريرة ، غير أنه قال : « فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين » ، وروى الإمام أحمد بسنده عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن الرسالة والنبوة قد انقطعت ، فلا رسول بعدى ولا نبى » ـ قال أنس : فشق ذلك على الناس ـ قال : قال : ولكن المبشرات ، قالوا : يا رسول الله وما المبشرات ؟ قال : « رؤيا الرجل المسلم ، وهى جزءٌ من أجزاء النبوة » .

ولم يقصد بهذه الآية أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليس له أبناءٌ ، فقد ولد له : إبراهيم والقاسم والطيب والمطهر[2] ، ولكن لم يعش له أحد منهم حتى يصير رجلًا ، وأما الحسن والحسين فكانا طفلين ولم يكونا رجلين معاصرين له[3] .

---

(١) أخرجه الإمام البخارى فى كتاب التعبير .

(٢) أما إبراهيم فمن مارية القبطية ، وأما الثلاثة الآخرون فمن خديجة ـ انظر ابن كثير .

(٣) انظر : القرطبى .

ومعنى الآية : ماكان محمد أبا أحد من رجالكم أبوة نسبية ، ولكنه كان رسول الله وخاتم النبيين والمرسلين ، فلا حرج عليه فى أن يتزوج مطلقة زيد بن حارثة ؛ لأنه كان ابنا دعيا ولم يكن ابنًا نسبيًّا ، ولهذا دعى إلى أبيه حارثة بعد أن صحح الله أنساب الناس : (وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا) فلهذا أبطل بنوة الأدعياء ، وآثارها ، وختم بمحمد نبوة ورسالات الأنبياء والمرسلين .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾)

المفردات :

(بُكْرَةً وَأَصِيلًا) : أول النهار وآخره .

(مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) : من ظلمات الكفر والمعصية إلى نور الإيمان والطاعة .

(يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ) : عند الموت أو البعث أو دخول الجنة .

(أَجْرًا كَرِيمًا) : أجرًا عظيمًا هو الجنة .

التفسير

٤١ ، ٤٢ـ(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) :

المقصود من ذكر اللهـتعالىـأن تذكر أسماؤه وصفاته باللسان تارة وبالقلب تارة أخرى ، ومرجع الكثرة فى الذكر إلى العرف .

ومن العلماء من عين الذكر بلفظه ، قال مقاتل فى تفسيرهما : هو أن يقول : (سبحان الله والحمدلله ولا إله إلا الله والله أكبر)على كل حال ، ومنهم من ضبط كثرته مع هذا النص بثلاثين مرة .

وفى مجمع البيان عن الواحدى بسنده إلى ابن عباس قال : جاء جبريل ـ عليه السلام ـ إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يا محمد قل : « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلى العظيم عددَ ما عَلم وزِنةَ ما عَلِم وملءَ ما عَلِم ، فإنه من قالها كتب له ست خصال ، كتب من الذاكرين الله تعالى كثيراً . . . » إلى آخر الحديث.

ومعنى الآيتين : يا أيها الذين صدقوا بالله ورسوله اذكروا الله بأسمائه الحسنى وصفاته بألسنتكم سرًّا وجهرًا وبقلوبكم ذكرًا كثيرًا ، ونزهوه ـ سبحانه ـ عما لا يليق به أول النهار وآخره ، أطهارًا ومحدثين ، فإن ذلك أفضل الزاد إلى المعاد ، وتخصيص البكرة والأصيل بالذكر ليس لقَصْر الذكر والتسبيح عليهما دون سائر الأوقات ، بل لفضلهما لكونهما تحضرهما ملائكة الليل وملائكة النهار وتلتقى فيهما .

والتسبيح نوع من الذكر ، وإفراده من بين الأذكار لكونه عمدة فى ذكر الله ـ تعالى ـ فما لم ينزه الله ـ تعالى ـ عما لا يليق به لا يتحقق ذكر الله تعالى .

٤٣ ـ (هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا) :

هذه الآية استئناف فى مقام التعليل للأمرين قبلها ، والصلاة من الله على عباده المؤمنين رحمته لهم وبركاته عليهم ، وصلاة الملائكة دعاؤهم للمؤمنين واستغفارهم لهم ، كما قال ـ سبحانه ـ فى شأنهم : « وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا » ومن مؤمنى الإنس والجن دعاءٌ ، قاله ابن عباس ـ رضى الله عنهما .

والمعنى : الله هو الذى يصلى عليكم أيها المؤمنون فيرحمكم ويغدق نعمه وبركاته وفتوحاته عليكم ، كما يصلى عليكم ويستغفر لكم ملائكته عناية بكم وإكرامًا لكم ، لكى يخرجكم بذلك من ظلمات الجهل إلى نور العلم ، ومن ظلمات الكفر والعصيان إلى نور الإيمان والطاعة ، وكان الله بالمؤمنين رحيمًا ، حيث صلى الله عليهم ، وكلف بالصلاة ملائكته المقربين .

٤٤ - (تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا) :

أصل التحية : أن يقول المرءُ لغيره : حياك الله ، أى : جعل لك حياة ، ويقال : حيًّا فلان فلانًا تحية إذا قال له حياك الله ، ثم جعل كل دعاء عند اللقاء تحية ؛ لكونه غير خارج فى مضمونه عن طلب الحياة .

والهاءُ فى يلقونه ضمير عائد على الله - تعالى - والمراد من لقائه - تعالى - حضور موت العبد ، روى عن ابن مسعود أنه قال : « إذا جاء ملك الموت لقبض روح المؤمن قال : ربك يقرئك السلام » وقيل : المراد به خروجهم من قبورهم ، فيسلم عليهم الملائكة ويبشرونهم بالجنة ، وقيل ذلك عند دخولهم الجنة ، كما قال تعالى : « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » وقيل : إن الذى يحييهم عند دخولهم الجنة هو الله - تعالى - إذ يقول : « سلام عليكم عبادى . أنا عنكم راض فهل أنتم عنى راضون ، فيقولون بأجمعهم : يا ربنا إنا راضون كل الرضا » وروى أن الله - تعالى - يقول : « السلام عليكم ، مرحبًا بعبادى المؤمنين الذين أرضونى فى دار الدنيا باتباع أمرى » .

والآية الكريمة تتسع لكل تلك المعانى ، ولا حرج على فضل الله فى اجتماعها .

ومعنى الآية : تحية المؤمنين من الله وملائكته يوم يخرجون من دنياهم ، ويوم ينشرون ويحشرون لربهم ويوم يدخلون جنة ثوابهم : سلام عليكم ، وقد هيأ الله - تعالى - لهم أجرًا عظيمًا لا غاية وراءه .

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾)

المفردات :

(شَاهِدًا) : على من بعثت إليهم .

(وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ) : بتيسيره ومعونته .

التفسير

٤٥ ، ٤٦ - (يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا) :

اشتملت هاتان الآيتان على خمسة أوصاف للنبي -صلى الله عليه وسلم- : (شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا) ولقد وصف فى التوراة بمثل هذه الصفات وبغيرها من الصفات التى تتجلى فيه - صلى الله عليه وسلم - فقد أخرج الإمام أحمد بسنده عن عطاء بن يسار قال : (لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت : أخبرنى عن صفة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى التوراة ، قال : والله إنه لموصوف فى التوراة بصفته فى القرآن :(يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) وحرزًا للأميين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل لست بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا : (لا إِلٰهَ إِلَّا الله ، فيفتح به أعينا عميًا وآذانًا صما وقلوبًا غُلفًا) .

ورواه البخارى بسنده عنه ، وعن عبد الله بن سلام فى كتاب البيوع ، وروى ابن أبى حاتم بسنده عن وهب بن منبه الذى كان يهوديًا وأسلم ، قال وهب بن منبه : (إن الله أوحى إلى نبى من أنبياء بنى إسرائيل يقال له : شعياء أن قم فى قومك بنى إسرائيل فإنى منطق لسانك بوحى ، وأبعث أميًا من الأميين ، أبعثه ليس بفظ ولا غليظ ولا صَخَّاب فى الأسواق ، لو يمر إلى جنب سراج لم يطفئه من سكينته ، ، ولو يمشى على القصب لم يسمع من تحت قدميه ، أبعثه مبشرًا ونذيرًا ، لا يقول الخنا : أفتح به أعينًا كُمْهًا[1] وآذانًا صُمًّا وقلوبًا غُلْفًا ، أسدده لكل أمر جميل ، وأهب له كل خلق كريم ، وأجعل السكوت لباسه ،

---

(١) الكمه - بضم فسكون - : جمع الأكمه وهو الأعمى ، والمراد (أعينا عميا) .

والبر شعاره ، والتقوى ضميره ، والحكمة منطقه ، والصدق والوفاء طبيعته ، والعفو والمعروف خلقه ، والحق شريعته ، والعدل سيرته ، والهدى إمامه ، والإسلام ملته ، وأحمد اسمه ، أهدى به بعد الضلالة ، وأعلم به بعد الجهالة ، وأرفع به بعد الخمالة ، وأعرف به بعد النُّكْرة ، وأكثر به بعد القلة ، وأغنى به بعد العيلة ، وأجمع به بعد الفرقة وأؤلف به بين أمم متفرقة ، وقلوب مختلفة ، وأهواء مشتتة ، وأستنقذ به فئاماً[1] من الناس عظيمة من الهلكة ، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، موحدين مؤمنين مخلصين ، مصدقين لما جاءت به رسلى ، أُلهِمُهُم التسبيح والتحميد ، والثناء والتكبير والتوحيد ، فى مساجدهم ومجالسهم ومضاجعهم ومنقلبهم ومثواهم ، يصلون لى قياماً وقعوداً ، ويقاتلون فى سبيل الله صفوفاً وزحوفاً ، ويخرجون من ديارهم ابتغاء مرضاتى ألوفاً ، يُطهِّرون الوجوه والأطراف ، ويَشُدون الثياب فى الأنصاف ، قربانهم دماؤهم وأناجيلهم فى صدورهم ، رهبان بالليل ليوث بالنهار ، ، وأجعل فى أهل بيته وذريته السابقين والصديقين والشهداء والصالحين ، أمته من بعده يهدون بالحق وبه يعدلون أُعِزُّ مَنْ نصرهم ، وأؤيد من دعا لهم ، وأجعل دائرة السوء على من خالفهم أو بَغَى عليهم أو أراد أن ينتزع شيئاً مما فى أيديهم ، أجعلهم ورثة لنبيهم ، والداعية إلى ربهم ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويوفون بعهدهم ، أختم بهم الخير الذى بدأته بأولهم ، ذلك فضلى أوتيه من أشاء وأنا ذو الفضل العظيم) أخرجه ابن أبى حاتم عن وهب بن منبه اليمانى .

وقد اشتملت هذه الآية على خمسة من أسمائه – صلى الله عليه وسلم – وقد سماه الله رءوفاً رحيما ، ويقول القرطبى : قال – صلى الله عليه وسلم ، فيما روى عنه الثقات العدول – : « لى خمسة أسماء : أنا محمد وأحمد وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى وأنا العاقب » ثم يقول القرطبى : « وقد ذكر القاضى أبو بكر بن العربى فى أحكامه فى تفسير هذه الآية من أسماء النبى – صلى الله عليه وسلم – سبعة وستين اسما » اهـ.

---

(١) الفئام – ككتاب – : الجماعة من الناس ، لا واحد له من لفظه .

وروى عن ابن عباس أنه لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – علياً ومعاذاً فبعثهما إلى اليمن وقال : « اذهبا فبشرا ولا تنفرا ويسرا ولا تعسرا فإنه قد أُنزل عليَّ .. » وقرأ هاتين الآيتين .

ومعنى الآيتين : ياأيُّهَا النبي إنا أرسلناك شاهداً لله بالوحدانية وعلى من بعثت إليهم ، تراقب أحوالهم وتشاهد أعمالهم ، وتتحمل عنهم الشهادة بما صدر عنهم من التصديق والتكذيب ، وسائر ماهم عليه من الهدى والضلال ، وتؤديها يوم القيامة أداء مقبولا فيما لهم وفيما عليهم ، كما جاء فى قوله تعالى : « وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَٰؤُلَآءِ شَهِيدًا » وفى قوله –سبحانه– : « لِتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا[1] » وشاهدًا على جميع الأُمم بأن أنبياءهم قد بلغوهم رسالة ربهم ، طبقاً لما عرفته من القرآن العظيم ، وأرسلناك مبشراً للطائعين بالجنة ونذيرًا للكافرين والعصاة بالنار ، وداعياً إلى الإيمان بالله واتصافه بكل كمال وتنزهه عن كل نقص ، وإلى طاعته وفق شرعه بتيسيره ومعونته ، وأرسلناك سراجاً منيرًا يستضاء به فى ظلمات الجهالة والشبهات .

كيف يتحمل الرسول الشهادة عن امته

يتحمل الرسول – صلى الله عليه وسلم – الشهادة عن المعاصرين له من أمته بمالهم وما عليهم ، أما مَنْ بعده – صلى الله عليه وسلم – فعن طريق عرض الأَعمال عليه كما جاء فى الأَحاديث الدالة على ذلك ، ولكنه يعرف ذلك إجمالًا لا تفصيلا ، روى أبوبكر وأنس وغيرهما أنه – صلى الله عليه وسلم – قال : « ليردَنَّ ناس من أصحابى على الحوض حتى إذا رأيتهم وعرفتهم اختلجوا دونى ، فأَقول : يارب أُصيْحابى أُصيْحابى ، فيقال لى : إنك لا تعرف ما أحدثوا بعدك » .

٤٧ – (وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللهِ فَضْلًا كَبِيرًا) :

معطوف على مقدر يقتضيه المقام ، أى : فراقب أحوال أُمتك ، وبشر المؤمنين منهم بأَن لهم من الله فضلا كبيرًا على سائر الأُمم ، أو جزاء جزيلا تفضل الله به عليهم فى مقابل صالحات أعمالهم .

---

(١) سورة البقرة الآية: ١٤٣

٤٨ - (وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا) :

هذا النهى تأْييد من الله - تعالى - لموقفه من الكافرين والمنافقين[١] ، وإقرار لما هو عليه فى شأْنهم من معاصاتهم ، جيء به بأُسلوب النهى لقطع أطماعهم فى ملاينة النبى - صلى الله عليه وسلم - لهم .

والمعنى : دم على ما أنت عليه - أيها النبى - من معاصاتهم فى مآربهم ، وَتَرْكِ الملاينة فى الإنذار والمسامحة معهم ، ولاتبال بإيذائهم إياك بسبب إنذارهم ، واصبر على ما ينالك منهم ، وتوكل على الله فى كل أمرك ؛ فإنه كفيل بنصرك وتأْييدك ، وكفى بالله موكولا إليه فى جميع الأُمور .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾)

المفـردات :

(نَكَحْتُمُ) : عقدتم . (تَمَسُّوهُنَّ) : تجامعوهن .

(فَمَتِّعُوهُنَّ) : فأَعطوهن المتعة ، وسيأْتى فى التفسير بيانها .

(وَسَرِّحُوهُنَّ) : أخرجوهن من منازلكم ، فليس لكم عليهن عدة .

(سَرَاحاً جَمِيلًا) : من غير ضرار ولا منع حق .

التفسـير

٤٩ - (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوآ إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَالَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلًا) :

حدثنا الله فيما مضى عن قصة زينب وكان مدخولا بها ، وخطبها النبى - صلى الله عليه وسلم -

(١) فهو من باب : إياك أعنى واسمعى ياجارة .

بعد انقضاء عدتها ، وجاء بهذه الآية المباركة لتبين للمؤمنين حكم الزوجة التى تطلق قبل الدخول بها ، وقد أفادت هذه الآية أن المرأة إذا عقد عليها وطلقت قبل الدخول بها فلاعدة عليها ، وهذا حكم أجمعت عليه الأمة .

وهذه الآية مخصصة لعموم قوله تعالى : « وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ[1] » فأصبح حكمها قاصرًا على المدخول بهن ، كما أنها مخصصة لعموم قوله تعالى : « وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ[2] » فأصبح حكمها قاصرًا على المدخول بهن كسابقتها .

والنكاح مختلف فى معناه لغة ، فقيل : حقيقة فى العقد مجاز فى الوطء ، وقيل : العكس ، وقيل : مشترك بينهما ، ولم يرد فى كتاب الله إلا بمعنى العقد غالباً ، ومن آداب القرآن الكناية عن الدخول بالمماسة أو الملامسة ، أو القربان أو الغشيان أو الإتيان .

والطلاق المعلق بالنكاح كقوله لامرأة : إن تزوجتك فأنت طالق لا يقع لقوله -صلى الله عليه وسلم- : « لا طلاق قبل نكاح » وبهذا قال نيف وثلاثون من الصحابة والتابعين والأئمة - كما قال القرطبى - ، وقال جماعة من أهل العلم يقع طلاق المعينة بشخصها أو قبيلتها أو بلدها ، وممن قال بذلك : مالك وأصحابه ، والأول هو الحق .

وقد جاء فى الآية طلب المتعة لمن طلقت قبل الدخول ، وإنما تجب إذا لم يفرض لها صداق فإن فرض لها صداق ، فلا يجب لها سوى نصفه ، لقوله -تعالى- فى سورة البقرة : « وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ » .

ومن العلماء من جعلها عامة للمطلقة قبل الدخول ، فرض لها صداق أو لم يفرض ؛ لإطلاقها فى الآية ، والأرجح أنها مستحبة للمفروض لها صداق واجبة لمن لم يفرض لها[3] .

---

(١) سورة البقرة - من الآية: ٢٢٨

(٢) سورة الطلاق - الآية : ٤

(٣) وعلى هذا يكون الأمر مشتركا بين الوجوب والندب على رأى من يجيزه .

وفى مذهب الشافعى القديم وجوبها لكلتيهما ، ولا تزيد المتعة على نصف مهر مَنْ سمى لها. ولا تنقص عن خمسة دراهم ، وأما من لم يسم لها فلا تزيد عن نصف مهر مثلها ولا تنقص عن خمسة دراهم ، وفى الموضوع تفصيلات أَوْفَى فِي الموسوعات ، وحسب القارىء هذا القدر .

والمعنى الإجمالى للآية : يثأيها الذين آمنوا إذا عقدتم على المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تباشروا وطأهن[1] ، فأعطوهن متعة جبرًا لطلاقهن ، وأخرجوهن من بيوتكم إخراجاً جميلا[2] ، من غير ضرار ولامنع حق مع كلام طيب لمواساتهن ، وقيل : السراح الجميل أن لا يطالبوهن بما آتوهن .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾)

المفردات :

(آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ) :أعطيت مهورهن ،وسمى المهر أجرًا ،لأنه فى مقابل الاستمتاع بالمرأة .

(أَفَآءَ اللهُ عَلَيْكَ) : غنمته من الكفار بتيسير الله لك .

(يَسْتَنكِحَهَا) : يتزوجها . (حَرَجٌ) : ضيق .

(١) ويرى بعض المذاهب أن الخلوة الصحيحة بالمرأة كالدخول بها . فإن طلقت قبلها فلها المتعة ، أما إن طلقت بعد الخلوة وقبل الدخول فلا متعة لها عندهم كالمدخول بها عند غيرهم .

(٢) لأنكم ليس لكم عليهن عدة .

التفسير

٥٠ ــ (يَـٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّلاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ . . .) الآية :

اختلف العلماء فى تأويل قوله تعالى : « إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ » فمنهم من أولها بمعنى أبحنا لك أن تتزوج كل امرأة خالية تؤتيها مهرها سوى المحارم ، ومنهم من أولها بمعنى أبحنا لك أزواجك الكائنات عندك ؛ لأنهن قد اخترنك على الدنيا ، وهذا هو رأى الجمهور ، وهو الظاهر ؛ لأن قوله : « آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ » ماض ، ويؤيده ما قاله ابن عباس : كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يتزوج فى أى الناس شاء ، وكان يشق ذلك على نسائه ، فلما نزلت هذه الآية وحرم عليه بها النساء إلَّا مَنْ سُمِّى سُرَّ نساؤه بذلك .

وتقييد الإحلال بتعجيل صداقهن ، ليس لتوقف الحل عليه ، بل لإيثار الأفضل له ، كتقييد إحلال المملوكة بكونها مسبية بقوله : (وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ اللهُ عَلَيْكَ) فإن المشتراة لا يتحقق بدء أمرها وماجرى عليها ، وقد كان مهره لنسائه اثنتى عشرة أوقية ونَشاً ، والأُوقية كانت أربعين درهما ، والنَّش : نصف الأُوقية ، فيكون مهر الواحدة منهن خمسمائة درهم ، إلَّا أم حبيبة بنت أبى سفيان ، فقد أمهرها عنه النجاشى ــ رحمه الله ــ أربعمائة درهم ، وإلا صفية بنت حي بن أخطب ، فقد اصطفاها من سبى خيبر ثم أعتقها ، وجعل عتقها صداقها ، وكذلك جويرية بنت الحارث المصطلقية ، أدى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس بن شماس وتزوجها ، فإنها قد خرجت فى سهمه من سبايا بنى المصطلق فكاتبته عن نفسها ، وذهبت إلى الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ تستعينه على كتابتها ، فقال لها الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ : أقضى عنك كتابتك وأتزوجك ، فقالت : نعم يا رسول الله ، قال : قد فعلت . (وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْكَ) أى : وأبحنالك التسرى مما أخذت من غنائم الكفار ، وقد ملك صفية وجويرية فأعتقهما وتزوجهما ، وملك ريحانة بنت شمعون النضرية ، ومارية القبطية أم ابنه إبراهيم ، ومعنى (مِمَّآ أَفَآءَ اللهُ عَلَيْكَ) : مما رده الله عليك من فىء الكفار من السرارى ، والغنيمة قد تسمى فيئاً ، والسرارى مباحات للنبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولأمته مطلقاً ، وأما الزوجات فمن غير قيد للرسول

- صلى الله عليه وسلم - ولكنه لم يتزوج سوى ثلاث عشرة ، وأما الأمة فلا يتزوج أحدهم منهن سوى أربع فى عصمته ، ويرجع هذا التفاضل فى عدد الزوجات إلى أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - ترك له الحق فيمن يرى فى الزواج بها شد الأزر للدعوةالإسلامية ، وتأليفاً لأهل أولئك الزوجات وغير ذلك من السياسات الإسلامية ، فأنت ترى أن النبى - صلى الله عليه وسلم - لم يتوسع فى الزواج فى شبابه فى مكة ، وتوسع فيه فى شيخوخته بعد الهجرة ؛ لتحقيق أغراض إسلامية نشأت بعد الهجرة .

أخرج ابن أبى حاتم بسنده عن محمد بن كعب ، وعمر بن الحكم ، وعبد الله بن عبيدة قالوا : تزوج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ستَّ عشرة امرأة ، ستًّا من قريش : خديجة ، وعائشة ، وحفصة وأم حبيبة وسودة ، وأم سلمة ، وثلاثاً من بنى عامر بن صعصعة وامرأتين من بنى هلال بن عامر ، ميمونة بنت الحارث - وهى التى وهبت نفسها للنبى -صلى الله عليه وسلم-وزينب أم المساكين ، وامرأة من بنى أبى بكر بن كلاب من القُرطاء[1] - وهى التى اختارت الدنيا - وامرأة من بنى الجون وهى التى استعاذت منه فطلقها ، وزينب بنت جحش الأسدية ، والسبيتان : صفية بنت حيى بن أخطب وجويرية بنت الحارث ابن عمرو بن المصطلق الخزاعية[2] ، ويلاحظ أنه - صلى الله عليه وسلم - توفى عن تسع .

(وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ) : أى وأحللنا هؤلاء بشرط الهجرة معك ، ويقول ابن كثير تعليقاً على ماتقدم : هذا عدل وسط بين الإفراط والتفريط ؛ فإن النصارى لا يتزوجون المرأة إلَّا إذا كان بينها وبينهم سبعة أجداد ، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته ، فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدم إفراط النصارى ، فأباحت بنت العم والعمة وبنت الخال والخالة ، وتحريم ما فرطت فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت ، وهذا بشع فظيع .

---

(١) هم بطون من بنى كلاب أبناء أخوة ثلاثة : قرط ، وقريط ، وقريط بوزن قفل ، وأمير ، وزبير .

(٢) انظر ابن كثير - وجمهرة أنساب العرب لابن حزم ، وفى عددهن ومن عقد عليهن ولم يدخل بهن كلام كثير ، وحسب القارئ ماتقدم .

(وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ) أى : وأحللنا لك أيها النبي امرأة مؤمنة إذا وهبت نفسها لك أن تتزوجها بغير مهر إنْ شئت ذلك .

وهذه الآية توالى فيها شرطان : « إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها » كقوله ـ تعالى ـ إخبارًا عن نوح ـ عليه السلام ـ أنه قال لقومه : « وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ »(١) .

وقد أباح هذا النص للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يتزوج من وهبت نفسها له دون مهر ، واختلف العلماء فى حدوث ذلك ، فابن أبي حاتم يروى بسنده عن ابن عباس قال : لم يكن عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ امرأة وهبت نفسها ، ورواه ابن جرير بسنده عن يونس بن بكير أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يقبل واحدة ممن وهبت نفسها له ، وإن كان ذلك مباحاً ومخصوصاً به ؛ لأنه مردود إلى مشيئته ، كما قال تعالى : (إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ) .

ومن العلماء من قال بحدوث ذلك فى ميمونة بنت الحارث ، ومنهم من قال إنهن أربع : ميمونة بنت الحارث ، وزينب بنت خزيمة الأنصارية ، وأم شريك بنت جابر ، وخولة بنت حكيم(٢) .

وقد ثبت أن امرأة عرضت عليه نفسها هبة فزوجها من سواه ، أخرج الإمام البخارى بسنده عن سهل بن سعد ـ رضى الله عنه ـ أن امرأة عرضت نفسها على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال له رجل : يا رسول الله زوجنيها ، فقال ما عندك ؟ قال : ما عندى شئ ، قال : اذهب فالتمس ولو خاتما من حديد . فذهب ثم رجع فقال : لا والله ماوجدت ولا خاتما من حديد ، ولكن هذا إزارى ولها نصفه ـ قال سهل : وماله رداء ـ فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : وما تصنع بإزارك ؟ إن لبسْتَهُ لم يكن عليها منه شئ ، وإن لبِسَتْه لم يكن عليك منه شئ ، فجلس الرجل حتى إذا طال مجلسه قام ، فرآه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فدعاه أو دعى له ، فقال له ما معك من القرآن؟ فقال : معى سورة كذا ، وسورة كذا لسور يعدُّدها ، فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أملكناكها بما معك من القرآن » .وفى رواية : زوجتكها

---

(١) سورة هود من الآية : ٣٤ (٢) ذكر هؤلاء الأربعة الإمام البيضاوى .

وهى رواية الأكثر ولا تحل المرأة بالهبة لغير رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لقوله تعالى : (خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ) .

قال القرطبي : أجمع العلماء على أن هبة المرأة غير جائزة ، وأن لفظ الهبة لايتم به نكاح إلا ما روى عن أبى حنيفة وصاحبيه ، فإنهم قالوا : إذا وهبت فأشهد هو على نفسه بمهر فذلك جائز ، قال ابن عطية : فليس فى قولهم إلا تجويز النكاح بلفظ الهبة مع استيفاء ما يطلب فى النكاح كالمهر : ا هـ بتصرف يسير .

المعنى الإجمالى للآية : يا أيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى أعطيتهن مهورهن ، وأحللنا لك الاستمتاع بالجوارى اللاتى ملكتهن من غنائم الجهاد ، وأحللنا لك بنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن إلى المدينة معك[1] ، وأحللنا لك امرأة مؤمنة وهبت نفسها لك إن أردت نكاحها ، فإن إرادتك هذه تقوم مقام القبول ، وقد خصك الله بما خصك به من دون المؤمنين من أجل نبوتك تشريفاً وتكريماًلك بها[2] ، قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم من اشتراط العقد إيجاباً وقبولا وأن لا يتجاوزن أربعة ، ووجوب القسم والمهر بالوطء حيث لم يسم ، وما فرضناه لهم من التسرى بملك اليمين كيف شاءوا ، وقد خصصناك – أيها النبى – بما خصصناك به لكيلا يكون عليك ضيق عند الاقتضاء ، وكان الله واسع الغفران ، فيغفر ما يعسر التحرز عنه ، عظيم الرحمة بالتوسعة فى مظان الحرج .

* (تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾)

---

(١) قال البيضاوى : يحتمل تقييد الحل بالهجرة فى حق النبى – صلى الله عليه وسلم – خاصة .

(٢) ولهذا عدل عن الخطاب فى الآية إلى ذكره بعنوان النبوة فى معرض الخصوصية .

المفردات :

(تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ) أى : تؤخر . والأصل ترجئ ، فخفف بقلب الهمزة ياءً ، وقرئ بالوجهين فى السبعة .

(وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَاجُنَاحَ عَلَيْكَ) أى : ومن طلبته ممن نحيته وأبعدته فلا إثم عليك . يقال : بغى ، وابتغى ، وتَبَغَّى بمعنى طلب . والعزل : التنحية . والجناح : الإثم .

(أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ) أى : تبرد – سرورًا – وفعله من باب فرح .

التفسير

٥١ – (تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُئْوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَاجُنَاحَ عَلَيْكَ ....) الآية .

المعنى : لك أيها النبى أن تؤخر من تشاءُ من أزواجك ، وتضم إليك من تشاءُ منهن ، ويراد بذلك أنك مخير فيهن توسعة عليك ، إن شئت أن تقسم المبيت بينهن قسمت ، وإن شئت أن تترك القسم تركت . هكذا يروى عن ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وغيرهم . فَخُص – صلى الله عليه وسلم – بأن جعل الأمر إليه ؛ ولهذا ذهبت طائفة من فقهاء الشافعية وغيرهم إلى أنه لم يكن القسم واجباً عليه – صلوات الله وسلامه عليه – واحتجوا بهذه الآية الكريمة .

كذلك مما يدل على أن القسم لم يكن واجباً عليه – صلى الله عليه وسلم – ما أخرجه البخارى بسنده ، عن مُعَاذ ، عن عائشة أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان يستأذن فى يوم المرأة مِنَّا بعد أن نزلت هذه الآية (تُرْجِى مَن تَشَآءُ) . فقلت لها : ما كنت تقولين ؟ فقالت كنت أقول : إن كان ذلك إلىّ ، فإنى لا أُريد يا رسول الله أن أُوثر عليك أحدا . قال ابن كثير فهذا الحديث يدل على أن المراد من ذلك عدم وجوب القسم ، وهو الذى ينبغى أن يعول عليه ؛ كما قال ابن العربى ؛ لكنه مع ذلك كان يقسم بينهن من قبل نفسه دون فرض عليه ، تطييباً لنفوسهن ، وصوناً لهن عن الغَيْرة التى تؤدى إلى مالا ينبغى ، ولم يتركه حتى لحق بالرفيق الأعلى .

قال صاحب البحر : اتفقت الروايات على أنه - صلى الله عليه وسلم - كان يعدل بين أزواجه فى القسم حتى مات .

وقيل : إن المراد من الآية تُطَلق مَنْ تشاءُ ، وتمسك من تشاءُ . وقال بعضهم : الإرجاءُ والإيواءُ لإطلاقهما فى الآية يتناولان مافى التفسيرين من التخيير فى القسم والطلاق .

وعن أبى رزين فى سبب نزول الآية : هَمَّ رسول الله أن يطلق من نسائه ، فلما رأين ذلك أتينه فقلن : لا تخلِّ بيننا وأنت فى حل مما بيننا وبينك . افرض عن نفسك ومالك ما شئت . فأنزل الله تعالى الآية . فأرجأ بعضهن ، وآوى بعضهن[1] .

(وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكَ) أى : إذا أردت أن تؤوى إليك امرأة ممن نحيت وأبعدت فلا إثم عليك فى ذلك . وكذلك حكم الإرجاء هو إلى مشيئتك . فدل أحد الطرفين على الآخر .

وأفاد صاحب الكشاف أن الآية متضمنة قسمة جامعة لما هو الغرض ؛ لأنه - صلى الله عليه وسلم - إما أن يطلق ، وإما أن يمسك ، وإذا أمسك ضاجع أو ترك ، وقسم أو لم يقسم ، وإذا طلق وعزل ، فإما أن يخلى المعزولة لا يبتغيها أو يبتغيها[2] » .

(ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ) أى : إذا علمن أن الله قد رفع عنك الحرج ، وفوض أمرهن إلى مشيئتك . كان ذلك أقرب أن ترتاح قلوبهن فلا يحزن ؛ لأنه حكم كلهن فيه سواءٌ ، ثم إن سويت بينهن وجدن ذلك تفضلا منك عليهن ومنة ، وإن رجحت بعضهن علمن أنه بحكم الله - تعالى - الذى فوض الأمر إليك فتطمئن نفوسهن به دون أن يتعلقن بأكثر من ذلك ؛ لأن المرء إذا علم أنه لا حق له فى شىء كان راضيًا بما أُوتى منه وإن قل ، وكان - عليه الصلاة والسلام - مع هذا التمييز يسوى بينهن فى القسم تطييبًا لقلوبهن ويقول : اللهم هذا قَسْمِى فيما أملك ، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك ، لإيثاره عائشة - رضى الله عنها - دون أن يظهر ذلك فى شىء من فعله .

وكان فى مرضه الذى توفى فيه يُطاف به محمولا على بيوت أزواجه ، إلى أن استأذنهن أن يقيم فى بيت عائشة ، قالت عائشة : أول ما اشتكى رسول الله - صلى الله عليه وسلم

(١) أرجأ : ميمونة وجويرية وأم حبيبة وصفية وسودة ، وآوى عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب .

(٢) وانقسام الطلاق والإمساك بأقسامه بسبب إطلاق الإرجاء والإيواء فى قوله تعالى (ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء) .

فى بيت ميمونة ، فاستأذن أزواجه أن يمرض فى بيتها – يعنى عائشة – فأذن له .. الحديث . خرجه الصحيح . انظر القرطبى .

وقد قبض – صلى الله عليه وسلم – فى بيتها . ورد فى الصحيح أنها قالت : (فلما كان يومى قبضه الله – تعالى – بين سَحْرى ونَحْرى)[1].

وعن ابن عباس ومجاهد أن المعنى : إذا علمن أن لك ردهن إلى فراشك بعد ما اعتزلتهن قرت أعينهن ولم يحزن ، ورضين بما تفعله من التسوية أو التفضيل ؛ لأنهن يعلمن أنك لم تطلقهن .

وقال الشعبى : الآية فى الواهبات أنفسهن ، تزوج رسول الله منهن وترك منهن ، وقال الزهرى : ماعلمنا أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أرجأ أحداً من أزواجه ، بل آواهن كلّهن[2] .

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ) : خبر عام – والإشارة إلى ما فى قلب الرسول – صلى الله عليه وسلم – ويدخل فى المعنى سائر المؤمنين ، أى : أنه – سبحانه وتعالى – يعلم ما فى قلوبكم من الميل إلى بعضهن دون بعض مما لا يمكن دفعه . كما يدخل فى المعنى أيضًا أزواجه المطهرات لعلمه – تعالى – بما فى قلوبهن من الرضا بما دبّر الله – تعالى – فى حقهن من تفويض أمرهن إلى مشيئته – صلى الله عليه وسلم – وبما يقابل ذلك من الخواطر الرديئة :

(وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا) أى : أنه جل شأنه واسع العلم بلغ فيه مداه ، يحيط علمه بسركم ونجواكم ، وبضمائركم وخواطركم لا يعاجل عباده بالعقوبة رحمة بهم حتى يتدبروا أمرهم ، ويفكروا فى مصيرهم ، ولا يغتروا بإمهالهم فسبحانه يمهل ولا يهمل .

(لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾)

(١) السحر : الرئة ، والنحر : أعلى الصدر .

(٢) انظر القرطبى .

المفردات :

(مِن بَعْدُ) أى : من بعد التسع اللاتى فى عصمتك اليوم .

(وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ) أى : ولا أن تستبدل بهن أزواجًا : ببعضهن أو بكلهن

(وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا) أى : حافظًا ومطَّلِعًا فاحذروا تجاوز حدوده .

التفسير

٥٢ـ (لاَ يَحِلُّ لَكَ النِّسَآءُ مِن بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ . . .) الآية :

قال غير واحد من العلماء كابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم : نزلت هذه الآية مجازاة لأزواج النبى ، ورضًا عنهن على حسن صنيعهن فى اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة ؛ لمَّا أخبرهن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما تقدم .

والمعنى : لا يحل لك النساءُ من بعد التسع اللَّاتى فى عصمتك اليوم ؛ لأنها نصابك ، كما أن الأربع نصاب أُمتك ، ولا أن تستبدل بهؤلاءِ التسع أزواجًا أُخَر : بكلهن أو ببعضهن كرامة لهن وجزاءً على حسن صنيعهن حيث اخترنك ، وأعرضن عن متاع الدنيا وزينتها .

أخرج أبو داود فى ناسخه ، وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن أنس قال : لما خيرهن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاخترن الله ـ تعالى ـ ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قصره عليهن . فقال سبحانه : (لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَآءُ مِن بَعْدُ) وأخرج ابْن مردويه عن ابن عباس أنه قال فى الآية : احتبسه الله ـ تعالى ـ عليهن كما حبسهن عليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهن التسع اللَّاتى مات عنهن : عائشة ، وحفصة ، وأُم حبيبة ، وسودة ، وأُم سلمة ، وصفية ، وميمونة ، وزينب بنت جحش ، وجويرية .

(ومِنْ) فى قوله تعالى: (مِنْ أَزْوَاجٍ) لتأْكيد النفى ، وفائدته استغراق الجنس بالتحريم . فيشمل النهىُ استبدالَ بعضهن أو كلهن ، ولو أعجبك حسن الأَزواج

المستبدلة[١] . فنهاه ـ سبحانه ـ عن الزيادة عنهن أو طلاق واحدة منهن أو استبدال غيرها بها.

وقوله ـ سبحانه ـ : (إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ) استثناءٌ ممن حُرم عليه من النساء فى قوله سبحانه : (لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَآءُ مِن بَعْدُ) أى : من كانت بملك اليمين ، وهى المملوكة ، فتحل له ـ صلى الله عليه وسلم ـ سواءٌ أكانت مما أفاء الله ـ تعالى ـ عليه أم لا ، ولم تحرم عليه المملوكة ؛ لأن الإيذاء لا يحصل بها ؛ لأنه لا يجب القسم لها .

(وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا) أى : حافظًا وَمُطَّلِعًا على كل ما فى الكون ، لا تخفى عليه خافية فاحذروا مجاوزة حدوده ، وتخطى أوامره ونواهيه .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾)

المفردات :

(غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ) أى : غير منتظرين إدراكه ونضجه . يقال : نظرت الشىء ، وانتظرته بمعنًى ، والإنى مقصورًا : الإدراك والنضج . اهـ : مصباح .

---

(١) قال القرطبى : فى هذه الآية دليل على جواز أن ينظر الرجل إلى من يريد زواجها ، واختلف فيما يجوز أن ينظر منها . فقال مالك : ينظر إلى وجهها وكفيها ولا ينظر إلا بإذنها . وقال الشافعى وأحمد . بإذنها وبغير إذنها إذا كانت مستترة . وهناك أقوال أخرى يرجع إليها فى القرطبى وغيره من الموسوعات .

(فَإِذَا طَعِمْتُمْ) أى : أكلتم ، ويطلق الطعام على كل ما يساغ حتى الماء ، وفى العرف : الطعام لما يطعم ، والشراب لما يشرب ، وطعم من باب تعب .

(وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ) أى : ولا مسرورين به ، ومستمتعين .

(فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ) أى : يتركم حياءً من تنبيهكم .

(وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا) والمتاع : هو كل ما ينتفع به كالطعام والثياب وأثاث البيت وغيرها .

(مِن وَرَآءِ حِجَابٍ) : وهو الساتر ؛ لأنه يمنع من المشاهدة ، والأصل فى الحجاب : جسم حائل بين جسدين ، وقد استعمل فى المعانى ، فقيل : المعصية حجاب بين العبد وربه ، والجمع : حُجُب ككتاب وكُتُب .

التفسير

٥٣-(يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ . . .) الآية :

شروع فى بيان ما يجب على الناس مراعاته من حقوق نساء النبى - عليه الصلاة والسلام - وحقوقه وهو فى بيوته - صلى الله عليه وسلم - إثر ما يجب عليه - صلى الله عليه وسلم - مراعاته من الحقوق المتعلقة بأزواجه .

والآية تتضمن أمرين : أحدهما الأدب فى الحضور للطعام والجلوس بعده ، والثانى يتعلق بأمر الحجاب لزوجاته - صلى الله عليه وسلم - .

فأما الأوَّلُ فسببه كما قال ابن عباس : أن أناسًا من المؤمنين كانوا يتحينون طعام النبى - صلى الله عليه وسلم - فيدخلون قبل أن يدرك الطعام ، فيقعدون إلى أن يدرك ، ثم يأكلون ولا يخرجون ، وقال إسماعيل بن أبى حكيم : وهذا أدب أدَّب الله به الثقلاء .

وعند أكثر المفسرين : أن سببه ما وقع يوم أن تزوج - عليه الصلاة والسلام - زينب بنت جحش . أخرج الإمام أحمد ، والبخارى ، ومسلم ، والنسائى ، والبيهقى

فى سننه وغيرهم من طُرُقٍ عن أنس قال : لمَّا تزوج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا ، ثم جلسوا يتحدثون ، وإذا هو يتهيأُ كأنه للقيام فلم يقوموا ، فلما رأى ذلك قام ، فلما قام ، قام من قام وقعد ثلاثة نفر ، فجاء النبى - صلى الله عليه وسلم - ليدخل فإذا القوم جلوس ، ثم إنهم قاموا فانطلقت فجئت فأخبرت النبى - صلى الله عليه وسلم - أنهم قد انطلقوا ، فجاء حتى دخل ، فذهبت أدخل فأُلقِىَ الحجاب بينى وبينه ، فأنزل الله (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ . . .) الآية .

والمعنى : ياأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلَّا مدعوين إلى طعام غير منتظرين إدراكه ونضجه : وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ وأُذِن لكم فى الدخول فادخلوا ، فإذا انتهيتم من طعامكم فتفرقوا وخففوا عن أهل البيت ، وانتشروا لشئونكم ، وهو خطاب لأُولئك المتحينين لوقت طعام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فالنهى فى الآية لهم ولأمثالهم ممن يفعل فعلهم فى المستقبل ، فلا يفيد النهى عن الدخول بإذن لغير الطعام ، ولا عن الجلوس والمكث بعد الطعام لمهم آخر بموافقة من الرسول - صلى الله عليه وسلم -.

(وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ) أى : ولا تمكثوا مستأْنسين لحديث بعضكم بعضًا ، كما وقع لأُولئك النفر الثلاثة الذين استرسل بهم الحديث ، ونسوا أنفسهم حتى شق ذلك على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولذلك قال الله سبحانه : (إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى النَّبِيَّ) أى : إن ذلكم اللبث الدال عليه الكلام ، أو ما كانوا يفعلونه من الاستئناس ، كان يسبب الإيذاء للنبى لتضييق البيت عليه وعلى أهله ، وصده عن الاشتغال بما يعنيه ، فيستحيي من إخراجكم لشدة حيائه ، ولما كان الحياءُ مِمَّا يمنع الحَيِيَّ من بعض الأَفعال قال سبحانه : (وَاللهُ لَا يَسْتَحْيِى مِنَ الْحَقِّ) : بمعنى ؛ لا يمتنع منه ، ولا يتركه ترك الحيي منكم فلذا أَمركم - سبحانه - بالخروج ، فالمراد بالحق هنا إخراجهم ، ووضع الحق موضعه لتعظيم جانبه ، وهذا أَدب أَدَّب الله به الثقلاء[1] ، والظاهر كما قال روح

---

(١) ومن هذا كان الثقيل مذموما عند الناس قبيح الفعل عند الأكياس ، عن عائشة - رضى الله عنها - : حسبك فى الثقلاء أن الله لم يحتملهم فقال : « فإذا طعمتم فانتشروا » .

المعانى : حرمة المكث على المدعو إلى طعام بعد أن يطعم ، إذا كان فى ذلك أذى لرب البيت ، وليس ذلك مختصًّا بما إذا كان اللبث فى بيت النبى – عليه الصلاة والسلام .

(وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ) : شروع فى بيان الأمر الثانى الذى تضمنته الآية وهو أمر الحجاب لزوجات الرسول ، وفى حكمهن نساءُ الأمة .

والمعنى : وإذا طلبتم من نساء رسول الله – صلى الله عليه وسلم – شيئًا ينتفع به ، فلا تسألوهن إلّا من وراء ستر يستر بينكم وبينهن فإن سؤالكم لهن من وراء حجاب أطهر لقلوبكم وقلوبهن من خواطر الشيطان ونوازع الفتن[1] ، وأنفى للريبة وأبعد عن التهمة .

وكان النساءُ قبل نزول الآية يبرزن للرجال ، وكان عمر – رضى الله عنه – يحب ضرب الحجاب عليهن ، أخرج البخارى ، وابن جرير ، وابن مردويه عن أنس – رضى الله تعالى عنه – قال : قال عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – : يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب ، فأنزل الله – تعالى – آية الحجاب .

وقد ورد فى الصحيح عن ابن عمر ، قال عمر : وافقت ربى فى ثلاث : فى مقام إبراهيم ، وفى الحجاب ، وفى أسارى بدر ، وقال أنس بن مالك وجماعة : سببها أمر القعود فى بيت زينب : القصة المذكورة آنفًا .

قال القرطبى : هذا أصح ما قيل فى أمر الحجاب ، وما عدا هذين القولين من الأقوال والروايات ، لايقوم شىءٌ منها على ساق .

(وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ) أى : لا يصح ولا يستقيم أن يقع منكم إيذاءٌ لرسول الله فى حياته بفعل ما يكرهه ويتأذى منه ، كالمكث الذى كنتم تفعلونه ، والاستئناس لحديث بعضكم بعضًا ومكالمة نسائه من غير حجاب ونحوها .

وفى التعبير عنه – صلى الله عليه وسلم – برسول الله لتقبيح ذلك الفعل وأنه بعيد بمراحل عما تقتضيه منزلته ، وما يتطلبه علو شأنه عند ربه حيث اختاره لرسالته .

---

(١) وهى : الخواطر التى تعرض للرجال فى أمر النساء ، وللنساء فى أمر الرجال ، فإن الرؤية سبب التعلق والفتنة .

(وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا) أى : ولا يحل لكم أن تتزوجوا أزواجه من بعد موته أو فراقه لهن ؛ لأنهن أزواجه فى الدنيا والآخرة ؛ ذلك لأن المرأة فى الجنة لآخر أزواجها ، وهن أمهات المؤمنين ، ولا يحل للأبناء نكاح الأمهات .

يروى أن رجلًا من المنافقين قال حين تزوج رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أم سلمة بعد أبى سلمة وحفصة بعد خنيس بن حذافة : ما بال محمد يتزوج نساءنا ، والله لو قد مات لأجلْنا السهام على نسائه . فنزلت الآية فى هذا ، فحرم الله نكاح أزواجه من بعده وجعل لهن حكم الأمهات ، وهذا من خصائصه تمييزًا لشرفه ، وتنبيهًا على مرتبته – صلى الله عليه وسلم – .

(إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللهِ عَظِيمًا) : إشارة إلى ما ذكر من إيذائه – عليه الصلاة والسلام – بالمكث بعد الطعام ، ونكاح أزواجه من بعده . أى : وكان ما ذكر فى حكمه – تعالى – عظيمًا هائلًا ، لا يقادر قدره ، ولا يعرف مداه ، فكان من جملة الكبائر ولا ذنب أعظم منه ، كما يقول القرطبى .

وفى ذلك من تعظيمه – تعالى – لشأن رسوله – صلى الله عليه وسلم – وإيجاب حرمته حيا وميتا ما لا يخفى .

(إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾)

المفردات :

(إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ) أى : إن تظهروا أمرًا من الأمور أو تستروه فى أنفسكم يعلمه الله . يقال : خَفَيْت الشىء أخفيه من باب رمى : سترته ، كأخفيته بالهمزة[1] .

---

(١) وبعضهم يجعل الرباعى للكتمان والثلاثى للإظهار ، وبعضهم يعكس الأوضاع .

التفسير

٥٤ - (إن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا) :

سبب نزول هذه الآية على ماقيل ، أنه لما نزلت آية الحجاب قال رجل : أننهى أن نكلم بنات عمنا إلَّا من وراء حجاب ؟ لئن مات محمد - صلى الله عليه وسلم - لنتزوجن نساءه ، وفى بعض الروايات لتزوجت عائشة .

والمعنى : إن تظهروا على ألسنتكم شيئًا مِمَّا لا خير فيه كنكاح أزواجه من بعده أو تخفوه فى صدوركم يجزكم الله لا محالة بما صدر عنكم من المعاصى البادية ، وبما أخفيتموه من الخواطر والمعتقدات المذمومة ، فإنه - سبحانه - كامل العلم لا يخفى عليه ما كان من ماض تقضَّى وما يكون من مستقبل يأتى : « يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى الصُّدُورُ »[1] .

قال الإمام أبو السعود : وفى هذا التعميم مزيد تهويل وتشديد ، ومبالغة فى التوبيخ والوعيد .

(لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾)

المفردات :

(لَاجُنَاحَ عَلَيْهِنَّ) : لا إثْمَ عَلَيهِنَّ .

---

(١) الآية : ١٩ من سورة غافر .

(وَلَا نِسَآئِهِنَّ) أى : نساء المؤمنات .

(وَاتَّقِينَ اللهَ) أى : اقتصرن على ما أُبيح لكن فلا تتعدينه إلى غيره .

التفسير

٥٥ - (لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ آبَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَانِهِنَّ ...) الآية :

الآية استئناف لبيان من لا يجب الاحتجاب منهم إثر أمره - تعالى - لنسائه - صلى الله عليه وسلم - بالحجاب من الأجانب .

روى أنه لما نزلت آية الحجاب قال الآباءُ والأبناءُ والأقارب : يا رسول الله أَوَ نُكَلمهن من وراء حجاب ؟ فنزلت الآية .

والمعنى : لا إثم عليهن فى ترك الحجاب من آبائهن ولا من أبنائهن ولا من إخوانهن ، ولا من أبناء إخوانهن ولا من أبناء أخواتهن ولا نسائهن[1] المؤمنات فليس لهن أن يتجردن أمام مشركة أو كافرة ، وفى حكمهم كل ذى رحم محرم من نسب أو رضاع على ما روى ابن سعد عن الزهرى .

وهذا الحكم عام لنساء المؤمنين ، وقد سأل بعض السلف فقال : لِمَ لَمْ يذكر العم والخال فى هذه الآية والآية السابقة عند قوله تعالى : « وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ... » ؟ فأجاب عكرمة والشعبى : بأنهما لم يذكرا ؛ لأنهما قد يصفان ذلك لبنيهما ، فكرهَ لهما الرؤية وهذا الجواب غير مناسب ؛ لأن الوصف قد يقع من غيرهما ، ولذلك كان الجواب المناسب لعدم ذكرهما هو أنهما بمنزلة الوالدين ، ولذلك سمى العم أبا فى قوله تعالى : « نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَآئِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ »[2] فأُطلق على إسماعيل وصف الأُبوة ليعقوب مع أنه عم له ، أو أنهما لم يذكرا لأنه اكتفى عن ذكرهما بذكر أبناء الإخوة ، وأبناء الأخوات فإن مناط عدم لزوم الاحتجاب بينهن وبين الفريقين عين ما بينهن وبين العم والخال من العمومة والخئولة حيث إنهن عمات لأبناء الإخوة ، وخالات الأبناء الأخوات .

---

(١) إضافة النساء إليهن للإشعار بأنهن معروفات لهن وموضع ثقة عندهن ، والمقصود من الإخوان الإخوة .

(٢) من الآية ١٣٣ من سورة البقرة .

(وَاتَّقِينَ اللهَ) أى : اقتصرن على هذا واتقين الله فيه أن تتعدينه إلى غيره ، أو اتقين الله فى كل ما تـأْتين وتذرن ولا سيما ما أُمرتن به ، ونهيتن عنه ، واخشينه فى الخلوة والعلانية .

وفى نقل الكلام من الغيبة فى قوله سبحانه : (لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ . . .) إلى الخطاب فى قوله : (وَاتَّقِينَ اللهَ) فضل تشديد فى طلب التقوى منهن ، ثم توعد مَنْ ظنَّ الإفلات من سلطانه فقال تعالى : (إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا) أى : لا تخفى عليه خافية . قال ابن عطاء : الشهيد الذى يعلم خطرات القلوب ، كما يعلم خطرات الجوارح وهو ـ سبحانه ـ يجازيكم على الأعمال بحسبها : « يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا » .

(إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾)

المفردات :

(إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) : الصلاة من الله على الرسول : الرحمة والرضوان ، أو الثناءُ عليه عند الملائكة وتعظيمه ، ومن الملائكة : الدعاءُ والاستغفار ، ومن المؤمنين : الدعاءُ والتضرع إلى الله أن يعلى شأْنه ويرفع قدره .

التفسـير

٥٦ ـ (إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) :

بعد أن ذكرت الآيات السابقة الآداب التى يجب اتباعها معه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حياته وبعد مماته ، ومع أزواجه المطهرات تشريفا له وتعظيمًا ـ بعد هذا ـ أشادت هذه الآية ـ زيادة فى تشريفه ـ بمنزلته العظيمة فى الملأ الأعلى عند ربه ـ سبحانه وتعالى ـ ، وعند

ملائكته – عليهم السلام – حيث قال تعالى : (إِنَّ اللهَ وَمَلَآئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ) : إخبارًا لعباده بأنه يرحمه ويرضى عنه أو يثنى عليه عند ملائكته المقربين ، وأن الملائكة تستغفر له وتعظمه .

ثم أمر الله المؤمنين بالدعاء له ، والتسليم عليه بقوله : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) : ليجتمع الثناءُ الذى هو حقيق به من أهل العالمين العلوى والسفلى جميعًا .

أخرج البخارى عند تفسير هذه الآية بسنده عن كعب بن عُجْرَة قال : قيل : يا رسول الله أمَّا السلام عليك فقد عرفناه ، فكيف الصلاة عليك ؟ فقال : قولوا : اللَّهم صلى على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم إنَّك حميدٌ مجيد . اللَّهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنَّك حميدٌ مجيد[1] .

وفى رواية أُخرى عنه لما نزلت : (إِنَّ اللهَ وَمَلَآئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) قال : قلنا : يا رسول الله قد علمنا السلام ، فكيف الصلاة عليك ؟ قال : قولوا : اللَّهم صل على محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنَّك حميدٌ مجيد ، وبارك على محمد ، وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنَّك حميدٌ مجيد . رواه الترمذى بهذه الزيادة[2] ، ومعنى قولهم : أمَّا السلام فقد عرفناه يقصدون به الذى فى التشهد ، وكان – صلى الله عليه وسلم – يعلمهم إيَّاه كما يعلمهم السورة من القرآن ، وفيه : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته .

والصلاة عليه – صلى الله عليه وسلم – واجبة ، وقد اختلفوا فى حال وجوبها ، فهى واجبة مرة فى العمر عند الطحاوى ، وأوجبها الشافعى فى الصلاة ، فلا تصح صلاة عنده

---

(١) البخارى تفسير سورة الأحزاب .

(٢) وروى فى ذلك عدة روايات .

بدونها ، واختاره ابن العربي[1] وأوجبها الكرخي كلما ذكر اسمه ، وهو الذى يقتضيه الاحتياط ويستدعيه العرفان بعلو شأنه ، وعليه الجمهور لقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « رَغِمَ أنف رجل ذكرت عنده فلم يصلِّ عليَّ » .

قال الحافظ ابن حجر : (لم أر عن أحد من الصحابة والتابعين التصريح بعدم الوجوب إلّا ما نقل عن إبراهيم النخعي ، وهذا مشعر بأن غيره كان قائلًا بالوجوب) . اهـ : تفسير الآلوسي .

والصلاة على غيره على سبيل التبع ، كصلى الله على النبي وآله فلا كلام فى جوازها . أمّا إذا أفرد غيره من آل البيت فمكروه وهو من شعائر الروافض ، ومن قال بالجواز مطلقا استدل بقوله تعالى : (هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَآئِكَتُهُ) وبما صح من قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « اللّهم صلِّ على آل أبي أوفى » ونحوه ، وقد أجيب عنه : بأنه صدر عن الله ورسوله ، ولهما أن يخصا من شاءا بمن شاءا ، وليس ذلك لغيرهما إلّا بإذنهما ، ولم يثبت عنهما إذن فى ذلك .

وأمّا الصلاة على الأنبياء منا فجائزة معه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبدونه بلا كراهة ، فقد جاء بسند صحيح على ما قاله المجد اللغوى : (إذا صليتم على المرسلين فصلوا على معهم فإني رسول من المرسلين) .

(وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) أى : قولوا السلام عليك أيها النبي ونحوه ، كما ذكرته الأحاديث.

« والسلام عليك » جملة خبرية أريد بها الدعاء بالسلامة من النقائص والآفات ، أو الدعاء بالانقياد لأوامره من المسالمة وعدم المخالفة ، بأن يصير الله العباد مذعنين له ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولشريعته .

---

(١) وذكر الدارقطنى عن أبي جعفر بن محمد بن على بن الحسين أنه قال : لو صليت صلاة لم أصل فيها على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا على آل بيته لرأيت أنها لا تتم .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾)

المفردات :

(إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) : أذية الله بالكفر به ونسبة الصاحبة والولد والشريك إليه ، ووصفه بما لا يليق به . أمَّا أذية الرسول فتحصل بكل ما يؤذيه من الأقوال والأفعال .

(لَعَنَهُمُ اللَّهُ) أى : أبعدهم من كل خير ورحمة ، واللعن فى اللغة الإبعاد .

(وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا) أى : هيأ لهم عذابا بالغ الغاية فى الإهانة والإذلال .

(بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا) أى : من غير جناية يستحق بها المؤمنون والمؤمنات الأذية .

(فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا) أى : فعلوا وتحملوا إثم أفحش الكذب الذى افتروه على غيرهم وبهتوهم به .

(إِثْمًا مُّبِينًا) أى : ظاهرًا بينًا لا يخفى خبره .

التفسير

٥٧ - (إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا) :

الآية : تهديد ووعيد لمن آذى الله بمخالفة أوامره وارتكاب زواجره ، وإصراره على ذلك ، وآذى رسوله بعيب أو تنقيص .

والمعنى : إن الذين يؤذون الله - تعالى - باقتراف ما لا يرضاه من كبائر المعاصى ووصفه بما لا يليق به ، كقول اليهود : « يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ » ، وقول النصارى : « الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ » ،

وقولهم : « إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ » وقول المشركين : الملائكة بنات الله ، والأصنام شركاؤه تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا ، وكقول الذين يلحدون فى آياته ، والإيذاء بالنسبة لله تعالى فيه تجوز ، لاستحالة حقيقة التأذى فى حقه جل وعلا .

وإيذاء الرسول هو قولهم : شاعر . كاهن . مجنون ، وكسر رباعيته وشج وجهه الكريم يوم أُحد ، وإلقاء السَّلى[1] على ظهره بمكة وهو ساجد ، وغير ذلك مما يؤذيه .

ويجوز أن يكون المقصود من الآية تعظيم ذنب من يؤذون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بذكر إيذاء الله معه ، والغرض من ذلك بيان قربه منه ، وكونه حبيبه المختص به حتى كان ما يؤذيه - صلى الله عليه وسلم - يؤذيه سبحانه ، روى الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن مغفل قال : قال النبى - صلى الله عليه وسلم - : « اللهَ اللهَ فى أصحابى لا تتخذوهم غرضًا بعدى ، فمن أحبهم فبحبى أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه » .

هؤلاء الذين يؤذون الله ورسوله طردهم الله عن رحمته فى الدارين بحيث لا ينالون فيهما[2] شيئا منها . وهيأ لهم مع ذلك عذابا بالغ الغاية فى إهانتهم وإذلالهم يصيبهم فى الآخرة خاصة .

وتنكير العذاب ووصفه بالإهانة ، وكونه من إعداد الله يؤذن بأنه فوق احتمالهم لشدته حيث قال سبحانه : (وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا) .

٥٨ - (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا) :

أخرج ابن جرير عن الضحاك عن ابن عباس قال : أُنزلت فى عبد الله بن أُبىّ وأُناس معه قذفوا عائشة - رضى الله عنها - فخطب النبى - صلى الله تعالى عليه وسلم - وقال : من يَعْذرنى فى رجل يؤذينى ، ويجمع فى بيته من يؤذينى . فنزلت .

---

(١) السلى : كالحصى ، الذى يكون فيه الولد والجمع : أسلاء مثل سبب وأسباب .

(٢) وذلك فى الآخرة ظاهر وأما فى الدنيا فقيل : يمنعهم زيادة (الهدى) . ا هـ : تفسير الآلوسى .

وقيل فى سبب نزولها : إن عمر رأى جارية من الأنصار فضربها ،وكره ما رأى من زينتها ، فخرج أهلها فآذوا عمر باللسان . فأنزل الله هذه الآية .

وقيل : نزلت فى منافقين كانوا يؤذون عليًّا ـ كرم الله وجهه ـ ويسمعونه ما لا خير فيه .

والظاهر عموم الآية لكل ما ذكر ، ولكل ما سيأتى من أراجيف المرجفين ، وفيها من الدلالة على حرمة المؤمنين والمؤمنات ما فيها .

والمعنى : والذين ينسبون للمؤمنين والمؤمنات ما يتأذون به من الأقوال والأفعال القبيحة بغير جناية يستحقون بها الأذية شرعًا[1] . (فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا) أى : فقد تحملوا بذلك إثم الكذب الفاحش المفترى الذى يبهت المؤمنين والمؤمنات ،أى : يدهشهم ويحيرهم لفظاعته فى الإثم حيث يحكون أو ينقلون عنهم ما هم منه براء .

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أنه قيل : يا رسول الله ما الغيبة ؟ قال : ذكرك أخاك بما يكره . قيل : أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول ؟ قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته . رواه مسلم .

(وَإِثْمًا مُّبِينًا) أى : وتحملوا كذلك ذنبًا ظاهرًا واضح الأثر بيِّن الخبر . روى أن عمر بن الخطاب قال لأُبَىّ بن كعب : قرأت البارحة هذه الآية ففزعت منها : (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا) والله إنى لأضربهم وأنهرهم . فقال له أُبَىّ : يا أمير المؤمنين لست منهم إنما أنت معلم ومقوِّم . وأطلق إيذاء الله ورسوله فى الآية السابقة ، وقيد إيذاء المؤمنين والمؤمنات فى هذه الآية بقوله ـ سبحانه ـ : (بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا) لأن إيذاء الله ورسوله لا يكون أبدًا إلا بغير حق ، وأمَّا إيذاء المؤمنين والمؤمنات فمنه حق كالحد والتعزير ، ومنه باطل .

---

(١) وقيل : من الأذية تعيير المؤمن بحسب مذموم أو حرفة مذمومة أو شىء يثقل عليه سمعه .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾)

المفردات :

(يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ)أى : يسدلن عليهن من الجلابيب ،جمع جلباب ، وهو ثوب واسع يغطى جميع الجسم كالملاءة والملحفة يتخذنه إذا خرجن لداعية من الدواعى .

(ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ) أى : أقرب أن يتميزن عن الإماء والقينات اللاتى هن موضع التعرض للإيذاء من أهل الريبة .

والقينة : الأمة البيضاء ، هكذا قال ابن السكيت مُغنية كانت أو غير مُغنية ، وقيل : تختص بالمغنية .

التفسير

٥٩ ـ (يَٰٓأَيُّهَا النَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا) :

بعد ما بين ـ سبحانه ـ سوء حال المؤذين زاجرًا لهم عن الإيذاء أمر النبى أن يأمر بعض المتأذين منهم بما يدفع إيذاءهم فى الجملة من الستر والتميز عن مواقع الإيذاء ، وذلك بأن يدنين عليهن بعض جلابيبهن ، ويراد من إدنائه أن يلبسنه على البدن كله ، أو التلفع بجزءٍ منه لستر الرأس والوجه ، وإرخاء الباقى على بقية البدن . هذا إذا أردن الخروج إلى حوائجهن ،وكن يتبرزن فى الصحراء أو بين النخيل ،من غير تمييز بين الحرائر والإماء ، فتعرف الحرائر بسترهن ، فيكف الفساق عن معارضتهن ،وكانت المرأة من نساء المؤمنين

قبل نزول هذه الآية تكشف عن وجهها وتبْرز فى درع وخمار[1] كالإماء فيعرض لهن بعض الفجار يظن أنها أمة ، فتصيح به فيذهب ، فشكوا ذلك إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فنزلت الآية بسبب ذلك . قال معناه الحسن وغيره . ولفظ النِّساء خَصَّهُ العرف بالحرائر .

والمعنى الإجمالى للآية : مُرْ -أيها النبى -أزواجك وبناتك ونساء المؤمنين ، أن يسدلن عليهن بعض جلابيبهن .

واختلف فى كيفية هذا السِّتر ، فقال السّدى : تغطى إحدى عينيها وجبهتها والشق الآخر إلَّا العين ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : أمر الله نساءَ المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن فى حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رءُوسهن بالجلابيب ، ويبدين عينا واحدة . وقال الحسن : تغطى نصف وجهها . وقال محمد بن سيرين : سألت عبيدة السلمانى ، عن قول الله تعالى : (يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ) فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى .

وظاهر الآية أنها محمولة على طلب تستر تمتاز به الحرائر عن الإماء . فيعلم به أنهن حرائر ، فلا يتعرض لهن فاسق بأذى ولا ريبة ، ويشير إلى ذلك قوله -سبحانه- : (ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ) أى : ذلك أقرب وأجدر أن يُعْرَفنَ لتسترهن أنهن حرائر ، فإذا عرفن فلا يتعرض لهن ، وتنقطع الأطماع عنهن ، وليس المراد أن تعرف المرأة حتى تعلم من هى ؟ وكان عمر - رضى الله عنه- إذا رأى أمة قد تقنعت ضربها بالدرة محافظة على زى الحرائر .

(وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا) أى : كثير المغفرة ، فيغفر ما سلف منهن من تفريط فيما أمرن به من الستر المطلوب ، كما أنه سبحانه كثير الرحمة فيثيب من امتثل منهن أمره بما هو أهله - جل شأنه - .

---

(١) ودرع المرأة : قميصها مذكر ، والخمار ثوب تغطى به المرأة رأسها ، والجمع خمر ، مثل : كتاب وكتب ، واختمرت المرأة وتخمرت : لبست الخمار .

* (لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾)

المفردات :

(الْمُنَافِقُونَ) : هم الذين يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام .

(الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ) : ضعاف الإيمان .

(الْمُرْجِفُونَ فِى الْمَدِينَةِ) : ناشرو الأخبار الكاذبة فيها ليبعثوا الرجفة والزلزلة فى قلوب المؤمنين بأكاذيبهم .

(لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ) : لنحرضنك ونسلطنك عليهم .

(مَلْعُونِينَ) : مطرودين من رحمة الله .

(أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا) : أيما ظفر بهم أسروا .

(سُنَّةَ اللهِ) : طريقته الدائمة .

التفسير

٦٠ - (لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِى الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا) :

بعد أن أمر الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يقول لأزواجه وبناته ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن حتى يعرف الفساق أنهن حرائر فلا يتعرضوا لهن بسوء، هدد الله المنافقين ومرضى القلوب الذين كانوا يذيعون الأخبار الكاذبة - هددهم - بأنهم إن لم يرجعوا

عن إثارة الفتن بين المسلمين لَيُحَرِّضَنَّ اللهُ رسوله عليهم ويغرينّه بهم حتى يضطرهم إلى الجلاء عن المدينة ويلجئهم إلى الخروج منها لإفسادهم ؛ حتى لا يجتمع هؤلاء بكفرهم وضلالهم مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين فى بلد واحد إلَّا زمانا قليلًا يجمعون فيه متاعهم وشملهم ، وكان هذا هو الجزاء الوفاق لطائفة من الناس لم ترع حرمة الجوار ولم تكن أمينة على من يساكنونهم ويعاشرونهم ، بل كانوا مصدر إزعاج وقلق .

٦١ - (مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا) :

أى : مطرودين من رحمة الله أينما وجدتهم ينشرون الفتن أخذتهم وعاقبتهم فقتَّلتهم تقتيلًا جزاء خيانتهم وزجرا وتشريدًا لمن خلفهم .

٦٢ - (سُنَّةَ اللهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا) :

أى : سَنَّ الله ذلك وشرعه شرعا مؤكدًا فى الأُمم الماضية والشعوب السابقة أن يشرد أو يقتل أولئك الذين يسعون بالإفساد بين سواهم ، وذلك بإجلائهم عن أوطانهم وقهرهم وإذلالهم وقتلهم أينما وجدوهم على حالة الإفساد وإشاعة الفزع والخوف بين المؤمنين ، فأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مع هؤلاء الضالين ليس بدعًا ، بل هو سائر على نظام سابق حكيم ، وقضاء محكم ، ولن تجد لقضاء الله وحكمته تغييرًا وتبديلًا ، فلا يبدل الله سنته ، ولا يستطيع أحد من خلقه تبديلها .

إذن فالحكم باقٍ كما كان فى الأُمم السابقة من أن المفسد يضرب على يديه ويؤخذ بجريرته وينالُه أشد العقاب حتى يرتدع وينزجر غيره ممن تسول له نفسه أن يحذو حذوه أو يسلك سبيله .

وذكر الآلوسى فى كتاب روح المعانى كلاما عن السدى قال : أخرج ابن أبى حاتم عنه أنه قال فيها : كان النفاق على ثلاثة أوجه : نفاق مثل نفاق عبد الله بن سلول ونظائره كانوا وجوهًا من وجوه الأنصار فكانوا يستحيون أن يأتوا الزنى ؛ يصونون بذلك أنفسهم وهم المذكورون فى الآية ، ونفاق الذين فى قلوبهم مرض ، وهم منافقون إن تيسر لهم الزنى

عملوه وإن لم يتيسر لم يتبعوه ويهتموا بأمره ، ونفاق المرجفين وهم منافقون يكابرون النساء يقتصون أثرهن فيغلبوهن على أنفسهن فيفجرون بهن ، وهؤلاء الذين يكابرون النساء يقول الله فيهم : (لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ) أى: لنحرضنك عليهم ، ثم يصفهم بكونهم ملعونين ، ويبين عقابهم بقوله : (أَيْنَمَا ثُقِفُوا) أى : فى أى مكان وجدوا يعملون هذا العمل الشائن ، (أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا) : ثم قال السدى : هذا حكم فى القرآن ليس يعمل به ، لو أن رجلًا فما فوقه اقتصوا أثر امرأة فغلبوها على نفسها ففجروا بها كان الحكم فيهم غير الجلد والرجم ، وهو أن يؤخذوا فتضرب أعناقهم ، (سُنَّةَ اللهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ) : كذلك كان يفعل بمن مضى من الأمم ، (وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا) : فمن كابر امرأة على نفسها فغلبها فقتل فليس على قاتله دية ؛ لأنه يكابر . ا هـ.

وما ذهب إليه السدى له تقديره ووجاهته ، فإنه الأولى والأجدر أن يعامل به هؤلاء الذين يسعون فى الأرض فسادًا ويغتصبون النساء وينتهكون أعراضهن غير عابئين ولا مبالين بالعقوبات غير الرادعة ، ولا خائفين من بطش الله وأخذه ، غير أنه لا يترك أمر عقاب وقتل من يفعل ذلك لعامة الناس ، بل لابد من الرجوع فى ذلك إلى القاضى - شأن سائر العقوبات والزواجر - حتى لا يتخذ الناس ذلك ذريعة وتَعِلَّةً للنيل من خصومهم وإهدار دمائهم .

(يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾)

المفردات :

(السَّاعَةِ) : يوم القيامة .

(لَعَنَ الْكَافِرِينَ) : طردهم وأبعدهم عن رحمته .

(أَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا) : هيأ لهم نارًا شديدة الاشتعال .

(وَلِيًّا) : معينًا .

(نَصِيرًا) : ناصرًا يخلصهم من النار .

التفسير

٦٣ - (يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا) :

كان المشركون والمنافقون يسألون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سؤال استهزاء وسخرية عن وقت قيام الساعة ، وكذلك كان يفعل اليهود امتحانا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأنهم يعلمون من التوراة أن الله قد أخفاها فأمر الله رسوله أن يقول لهم : « قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللهِ » فلا يطلع عليها ملك مقرب ولا نبي مرسل ، ثم يخاطب الله نبيه بقوله : (وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا) أى : أنها مع استئثار الله بعلمها فإنها مرجوة ومأمولة المجيء عن قريب ، يقول تعالى : « اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ »[١] ، والله - سبحانه - قد أخبرنا أن علامات الساعة وأشراطها قد جاءت ، فقال تعالى : « فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا »[٢] وأشراط الساعة يحدثنا عنها رسولنا الكريم فى حديثه الشريف الذى رواه الإمام البخارى : عن عبد الله بن أبى أوفى قال : بينما النبي - صلى الله عليه وسلم - فى مجلس يحدث القوم جاء أعرابى فقال : متى الساعة ؟ فمضى الرسول يتحدث ، فقال بعض القوم : سمع ما قال فكره ما قال ، وقال بعضهم : بل لم يسمع ، حتى إذا قضى حديثه . قال : أين السائل عن الساعة ؟ قال : ها أنا يا رسول الله . قال : « إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة . قال : كيف إضاعتها ؟ قال : « إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة » كما نجد بعض أماراتها فى آخر حديث عمر ابن الخطاب - رضى الله عنه - الذى جاء فيه جبريل - عليه السلام - فى صورة رجل شديد

---

(١) الآية الأولى من سورة القمر .

(٢) الآية ١٨ من سورة محمد .

بياض الثياب شديد سواد الشعر ،ويقول عمر ــ رضى الله عنه ــ : ولا يعرفه منا أحد ، فسأل رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ عن الإسلام فأجابه ، ثم سأله عن الإيمان فأفاده ، ثم عن الإحسان فأخبره به ، ثم عن الساعة فقال رسولنا الكريم ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل . قال : فأخبرنى عن أمارتها . قال : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان » إلى آخر الحديث[1] . وفى هذا الأسلوب القرآنى البديع تهديد للمستهزئين ، وتبكيت وتقريع للممتحنين المتعنتين .

وقد أخفى ــ سبحانه ــ وقت الساعة لحث المؤمنين ودفعهم إلى حسن الاستعداد للقاء الله بالعمل الصالح والإخلاص والإنابة له ،وتقصير الأمل فى الدنيا ،وعدم الاغترار بها ، كما أخفى ــ جل شأنه ــ الصلاة الوسطى فى الصلوات الخمس ليحرص الناس على الحفاظ عليها جميعا طلبا لها ، وابتغاء الظفر بها ، وأخفى ساعة الإجابة يوم الجمعة ، وليلة القدر فى العشر الأواخر من رمضان ، وأولياءه فى خلقه ، واسمه الأعظم من أسمائه الحسنى ، أخفى هذه الأشياء ليواظب المؤمن على أن يملأ هذه الأوقات بالذكر والعبادة والدعاء ، ويرعى حرمة المسلمين جميعا ويذكر الله بأسمائه الحسنى ؛ هذا وقد دأبت طائفة البهائية على نشر ما يسمونه بسر العدد التاسع عشر ويتحايلون على إضفاء قدسية عليه وتبجيل له ، ويدعون أن الحاسب الآلى يعطى تحديدا لزمن قيام الساعة ، ويحاولون أن يلووا ويطوعوا آيات القرآن الكريم لمعتقدهم الفاسد ،ونحلتهم الباطلة ،ولكن أنى لهم ذلك ،وعلماء الإسلام لهم بالمرصاد يتتبعونهم ويكشفون حيلهم وخداعهم ، ويدحضون مزاعمهم ويظهرون زيف قولهم وباطل دعوتهم والله من ورائهم محيط .

٦٤ ، ٦٥ ــ (إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا. خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا) :

بعد أن بين ــ سبحانه ــ أن الساعة آتية لا ريب فيها وأن وقتها مرجو ومأمول المجىء عن قريب ، أخبر وأكد أنه ــ تعالى ــ طرد الكافرين من رحمته وأبعدهم عن رضوانه ، وقطع

---

(١) رواه مسلم .

رجاءهم فى عفوه وفضله وأيئسهم من مغفرته : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ »[1] ، وليس الأمر قاصرا على الطرد من النعيم ، ولكنه - جل علاه - هيأ لهم وخلق - جزاء كفرهم - نارًا شديدة الاشتعال والاتقاد : « وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ »[2] يمكثون فيها أبدًا لا تنفك عنهم ولا تزايلهم ولا يجدون وليا يدافع عنهم أو يحفظهم منها ، ولا نصيرًا يجهد نفسه ويبذل وسعه فى أن يخلصهم وينقذهم من لظاها هذا العذاب كان جزاء كفرهم وعنادهم ، بعد أن هداهم إلى طريق الخير وبين لهم طريق الشر وبشر وأنذر : « وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ »[3] ، « وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ »[4] .

(يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾)

المفردات :

(تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ) : تدار وتصرف من جهة إلى أخرى ، أو تغير وتبدل من سيئ إلى أسوأ .

(سَادَتَنَا) : ملوكنا وحكامنا .

(كُبَرَآءَنَا) : رؤساءنا الذين نقتدى بهم فى الشر .

(ضِعْفَيْنِ) : مثلين .

---

(١) من الآية ١١٦ سورة النساء (٢) من الآية ٢٤ سورة البقرة (٣) الآية ١٠ من سورة البلد (٤) من الآية ٤٦ سورة فصلت.

التفسير

٦٦ - (يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى النَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا) :

بعد أن أوضح الله ما يصير إليه أمر هؤلاء من عذاب مقيم فى جهنم أبان - جل شأنه - ما يصدر منهم من قول وما يبدو من ندم :

ندم البغـاة ولات ساعة مندم والظـلم مرتعٌ مبتغيه وخيم

فيقولون - وقد غيرت وجوههم من حالة قبيحة وسيئة إلى حالة أقبح وأسوأ فى النار من شدة ما يألمون وهول ما يجدون - يقولون ويرددون نادمين متحسرين على ما فرط منهم - : ياليتنا استجبنا لله فآمنا به وأجبنا داعى الله ورسوله فصدقناه فيما جاء به ، لو حدث منا هذا ما أصابنا ما نعانيه من الهول العظيم والعذاب المهين . وخص - جل شأنه - الوجوه بالذكر مع أن أجسادهم كذلك ؛ لأن الوجوه أعظم الأعضاء مكانة وشرفا ، وذلك فيه ما فيه من الإذلال وتهويل الأمر وتفظيع الخطب وتفزيع النفس وترويع القلب .

٦٧ - (وَقَالُوا رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا) :

أى إنهم فى هذا اليوم بعد أن أبدوا ندمهم وأظهروا أسفهم ، أرادوا أن يتنصلوا من جريمتهم ، فيلصقوها بسادتهم وكبرائهم ، ممن كانوا لهم قادة فى الشر وقدوة فى الكفر ، فيقولون ما كان منا إلا الطاعة والخضوع والإذعان لهؤلاء الرؤساء فلم يكن منا عناد أو مكابرة أو مجالدة للرسل والأنبياء ، وإنما كنا تبعا لهؤلاء مستضعفين لديهم ، مقهورين تحت سلطانهم ، لانملك إلا أن نكون طوع أمرهم ، ولولا هؤلاء الرؤساء لكنا مؤمنين ، فهؤلاء قد رضوا أن يكونوا أداة فى أيدى أولئك يصرفونهم كما يشاءون ، إنهم يعتذرون بذلك رجاء الإفلات من العقاب ولكنه عذر مردود غير مقبول ، وحجة داحضة إذ كيف يغفلون نعمة العقل التى منحهم الله إياها فجعلها مناط المسئولية ومحور الجزاء : « كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ » .[1] ويهدرون

---

(١) الآية ٣٨ من سورة المدثر .

ما تفضل به عليهم وملأً به كونه من آيات وشواهد دالة على أنه الواحد .

٦٨ ـ (رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا) :

بعد أن يئس هؤلاء المرءوسون من تحميل الرؤساء مسئولية إضلالهم ، وأنه لافكاك لهم منه طلبوا من ربهم أن يضاعف العذاب ضعفين ويجعله كفلين ويكثره لهؤلاء الذين كانوا سبباً فى إضلالهم ؛ تشفياً فيهم وغيظاً منهم ، ضِعفا لضلالهم هم وضِعفاً آخر لإضلالهم غيرهم ، كما طلبوا أن يطردهم الله طردًا كبيرًا ويبعدهم بعدا سحيقاً لا أمل فى رحمة بعده ، وهم بهذا الدعاء على رؤسائهم إنما ينفسون عن أنفسهم من غيظ وغضب .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾)

المفردات :

(فَبَرَّأَهُ اللهُ) : أظهر براءته .

(وَجِيهاً) : عظيم القدر رفيع المنزلة .

(سَدِيدًا) : قاصدًا ومتوجها إلى هدف معين .

التفسـير

٦٩ - (يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ آذَوْاْ مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُواْ وَكَانَ عِندَ اللهِ وَجِيهاً) :

بهذه الآية الكريمة يرشد الله المؤمنين ، وينهاهم عن أن يتشبهوا بقوم موسى غلاظ القلوب الذين آذوا وأهانوا رسول الله موسى - عليه السلام - ورموه بشتى أنواع النقائص فنسبوا إليه السحر والجنون ولطخوه بالزنى ، وأشاعوا عنه أنه قتل أخاه هرون ؛ لأنهم كانوا يحبونه ويؤثرونه للين جانبه معهم وحدة موسى عليهم ، فأظهر الله - سبحانه - براءة موسى مما نسبوه إليه ، وأبان ظلمهم له وحيفهم عليه ، فدمغهم بالكذب والافتراء ، وقرر أن موسى عليه السلام رفيع القدر لديه ، عظيم المنزلة عنده ، صنعه على عينه ، ورعاه رضيعاً وآثره بالآيات البينات التسع ، وناداه من جانب الطور الأيمن ، وقربه وناجاه ، واتخذه كليماً : فحقا كان عند الله وجيهاً ذا منزلة رفيعة وجاه عريض ، قيل : نزلت فيما كان من أمر المنافقين فى شأن تزوجه - صلى الله عليه وسلم - زينب بنت جحش ، حيث قالوا : تزوج زوجة من تبناه ، فآذوه بما قالوا مع أنها ابنة عمته ، ولو أراد لتزوجها بكرًا ، ولكن زيدًا طلقها باختياره ، وأمر النبى - صلى الله عليه وسلم - بنسخ عادة التبنى وآثارها ، وأن يتزوج طليقة زيد متبناه ، تأكيدًا لنسخ أحكام التبنى .

٧٠ - (يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا) :

ينادى الله عباده بأحب صفة لهم - وهى الإيمان بالله - يناديهم آمرًا لهم أن يكونوا فى وقاية وحفظ من غضب الله وعقابه ، فلا يقربوا معصية ، ولا يفرطوا فى طاعة ، مداومين على التمسك بالتقوى ، ليكونوا فى رعاية الله وعنايته « إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ »[1] .

ثم يأمرهم أن يقولوا القول الصواب ، يوجهونه ويقصدون به وجه الحق ، ولا يعدلون به إلى القول الباطل الجائر ، لا يشركون مع الله أحدًا ، ولا يخشون فى الحق لومة لائم .

---

(١) الآية ١٢٨ من سورة النحل .

٧١ـ (يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيماً) :

رتب ـ سبحانه ـ على تقواهم لله وتحريهم القول الصادق أنه يكافئهم ويجازيهم على ما يفعلون جزاءً حسناً ، وثواباً جزيلا ، وذلك بأن يصلح لهم أعمالهم ، أى : يوفقهم إلى الصالح والمرضى منها ، ويبارك لهم فيها ، ويتقبلها بالقبول الحسن ، ويغفر ويكفر سيئاتهم فيسترها ولا يفضحهم بها ، بل إنه ـ عز جاهه ـ يذهبها ويمحوها «إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ » [١] ثم إذا أحسن العباد التوبة والإنابة إلى الله ـ تعالى ـ وعملوا العمل الصالح ، فمن سعة رحمته وعظيم فضله يجعل سيئاتهم حسنات ، قال تعالى : « إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيماً » [٢] .

ومن يمتثل أمر ربه وأمر رسوله فيفعل ماأُمر به ، وينتهى عما نهى عنه فقد ظفر وسعد ونال الجزاء الأوفى فى الآخرة والأُولى ، وفاز بالجائزة الكبرى التى يتعاظم قدرها وتسمو منزلتها وتعلو مكانتها .

(إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾)

---

(١) من الآية ١١٤ سورة هود .

(٢) الآية ٧٠ من سورة الفرقان .

المفـردات :

(عَرَضْنَا) : طلبنا . (الْأَمَانَةَ) : هي التكاليف الشرعية .

(وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ) : والتزم الإنسان القيام بها .

(ظَلُوماً) : كثير الظلم . (جَهُولًا) : كثير الجهل .

التفسير

٧٢ـ (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ...) إلخ الآية :

لما بين الله ـ سبحانه ـ عظم شأن طاعة الله ورسوله ، وذلك بإنذار المتمردين والخارجين عليها بالعذاب الشديد ، وبشارة من قام بها وأذعن لها بالحظ العظيم والفوز الكبير ،أتى عقب ذلك ببيان رفعة التكاليف الشرعية وإظهار عظمتها وخطرها وسمو منزلتها ،فقال :(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ) أى : طلبنا من هذه المخلوقات العظيمة والكائنات الضخمة الكبيرة أن يقمن بأداء التكاليف الشرعية دون إلزام منا وقهر عليها ،فأبت وامتنعت عن القيام بهذه المسئولية الجليلة ، ولم يكن إباؤها وامتناعها عن تمرد وعصيان ، كإباء إبليس حينما أبى السجود لآدم ، إذ كان إباؤه عن استكبار واعتراض وتمرد على أمر الله قال تعالى : « وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١) » . وإنما كان إباؤها عن خوف وإشفاق من أنها لا تستطيع أداءها على وجه يرضى عنه ربها وخالقها .

والمراد بالأمانة التكاليف الشرعية الشاملة لأمانات الناس وعرضها على السموات والأرض والجبال وامتناعها من قبول التكليف بها تمثيل لصعوبة الالتزام بأدائها فأشفقن منها لذلك .

وقال القفال وغيره : العرض فى هذه الآية ضرب مَثَلٍ ، أي أن السموات والأرض على كبر أجرامها ، لو كانت بحيث يجوز تكليفها لثقل عليها تقلد الشرائع ، لما فيها من الثواب والعقاب ، أى أن التكليف أمر حقه أن تعجز السموات والأرض والجبال. وقد كلفه الإنسان وهو ظلوم جهول لو عقل، وهذا كقوله :«لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ

(١) الآية ٣٤ من سورة البقرة .

جَبَلٍ » . ثم قال : « وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ » قال القفال : فإذا تقرر أنه تعالى يضرب الأمثال ، وورد علينا من الخبر مالا يُخرَّج إلا على ضرب المثل وجب حمله عليه : اهـ [1] .

والمراد من حمل الإنسان لها قبوله الالتزام بأدائها . إما بإعداد الله له بما زوده من ملكات وغرائز وطبائع وماغرس فيه من قدرات . وإما بقبول ذلك قولا يوم أن أخذ الله عليه الميثاق وهو فى عالم الذر ، قال تعالى : « وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ » [2] وكان قبول الإنسان القيام بها يقتضى أن يشمر عن ساعد الجد ، ولكن الإنسان كان شديد الظلم لنفسه فقد ترك الأمانة ولم يقم بحقها ، وفرط فى جنب الله فلم يلتزم بالمسلك السوى والطريق المستقيم ، وكان كثير الجهل غارقا فى بشريته مطيعاً لهواه ونفسه الأمارة بالسوء ، ومكن منه الشيطان ولم يتبصر ويدرك ما ينتظره وما يؤول إليه أمره من عذاب أليم وعقاب مقيم ، فكان فى جهالة جهلاء ، والمراد من الإنسان فى الآية الكريمة معظم هذا النوع وأكثره ؛ إذ هناك من الناس من قام بنصيب وافر وحظ عظيم من أداء الأمانة والقيام بالتكاليف ، قال تعالى : « وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ » [3] .

وللزمخشرى صاحب الكشاف رأى جدير بالتسجيل والتنويه به ؛ فقد قال : والمراد بالأمانة الطاعة ؛ لأنها لازمة الوجود كما أن الأمانة لازمة الأداء ؛ وعرضها على الجمادات وإباؤها وإشفاقها مجاز ، قال : إن هذه الأجرام العظام من السموات والأرض والجبال قد انقادت لأمر الله — عز وعلا — انقياد مثلها ، وهو ما يتأتى من الجمادات وأطاعت له الطاعة التى تصح منها وتليق بها حيث لم تمتنع على مشيئته وإرادته إيجادًا أوتكويناً وتسوية على هيئات مختلفة ، وأشكال متنوعة كما قال تعالى : « أَتَيْنَا طَائِعِينَ » [4] وأما الإنسان فلم يكن حاله فيما يصح منه من الطاعات ، ويليق به من الانقياد لأوامر الله ونواهيه وهو حيوان عاقل صالح للتكليف مثل حال تلك الجمادات فيما يصح منها ويليق بها من الانقياد وعدم الامتناع وأما حمل الأمانة فمن قولك : فلان حامل الأمانة ومحتمل لها ، تريد أنه لم يؤدها إلى صاحبها

(١) انظر القرطبى .
(٢) الآية ١٧٢ من سورة الأعراف .
(٣) من الآية ١٣ سورة سبأ .
(٤) من الآية ١١ سورة فصلت .

حتى تزول عن ذمته ، وتخرج عن عهدته ؛ لأن الأمانة كأنها راكبة للمؤتمن عليها ، وهو حاملها ، ألا تراهم يقولون : ركبته الديون ، ولى عليه حق ، فإذا أداها لم تبق راكبة له ولا هو حاملا لها إلى أن قال : فمعنى « فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا » ، « وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ » فأبين إلَّا أن يؤدينها ، وأبى الإنسان إلا أن يكون محتملا لها لايؤدبها ، ثم وصفه بالظلم لكونه تاركاً لأداء الأمانة ، وبالجهل لإخطائه ما يسعده مع تمكنه منه وهو أداؤها . ا هـ .

ورأى الزمخشرى هذا يلتقى مع ماقبله فى أن كلا منهما يدين ويؤثّم ويتوعد من يضيّع الأمانة ولا يقوم بحقها .

ولما كانت المعصية والطاعة سببا وعلة للجزاء قال تعالى :(لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ. وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيماً) أى : أن الله – سبحانه– يعذب المنافقين الذين يعبدون الله بجوارحهم ، وقلوبهم غير مطمئنة بالإيمان ، كما يعذب من يشرك بعبادة ربه أحدا سواه ، ويتوب ويغفر الهفوات واللمم من السيئات عن المؤمنين والمؤمنات تفضلا منه وجزاء انقيادهم وطاعتهم « إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ » والله – جل شأنه – غفور لسيئات عباده رحيم بهم .

« سورة سبأ »

نزلت بمكة المكرمة وعدد آياتها أربع وخمسون ، ، وسميت بهذا الاسم لورود قصة سبأ فيها وهم قبائل كانت تسكن اليمن ، وسبأ : لقب أبيهم الذى يجمع قبائلهم عامة واسمه عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان وكانت بلقيس بنت شراحبيل ملكة عليهم وهى التى أنبأ الهدهد سيدنا سليمان - عليه السلام - نبأها[1] .

صلة هذه السورة بما قبلها :

١ - أن كلا من السورتين ورد فيه أمر الساعة ، فى سورة الأحزاب يقول الله -تعالى : « يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً » ويقول - تعالى - فى سورة سبأ : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ) .

٢ - أنه قد جاء ذكر الضعفاء والذين استكبروا فى كل من السورتين : يقول - تعالى - فى سورة الأحزاب : « يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى النَّارِ يَقُولُونَ يَالَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاْ ،وَقَالُوا رَبَّنَآ إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ » . الآيتان ٦٦ ، ٦٧ وفى سورة سبأ يقول الله تعالى : (وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ . .) الآيات[2] . إلى غير ذلك مما يربط بين السورتين .

اهم مقاصد السورة :

١ - تمجيد الله - تعالى - والثناء عليه فى الدنيا ، وتخصيصه بالحمد كله فى الآخرة : « الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِى الْآخِرَةِ » .

---

(١) ارجع إلى القصة فى سورة النمل . (٢) الآيات : ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣

٢ ـ إثبات أمر قيام الساعة ، وبيان إحاطة علم الله بمادق وعظم فى ملكوته وملكه : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى السَّمٰوَاتِ وَلاَ فِى الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ).

٣ ـ بيان ما أكرم الله به نبيه داود ـ عليه السلام ـ من أن الجبال والطير ترجِّع التسبيح مَعَه إذا سبح وأنه ـ تعالى ـ جعل له الحديد ليناً يعمل منه الدروع ، قال تعالى : (يَا جِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ) .

٤ ـ ذكر تسخير الريح لنبى الله سليمان ـ عليه السلام ـ تجرى بأمره، وأنه أذاب له النحاس يسيل كالماء ، وأن الجن كانت تعمل بين يديه ، بإذن ربه ، قال تعالى : (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ، وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ) .

٥ ـ بيان أن داود وآله طلب منهم أن يشكروا نعم الله عليهم (اعْمَلُوٓا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا) .

٦ ـ تسجيل ماكان لسبإ من نعيم وماكان فى مسكنهم من جنتين خيرهما كثير . وما من الله عليهم به من البركة والأمن بتقارب قراهم ، فلم يشكروا نعمة الله عليهم وأعرضوا فأرسل الله عليهم سيلا مدمرًا وبدلهم بجنتيهم جنتين ثمرهما قليل أوردىء لاخير فيه ، وماكان من ظلمهم أنفسهم بأن طلبوا أن يباعد الله بين قراهم ليمشوا المسافات الطويلة فى الصحارى والقفار فجعل الله سيرتهم تروى للاتعاظ بها وتكون مثالا لكفر النعمة كما شتت شملهم ومزقهم كل ممزق .

٧ ـ تصوير مَشْهَد من مشاهد يوم القيامة وإبراز مايقع فيه من جدل وشقاق بين الذين استضعفوا والذين استكبروا ، وكل يلقى التبعة على الآخر ، توضح ذلك الآيات (٣١ ، ٣٢ ، ٣٣) .

٨ ـ بيان أن المترفين وأولى النعمة هم فى كل أمة رأس الكفر والتكذيب ، حيث تفتنهم أموالهم وتغرهم أولادهم ، ويزهون ويتكبرون بجاههم ، ولكن الله بين لهم أن أموالهم وأولادهم لاتقربهم من ربهم ، ولا تنجيهم من عذابه . من الآيات ٣٤ ، إلى ٣٨

٩ ـ تسلية الله رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه ناصره على الكافرين وخاذلهم فإنه ـ سبحانه ـ قد شدد النكير والعذاب على من كان أشد منهم قوة وأكثر عددًا ، قال تعالى : (وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَآ آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) :

ويختتم ـ جل شأنه ـ السورة بأنه إذا جاء يوم القيامة فلا نجاة لهؤلاء ، وأنه لاينفعهم إيمانهم آنذاك ، قال تعالى : (وَقَالُوٓا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ) ، ويحال بينهم وبين دخول الجنة ويكون شأنهم شأن من شابههم فى الكفر من الأمم الماضية ، قال تعالى : (وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ) .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾)

المفردات :

(يَلِجُ) : يدخل . (يَعْرُجُ) : يصعد .

التفسير

١ ـ (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِى الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ) :

كل الثناء الحسن على الله مصدر الخير والإحسان ومالك كل الكائنات ، فطرها على

أبدع نظام، وخلقها فى أحسن إحكام، فهو - جل ثناؤه - يحمد فى الدنيا وهو الحقيق بذلك الحمد وإن كان يحمد فيها غيره ويشكر سواه؛ فإن ذلك راجع إلى أن غيره يكون سبباً وطريقاً إلى وصول نعم الله وانتهائها إلى المنعم عليه بها، فالمنعم فى الحقيقة هو الله، أما فى الآخرة فهو المستحق للحمد وحده فقد قطعت الأسباب، وكل نفس بما كسبت رهينة، وهو - سبحانه - مختص بالحمد لما أعده لعباده من نعيم مقيم، وتفضل بعفوه عن بعض الخطائين المذنبين، ولعدالته المطلقة مع خلقه أجمعين. (وَهُوَ الْحَكِيمُ) الذى أتقن كل شىء صنعا، وأحسن كل كائن خلقاً وإبداعاً (الْخَبِيرُ) ببواطن الأمور المحيط بكل شىء علماً.

٢ - (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ):

يدرك ويحيط بكل ما ينفذ إلى باطن الأرض من ماء يتخلل أجزاءها، وجذور تتعمق فى جوفها، كما يعلم ما يأوى إلى جوفها من هوام وحشرات ودواب، وغير ذلك مما يخطئه العد والحساب وسبحانه يعلم مايخرج من بطنها إلى سطحها من نبات ومعادن، وماء ونفط وغير ذلك مما يكون حياة وخيرًا كالرزق الحسن، أوعذاباً مدمرًا كالبراكين والزلازل، ويعلم - سبحانه - ما ينزل ويهبط علينا من أجواء الفضاء كالملائكة التى تتنزل بالرحمات والخير للطائعين المخبتين أو تنزل بالعذاب والنكال على الطاغين المجرمين، ويعلم ما ينزل من الضوء والحرارة والأشعة والشهب والأمطار والثلوج، ويعلم - جل شأنه - ما يصعد ويعرج فى السماء من كلم طيب وعمل حسن، وملائكة تصعد بأعمالنا، وغازات وبخار، وصواريخ ومركبات وموجات لاسلكية، وأضواء منعكسة من الأرض إلى غير ذلك مما يعلمه علام الغيوب.

وهو الكامل الرحمة الذى أمد الناس بنعمه الجليلة، وهو - سبحانه - مع كامل رحمته واسع المغفرة. كما قال - سبحانه -: « قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا

مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ[1] »وذلك للتائبين لقوله عقبها « وَأَنِيبُوٓا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ » .

(وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾)

المفردات :

(بَلَى) : حرف جواب يأتى بعد النفى للإثبات .

(يَعْزُبُ) : يبعد أو يغيب .

(ذَرَّةٍ) : هباءة أو نملة صغيرة .

(مُعَاجِزِينَ) : ظانين تعجيز آيات الله .

(رِجْزٍ) : أسوأ عذاب .

التفسير

٣ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى السَّمَـٰوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ) :

(١) الآية ٥٣ من سورة الزمر .

وقال الكافرون : إن الساعة لا تأتيهم إنكارًا منهم قيامها ، وجحدًا لمجيئها فلما حدث منهم ذلك أمر الله ـ سبحانه ـ رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقسم لهم بربه ـ جل علاه ـ أنها آتية فقال : (قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ) أى : سيقع ما تنفون ويحصل ما تنكرون ، ووصف ـ سبحانه ـ نفسه بأنه عالم الغيب كله ، وهذا أدخل فى إقامة الحجة عليهم إذ أن قيام الساعة من أدق الأمور الغيبية وأخفاها ، ثم أكد ذلك وعززه بأنه لايبعد ولايغيب عنه ما مقداره وزن هباءة أو أصغر نملة كائنة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا وهو مسطور مسجل فى كتاب واضح بين وهو اللوح المحفوظ ، وليقطع الله عليهم طريق اللجاجة والتكذيب أنذرهم بالجزاء على العمل ، فالله ـ سبحانه ـ بحكمته جعل لكل عمل جزاء فالمحسن يثاب كما قال تعالى :

٤ ـ (لِيَجْزِىَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) :

أى لتأتينكم الساعة ليثيب الله ـ سبحانه ـ من تمكن الإيمان فى قلوبهم فأثمر الأعمال الصالحة ، والأفعال المرضية ، لهم ـ دون غيرهم ـ غفران ماعسى أن يكون قد وقع منهم من هفوات ـ فهم بشر ـ ولهم مع هذه المغفرة العظيمة الواسعة الشاملة رزق واسع طيب حسن فى دار النعيم .

والمسىء يعاقب كما قال تعالى :

٥ ـ (وَالَّذِينَ سَعَوْا فِى آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ) :

أى أن : أولئك الذين يسعون بالإثارة والإنكار لآيات الله وقرآنه فينسبونه إلى السحر أو الشعر أو الكهانة أو يقولون عنه إنه أساطير الأولين ظانين إبطال آيات الله أو تعجيزها عن أن تصل إلى الناس فى نقائها وصفائها لتعمل عملها الطيب المبارك فى القلوب فتهديها إلى الحق والنور ، أو أنهم يعملون على تعجيز المؤمنين عن تكثير أتباعها هؤلاء لهم ـ دون سواهم ـ عذاب بالغ السوء فى إيلامه .

(وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾)

المفردات :

(أَفْتَرَىٰ) : أكذب واختلق . (جِنَّةٌ) : جنون .

(نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ) : نغيبهم فى بطنها .

(كِسَفاً) : جمع كسفة ؛ وهى القطعة .

(مُنِيبٍ) : راجع وتائب إلى الله — تعالى — .

التفسير

بعد أن بين الله — سبحانه — حال المكذبين لآياتنا ومآلهم عقب ذلك ببيان رأى أولى العلم فيما أنزل على الرسول — صلى الله عليه وسلم — فقال :

٦ — (وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) :

المراد من الذين أُوتوا العلم : أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والذين بعدهم سالكين طريقتهم ، أو هم أهل الكتاب الذين آمنوا برسول الله ، أو هم أولئك وهؤلاء جميعاً ، والمعنى : ويرى الذين أعطاهم الله علماً يقينياً تسامى فى الصدق وتمكن فى القلب – يرون الذى أنزل إليك من لدن حكيم عليم هو الصدق الخالص ، والحق الثابت الذى لامرية فيه ، أما ما يفعله المعاجزون فهو باطـل وزيف لا غناء فيه ، وما أنزل إليك يهدى ويرشد كذلك إلى طريق وصراط الله العزيز الغالب الذى لا يغالب ، وهو الحميد الذى يحمدويشكر سعى من يصدق ويعمل صالحاً فيجازيه الجزاء الحسن ، وفى هذا الأسلوب الحكيم تنبيه وإرشاد إلى الالتجاء إلى الله رهبة من انتقام العزيز ورغبة فى فضل وعطاء الحميد ، وتثبيت لقلب نبيه ، وبشارة له بأنه ناصر دينه وناشره وحافظه ، وخاذل أعدائه ومهلكهم .

٧ ، ٨ – (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ . أَفْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً أَم بِهِ جِنَّـةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُـونَ بِالْآخِرَةِ فِى الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ) :

لما عجز الكفار فى أمر الساعة عن مقارعة الحجة بالحجة ، والبرهان بالبرهان لجأوا إلى أسلوب العاجز وهو السخرية والسفه والإثارة ، فقال فريق منهم لفريق آخر – استهزاءً برسول الله – صلى الله عليه وسلم – واستبعاداً لأمر البعث – : هل ندلكم على رجل منكم يحدثكم بأعجوبة من الأعاجيب ، وأمر مستبعد غريب ، وهو أنكم إذا صرتم رفاتاً وتراباً ، ومزق الفناء أجسادكم كل ممزق ، وبدد البلى أجزاءكم كل تبديد – ينبئكم – أنكم تبعثون وتعودون خلقاً جديداً سوياً .

وإمعاناً منهم فى السخرية والاستهزاء تجاهلوا اسم رسول الله وأتوا به نكرة كأنه ليس معروفاً لديهم .

ثم هم مع ذلك يتغافلون عن شأنه – وهو بينهم الصادق الأمين – فيقولون : أهو مفتر وكاذب فيما يدعيه على الله وينسبه إليه ، أم به جنون يوهمه ذلك ويلقيه على لسانه ؟ فيرد الله عليهم بقوله : (بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِى الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ) إضراب عن الأمرين ودحض لهما جميعاً أى : ليس الأمر كما يفترى الكافرون ، فالرسول – عليه الصلاة والسلام –

لم يكن منه افتراءٌ ولا كذب على الله ، ولا به جنون ولكن هؤلاء - بسبب إنكارهم للبعث - في العذاب الشامل الذى ينتظرهم ، وفى الضلال والزيغ الذى عمّهم وبعد بهم عن طريق الهداية ، ونأى وشط عن الصراط المستقيم .

٩ - (أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ) :

أى أعَمِى هؤلاء الكافرون فلم يبصروا وينظروا إلى ما يحيط بهم من بديع صنع الله فى سمائه وأرضه فإن فيها ما يدعو إلى تدبر المتدبرين ، وتفكير أُولى الألباب والمستبصرين ، فضلا عن أنهم جميعاً لا يقدرون على أن يخرجوا أو ينفذوا من أقطار السموات والأرض ، فهو - سبحانه - قاهر لهم وهم فى قبضته فإن شاء خسف بهم الأرض وغيبهم فى بطنها كما فعل بقارون ، قال تعالى : « فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ »[1] . أو يسقط وينزل عليهم قطعاً من السماء تهلكهم كصنيعه مع أصحاب الأيكة ، قال تعالى : « فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ[2] » ثم يؤكد أن النظر فى السموات والأرض والتدبر فيها والاعتبار بما حصل للأمم السابقة علامة وأمارة وهداية لكل عبد راجع إلى ربه ملتجئ إلى مولاه ، متوكل عليه .

* (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾)

المفردات :

(أَوِّبِى مَعَهُ) : رَجِّعى معه التسبيح ، من التأويب وهو الرجوع بعد الرجوع .

(أَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ) : طوّعناه له من غير نار ولا مطرقة .

---

(١) من الآية ٨١ من سورة القصص . (٢) الآية ١٨٩ من سورة الشعراء .

(سَابِغَاتٍ) : واسعات ضافيات .

(قَدِّرْ) : أَحْكِمْ أو اقتصد . (السَّرْدِ) : نسج الدروع .

التفسـير

١٠ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ . . .) الآية :

أشارت الآيات السابقة على هذه الآيات إلى إنكار المشركين أمر البعث ، واستبعاد حصوله .فجاءت هذه الآيات تبرز قدرة الله-تعالى-في معرض فضله على أنبيائه بمالايمكنهم إنكاره بعد أن فاضت به أخبارهم وأشعارهم . وفى ذكر ذلك بعد ذكر تكذيب المكذبين للنبي ﷺ ما يشير إلى صدق رسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - وأن إرساله لم يكن بدعاً ، بل كان مما جرت به سنة الله قبله فى الأرض من إرسال الرسل قبله وتأييدهم بالمعجزات . وإحلال العقاب بمن خالفهم .

والمعنى : ولقد آتينا وأعطينا داود من عندنا نعمة وإحسانا ، لحسن إنابته وصدق توبته بما منحناه من الملك ، وفصل الخطاب ، وغير ذلك ، وقوله تعالى : (يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ) تَفْصِيل لبعض الفضل الذى أعطاه الله إياه ، ومعناه : ياجبال رجعى معه التسبيح كلما سبح . روى أنه - عليه السلام- كان إذا سبح سبَّحت الجبال مثل تسبيحه بصوت يسمع منها ، ولا يعجز الله - جلت قدرته- أن يجعلها بحيث تسبح بصوت يسمع - وقد سبح الحصى فى كف رسولنا عليه الصلاة والسلام -وسمع تسبيحه ، فلا يبعد ما قيل : من أن الله - عز وجل - خلق فيها الفهم وناداها وأمرها بذلك كما ينادى أولى الفهم ويأمرهم ، وأنها امتثلت ما أُمرت به . وقيل : المعنى ارجعى إلى مراده فيما يريد من حفر واستنباط أعين ، واستخراج معدن وإنشاء طريق ، وقوله تعالى : (وَالطَّيْرَ) معناه : وسخرنا له الطير ؛ لأن إيتاءها إياه - عليه السلام- هو تسخيرها له ، وفى تنزيل الجبال والطير منزلة العقلاء المطيعين لأمره المذعنين لحكمه ، ما يشعر بأنه مَا مِنْ حيوانٍ ولا جماد ، ولا صامت ولا ناطق ؛ إلا وهو منقاد إلى مشيئة الله - تعالى -

غير ممتنع على إرادته ـ سبحانه ـ وقوله تعالى : (وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ) معناه : طَوَّعناه ، وجعلناه فى يده ليناً يصنعه كيف شاء ، ويتصرف فيه بما يشاء .

١١ ـ (أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِى السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) :

أى ألنا له الحديد وأمرناه أن اعمل منه سابغات ، ويحتمل أن تكون علة وغاية على معنى ألنا له الحديد ليعمل سابغات .

وعن مقاتل أنه ـ عليه السلام ـ حين ملك على بنى إسرائيل كان يخرج متنكراً فيسأل الناس عن حاله ، فعرض له ملك فى صورة إنسان فسأله ، فقال : نعم العبد لولا خلة فيه ، فقال : وماهى ؟ قال : يُرْزَقُ من بيت المال ، ولو أكل من عمل يده لتمّت فضائله ، فدعا الله ـ تعالى ـ أن يعلمه صنعة ويسهلها عليه فعلمه صنعة الدروع ، وألان له الحديد ، فأثرى ، وكان ينفق ثلث المال فى مصالح المسلمين ، وكان يفرغ من الدرع فى بعض يوم أو بعض ليلة وثمنها ألف درهم ينفق بعضها على أهله ، وينفق الباقى فى مصالح المسلمين والصدقات .

كذا قيل ، ولعل الأقرب إلى الفهم أن داود ـ عليه السلام ـ كان يكره أن يرزق من بيت المال ، ويحب أن يأكل من عمل يده تورعاً ، فدعا الله أن يعلمه صنعة وييسرها له ليأكل من عمل يده فتم له ذلك وييسره الله له وكان أول من اتخذها .

وقوله تعالى : (وَقَدِّرْ فِى السَّرْدِ) معناه : وأحكم نسج الدرُوع وأتقن صنعتها بحيث تتناسب حلقها ولا تكون مضطربة قلقة ولا تكون غليظة فيشق حملها ولا خفيفة فيسهل كسرها ، وقيل : معنى قدِّر فى السرد : اقتصد فى نسج الدروع فلا تصرف وقتك كله فيه ، واعمل فيه بما يوفرلك القوت والإعاشة ، واصرف باقى وقتك فى عبادة الله وطاعته ، وهذا هو الأنسب بقوله تعالى : (وَاعْمَلُوا صَالِحاً) فإنه خطاب من الله ـ تعالى ـ لداود وآله وتكليف لهم بالعمل الصالح الذى يرضى الله تعالى ، ومع أن أهله لم يجر لهم ذكر

فإنهم يفهمون التزامًا من ذكره ، وأجاز بعضهم أن يكون المراد بالعمل الصالح إتقان عمل الدروع ، وحينئذ يكون الخطاب خاصًا ، ويحتمل أن يكون أمرًا عامًّا بالعمل الصالح مطلقًا بما فى ذلك عمل الدروع .

وقوله تعالى : (إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) معناه : إنى عالم بكل ما تفعلونه مُطَّلع عليه لا يخفى على شىءٌ منه ، وهو تعليل للأمر أو لوجوب الامتثال متضمن للتحذير من مخالفته على وجه الترهيب والترغيب ، فإن من يعمل عملا للملك ، ويعلم أنه بمرأى منه وتحت عينه يحسن العمل ويتقنه ويجتهد فيه حتى ينال رضاه ، ويحظى بالأمن والأمان عنده .

(وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾)

المفردات :

(وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ) : بنصب الريح على معنى وأعطينا سليمان الريح ، وبالرفع على تقدير : ولسليمان الريحُ مسخرةٌ .

(غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ) : جريها بالغداة مسيرة شهر وجريها بالعشى كذلك .

(وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ) القطر : النحاس الذائب ، أى : أجرينا معدن النحاس سائلا كما ينبع الماءُ من العين .

(يَزِغْ) : يعدل ويخالف ما أمرناه به .

(مَحَارِيبَ) : جمع محراب . قيل : معناها قصور ، وقال المبرد : لا يسمى محراباً إلَّا ما يرتقى إليه بدرج - وقيل : المساكن والمجالس الشريفة المصونة عن الابتذال ، وقيل : المساجد .

(وَتَمَاثِيلَ) : جمع تمثال وهى الصور .

(جِفَانٍ) جمع جفنة : وهى ما يوضع فيها الطعام من أعظم القصاع وأكبرها ، ويليها فى الصغر القصعة ، ويليها المِئْكلة ، ويليها الصُّحَيفَة .

(كَالْجَوَابِ) : جمع جابية : وهى الحياض التى يُجْبى فيها الماء للإبل .

(قُدُور) جمع قدر وهى ما يطبخ فيه من فخار ونحوه على شكل مخصوص .

(رَاسِيَات) : ثابتات على الأثافى[1] لا تنزل عنها لعظمها .

التفسير

١٢ - (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ) :

هذه الآية شروع فى تعداد ما من الله به على سليمان بعد بيان ما آتاه - عزَّ وجَلَّ - لداود عليهما السلام . والمعنى : وسخرنا لسليمان الريح ، وذللناها له تخضع لأمره ، وتتحرك على مقتضى إرادته كالمملوك المختص بالمالك يأمرها بما يريد ، ويسيطر عليها كما يشاء فهى مسخرة ومذعنة لأمره .

ومعنى (غدوها شهر ورواحها شهر) : جريها بالغداة - أول النهار - مسيرة شهر ، وجريها بالعشى - آخر النهار - مسيرة شهر ، فكانت تسير فى اليوم مسيرة شهرين للراكب أخرج أحمد فى الزهد عن الحسن أنه قال فى الآية : كان سليمان -عليه السلام- يغدو من بيت المقدس فَيَقِيلُ باصطخر ثم يروح من اصطخر فيقيل بقلعة خراسان .

---

(١) الأثافى : ما يوضع عليه القدر من الحجارة ، ومفردها أثفية .

قال ابن الحاجب فى أماليه : إنما أعاد لفظ الشهر للإعلام بمقدار زمن الغدو وزمن الرواح ، والألفاظ التى تأتى مبينة للمقادير لايحسن فيها الإضمار ، ولم يقتصر على زمن الغدو ليقيس عليه زمن الرواح ؛ لأن الرياح كثيرًا ما تسكن ، أو تضعف حركتها بالعشى فدفع بالتنصيص على زمن الرواح توهم اختلاف الزمانين .

وإنما لم يقل : ومع سليمان الريح كما قال - فى داود - : ياجبال أوبى معه ، لأن حركتها بتسخير سليمان لها ، وسلطانه عليها بأمر ربها ، فتسير معه حيث شاء وهذا على خلاف تأويب الجبال ، فإنه كان تبعاً لتأويب داود - عليه السلام - ولم يكن مسلطاً عليها .

وقوله تعالى : (وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ) . معناه : وأجرينا له معدن النحاس بعد إذابته - كما ألنَّا الحديد لداود - فسال ونبع كما ينبع الماء من العين ، فلذلك سمى عين القطر باسم ماآل إليه ، وكانت الأعمال تتأتى به وهو بارد ، ولم يلن ولا ذاب لأحد قبله :(وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ) أى : ومن الجن فريق يعمل بين يدى سليمان بإذن الله وأمره كما ينبىء عنه قوله تعالى : (وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا) أى : ومن يخرج من الجن عما أمرناهم به من طاعة سليمان والعمل بأوامره وإرشاداته (نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ) : أى : نصله يوم القيامة ألوانًا من عذاب جهنم جزاء وفاقًا لخروجه على أمرنا ، فالمقصود بالعذاب عذاب الآخرة ، وفى هذا دلالة على أن الجن مكلفون كالبشر .

وعن الحسن قال : الجن ولد إبليس ، والإنس ولد آدم ، ومن هؤلاء وهؤلاء مؤمنون ، وهم شركاء فى الثواب والعقاب . ومن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمناً فهو ولى الله - تعالى - ومن كان كافرًا فهو شيطان .

هذا وفى قوله تعالى :(بِإِذْنِ رَبِّهِ) بذكر لفظ الرب ، وقوله : عن أمرنا بالإضافة إلى الضمير لمحة لطيفة ؛ لأن لفظ الرب ينبىء عن الرحمة ، فناسب ذكره عند الإشارة إلى حفظ سليمان كما ناسب عند الإشارة إلى تعذيب الجن ذكر ضمير العظمة الموجب لزيادة الخوف .

١٣ ـ (يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوٓا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) :

هذه الآية تفصيل لما يقوم به الجن من الأعمال لسليمان ـ عليه السلام ـ .

والمعنى : يعمل هؤلاء الجن لسليمان مايشاءُ عمله من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات .

والمحاريب جمع محراب ، وهى قصور حصينة ، ومساكن شريفة ، ومنازل شاهقة سميت بذلك لأنه يحارب غيره لحمايتها ، وقيل : هى صدور المجالس .

قال المبرد : لا يسمى محراباً إلا ما يرتقى إليه بدرج ، وقيل : هى المساجد .

ويطلق المحراب أيضاً على المكان المعروف الذى يقف بحذائه الإمام ، وهو مما أحدث فى المساجد ولم يكن فى الصدر الأول ، ولذا كره الفقهاء الوقوف فى داخله .

وتماثيل : جمع تمثال . قال الزمخشرى : صور الملائكة والأنبياء والصالحين ، كانت تعمل فى المساجد من نحاس وصفر وزجاج ورخام وغيرها ، ليراها الناس فيعبدوا مثل عبادتهم وكان اتخاذ الصور جائزًا فى شرعهم . كما قال الضحاك وأبو العالية .

وقد روى أنهم عملوا لسليمان ـ عليه السلام ـ أسدين فى أسفل كرسيّه ، ونسرين فوقه ، فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما ، وإذا قعد أظله النسران بجناحيهما والله أعلم بصحة ذلك . (وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ) جمع جفنة : وهى ما يوضع فيها الطعام مطلقًا وهى أعظم القصاع ، ويليها القصعة وهى ما تشبع العشرة ، ويليها الصفحة وهى ماتشبع الخمسة ، ويليها المئكلة وهى ما تشبع الاثنين والثلاثة ويليها الصحيفة ، وهى ما تشبع الواحد .

والجوابى جمع جابية : وهى الحياض الواسعة يجبى إليها الماءُ ، فهى مجبىٌّ إليها لاجابية ، ثم غلبت على إناء خاص كبير الحجم يملأُ ماءً .

(وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ) : جمع قدر ؛ وهو ما يطبخ فيه من فخار وغيره على شكل مخصوص ، وراسيات معناها ثابتات على الأثافى لا تنزل عنها لعظمها ، وصف القدور بثابتات بعد تشبيه الجفان بالجوابى يجمع إلى تحقيق التناسب حسن الاتساق ، كما أن تقديم الجفان وهى من أوانى الأكل على القدور مع أنها من أدوات الطبخ المقدم على الأكل يشير إلى أن هذه الأوانى معدة للطعام وأن السماط الذى كانت تستعمل فيه عظيماً .

وقوله تعالى : (اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا)معناه : اعملوا ياآل داود من الطاعات ، والأعمال الصالحات ماتؤدون به شكر الله على عظيم نعمه وجليل آلائه ، أو اشكروا ياآل داود شكرًا على هذه النعم .

روى ابن أبى الدنيا والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن مسعود قال : لما قيل لهم : اعملوا آل داود شكرا لم يأت ساعة على القوم إلا ومنهم قائم يصلى. وجاء فى رواية ابن أبى حاتم عن الفضيل أنه-عليه السلام-قال : يارب كيف أشكرك ، والشكر نعمة منك؟ قال سبحانه : الآن شكرتنى حين علمت النعم منّى .

(وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) أى : وقليل من عبادى المتوفر على أداء الشكر بقلبه ولسانه وجوارحه ، قال ابن عباس فى تعريف الشكور : هو الذى يشكر على أحواله كلها ، وفى الكشاف : هو المتوفر على أداء الشكر الباذل وسعه فيه ، وقد شغل به قلبه ولسانه وجوارحه اعترافاً واعتقادًا وكدحاً ، وأكثر أوقاته ، وقيل : من يرى عجزه عن الشكر ؛ لأن توفيقه للشكر نعمة تستدعى شكرًا آخر لا إلى نهاية .

وقد نظم بعضهم هذا فقال :

إذا كان شكرى نعمة الله نعمة ... علىّ له فى مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله ... وإن طالت الأيام واتسع العمر
إذَا مس بالنعماء عم سرورها ... وإن مس بالضراء أعقبها الأجر

وهذه الجملة فى ختام الآية يحتمل أن تكون من بقية خطاب آل داود داخلة فيه ، ويحتمل أن تكون جملة مستقلة جىء بها إخبارًا لنبينا-عليه الصلاة والسلام-تنبيهاً وتحريضاً على الشكر .

ومن بدائع التنزيل هذه المواءمة بين ما منَّ الله به على داود وما منَّ به على سليمان عليهما السلام ، فإن الله تعالى ذكر ثلاثة أشياء لداود وثلاثة أشياء لسليمان وناسب بينهما ، فالجبال المسخرة لداود يتاسبها الريح المسخرة لسليمان ، وتسخير الطير يناسب تسخير الجن ، وإلانة الحديد تناسب إسالة النحاس. وهكذا تتقارب النعم بينهما لتقوى الصلة بين الولد وأبيه.

(فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾)

المفردات :

(قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ) : أوقعنا على سليمان الموت ، وحكمنا عليه به .

(دَآبَّةُ الْأَرْضِ) : هي الأَرَضة - بفتحات - وهي دُوَيْبة تأكل الخشب ونحوه وتسمى سُرْفة ، كما تسمى سوس الخشب ، وإضافتها إلى الأَرْض من إضافتها إلى ما تحدثه وهو الأَرْض ، أي : أكل الخشب (مِنسَأَتَهُ) : عصاه ، سميت بذلك لأَنه ينسأُ ويطرد بها ، من نسأْت الكلب إذا طردته .

(خَرَّ) : سقط على الأَرض .

(تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ) : علِمَت ، من تبين الشيءُ إذا ظهر بعد التباس .

(مَالَبِثُوا فِي الْعَذَابِ) : ما مكثوا فيه وأقاموا عليه .

(الْمُهِينِ) : البالغ الحد في المهانة والذِّلَّة .

التفسير

١٤ - (فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَآبَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ) : جرت هذه الآية على نمط القصص القرآني من طي ما يعلم من أسلوب القصة ويُفْهَمُه

سياقُهَا ، والمعنى :فلما تم لسليمان ما أنعم الله به عليه من نعم يسخرها فيما يشاءُ ويوجهها إلى إنجاز ما يريد ، فلما قضينا عليه الموت ، وأوقعناه وحكمنا به عليه ظلَّ أمر موته خفيا على الجن فَعَمِيَ عليهم بعض الوقت مادلهم عليه إلَّادابة الأَرض.وهى الأَرَضَة أكلت عصاه التى كان متكئاً عليها جالسا على كرسيه [١] ، فسقطت وخرَّ سليمان ساقطاً على الأَرض بسقوطها .

روى أن داود – عليه السلام – أسس بنيان بيت المقدس فى موضع فسطاط موسى .فتوفى قبل تمامه ، فوصّى به سليمان – عليهما السلام – فاستعمل فيه الجن والشياطين فباشروه ،حتى إذا آن أَجله وعلم به سأَل ربَّه أن يُعمِّى عليهم موته ليفرغوا ، ولتبطل دعواهم علم الغيب ، فقام يصلى فى مصلاه متكئاً على عصاه ، فقبض روحه وهو متكىءٌ عليها فبقى كذلك ، وهم فيما أمروا به من الأَعمال ،حتى أكلت الأَرَضة عصاه فخرّ ميتاً ،وكانت الشياطين تجتمع حول محرابه كلَّما صلى .

(فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَالَبِثُوا فِى الْعَذَابِ الْمُهِينِ) :

أى . فلما سقط سليمان على الأَرض ميتا ، وظهر أمر موته تبينت الجن وظهر من أمرها أَنهم لو كانوا يعلمون الغيب – كما يزعمون – لعلموا موته وقت حصوله ، فلم يلبثوا بعد موته فى الأَعمال الشاقة والعذاب البالغ الحد فى المهانة والذل ،والمراد بالجن فى قوله « تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ » جميع الجن ؛ كبراؤُهم وضعفاؤهم .

(لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِى إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾)

---

(١) انظر القرطبى ، فقد ذكر أنه اتكأ على عصاه على كرسيه حينما قام يصلى ، ومعنى قيامه للصلاة أداؤه لها ، من قولهم : قام بالأمر ، أى : أداه .

المفردات :

(سَبَإٍ) : قوم بلقيس ، وهو فى الأصل اسم لرجل هو سبأ بن يشجب بن قحطان ويجمع قبائل اليمن عامة ، ومن نسله عبد الله المنسوب إليه السبئية من غلاة الشيعة .

(مَسْكَنِهِمْ) : مواضع سكناهم وهى باليمن ، يقال لها مأْرب ، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليال .

(آيَةٌ) : علامة واضحة دالة على وجود الصانع الحكيم .

(جَنَّتَانِ) : جماعتان من البساتين : جماعة عن يمين إقليمهم وجماعة عن شماله .

(الْعَرِمِ) : سد يعترض الوادى ، ويطلق أيضا على المطر الشديد ، والعرِمُ : الصعب . من عَرِم الرجل فهو عارم : إذا شرس خلقه وصعب .

(وَبَدَّلْنَاهُمْ) : آتيناهم بدل جنتيهم بعد إهلاكهما (خَمْطٍ) : مُرٌّ بشع .

(أَثْلٍ) : شجر يشبه شجر الطرفاء لا ثمر له .

(سِدْرٍ) : هو شجر النبق . (جَزَيْنَاهُمْ) : عاقبناهم .

(الْكَفُورَ) : المبالغ فى الكفر المتشبث به .

التفسير

١٥ - (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ) :

لما ذكر - سبحانه وتعالى - فى الآيات السابقة بعض آلائه ونعمه على عباده المنيبين من أمثال داود وسليمان وما اختصهم به من فضل ، وأسبغ عليهم من خير لقاء شكرهم ، وجزاء امتثالهم وطاعتهم ، عرض فى هذه الآية طرفاً من قصة سبأ المنكرين للنعم ، المعرضين عن الطاعة موعظةً لقريش وتحذيراً من كفرانهم النعم وإعراضهم عنها .

وسبأ بن يشجب ويسمى أيضاً عبد شمس وهو أول ملوك اليمن فى قول . ولقب بهذا اللقب لأنه أول من سبى السبى من ولد قحطان ، وفى بعض الأخبار عن فروة بن مسيك قال : أتيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقلت : يا رسول الله : أخبرنى عن سبأٍ . أرَجُلٌ هو أم

امرأة ؟ فقال : هو رجل من العرب ولد عشرة : تيامن[1] منهم ستة وتشاءم[2] منهم أربعة ، فأما الذين تيامنوا فالأزد . وكندة وحمير ومذحج . والأشعريون وأنمار ومنهم بجيلة . وأما الذين تشاءموا : فعاملة ، وغسان ، ولخم ، وجذام .

والمعنى : لقد كان لشعب سبأ فى مساكنهم التى يسكنونها وقصورهم ووديانهم التى يعيشون فيها ويعمرونها آية واضحة وعلامة دالة بملاحظة سوابقها ولواحقها على وجود الصانع المختار ، والحكيم القادر على ما يشاء ، هذه الآية هى جماعتان من البساتين جماعة عن يمين بلدهم وجماعة عن شماله . وكل بستان من هاتين الجماعتين يجمع ألواناً شتى من الأشجار والثمار ، وهذه البساتين ترى فى تقاربها وتضامها كأنها جماعة واحدة . والمقصود أن مساكنهم من العظمة ، والترف والنعيم بحيث تحفها الأشجار وتحيط بها الثمار من جميع الأنواع والأشكال عن يمين وشمال ،وهم ينعمون بها ، وينطلقون فى أكل ثمارها الموفورة ، روى أن المرأة كانت تخرج وعلى رأسها المكتل وتسير بين الأشجار فيمتلئ المكتل مما يتساقط من الثمار

فهذا قوله تعالى : (كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ) أى : كأنها تناديهم بلسان الحال ، وتدعوهم للأكل منها ، والشكر عليها . وقيل : هو على تقدير القول أى : قال لهم نبيهم ، « كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ » .

(بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ) : استئناف يرشد إلى مقتضيات الشكر وموجبات الحمد أى : هذه البلدة التى فيها رزقكم بلدة طيبة بخيراتها الوفيرة وخصبها الجيد، وربكم الذى رزقكم هذه الأرزاق الواسعة ، وأفاء عليكم بهذه النعم وطلب شكركم رب غَفُورٌ واسع المغفرة لفرطات من يشكره .

١٦ ـ (فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ) :

المعنى : فتولوا وأعرضوا عن شكر الله تعالى ، وعن الإيمان به مع هذه الآيات الداعية إليه ، وهذه النعم المستوجبة له .

---

(١) اتجهوا جهة اليمن . (٢) اتجهوا نحو الشام .

فأرسل عليهم سيل المطر الشديد ، فاجتاح السد الذى كان ينظم الريّ فى البلاد .

وقوله تعالى : (وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ) معناه : عاقبناهم على إعراضهم وكفرهم وتكذيبهم نبيهم فأذهبنا جنتيهم ، وأبدلناهم بهما جنتين ذواتى ثمر خمط مُرٍّ لايستسيغه أحد ، يجمع بين المرارة والحموضة ، وشجر آخر لا ثمر له يشبه شجر الطرفاء إلا أنه أكبر منه وهو الأثل ، وشىء قليل من شجر السدر وهو المعروف بالنبق .

وهذا النوع ينتفع به وله شأن عند العرب ، ولكنه كان قليلا عقابا لهم ، ولو أُطلق لكان نعمة لانقمة . وقال الأزهرى : السدر سدران : سدر لا ينتفع به ولا يصلح ورقه للغَسُول ، وله ثمرة عَفْصة لا تؤْكل - وهو الذى يسمىّ الضال - وسدر ينبت على الماء وثمره النبق وورقه غَسُول يشبه العُنّاب .

قال قتادة : كان شجرهم خير الشجر ، فصيره الله شر الشجر بأعمالهم ، وتسمية البدل بجنتين للمشاكلة والتهكم .

ولفظ (قليل) إما أن يكون وصفاً لسدر كما تقدم ، وإما أن يكون وصفاً للثلاثة « خمط وأثل وشىء من سدر قليل » .

١٧ - (ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِىٓ إِلَّا الْكَفُورَ) أى : ذلك العقاب الذى ألحقناه بهم من التبديل بجنتيهم الوارفتين المثمرتين جنتين خبيثتين ذواتى أُكل خمط مرٍّ وأثل لا ثمر له وشىء من سدر قليل لا يغنى ، أولا ينتفع به - ذلك العقاب عاقبناهم به بسبب كفرهم وإعراضهم عن الإيمان وعن شكر النعم ، ويجوز أن تكون الإشارة إلى مصدر الفعل (جزيناهم) أى جزيناهم ذلك الجزاء ، وتقديم لفظ (ذلك) وهو مفعول على الفعل العامل فيه وهو جَزى من « جَزَيْنَاهُمْ » للتعظيم والتهويل ، أو للتخصيص على معنى : ذلك الجزاء الفظيع جزيناهمْ لاجزاءً آخر ، وما نجازى مثل هذا الجزاء ولانعاقب هذا العقاب الشديد المستأْصل إلا المبالغ فى الكفر المصر عليه .

(وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾)

المفردات :

(الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا) : هى الشام ، جعلناها مباركة بكثرة أشجارها ووفرة ثمارها ، والتوسعة على أهلها .

(قُرًى ظَاهِرَةً) : متواصلة يقرب بعضها من بعض ، أو ظاهرة مرتفعة على الآكام والمرتفعات وهى أشرف القرى ، أو مقامة على الطريق معروفة يسهل سير السابلة إليها .

(وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ) : جعلنا المسافات بينها مقدرة على أبعاد قريبة بحيث يسهل التنقل بينها .

(بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا) : اجعل المسافات والأبعاد بيننا وبين القرى المباركة طويلة ممتدة لتطول أسفارنا إليها .

(أَحَادِيثَ) : جمع أحدوثة ، وهى ما يتحدث به على سبيل التلهى والاستغراب .

(مَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ) : فرقناهم كل تفريق ، وشتتناهم شر تشتيت .

التفسير

١٨ - (وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً ، وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ) :

هذه الآية عود إلى ذكر ما أوتى قوم سبأ من النعم فى مسايرهم ومتاجرهم ، بعد ذكر ما أوتوا من النعم فى مساكنهم ومنازل إقامتهم ، ولم تذكر هذه النعم مع النعم التى قبلها

مباشرة لما فى المعاودة والتثنية من إثارة الانتباه ، وتجديد التذكير ، فيكون أوقع فى الأسماع وأقوى فى التأثير والزجر .

والمعنى : وجعلنا بين مساكن أهل سبأ وبين قرى الشام التى باركنا فيها بكثرة أشجارها ، ووفرة ثمارها وخيراتها ومياهها ، والتوسعة على أهلها - جعلنا بينهم - قرى أخرى كثيرة ظاهرة متواصلة بحيث يظهر لمن فى بعضها ما أمامه من الأخرى ، أو جعلناها مرتفعة على الآكام على العادة فى بناء القرى المنيعة الشريفة ، أو أقمنا أوضاعها على الطريق ليسهل توصل السابلة إليها(وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ) فجعلنا الأبعاد بين كل قرية وأخرى على مقدار معين لا يشق على المسافر قطعه ، ولا يطول وقته .

قيل : من سافر من قرية صباحاً وصل إلى الأخرى وقت الظهر والقيلولة ، ومن سار من قرية بعد الظهر وصل إلى أخرى بعد الغروب إلى أن يبلغ الشام لا يخاف جوعاً ولا عطشا ولا يحتاج لحمل زاد ولا مبيت فى أرض خالية ولا يخاف من عدوّ ونحوه ، وقوله تعالى : (سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ) على إرادة القول ، بمعنى أبحناها وقلنا لهم : سيروا فيها ، وهذا القول إما بلسان أنبيائهم ، أى قال أنبياؤهم ومرشدوهم سيروا فيها حيث شئتم ، وكيف شئتم ليالى وأياماً آمنين لا تحسّون مشقة ولا تستشعرون جوعاً ولا عطشاً ولا ترهبون عدوا ، وإما بلسان الحال . أى : يسرنا لهم السير وسهلنا أسبابه فاندفعوا فيه كأنهم مأمورون به . وعلى أى تقدير فالمعنى : سيروا فيها آمنين مطمئنين وإن تطاولت مدة سفركم ، وامتدت أياماً وليالى كثيرة ، وتقديم الليل على النهار لأن الليل مظنة الخوف من المغتالين وقطاع السبيل .

١٩ - (فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ...) الآية :

المعنى : بطروا النعمة وسئموا من طيب العيش ولم يعرفوا قيمته وملوا العافية ، وطلبوا الكدّ والتعب فقالوا : ربنا باعد بين أسفارنا فاجعلها مسافات بعيدة . بحيث نسير إليها على نجائبنا ، ونفاخر بدوابنا ونربح فى تجارتنا ، وظلموا أنفسهم بما قالوا وما طلبوا وكانوا كبنى إسرائيل الذين ملّوا المنّ والسلوى ، وآثروا الذى هو أدنى ، فعجل الله لهم الإجابة بتخريب تلك القرى ، وجعلها بلقعا لا يسمع فيها داع ولا مجيب ، كما يفهم

من قوله تعالى : (فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ) أى : ألحقنا بهم الخراب والدمار فجعلناهم بحيث يتحدث الناس عن أخبارهم حديث التلهى والاستغراب ، ويضربون بهم الأمثال فيقولون : ذهبوا أيدى سبأ ، ومزقناهم كل تفريق وشر تمزيق حيث لحق غسان بالشام ، وأنمار بيثرب ، وجذام بتهامة ، والأزد بعمان إلى غير ذلك . (إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) أى : إن فى ذلك الذى ذكر من قصتهم ، واختلاف أحوالهم وتقلب الأيام بهم لعظات واضحة و آيات شاهدة لكل من راض نفسه على الصبر وغالب الشهوات وصبر على الطاعات ، وقدر نعم الله ، وقابلها بالمزيد من الشكر والوفير من الحمد ليستديمها ويستزيدها تصديقاً لقوله تعالى : « وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ[1] » .

(وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾)

المفردات :

(صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ) : حقق فيهم ظنه ووجده صادقاً .

(سُلْطَانٍ) : تسلط ، واستيلاء . (حَفِيظٌ) : محافظ .

التفسير

٢٠ ـ (وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ) :

لما ذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ قصة سبأ وما كان من أمرهم فى اتباعهم الهوى واستجابتهم لوسوسة إبليس ، وتنكبهم السبيل السوى ، أخبر عنهم فقال : (وَلَقَدْ صَدَّقَ

---

(١) آية ٧ من سورة إبراهيم .

عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ) أى : حقق عليهم ظنه ووجده صادقاً ، وذلك إما ظنه بسبأ حين رأى انهماكهم فى الشهوات وكفران النعم ، أو ظنه ببنى آدم حين شاهد - آدم عليه السلام - أصغى إلى وسوسته ، وقال : إن ذريته أضعف منه عزماً ، والرأى الأول أقرب لاتصاله بقصة سبأ ، وقوله : « فَاتَّبَعُوه » أى :فاتبعه أهل سبأ . ومعنى (إِلَّا فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ) : إلَّا فريقاً قليلا هم المؤمنون لم يتبعوه ولم يتأثروا بوسوسته ، وتقليلهم بالإضافة إلى الكفار فإن المؤمنين قليل بالنسبة لكثرتهم ، .

٢١ - (وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ) :

أى : وماكان لإبليس على هؤلاء الغاوين من تسلط وقدرة على الاستيلاء عليهم بالوسوسة إلَّا ليظهر ما علمناه أزلا فى شأنهم ؛ مَنْ يؤمن بالآخرة ويصدق بالحساب والجزاء يوم القيامة بحسن اختياره ، ممن هو من هذا فى ريب بسوء اختياره .

قال الحسن : والله ما ضربهم بعصى ، ولا أكرههم على شىء ، وما كان إلا غرورا وأمانى دعاهم إليها فأجابوه .

وقوله تعالى : (وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ) معناه : وربك على كل شىء وكيل قائم على أحواله وشئونه ، فلهذا لا يفوته العلم بمن يؤمن بالآخرة ممن هو فى شك منها .

و(حفيظ) إما مبالغة فى حافظ أو بمعنى محافظ .

(قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى السَّمَاوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِىُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾)

المفردات :

(زَعَمْتُمْ) : ظننتم وقلتم إنهم آلهة .

(مِثْقَالَ ذَرَّةٍ) : وزن ذرة وقدرها .

(ظَهِيرٍ) : معين .

(فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ) :أزيل الخوف عن قلوبهم ،يقال : فُزِع عنه إذا أُزيل الخوف عنه ، مثل قولهم : قَرَّدْتُ البعير إذا أُزلت قراده ،والفزع :انقباض ونفار يعترى الإنسان من الشيء المخيف.

التفسير

٢٢ - (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى السَّمَوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ) :

لما بين الله -تعالى- حال الشاكرين ونعمه عليهم ،وحال المشركين الذين ضرب لهم المثل بقصة سبأ المعروفة فى أخبارهم وأشعارهم ، عاد إلى خطابهم وقال لرسوله- صلى الله عليه وسلم- : قل- يارسول الله- لهؤلاء المشركين تنبيهاً على بطلان ماهم عليه ، وتبكيتاً لهم : ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة من دون الله فيما يهمكم من جلب نفع أودفع ضرر لعلهم يستجيبون لكم إن صحت دعواكم . ولم يمهلهم ليجيبوا بل قال -سبحانه-:(لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ » إشعارًا بتعينه جواباً ، فإنه لا يقبل المكابرة ، وهو متضمن حال آلهتهم فى الواقع ، وأنهم إذا كانوا من العجز والعوز لا يملكون وزن ذرة فى السموات ولا فى الأرض من خير أو شر ولا يستطيعون جلب نفع ولا دفع ضرّ . فكيف يكونون آلهة تُعْبَدُ؟ وذكر السموات والأرض للتعميم عرفاً فيراد جميع الموجودات . كما يقال : صباحاً ومساءً لجميع الأوقات وشرقاً وغرباً لجميع الجهات ، والمراد نفى قدرتهم على شىء من النفع أو الضر أو الإيجاد أو الإعدام ، وقوله تعالى :(وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ ، وَمَالَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ) معناه : ومالآلهتهم آية شركة فى السموات والأرض ، لاخلقاً ولا ملكاً ولا تصرفاً ، وما لله جلَّت قدرته من هؤلاء الآلهة من ظهير ولا معين يعينه فى تدبير أمر من أمورهما .

٢٣ - (وَلاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِىُّ الْكَبِيرُ) :

هذه الآية : استمرار فى تسفيه آلهتهم ، واستقصاء لقطع كل ما يمكن أن يرجى منهم أو ينتظر من نفعهم .

والمعنى : لا توجد الشفاعة رأساً ، ولا تتأتى أصلا عند الله - تعالى - فى حال من الأحوال إلا لشافع أذن له فيها من النبيين والملائكة ونحوهم من المستأهلين للشفاعة المستحقين لها فقد قال تعالى : « لاَ يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَقَالَ صَوَاباً » وعدم الإذن للأصنام بالشفاعة واضح ، فلا مجال لنجاة عابديهم .

ويمكن أن يكون المعنى: لا تنفع الشفاعة إلا كائنة لمشفوع أذن الله لشفيعه بشأنه ، فلفظ (مَنْ) فى قوله تعالى : « إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ » واقع على الشفيع فى المعنى الأول وعلى المشفوع له فى المعنى الثانى ، وحاصل المعنى عليه : أن الشفاعة لا تنفع من الشفعاء المستأهلين إلا لمن وقع الإذن للشفيع لأجله وفى شأنه من المستحقين للشفاعة ، وهم المقصرون من أهل الإيمان ويثبت من هذا حرمان هؤلاء الكفرة من شفاعة الشفعاء المستأهلين للشفاعة بعبارة النص ، ومن شفاعة الأصنام بدلالته ، إذ حين حرموها من جهة القادرين عليها فى الجملة ، فلأن يحرموها من جهة العجزة عنها بالكلية أولى .

ومما تجدر الإشارة إليه أن المراد بنفى نفع الشفاعة نفيها رأسًا ، وإنما علق النفى بنفعها دون وقوعها تصريحاً بنفى ماهو غرضهم من وقوعها .

وقوله تعالى : (حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) معناه : حتى إذا أزيل الفزع عن قلوب الشفعاء والمشفوع لهم بظهور تباشير الرضا بالشفاعة من الله ذى الجلال والإكرام ، قال المشفوع لهم المتلهفون على الإذن بالشفاعة المهتمون بأمرها ، قالوا للشفعاء : ماذا قال ربكم فى شأن الإذن بالشفاعة ؟ قال الشفعاء :

قال ربنا القول الحق حيث أذن بالشفاعة للمستحقين لها ، وهو المتفرد بالعلو والكبرياء لا يشاركه فى ذلك أحد من خلقه ، وهذه الجملة وهى : (الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) من تمام الكلام الجارى على ألسنة الشفعاء ، قالوها اعترافاً بغاية عظمة الله وقصور شأن كل من سواه .

وقال القرطبى فى معنى الآية : إنه إذا أذن للشفعاء فى الشفاعة ، وورد عليهم كلام الله فزعوا ، لما يقترن بتلك الحال من الأمر الهائل ، والخوف أن يقع فى تنفيذ ما أذن لهم فيه تقصير ، فإذا سرى عنهم قالوا للملائكة فوقهم - وهم الذين يوردون عليهم الوحى بالإذن - :(مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ) أى : ماذا أمر الله به . (قَالُوا الْحَقَّ) : وهو أنه أذن لكم فى الشفاعة للمؤمنين (وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) : فله أن يحكم فى عباده بما يريد .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة
رمزى السيد شعبان

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩/ ١٩٨٦

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

٢٦٠٧ س ١٩٨٦ — ٢٥٠٠٤



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث

الحزب الرابع والأربعون

الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٧

* (قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾)

المفردات :

(يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَٰوَاتِ) : بالمطر وغيره .

(وَالْأَرْضِ) : بالنبات وسواه .

(قُلِ اللَّهُ) أى : قل إجابة عنهم إن لم يقولوه ، إذ لا جواب سواه عندهم أيضاً .

(وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ) أى : وإنَّ أَحَدَ الفريقين منا ومنكم .

(لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ) : لَمُحِقٌّ متمكن من الحق ، أو مبطل منغمس فى الضلال الواضح .

(أَجْرَمْنَا) : أذنبنا . (تَعْمَلُونَ) : من الكفر والمعاصى .

(يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا) : يوم القيامة عند الحشر والحساب .

(ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ) : ثم يحكم ويفصل بيننا بالعدل .

(الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ) : الحاكم الفيصل ، العليم بما ينبغى أن يقضى به .

(أَرُونِىَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَآءَ) : أعلمونى هذه الآلهة التى جعلتموها أندادًا لله فى العبادة .

(كَلَّا) : ردع لهم عن اعتقاد شريك.

(الْعَزِيزُ) : الغالب على أمره . (الْحَكِيمُ) : فى تدبيره وتصريفه لخلقه .

التفسير

٢٤ - (قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ) :

لما ذكر الله أن آلهتهم لا يملكون مثقال ذرة فى السموات والأرض بقوله : « قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى السَّمَٰوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ »[1] أمر - سبحانه وتعالى - نبيه ﷺ بأن يقرر المشركين بقوله : (مَن يَرْزُقُكُمْ) ثم أمره بأن يتولى الإجابة والإقرار عنهم بقوله : (قُلِ اللَّهُ) أى : الله يرزقكم ، وذلك للإشعار بأنهم مقرون بقلوبهم إلّا أنهم ربما أبوا أن يتكلموا به؛ لأن الذى تمكن فى صدورهم من العناد وحب الشرك قد ألجم أفواههم عن النطق بالحق مع علمهم بصحته ، ولأنهم إن تفوهوا بأن الله رازقهم لزمهم أن يقال : فما بالكم لا تعبدون من يرزقكم ؟ وتؤثرون عليه من لا يقدر على الرزق ؟. وقد كانوا يقرون بألسنتهم مرة ، ويتلعثمون مرة ، عنادًا وإصرارًا وحذرا أن تلزمهم الحجة ، ونحوه قوله - عز وجل - : « قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا »[2] :

أى : قل - أيها الرسول - لهؤلاء المشركين إلزاما لهم : من يرزقكم من السموات والأرض ، فينزل لكم الأمطار ويسوق لكم الأرزاق زرعاً نضيرًا ، وثمرًا وفيرًا ، وغير ذلك من سائر الأرزاق ظاهرها وباطنها ، وقل لهم بعد الإلزام والإفحام : (وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ) أى : وإن أحد الفريقين منا معاشر الموحدين ، ومنكم أيها المشركون لمتصف بأحد الأمرين : الاستقرار على الهدى ، والتمكن من الحق ، أو الانغماس فى الضلال البيِّن الواضح .

وهذا من الكلام المنصف الذى يقول كل من سمعه موافقاً أو مخالفاً - يقول - لمن خوطب به : لقد أنصفك صاحبك .

---

(١) سورة سبأ من الآية : ٢٢

(٢) سورة الرعد ، من الآية : ١٦

وفى ذكره بعد ما تقدم من التقرير البليغ دلالة غير خفية على من هو من الفريقين على الهدى ، ومن هو فى الضلال المبين ؛ لأن التعريض والتورية أبلغ من التصريح وأوصل بالمجادل إلى الغرض وغابة الخصم ، فكأنه قال لهم : أنتم الضالون حين أشركتم بالذى يرزقكم من السموات والأرض ، ونحوه قول الرجل لصاحبه : علم الله الصادق منى ومنك ، وإن أحدنا لكاذب ، ومثله قول حسان - شاعر رسول الله - يخاطب أبا سفيان بن حرب ، وكان قد هجا النبى قبل أن يسلم :

أتهجوه ولست له بكفء ؟ فشركما لخيركما الفداء

وخولف بين حرفى الجر الداخلين على الحق والضلال للدلالة على استعلاء صاحب الهدى ، وتمكنه واطلاعه على ما يريد ،كالواقف على مكان عال أو الراكب على جواد يركضه حيث شاء ، بخلاف صاحب الضلال فهو منغمس فيه ،حتى كأنه فى مهواة موحشة لا يدرى أين يتوجه .

٢٥ - (قُل لَّا تُسْئَلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ) :

المعنى : قل لهم - أيها الرسول - : لا تُسأَلون عما اقترفنا من آثام، وارتكبنا من ذنوب ، ولا نُسأَل عما تعملون من شرور ومعاصٍ وكبائرَ ، وهذا أدخل فى الإنصاف وأبلغ فيه؛ حيث عبر عن الهفوات التى لا يخلو عنها مؤمن بما يعبر به عن الكبائر ، وأسند إلى المؤمنين فقيل : (لَاتُسْأَلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا) وعن الكبائر من الكفر ونحوه بما يعبر به عن الهفوات ، وأسند إلى المخاطبين ، فقيل : (وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ) .

وذكر ابن كثير أن معنى الآية : التبرى منهم ، أى : لستم منا ولا نحن منكم ، بل ندعوكم إلى الله - تعالى - وإلى توحيده ، وإفراد العبادة له ، فإن أجبتم فأنتم منا ونحن منكم ، وإن كذبتم فنحن برآء منكم وأنتم برآء منا ، كما قال - تعالى - : « وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ »[1] .

(١) سورة يونس الآية : ٤١

٢٦ - (قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ) :

قل لهم - أيها النبى ، بعد أن تبين الحق من الباطل - قل لهم : يجمع بيننا ربنا يوم القيامة عند الحشر والحساب، ثم يقضى بيننا بالحقّ ، ويفصل بالعدل ، فيدخل المحقين الجنة ، والمبطلين النار ، وهو القاضى الواسع العليم ، وستعلمون يومئذ لمن العزة والنُّصرة والسعادة الأَبدية .

٢٧ - (قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَآءَ ...) الآية :

استفسار عن شبهتهم بعد إلزامهم بالحجة ، زيادة فى تبكيتهم ، والمراد : قل لهم : أعلمونى بالحجة والدليل فى أى شىء كانت الشركة ؟ هل شاركت الأَصنام فى خلق شىء ؟ فبينوا ما هو وإلا فَلِمَ تعبدونها ؟

وقيل : (رأى) بَصَرِيَّةٌ ، والمراد : أرونيهم لأَنظر بأَى صفة ألحقتموها بالله - عز وجل - الذى ليس كمثله شىءٌ فى استحقاق العبادة ، والغرض إظهار خطئهم العظيم .

وقال بعض الأَجلَّة : لم يُرِدْ من « أَرُونى » حقيقته ؛ لأَنه ﷺ كان يرى معبوداتهم ويعلمها ، فهو تمثيل ، والمعنى : ما زعمتموه شريكاً إذا برز للعيون - وهو خشب وحجر - تمت فضيحتكم وهذا كما تقول للرجل الخسيس الأَصل : أرنى أباك الذى فاخرت به فلاناً الشريف ، ولا تريد حقيقة الرؤية وإنما تريد تبكيته وتحقيره .

(كَلَّا) : ردع لهم عن زعم الشركة ومذهبهم فيه ،أى : ليس الأَمر كما زعمتم فليس له نظير ولا شريك ولا نديد ولاعديل ،وقد نبه على فحش غلطهم وأَنهم لم يقدروا الله حق قدره بقوله :

(بَلْ هُوَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) أى : بل هو الله الموصوف بالغلبة القاهرة ، والحكمة الباهرة ، فأَين شركاؤُكم - التى هى أخس الأَشياء وأذلها - من صاحب هذه الرتبة العالية ؟ !

(وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٣٠﴾)

المفردات :

(وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَآفَّةً) أى : إلَّا إرسالة عامة للناس جميعا ، من الكف ، فإنها إذا عمتهم فقد كَفَّتهم أن يخرج منها أحد ، قال الزجاج : أرسلناك جامعاً للناس فى الإبلاغ « فهى حال من الكاف ، والتاءُ للمبالغة » .

(الْوَعْدُ) المراد بالوعد : اليوم الموعود للجزاء .

(مِيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ) أى : لكم ميعاد يوم مؤجل محدد إذا جاء لا يؤخر ساعة ولايقدَّم .

التفسير

٢٨ - (وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) :

يقول الله - تعالى - لعبده ورسوله محمد ﷺ : وما أرسلناك إلا جامعاً للمكلفين من الناس ، مبشرًا من أطاعك بالجنة ، ومنذرًا من عصاك بالنار ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون صدقك فى دعوتك ، وعموم رسالتك للناس جميعاً فى شتّى أنحاء الأرض ، فيحملهم جهلهم على الإصرار على ما هم عليه من الْغَيّ والضلال .

ومثل هذه الآيَة فى عموم دعوته قوله - تعالى - : « إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً »[1] .

---

(١) سورة الأعراف من الآية : ١٥٨

وقوله ــ جل شأنه ــ : « تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا »[1] .

ومثل ذلك ما ورد فى الصحيحين مرفوعاً عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ولم تَحِلَّ لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » ا هـ : ابن كثير ، وفى الصحيح ــ أيضاً ــ أن رسول الله ﷺ قال : « بعثت إلى الأسود والأحمر » قال مجاهد : يعنى الجن والإنس ، وقال غيره : يعنى العرب والعجم ، والكل صحيح ، وقال محمد بن كعب فى قوله ــ تعالى ــ : (وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ) يعنى إلى الناس عامة .

واعلم أن رسالته ﷺ إلى الجن ثابتة فى مواضع أُخَرَ وبخاصة فى سورة الجن ، وسيأتى الحديث عن ذلك فى موضعه إن شاء الله تعالى .

٢٩ ــ (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) :

ويقول الكافرون من فرط جهلهم وعظيم غَيِّهم استبعادًا لقيام الساعة ، واستهزاء باليوم الموعود للجزاء ثواباً أو عقاباً ــ يقولون ــ متى هذا اليوم الموعود بالجزاء الأخروى ، إن كنتم صادقين فى وعدكم به فأخبرونا ، قالوا هذا مخاطبين رسول الله ﷺ والمؤمنين به ، والمراد بصيغة المضارع (يقولون) الاستمرار التجددى ، وقيل : عبر بها استحضارا للصورة الماضية لغرابتها ، والأصل : (قالوا) .

٣٠ ــ (قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ) :

أي : قل لهم ــ أيها النبى ــ : لكم ميعاد يوم عظيم محدد فإذا جاء لا يؤخر ساعة ولا يقدم ، ولما كان سؤالهم عن الوقت إنكارا وتعنتا لا استرشادا جاء الجواب على طريق التهديد مطابقاً لمجىء السؤال ، وهو أنهم مرصودون ليوم يفاجئهم فلا يستطيعون تأخرًا عنه ولا تقدما عليه ، وهو يوم القيامة الذى ستبين الآيات التالية أحوالهم فيه .

---

(١) سورة الفرقان ، الآية : ١

(وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ ۖ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾)

المفردات :

(الَّذِينَ كَفَرُوا) : المشركون من أهل مكة .

(بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ) أى :بالذى تقدمه من الكتب السماوية : كالتوراة والإنجيل الدالين على البعث .

(الظَّالِمُونَ) : المنكرون للبعث ، ظلموا أنفسهم بكفرهم به .

(مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ) : محبوسون فى موقف الحساب .

(يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ) : يتحاورون ويتراجعون الكلام فيما بينهم باللوم والعتاب .

(الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا) : فى الدنيا من الكافرين وهم الأتباع .

(الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا) : الرؤساء والقادة .

(لَوْلَآ أَنتُمْ) : لولا إضلالكم وصدكم لنا عن الإيمان .

(لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ) : باتباع الرسول .

(أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ) : استفهام بمعنى الإنكار، أنكروا أن يكونوا هم الذين صدوهم عن الإيمان وردوهم عنه .

(بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ) : آثمين بإصراركم على الكفر .

(بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) : بل صدَّنا مكركم بنا وخداعكم لنا فى الليل والنهار ، والمكر فى لسان العرب : الاحتيال والخديعة .

(أَندَادًا) : شركاء ونظراء فى العبادة ، جمع نِدٌّ ، وهو الشريك والمثيل ، يقال : فلان نِدُّ فلان ، أى : مثله .

(وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ) أى : أضمر الفريقان الندامة على مافعلا من الضلال والإضلال ، وأخفاها كل عن الآخر حين عاينوا العذاب أو أظهروها ، فإنَّ (أسرَّ) من الأضداد .

(الْأَغْلَالَ) : جمع غُل ، وهو القيد يوضع فى العنق ، وقد نطلق الأغلال على السلاسل التى تجمع أيديهم مع أعناقهم .

التفسير

٣١ — (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ) :

يخبر الله - تعالى- عن تمادى الكفار فى طغيانهم وعنادهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالنبى وبالقرآن ، وبما أخبر به من أمر المعاد ، وعدم الإيمان بالذى سبقه من كتب الله التى نزلت على الأنبياء السابقين تتحدث عن عبادته وحده ، وعن المعاد والثواب والعقاب ، يروى أن كفار مكة سألوا أهل الكتاب فأخبروهم أنهم يجدون صفة رسول الله ﷺ فى كتبهم ، فأغضبهم ذلك وقرنوا بالقرآن جميع ما تقدمه من كتب الله - عز وجل - فكفروا بها جميعاً .

وقيل : الذى بين يديه هو يوم القيامة ، أى : أنهم كفروا بالقرآن وبما جاء به من البعث والجزاء ، ثم أخبر عن عاقبة أمرهم ومآلهم فى الآخرة فقال لرسوله ، أو لكل مخاطب : ولوترى فى الآخرة مواقفهم الذليلة بين يديه فى حال تخاصمهم وتحاجّهم وهم يتحاورون ويتراجعون القول بينهم باللوم والعتاب ، بعد أن كانوا فى الدنيا أخلاء متناصرين ، وجواب (لو) مقدر ، أى : لرأيت أمراً هائلا فظيعاً مخيفاً ، ثم ذكر ما يرجعونه من القول فقال : (يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ) : استئناف لبيان تلك المحاورة ، أى : يقول المستضعفون من الأتباع للمستكبرين من الرؤساء والقادة الذين اتبعوهم فى الغى والضلال : لولا أنتم صددتمونا عن الهدى ومنعتمونا من الإيمان ، وحُلْتم بيننا وبين الحق لكنا اتبعنا الرسول ، وآمنا بما جاء به فنجونا من العقاب .

٣٢ - (قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوٓا أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ) :

استئناف بيانى ، كأنه قيل : فماذا قال الذين استكبروا حين اعترض عليهم الأتباع ووبخوهم ؟ فقيل من جهتهم : أنحن صددناكم عن الهدى ... إلخ ، أى : لسنا نحن الذين حُلْنا بينكم وبين الإيمان وصددناكم عنه ، ومنعناكم منه بعد إذ صممتم على الدخول فيه وصحت نياتكم فى اختياره ، بل أنتم منعتم أنفسكم حظها ، وآثرتم الضلال على الهدى ، وأطعتم آمِرَ الهوى دون آمِرِ النُّهى ، فكنتم مجرمين مشركين مصرين على الكفر باختياركم لا ب‍إ‍ضلالنا وتسويلنا ، ونحن ما فعلنا بكم أكثر من أنّا دعوناكم فاتبعتمونا من غير دليل

ولابرهان ، وخالفتم باختياركم الأدلة والبراهين التى جاءت بها الرسل .

٣٣ ـ (وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

لما أنكر المستكبرون بقولهم : (أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ . . .) إلخ أن يكونوا هم السبب فى كفر المستضعفين وردوا عليهم بقولهم: « بَلْ أَنتُم مُّجْرِمُونَ » يريدون أن ذلك بكسبهم واختيارهم ـ لما أنكروا وقالوا ذلك ـ رد عليهم المستضعفون بقولهم : (بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ) : كأنهم قالوا : ما كان الإجرام من جهتنا بل من جهتكم ؛ لأن الذى صدنا عن الهدى وصرفنا عن الحق خديعتكم ووسوستكم لنا فى الليل والنهار ، واحتيالكم علينا حين كنتم تطلبون منا أن نـكفر بالله ونجعل له شركاء ونظراء فى العبادة ، وزينتم لنا الشرك وحسنتم لنا الكفر وخدعتمونا بأننا على هدى ، فإذا جميع ذلك خـداع وكذب وباطل . (وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ) أى : وأضمر الظالمون من الفريقين : ـ المستكبرين والمستضعفين ـ الندامة على ما كان منهم فى الدنيا من الضلال والإضلال فى جانب المستكبرين ، ومن الضلال والانقياد إلى المضلين فى جانب المستضعفين حينما رأوا العذاب وشاهدوه ؛ لأنهم بهتوا لما عاينوه فلم يقدروا على النطق ، واشتغلوا عن إظهار الندامة بهول العذاب ، أو لأنهم علموا أن لافائدة من إظهارها ، وقال الزمخشرى وغيره : أسروا الندامة بمعنى أظهروها ، فإن (أَسَرَّ) من الأضداد ؛ إذ الهمزة تصلح للإثبات والسلب ، فمعنى أسره : جعله سرا ، أو : أزال سره . « وَجَعَلْنَا الْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا) : أى : وجعلنا السلاسل التى تجمع أيدى الكفار فى أعناق الكافرين ، والمراد بالكفار : المتكبرون والمستضعفون جميعاً ، والأصل (فى أعناقهم) إلا أنه أظهر كفرهم للتنويه بذمهم ، والتنبيه على موجب تلك الأغلال. (هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) أى : ما يستحق هؤلاء جميعاً إلا جزاء ما كانوا يعملون من الشرور والآثام فى الدنيا .

(وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾)

المفردات :

(مُتْرَفُوهَا) : أصحاب النعمة والرياسة (إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ) لا نؤمن به ولا نتبعه (وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) : قالوا ذلك لاعتقادهم أن الله أكرمهم فى الدنيا فلا يهينهم فى الآخرة ، أو لإنكارهم عذاب الآخرة . (يَبْسُطُ الرِّزْقَ) : يوسِّعه امتحاناً . (وَيَقْدِرُ) يُضيِّقه ابتلاءً . (زُلْفَىٰ) الزلفى ، والزلفة : القربة ، وهى كالقربى (جَزَآءُ الضِّعْفِ) : الثواب المضاعف ، والضِّعْفُ : الزيادة . (وَهُمْ فِى الْغُرُفَاتِ) غرفات الجنة : منازلها العالية .

التفسير

٣٤ - (وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ كَٰفِرُونَ) :

هذه الآية مسوقة لتسلية رسول الله عما ابتلى به من مخالفة مترفى قومه وكفرهم به وتكذيبهم وعداوتهم له - عليه السلام - وليتأسى بما حدث لمن قبله من المرسلين حيث كذبهم المترفون .

والمعنى : وما أرسلنا فى قرية من القرى رسولا يدعو أهلها إلى الحق ، ويأمرهم بالإيمان

ويخوفهم عاقبة المخالفة والخروج على أوامر الله إلا قال مترفوها : (إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ) أى : إنا بما جئتم به من التوحيد وغيره مكذبون لا نؤمن به ولا نتبعه ، وإنما كان التكذيب طبيعة المترفين وديدنهم لما شغلوا به من زخرف الدنيا وبهجتها ، وما غلب على قلوبهم منها ، فهم منهمكون فى الشهوات ، ولأن الأديان جميعها جاءت تقرر حقوق الإنسان من حرية ومساواة وعدالة اجتماعية وهذه كلها أمور ليست فى مصلحتهم ، كما أن الأنبياء جاءوا بمناهج من السماء ، فيها أوامر ونواه ، واتِّبَاعُ الأنبياء ، والإيمانُ بدعوتهم يتطلب فعل الأوامر واجتناب النواهى ، وهذا يَشُقُّ على المترفين أولى النعمةِ والثروة والرياسة وأصحاب الرفاهية ، ولهذه الحقيقة كان على رأس المكذبين لدعوات المرسلين ومناهجِ السماء المترفون الغارقون فى الملاهى والشهوات من الرؤساء والجبابرة .

أما الفقراءُ فإن قلوبهم ــ لخلوها من ذلك ــ أقبلُ للخير ، ولأن رسالات الأنبياء تحررهم من الأغلال وذل الإسار لكبرائهم ، وتقرر لهم حقوقهم ، وتحقق لهم مطالبهم ــ لهذا كله ــ كانوا أشد الناس حُبًّا لها وإقبالا عليها وتعلقا بها وتفانيا فى نشرها ، ولذا تراهم أكثر أتباع الأنبياء عليهم السلام .

ولقد قرر القرآن هذه الحقيقة ، وحكى عن قوم نوح قولهم له : « أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ »[1] قال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا هارون بن إسحاق ، حدثنا محمد بن عبد الوهاب ، عن سفيان ، عن عاصم ، عن أبى رزين قال : كان رجلان شريكان ، خرج أحدهما إلى الساحل وبقى الآخر ، فلما بعث النبى ﷺ كتب إلى صاحبه يسأله ما فعل ؟ فكتب إليه أنه لم يتبعه أحـــد من قريش ، إنما اتبعه أراذل الناس ومساكينُهم . قال : فترك تجارته ثم أتى صاحبه فقال : دُلَّنى عليه ، ــ قال : وكان يقرأ الكتب أو بعض الكتب ــ قال : فأتى النبى ﷺ فقال : إلام تدعو ؟ قال : أدعو إلى كذا وكذا . قال : أشهد أنك رسول الله . قال ﷺ : وما علمك بذلك ؟ قال : إنه لم يبعث نبى الا اتبعه أراذلُ الناس ومساكينُهم ، قال : فنزلت هـــذه الآية : (وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ) : قال : فأرسل إليه النبى ﷺ : إن الله ــ عز وجل ــ قد أنزل تصديق

(١) سورة الشعراء ، الآية : ١١١

ما قلت . وكذلك قال هرقل لأبى سفيان حين سأله عن تلك المسائل : « سألتك : أضُعَفاءُ الناس اتَّبَعُوه أم شرفاؤهم ؟ فزعمت : بل ضعفاؤهم ، وهم أتباع الرسل » اهـ : ابن كثير ج ٣ ص ٥٤٠ وقال – تبارك وتعالى – إخبارا عن المترفين المكذبين :

٣٥ – (وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) :

هذه الآية تحكى ما أجاب به المترفون رسلهم حين دعوهم إلى الحق .

والمعنى: وقال المترفون لرسلهم متباهين : نحن فُضِّلْنَا عليكم بالأموال والأولاد فى نعمة لا تشوبها نقمة ، وهو دليل كرامتنا على الله – عز وجل – ورضاه عنا ، فلو كان ما نحن فيه من الشرك وغيره مما تدعوننا إلى تركه مخالفا لرضا الله لما كنا فيما كنا فيه من النعمة ، وهكذا قاسوا أمورَ الآخرة على أمور الدنيا ، وزعموا أن المنعم عليه فى الدنيا منعمٌ عليه فى الآخرة ، وأنهم لو لم يكونوا كرماء على الله لما وسع عليهم ، ولولا أن المؤمنين هانوا عنده لما حرمهم فعلى قياسهم ذلك قالوا : (وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) : أرادوا أنهم أكرمُ على الله من أن يعذبهم نظرا إلى أحوالهم فى الدنيا ، وهيهات لهم ذلك : « أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ، نُسَارِعُ لَهُمْ فِى الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ »[1] .

٣٦ – (قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) :

قل – أيها النبى – لمن يزعم أن الغنى واليسار وكثرة المال والعيال دليل الكرامة والرضا – قل لهم – ردا عليهم ، وحسما لمادة طمعهم الكاذب ، وتحقيقاً للحق الذى يدور عليه أمر الكون : إن ربى ومالك أمرى يوسع الرزق لمن يشاء أن يوسع له ، ويضيق على من يشاء أن يضيق عليه ، فربما يوسع – سبحانه – على العاصى ، ويضيق على المطيع ، وربما يعكس الأمر ، وربما يوسع عليهما معا ، وقد يضيق عليهما معًا ، وقد يوسِّع على شخص مطيع أو عاصٍ تارةً ، ويضيِّق عليه أُخرى ، يفعل ذلك حسبما تقتضيه مشيئته – عز وجل – المبنية على الحكمة التامة والحجة القاطعة ، فلو كان البسط دليل الإكرام والرضا ، لاختص به المطيع ، وكذلك لو كان التضييق دليل الإهانة والسخط ، لاختص به العاصى ،

---

(١) سورة المؤمنون ، الآيتان : ٥٥ ، ٥٦

والمراد : منع كون ذلك دليلا على ما زعموا ، لاستواء المعادى والموالى فيه . (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ) : ذلك لأنهم لا يتأملون ، فمنهم من يزعم أن مدار البسط : الشرفُ والكرامة . ومدارُ التضييق : الهوان والحقارة كهؤلاء المترفين المكذبين ، وهم لا يدرون أن الأول كثيرا ما يكون للاستدراج ، والثانى قد يكون للابتلاء ورفع الدرجات ، ومنهم من تحير واعترض على الله - تعالى - فى البسط على أناس ، والتضييق على آخرين حتى قال قائلهم :

كم عاقلٍ عاقلٍ أَعْيَتْ مذاهبُه ... وجاهلٍ جاهلٍ تَلْقَاهُ مرزوقاً

هذا الذى ترك الأفهام حائرةً ... وصَيَّرَ العالمَ النِّحْرِيرَ زِنديقاً

ولعمرى إن العالم النِّحرير العارف هو الذى يقول :

ومن الدليل على القضاء وحكمه ... بؤسُ اللبيبِ وطِيبُ عيشِ الأحمقِ

٣٧ - (وَمَآ أَمْوَالُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِالَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحاً فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِى الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ) :

المعنى : وليست هذه الأموال والأولاد دليلا على محبتنا لكم ، ولا اعتنائنا بكم ، وليست أموالكم ولا أولادكم بالخصْلة أو المزِّية التى تقربكم عندنا قربة ، لكن من آمن وعمل صالحا . فإيمانه وعمله يقربانه منا ، فأُولئك لهم الثواب المضاعف ، فيجزون على الحسنة بعشر أمثالها أو بأكثر إلى سبعمائة ضعف ، وهم فى غرفات الجنة ومنازلها العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى وحرمان ، ومن كل شىء يحذر منه ، روى مسلم عن رسول الله ﷺ بسنده قال : « إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »[1]

(١) ابن كثير .

(وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِى الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ الرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾)

المفردات :

(يَسْعَوْنَ فِىٓ آيٰتِنَا) أى : يمشون مسرعين فى القرآن بالرد له والطعن فيه (مُعَاجِزِينَ) : زاعمين سبقهم وعدم قدرة الله عليهم . (فِى الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ) أى : عذاب فى جهنم تحضرهم الزبانية فيها ، لا يفلتون من العذاب . (يَبْسُطُ الرِّزْقَ): يوسعه امتحاناً . (ويَقْدِرُ لَهُ) : يضيقه له ابتلاء (وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ) فى الخير .

(فَهُوَ يُخْلِفُهُ): يعطى بدله . (وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) أى : وهو خير المعطين ، وإطلاق الرازقية على غيره ـ تعالى ـ مجاز ؛ لأنه موصل للرزق ، فهو رازق صورة ، وقال الآمدى : إن المعنى : خير من تسمى بهذا الاسم وأطلق عليه حقيقة أو مجازا .

التفسير

٣٨ ـ (وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءايٰتِنَا مُعٰجِزِينَ أُولٰئِكَ فِى الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ) :

والذين يسعون فى معارضة آياتنا بالرد عليها محاولين إبطالها والنيل منها والطعن فيها ، وتعجيز أنبيائنا عن تبليغها وإيصالها للناس ليعملوا بها وينتفعوا بهديها ، ويسعون فى الصد عن سبيل الله واتباع رسوله ، والتصديق بآياته زاعمين سبقهم وعدم قدرة الله ـ تعالى ـ أو أنبيائه عليهم أولئك الذين يرتكبون ما سبق فى جهنم تحضرهم الزبانية فيها ، لا يُفلتون ولا يجديهم نفعاً ما عوَّلوا عليه ، وجميعهم مجزيون بأعمالهم .

٣٩ ـ (قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) :

قل أيها النبى : إن ربى يوسع الرزق على من يشاء من عباده ويضيقه على من يشاء ، فأنفقوا فى سبيل الله وتقربوا لديه ـ عز وجل ـ بأموالكم (وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ) أى : ومهما أنفقتم من شىء فيما أمركم به وأباحه فهو يخلفه عليكم ، أى : فهو يعوض عليكم ، لا معوض سواه ، إما عاجلا بالمال فقد جاء فى الحديث القُدُسى يقول الله تعالى : «أَنْفِق أُنْفِق عليك» أو يعوضه بالقناعة التى هى كنز لا ينفد ، وإما آجلا بالثواب الذى كل خَلَفٍ دونه ،وفى الحديث أن ملكين يصبحان كل يوم يقول أحدهما : « اللهم أعط ممسكا تلفا » ويقول الآخر : « اللهم أعط منفقاً خلفاً[1] » (وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) قال العلامة الزمخشرى : خير الرازقين وأعلاهم رب العزة ؛ لأن كل من رزق غيره من سلطان يرزق جنده ، أو سيد يرزق عبده ، أو رجل يرزق عياله ، فهو من رزق الله أجراه الله على أيدى هؤلاء ، وهو خالق الرزق وخالق الأسباب التى ينتفع بها المرزوق بالرزق .

وقال القرطبى : ما أُنفق فى معصية :فلا خلاف أنه غير مثاب عليه ولا مخلوف له . وأما البُنْيان فما كان منه ضروريا يَكِنُّ الإنسان ويحفظه فذلك مخلوف عليه ومأجور ببنيانه .

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾)

(١) رواهما مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة ـ قرطبى .

المفردات :

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا) أى : يجمعهم للحساب عابدين ومعبودين .

(أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ)أى :أهؤلاءخصوكم بالعبادة دونى ؟ (سُبْحَانَكَ) :تنزيها لله عن الشرك . (أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ) أى : أنت ربنا الذى نواليه ونطيعه ونخلص فى العبادة له . (يَعْبُدُونَ الْجِنَّ) أى : الشياطين حيث أطاعوهم فى عبادة غير الله .

(فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ) أى : لا يملك المعبودون للعابدين .

(نَفْعًا): شفاعة ونجاة .

(وَلَا ضَرًّا) :عذاباً وهلاكاً. (وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا)أى : ظلموا أنفسهم وهم المشركون .

التفسير

٤٠ - (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ):

واذكر- أيها النبى - يوم يحشر الله المستكبرين والمستضعفين وما كانوا يعبدون من دون الله ، وحين يعظم بالناس الحال ، ويشاهدون من الأهوال ما لا يحيط به المقال ، ثم يقول الله للملائكة - أمام من كانوا يعبدونهم - : أهؤلاء خصُّوكم بالعبادة دونى؟ وهذا الكلام مع كونه خطابا للملائكة ، فهو تقريع للمشركين وتبكيت لهم ، وإقناط لهم عما علقوا به أطماعهم من شفاعة الملائكة - عليهم السلام - وليس للاستفهام والاستعلام ؛ لعلمه - سبحانه - بما تجيب به ، وهو على نهج قوله - تعالى - لعيسى - عليه السلام - : « أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ [1] » وقد علم - سبحانه - كون الملائكة وعيسى منزهين بُرَآء مما وجه إليهم من موضوع السؤال الوارد على سبيل التقرير والغرض أن يقول ويقولوا ، ويسأل ويجيبوا ، فيكون تقريعهم أشد ، وتعييرهم أبلغ ، وخجلهم أعظم ، وَهَوَانُهُمْ ألزم ، وتخصيص الملائكة بالذكر ؛ لأنهم أشرف شركاء المشركين الذين لا كتاب لهم ، ولأنهم الصالحون للخطاب ، ولأنه إذا بطلت عبادتهم ، فعبادة غيرهم أولى بالبطلان ، وذكر ابن الوردى فى تاريخه أن سبب حدوث عبادة الأصنام

---

(١) سورة المائدة من الآية : ١١٦

فى العرب أن عمرو بن لحى مر بقوم بالشام فرآهم يعبدون الأصنام ، فسألهم ، فقالوا له : هذه أرباب نتخذها على شكل الهياكل العلوية ، فنستنصر بها ونستقى ، فتبعهم ، وأتى بصنم معه إلى الحجاز وسَوَّلَ للعرب عبادته فعبدوه . واستمرت عبادة الأصنام فيهم إلى أن جاء الإسلام .

٤١ - (قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ) :

استئناف بيانى : كأنه قيل : فماذا قال الملائكة حينئذ ؟ فقيل : قالوا - منزِّهين الله - سبحانك تعاليت وتقدست عن أن يكون معك إله ، أنت الذى نواليه من دونهم ، إذ لا موالاة بيننا وبينهم ، فبينوا بإثبات موالاة الله ومعاداة الكفار براءتهم من الرضا بعبادتهم لهم ؛ لأن من كان على هذه الصفة كانت حاله منافيةً لذلك ، ثم أضربوا عن ذلك ونفوا أنهم عبدوهم حقيقة بقولهم : (بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ) أى : الشياطين - كما روى عن مجاهد - حيث كانوا يطيعونهم فيما يسولون لهم من عبادة غير الله ، فهم خاضعون لتأثير الشياطين الذين زينوا لهم الشرك .

وقيل : صورت الشياطين لهم صورة قوم من الجن وقالوا : هذه صور الملائكة فاعبدوها فعبدوها ، وقال ابن عطية : فى الأمم السابقة مَنْ عَبَدَ الجن ، وفى القرآن ما يشير إلى ذلك ، قال - تعالى - : « وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ »[1] .

٤٢ - (فَالْيَوْمَ لاَ يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعاً وَلاَ ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ) :

أى : فاليوم لا يملك بعض المعبودين لبعض العابدين نفعًا بالشفاعة ، ولا ضرًّا بالعذاب ؛ لأن الأمر فى ذلك اليوم لله وحده ، لا يملك فيه أحد منفعة ولا مضرة لأحد ، فلا نافع ولا ضارَّ إلا اللهُ وحدَه .

---

(١) سورة الأنعام ، من الآية : ١٠٠

وهذا ما يقال للملائكة – عليهم السلام – من قبل الله عند جوابهم بالتبرؤ عما نسبه إليهم المشركون ، يخاطبون بذلك على رءوس الأشهاد إظهارًا لعجزهم وقصورهم أمام زاعمى عبادتهم ، وتنصيصًا على ما يوجب خيبة رجاء العابدين فيهم .

وقيل : إن نسبة عدم النفع والضر إلى البعض المبهم للمبالغة فيما هو المقصود الذى هو بيان عدم نفع الملائكة للعبدة بنظمه فى سلك عدم نفع العبدة لهم ، كأن نفع الملائكة لعبدتهم فى الاستحالة والانتفاء كنفع العبدة لهم .

والمراد باليوم يومُ القيامة ، وتقييد الحكم به مع ثبوته على الإطلاق ، لانعقاد رجاء المشركين على تحقق النفع يومئذ « وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا » وهم المشركون حيث ظلموا أنفسهم بعدم الإيمان : « ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ » فى الدنيا ، يقال لهم ذلك توبيخا وتقريعاً .

(وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ ۚ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾)

المفردات :

(آيَاتُنَا) : القرآن . (قَالُوا مَا هَذَا) : يعنون رسول الله التالى للآيات . (يَصُدَّكُمْ) : يصرفكم ويمنعكم . (عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءابَآؤُكُمْ) : من الأصنام . (وَقَالُوا مَا هَذَا) : يعنون القرآن المَتْلُوَّ . (إِفْكٌ مُّفْتَرًى) : مختلق (لِلْحَقِّ) : أمر النبوة كله ، أو دين الإسلام . (سِحْرٌ مُّبِينٌ) : ظاهر لمن تأمله أنه سحر . (كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا) : يقرأونها (مِعْشَارَ) معشار الشيء : عشره ، وقيل : المعشار : عشر العشر ، وقيل المعشار : عشر العُشير ، والعُشَيرُ هو عشر العشر ، قال الماوردى : وهو الأظهر ؛ لأن المراد المبالغة فى التقليل . ا هـ : قرطبى . (فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) : فكيف كان إنكارى لهم بالتدمير ؟ والاستفهام للتهويل ، أى : كان إنكارى هائلا شديدا .

التفسير

٤٣ - (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا مَا هَـٰذَآ إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَـآؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَـٰذَآ إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ) :

هذا بيان لبعض آخر من كفرهم ، أى : وإذا تتلى عليهم بلسان رسول الله ﷺ آياتنا الناطقة بأحقية عقيدة التوحيد وبطـلان الشرك ، يسمعونها من فمه الشريف ، قالوا : ما هـذا ؟ - يعنون رسول الله التالى للآيات الواضحات - إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم من الأصنام ، ويصرفكم عنه ، ويمنعـكم منه ، فيجعلكم من أتباعه من غير أن يكون له دين إلٰهى ، وإضافة الآباء إلى المخاطبين لتحريك عروق العصبية منهم ، مبالغة فى تحبيب الشرك إلى نفوسهم ، وتثبيتهم عليه ، وتنفيرهم عن التوحيد ، وقالوا : ما هذا - يعنون القرآن المتلو عليهم - إلا كذب مختلق ومفترى بإسناده إلى الله - عز وجل - وأشاروا إلى القرآن بهذه الإشارة للنيل منه - قبحهم الله - وأنّى لهم ذلك وهو الكتاب الكامل (لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ) كما أشاروا إلى الرسول بمثلها فى قولهم الذى حكاه القرآن عنهم بقوله : (قَالُوا مَا هَذَآ إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُكُمْ) للغض من شأنه ولن يستطيعوا ، فهـو ﷺ خير

المرسلين ، سيد الأولين والآخرين ، وقال الذين كفروا للحق ، أى : لأمر النبوّة كله ، أو القرآن حين جاءهم من غير تدبر ولا تأمل فيه - قالوا -: إن هذا إلا سحر مبين ظاهر لكل من تأمل فيه

٤٤ - (وَمَا ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ) :

أى : وما آتيناهم كتبا يدرسونها فيها برهان على صحة الشرك ، كما قال - عز وجل - « أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ »[1] ولا أرسلنا إليهم قبلك من نذير ينذرهم بالعقاب على شركهم ، وفى وصفهم بأنهم قوم أميون أهل جاهلية لا ملة لهم ، وليس لهم عهد بإنزال كتاب ، ولا بعثة رسول ، فيه ما فيه من التهكم بهم ، كما قال - تعالى -: « أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ »[2] فليس لتكذيبهم وجه ولا شبهة .

٤٥ - (وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) :

أى : وكذب الذين تقدموهم من الأمم أنبياءهم كما كذبوا ، وما بلغ المشركون المكذبون من قومك عُشْرَ ما آتينا هؤلاءِ السابقين : من طول الأعمار وقوة الأجسام وكثرة الأموال ، فحين كذبوا رسلى جاءهم إنكارى وعاقبة إنذارى بالتدمير والاستئصال ولم يُغْن عنهم استظهارهم بما هم به مستظهرون ، فليحذروا من مثله ؛ لئلا ينالهم ما نالهم ويصيبهم ما أصابهم ، فمن سنن الله أن ينصر أولياءه ويؤيد أصفياءه ويدحر مخالفيه وأعداءه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

---

(١) سورة الروم ، الآية : ٣٥

(٢) سورة الزخرف ، آية : ٢١

* ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ ﴾

المفردات :

(أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ) : أذكّركم وأحذركم بكلمة واحدة هي :

(أَن تَقُومُوا لِلَّهِ [1]) قيامهم لله : اهتمامهم بالتفكير لوجه الله فيما دعاهم إليه الرسول ﷺ وليس المراد به ما يقابل القُعُود ، من قولهم : قام فلان بالأمر ، أى : اهتم به حتى أتمه .

(مَثْنَى وَفُرَادَى) أى : اثنين اثنين وواحدًا واحدًا .

(ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا) أى : يتفكر الاثنان كلاهما مع الآخر على سبيل التشاور والتفاهم للوصول إلى الحقيقة ، ويتفكر كل واحد فى نفسه بعد التشاور مع صاحبه .

(مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ) : جملة مستأنفة للتعليل ، أى : ثم تتفكروا فيما دعوتكم إليه لأنه ليس بصاحبكم جنون . (إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُمْ) أى : ما محمد إلا رسول مُنْذِر لكم .

(مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ) أى : لم أسألكم على تبليغ الرسالة أجرًا ، فالأجر لكم إن آمنتم بالله ورسوله .

(إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى اللهِ) أى : ما أجرى إلا عليه سبحانه .

---

(١) أن وما دخلت عليه فى تأويل مصدر تقديره : قيامكم لله ، وهو بدل من لفظ (واحدة) .

التفسير

٤٦ - (قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) :

بين الله فى الآيات السابقة أن الذين كفروا من قريش لمَّا جاءهم الرسول برسالته كذبوه وقالوا : ما هذا إلَّا إفْك مفترى وسحر مبين ، كما أنهم كانوا يصفونه بالجنون ، وقد بين الله خطأهم بقوله : « وَمَآ آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ » أى : أنه ليس عندهم علم عن طريق الوحى جاءهم على لسان رسول قبلك ، لكى يعترضوا به على رسالتك ويردوها ، وأنه كان ينبغى لهم أن يُقْبلوا عليك ويؤيدوك فى رسالتك ، بدلًا من تكذيبهم إيَّاك ، وإعراضهم عن الكتاب الذى أيدك الله به وهو الحق المبين ، فى حين أنك فخرهم وعزهم ، وأنت الرسول العربى الوحيد الذى جاءهم ، وجاءت هذه الآية أمرًا للنبى ﷺ بمواصلة وعظهم وتذكيرهم لعلهم يهتدون ، ومعلوم أن العرب - مع إشراكهم - كانوا يعتقدون أن الله هو خالقهم ، وأنهم ما يعبدون آلهتهم إلَّا لتقربهم إلى الله زُلْفى ، ولهذا طلب إليهم فى هذه الآية أن يخلصوا فى تفكيرهم وبحثهم عن الحق من أجل الله الذى يقرون بألوهيته وربوبيته لأربابهم .

والمعنى : قل - أيها الرسول - لهؤلاء الكفار : ما أُنصحكم إلَّا بخصلة واحدة ، هى أن تتركوا التجمع فى الرأى القائم على التعصب لعقائد أصولكم ، وأن تنهضوا متفرقين : اثنين اثنين ، وواحدًا واحدًا ، فالاثنان يشاور كلاهما الآخر ويتفاهم معه ؛ فإنه أعون على الوصول إلى الحق من الفكر الواحد ، فإذا انقدح الرأى بين الاثنين ، عاد كلاهما إلى نفسه ، للموازنة والبت فيما جاءكم به محمد ؛ فإنه ليس بصاحبكم هذا جنون ، فقد عرفتموه بالعقل الراجح والفكر الرشيد ، فلا يعقل أن يتصدى لأمر خطير تعتريه صعاب لا نهاية لها إلَّا وهو على نور من ربه ، وقد أيده الله بالقرآن وسواه من المعجزات ، ما محمد إلَّا محذر لكم قُبَيلَ عذاب شديد - هو عذاب الآخرة - فقد بعث قريبًا من الساعة ، قال ﷺ : « بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ ، كَهَاتَيْنِ » مشيرًا إلى قربها بضم أصبع السبابة إلى الوسطى ، إيذانًا

بالفرق الصغير بينهما ، ولهذا كان ﷺ خاتم النبيين والمرسلين ، وقربه ﷺ من الساعة نِسبِىٌّ ، فالأرض مخلوقة منذ ملايين من السنين لا يعلمها إلّا علام الغيوب .

٤٧ - (قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ) :

لم يحدث أن النبى ﷺ سألهم على تبليغ الرسالة أجرًا ، قال - تعالى - فى سورة يوسف : « وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ » الآية (١٠٤) . وهذه الآية من هذا القبيل ، تنفى أوّلًا نفيًا صريحًا أنه سألهم أجرًا ، وتثبت أن الأجر لهم إن آمنوا ، وتبين أن أجره فى تبليغ الدعوة من الله وليس منهم .

ومعنى الآية على هذا الوجه : قل - أيها الرسول - للمشركين من قومك : لم أسألكم على إيمانكم برسالتى أجرًا فالأجر لكم[1] من الله حين تؤمنون ، وما أجرى فى تبليغ الحكم إليكم إلّا على الله وحده وهو على كل شىء رقيب وحاضر ، فلا يخفى عليه عملى وعملكم ، وسيجزى كل امرئ حسب عمله ونيته .

ويقول الزمخشرى فى تفسيرها : (فَهُوَ لَكُمْ) جزاء الشرط الذى هو قوله : (مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ) وتقديره : أى شىء سألتكم من أجر فهو لكم ، كقوله - تعالى - : « مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا . . . الآية » ، وفيه معنيان :

(أحدهما) : نفى سؤاله الأجر رأسًا ، كما يقول الرجل لصاحبه : إن أعطيتنى شيئًا فخذه - وهو يعلم أنه لم يعطه شيئًا - ولكنه يريد به عدم الأخذ لتعليقه الأخذ على ما لم يحدث وهو الإعطاء .

(والمعنى الثانى) : أنه يريد بالأجر ما أراد فى قوله - تعالى - : « قُلْ مَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا » ، وفى قوله : « قُل لَّآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا

---

(١) ففى الآية من وجوه البلاغة (الاستخدام) وهو ذكر اللفظ بمعنى وإعادة الضمير عليه بمعنى آخر ، فلفظ (الأجر) نفى أولا أنه طلبه منهم ، ثم أعاد الضمير عليه بمعنى آخر فى قوله : (فهو لكم) وهو الأجر من الله ، أى : فأجر الإيمان من الله لكم ، ثم بين صراحة أن أجره على الله بقوله : (إن أجرى إلا على الله) .

إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى » لأن اتخاذ السبيل إلى الله نفعه يعود إليهم ، وكذلك المودة فى القربى ، فقرابته قرابتهم ، وكلاهما أمر معنوى لا مال فيه . انتهى بتصرف يسير .

(قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾)

المفردات :

(يَقْذِفُ بِالْحَقِّ) : يلقيه وينزله ليرمى به الباطل .

(وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ) أى : لم تعد للباطل كلمة يبدأ بها أو يعيدها .

(فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَى نَفْسِى) : فإنما يعود ضرر الضلال عليها .

التفسير

٤٨ - (قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ) :

قل - أيها الرسول - : إن ربى ينزل الوحى على من يشاءُ من عباده ، ويرمى به الباطل فيدمغه ، أو يرمى به إلى أقطار الآفاق ، فيكون وعدًا بإظهار الإسلام ونشره فهو علام الغيوب .

٤٩ - (قُلْ جَآءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ) :

قل : جاءَ الدين الحق من عند الله ، وَزَهَقَ الباطل واضمحل ، فلم تبقَ للشرك مقالة يرددها بدءًا أو إعادة ، بعد أن علت كلمة التوحيد بنزول القرآن وسطوع البرهان ، وحينما فتح رسول الله مكة فى السنة الثامنة من الهجرة ، دخل المسجد الحرام فوجد أصنام المشركين

حول الكعبة فجعل يطعنها بطرف قوسه وهو يقرأ : « وَقُلْ جَآءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا » و « قُلْ جَآءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ » أخرجه البخارى ومسلم عن ابن مسعود .

٥٠ ــ (قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ) :

سبب نزول هذه الآية ــ كما ذكره القرطبي ــ أن المشركين قالوا للنبي ﷺ : تركت دين آبائك فضللت ، فنزلت الآية .

وقد أفادت أن ضلال الإنسان يعود ضرره عليه ؛ لأنه باختياره ، حيث لم ينتفع بهدى ربه ، وأن اهتداءه تعود منفعته عليه ؛ لأنه انتفع بهدى ربه ، وهذا الحكم عام لكل مكلف وإنما أمر الله رسوله أن يسنده إلى نفسه ، إمَّا رعاية لسبب النزول ؛ لتكون ردًّا على ما قاله له المشركون ، وإمَّا لأن الرسول مع جلالة قدره عند الله ، إذا كان الحكم بقسميه يتناوله ﷺ فإنه يتناول غيره بالطريق الأولى ، والتقابل بين شقّى الآية يرجع إلى المعنى ، فكأنه قيل : قل : إن ضللت فإنما أضل على نفسى ، وإن اهتديت فإنما هدايتى لنفسى .

واختير الأسلوب الوارد فى الآية لما فيه من إسناد فضل اهتدائه ﷺ إلى ما أوحاه الله إليه .

ومعنى الآية : قل ــ أيها الرسول ــ : إن ضللت عن الحق ، فإنما يعود وبال ضلالى على نفسى ، فإن النفس أمارة بالسوء ، وإن اهتديت إلى الحق فبسبب ما أوحاه إلىَّ ربى وتوفيقه إياى للانتفاع به ، إنه ــ تعالى ــ عظيم السمع لكل مسموع ، قريب بعلمه من كل معلوم ، فلا يخفى عليه ضلال الضَّالين ، ولا اهتداءُ المهتدين ، وسوف يجازى كل امرىء بما كسبت يداه .

(وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾)

المفردات :

(إِذْ فَزِعُوا) : حين خافوا عند الموت أو البعث .

(مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ) : من ظهر الأرض القريب من بطنها ، أو من بطنها القريب إلى المحشر .

(وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ) التناوش : التناول السهل ، – أى : وكيف يتناولون الإيمان تناولًا سهلًا من مكان بعيد .

(وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ) : وقد كفروا بمحمد ورسالته قبل حضور الموت .

(وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ) : ويتكلمون فى محمد بما لم يظهر لهم من المطاعن .

(وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ) : ومنعوا من الانتفاع بإيمانهم بعد فوات الأوان .

(بِأَشْيَاعِهِمْ) : بأشباههم ، جمع شِيع ، وشِيعٌ جمع شِيعة .

(فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ) : فى شك موقع فى الريبة ، قال ابن عطية : الشكُّ المريب أقوى من مطلق الشك ، وكأنه يريد أن يقول : إن لفظ (مريب) وصف للفظ شك لتقويته ، فإن الريب بمعنى الشك والتهمة ، ومثله قولهم : عجب عجيب ، وشعر شاعر .

التفسير

٥١ - (وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ) :

كلام مستأنف يراد به حكاية أحوال الكفار حين يعرفون الحق معاينة وحضورًا ؛ وذلك عند حضور الموت ، أو حين بعثهم من قبورهم لحسابهم بين يدى رب العالمين .

والخطاب فى قوله - تعالى - : « وَلَوْ تَرَىٰٓ » إمَّا للرسول ﷺ وإمَّا لكل من يصلح للخطاب .

والمعنى : ولو ترى الكفار عند الموت أو البعث من قبورهم ، حين فزعوا وخافوا عاقبة كفرهم بعد أن أدركوا حقيقة أمرهم ، فلا فوت لأحدهم مما نزل به ، وأخذوا من مكان قريب حيث أخذوا من ظهر الأرض إلى بطنها ، أو من بطنها إلى المحشر ، لو تراهم حين ذاك لرأيت أمرًا هائلًا .

والمقصود من وصف مكان أخذهم بالقرب سرعة نزول العذاب بهم ، والاستهانة بهم ، وبهلاكهم ، وإلَّا فلا قرب ولا بعد بالنسبة إلى الله عز وجل .

٥٢ - (وَقَالُوٓا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ) :

وقالوا : آمنا بالله وحده ، أو بمحمد وما جاءنا به من الحق ، وكيف يتأتى لهم تناول الإيمان تناولًا سهلًا من مكان بعيد عن مكان التكليف فلا ينفع إيمانهم عند الموت ؛ لأنه فى حدود الآخرة ، ولا عند البعث لفوات زمان التكليف ومكانه .

٥٣ - (وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ) :

هذه الآية جملة حالية من ضمير قالوا فى الآية التى قبلها ، أى : وقال الكفار : آمنَّا بالله أو بمحمد من مكان بعيد بعد فوات الأوان ، وحالهم أنهم قد كفروا به من قبل - أى : زمن التكليف - وهم أحياء فى الدنيا ، ويرجمون بالظن ويتكلمون بما لم يظهر فى الرسول من المطاعن من موضع بعيد عنه ﷺ إن هذا الإيمان لا ينفعهم بعد فوات الأوان وتبدل المكان .

وفسرها الزمخشري بقوله : « وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ » وهو قولهم فى رسول الله ﷺ : شاعر ساحر كذاب ، وهذا تكلم بالغيب والأمر الخفى ؛ لأنهم لم يشاهدوا فيه سحرًا ولا شعرًا ولا كذبًا ، وقد أتوا بهذا الغيب من جهة بعيدة عن حاله ؛ لأن أبعد شيء مما جاء به الشعر والسحر ، وأبعد شيء من عادته التى عرفت بينهم وجُرِّبت - أبعد شيء من عادته - الكذب والجنون .

٥٤ - (وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ) :

ومنع الكفار من تحقيق ما يحبون من قبول إيمانهم فى الآخرة ، والنجاة من العذاب ، كما فعل بأشياعهم من قبل من كفار الأمم السابقين ، حيث لم يقبل لهم إيمان بعد خروجهم من الدنيا ، إن هؤلاء وأولئك كانوا من تكليفهم فى دنياهم فى شك قوى من صدق رسلهم فيما بلغوهم عن الله - تعالى - : « فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ »[1] .

---

(١) سورة غافر : ٨٥

سورة فاطر

هذه السورة تسمى سورة الملائكة ، كما تسمى سورة فاطر ؛ لوجود هذين الاسمين في الآية الأُولى منها .

مقاصد هذه السورة

بدأت بالحمد لله على بدائع خلقه ، وسوابغ نعمه ، ودعت الناس إلى ذكر نعم الله عليهم والعمل للآخرة ، وبينت أن العزة لله جميعًا ، وأنه « إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ » وعقّبت ذلك ببيان آياته - تعالى - في خلق الناس ، وفي تفاوت البحار عذوبة وملوحة وكثرة منافعها ، وفي إيلاج الليل في النهار والنهار في الليل ، وتسخير الشمس والقمر ، وعجز الآلهة المزعومة عن نفع عابديها في الدنيا والآخرة .

وبينت آيات الله في المطر وآثاره ، وفي اختلاف ألوان الجبال وألوان الناس والدواب والأنعام وأن العلماء هم الذين يخشون ربهم ، وأن قُرَّاء القرآن والصالحين من عباد الله يوفيهم الله أجورهم ، ويزيدهم من فضله ، ووصفت الجنة ونعيمها الدائم ، والنار وأهلها وعذابهم المقيم ، ثم بينت أن شركاءهم الذين عبدوهم مع الله لا شرك لهم في خلق السموات والأرض ، وأن الله - تعالى - هو الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا : « وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِن بَعْدِهِ » ، وبينت أن المشركين أقسموا إن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم : « فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا » ثم ختمت السورة بهذا الإنذار « وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾)

المفردات :

(فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) : مبدعها على غير مثال سبق ، من الفطر وهو الابتداء والاختراع .

(أُولِي أَجْنِحَةٍ) : أصحاب أجنحة ، وهو جمع جناح وهو اليد ، وسيأتى فى التفسير بيان ذلك .

(مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ) أى : اثنين اثنين ، وثلاثة ثلاثة ، وأربعة أربعة ، حسب مراتبهم .

(يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ) أى : يزيد بحكمته فى بعض مخلوقاته ما يشاء من الزيادات على بعض آخر ، وإن اتفقوا فى الجنس والنوع .

(فَلَا مُمْسِكَ لَهَا) : فلا أحد يستطيع إمساكها ومنعها .

(وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ) : وما يمنعه الله ويحبسه فلا أحد يستطيع إطلاقه من بعد إمساك الله له .

(وَهُوَ الْعَزِيزُ) أى : الغالب .

التفسير

١ - (الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَآئِكَةِ رُسُلًا أُولِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِى الْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) :

الفَطْر فى اللغة أصلًا : بمعنى الشق ، كأنه - تعالى - شق العَدَمَ فأخرج منه السموات والأرض ثم شاع إطلاقه على الابتداء والاختراع .

أخرج عبد بن حميد والبيهقى فى شعب الإيمان وغيرهما عن ابن عباس قال : (كنت لا أدرى ما فاطر السموات والأرض ، حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها - يعنى ابتدأتها -) والمقصود من فطر السموات والأرض أنه - تعالى - أبدعهما من غير مثال سبق .

والملائكة : أجسام نورانية ، خلقهم الله لطاعته : « لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » والأجنحة فى اللغة بمعنى : الأيدى ، وهى لكل كائن بحسبه ، فاليد فى الإنسان معروفة الشكل ، وفى الطيور لها ريش مصفوف عليها يعينها على الطيران ، وأمَّا فى الملائكة فإنها تتناسب مع نورانيتهم ، والله - تعالى - هو الذى يعلم وصفها وشكلها والمقصود من قوله - تعالى - : « مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ » أن الملائكة لا يتساوون فى عدد الأجنحة ، فطائفة بجناحين لكل منهم ، وأخرى بثلاثة أجنحة ، وثالثة بأربعة أجنحة ، ولعل ما فى الآية من باب ضرب المثل ، وأن من الملائكة مَنْ له أكثر من أربعة أجنحة[1] ، وهل المقصود من « مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ » أن نصف هذه الأجنحة فى الجانب الأيمن من الملائكة ، والنصف الثانى فى الجانب الأيسر منهم حسب درجاتهم ، أم أن العدد مكرر فى الجانبين ؛ لأن الأجنحة الثلاثة لا تنقسم . كل ذلك من باب الغيب الذى يترك علمه إلى الله وحده .

والمقصود من (الخلق) فى قوله - تعالى - : « يَزِيدُ فِى الْخَلْقِ مَا يَشَآءُ » إما الملائكة ، على معنى أنه - تعالى - يزيد فى عددهم أو فى عدد أجنحتهم ما يشاء ، وإمَّا جميع الخلق ، أى : أنه - تعالى - صاحب الإرادة والمشيئة فى جميع خلقه ، فيزيد فيهم ضعفا وعددًا وجمالًا وحسنًا ، وعقلًا وعلما وغير ذلك مِمَّا يناسب كل صنف حسب حكمته جل وعلا .

---

(١) فقد جاء فى السنة ما يشير إلى ذلك .

ومعنى الآية : كل الثناء بالجميل على الله مبدع السموات والأرض بما فيهما أو فوقهما ، جاعل الملائكة رسلًا وسفراء بين الله وبين أنبيائه ، ليبلغوهم ما أوحاه إليهم ، ورسلًا بينه وبين الصالحين من عباده ، لإلهامهم ما فيه الخير لهم ولغيرهم ، وبينه وبين خلقه ليوصلوا إليهم آثار نعمته أو نقمته ، وقد جعلهم ذوى أجنحة مختلفة ، اثنين اثنين ، وثلاثة ثلاثة ، وأربعة أربعة ، يزيد فى خلق الملائكة ما يشاءُ عددًا وأجنحة وشكلًا وصورة ، أو يزيد فى جميع خلقه ما يشاءُ نوعًا وعددًا وقوة وعقلًا وعلمًا وحسنًا وغير ذلك من الكمالات أو ما يقابلها ، ممَّا يناسب كل صنف حسب حكمته - جل وعلا - لا يمنعه مانع من تنفيذ مشيئته إن الله على كل شىءٍ قدير .

٢ - (مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

المراد بفتح الرحمة : إطلاقها ؛ ولذا قوبل بالإمساك ، وفى اختيار لفظ الفتح إشارة إلى أن الرحمة من أنفس الخزائن وأعزها منالًا ، وتنكيرها لتعميمها فى كل فروعها .

ومعنى الآية : ما يطلق الله للناس أى نوع من أنواع رحمته ، كالعقل والعلم والحكمة والرزق والأمن والصحة وهدوء السر ، فلا أحد يقدر على إمساكه ومنعه عمن كتبه الله له ، وأى شىءٍ يمسكه الله فلا أحد يقدر على إرساله من بعد إمساك الله له ، وهو القوى الغالب فلا يمتنع له مراد ، الحكيم الذى يضع الشىءَ فى موضعه .

أخرج الإمام مسلم بسنده عن أبى سعيد الخدرى : أن رسول الله ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول :

« سمع الله لمن حمده ، ربنا لك الحمد ملءَ السموات وملءَ الأرض وملءَ ما شئت من شىءٍ بعد . اللهم أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد ، لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجدِّ منك الجدُّ » .

وأخرج الإمام أحمد بسنده عن ورَّادٍ مولى المغيرة بن شعبة قال : كَتب معاوية إلى المغيرة ابن شعبة : اكتب إلىَّ ممَّا سمعت من رسول الله ﷺ فدعانى المغيرة فكتبت إليه أنى سمعت

رسول الله ﷺ إذا انصرف من الصلاة قال : « لَا إِلَٰهَ إِلَّا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » وسمعته « ينهى عن قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال ، وعن وأد البنات وعقوق الأمهات ، ومنع وهات »[1] .

وبعد أن بين الله ـ سبحانه ـ أنه الموجد للملك والملكوت ، والمتصرف فيهما على الإطلاق ، أمر الناس بشكر نعمته فقال :

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾)

المفـردات :

(اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ) : تذكروها وأدوا حقها .

---

(١) متفق عليه من رواية المغيرة بن شعبة أخرجه البخارى فى « كتاب الأدب » باب : عقوق الوالدين ج ٨ ص ٤ ط / الشعب .

ومسلم فى « كتاب الأقضية » باب : النهى عن كثرة السؤال ... إلخ ج ٣ ص ٣٤١ رقم ١٢ ط / الحلبى مع تقديم وتأخير .

(فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ) : فكيف تصرفون عن عبادة الله – تعالى – وحده .

(وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ) : ولا يخدعنكم بالله الشيطان الخداع .

التفسير

٣ – (يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ) :

يرى الإمام ابن عباس أن المراد من الناس فى الآية أهل مكة ؛ لأن السورة مكية ، وقد مرَّ فى الآية السابقة الحديث عن كفارها ، وسيأتى تكذيبهم للرسول فى الآية التالية .

ويرى غيره أن المراد عموم الناس مؤمنهم وكافرهم ، فكلهم مأمورون بتذكر نعمة الله وشكره عليها ، وأهل مكة داخلون فيهم .

ونعمة الله بالنسبة لأهل مكة أنه – تعالى – أسكنهم حرمًا آمنًا ، والناس يتخطفون من حولهم ، وأنه يسوق الأرزاق إليهم وهم يسكنون فى واد غير ذى زرع ، وهم – بعد ذلك – يشتركون مع سائر الناس فى نعم الله عليهم .

والمعنى : يأيها الناس تذكروا نعمة الله التى أنعم بها عليكم فى خلقكم فى أحسن الصور ، ومنحكم نعمة العقل والكلام والقوة والإرادة ، ومكنكم بذلك من استنباط منافع الأرض ظاهرها وباطنها ، ومن الدفاع عن أنفسكم ، والسعى على أرزاقكم ، وأنزل الماء من السماء لترووا به أرضكم ، فتخرج الزرع النضير والثمر الوفير ، ومنه تشربون وتسقون ماشيتكم هل من خالق سوى الله يرزقكم من السماء والأرض ما به قوام حياتكم ، وسبب وجودكم ، وبقائكم ، لَا إِلٰه إِلَّا هُو الخلاق الرزاق ، فكيف تُصْرفون عن توحيده والإيمان بما جاء به رسوله ﷺ .

٤ – (وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) :

وإن يكذبك مشركو مكة – أيها الرسول – فلا تحزن ، فقد كُذِّبت رسل كثيرة قبلك من أممهم – والبلوى إذا عمت هانت – وإلى الله وحده ترجع أمور الخلائق جميعًا يوم الدين

فيحاسب كل امرىء على عمله ويجزيه عليه : « فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » .

٥ - (يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ) :

المراد بوعد الله : البعث والجزاء ، وقد أُشير إليهما فى الآية السابقة بقوله - تعالى - : « وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ » .

والمعنى : يـٰأيها الناس إن وعد الله عبادَه بالبعث بعد الموت وحسابِهم وجزائهم على أعمالهم وعدٌ حق لا يتخلف ، فلا تخدعنكم الحياة الدنيا بزخارفها ، فتركنوا إليها وتعملوا لها وتتركوا العمل للآخرة ، فإن الدنيا فانية وأنتم تاركوها وراجعون إلينا بعد حين ، ولا يخدعنكم بالله الشيطان الخداع الغشاش ، فيقول لكم : تمتعوا بدنياكم من حلال ومن حرام كما تحبون فإن الله غفور رحيم - لا يخدعنكم بقوله هذا - فكما أنه غفور رحيم فهو عزيز ذو انتقام ، فكيف لا يغضب ممن غفل عن مرضاته ، وأصر على عصيانه ، وهو مغمور بنعمه ، ويعلم أن بطشه شديد ، فهل من العقل أن يتعاطى المرءُ السم القاتل ، ويعتقد أنه لا يموت به ، ولقد أكد الله تحذيره من الشيطان فقال :

٦ - (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ) :

إن الشيطان لكم عدو - أيها الناس - منذ بداية خلقكم ، فقد أخرج أباكم آدمَ من الجنة ، وتوعد بإضلال ذريته ، فاتخذوه لكم عدوا واحذروا إغراءه وإضلاله فى عقائدكم وشرائعكم ، فما يدعو المتحزبين معه والمشايعين له إلا إلى ملاذ الدنيا وشهواتها الآثمة ، ليورطهم فيها ، ويجعلهم من أصحاب جهنم وبئس المصير .

(ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾)

المفردات :

(زُيِّنَ لَهُ سُوٓءُ عَمَلِهِ) : حسنت له نفسُه وشيطانُه عملَه السيء.

(فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ) : فلا تهلك نفسك تحسُّرًا عليهم .

(فَتُثِيرُ سَحَاباً) أى : تُظْهره وتنشره .

(فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ) أى : أرسلناه إلى أرض بلد لازرع فيه .

(كَذَلِكَ النُّشُورُ) أى : مثل إحياء الأَرض بالنبات نشور الموتى وبعثهم من قبورهم .

التفسير

٧ - (الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) :

حذَّر الله عباده فى الآية السابقة من خداع الشيطان حتى لا يكونوا باتباعه من أَصحاب السعير ، وعقَّبها بهذه الآية ؛ لبيان مصير من يتبعه ومن يعرض عنه .

ومعنى الآية : الذين كفروا بسيرهم وراء الشيطان وقبولهم تغريره وخداعه لهم عذاب شديد لايُقَادَرُ قَدْرُهُ ، والذين صدقوا بالله ورسوله وعملوا الصالحات التى عرفوها من الكتاب والسنة لهم مغفرة لما عسى أن يحدث منهم من الذنوب « إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ »[1] ولهم مع ذلك أجر كبير ، لإيثارهم طاعة الله على طاعة الشيطان .

٨ - (أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوٓءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) :

لما بين الله فى الآية السابقة مصير الكافرين الذين غرهم بالله الغرور ، ومصير المؤمنين الذين أعرضوا عنه وأخلصوا لربهم ، جاءت هذه الآية لتأكيد تفاوت الفريقين فى الجزاء تبعاً لتفاوتهم فى العمل ، ولكى تخفف عن الرسول ﷺ أثر ابتعاد قومه عن دعوة الحق .

والمعنى : أهما متساويان فى العمل حتى يتساويا فى الجزاء ؟ فمن زين له الشيطان عمله السيء فاعتقده حسناً وانهمك فى الكفر والمعاصى ، كمن استقبحه واجتنبه واختار الإيمان والعمل الصالح ؟ كلاَّ لا يستويان ، لست مسئولا يا محمد عن ضلال هؤلاء الضالين ، فإن الله يترك من يشاء فى ضلاله الذى أراده لنفسه ويعاقبه عليه ، ويُعين من يشاء على الهدى الذى اختاره لنفسه ويثيب عليه ، لإعراضه عن الإصغاء إلى تزيين الشيطان ، فلا تهلك نفسك تلهفاً على إيمانهم وحزناً على كفرهم ، إن الله عليم بما يصنعون فيجازيهم على كفرهم .

٩ - (وَاللَّهُ الَّذِىٓ أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ) :

هذه الآية تشير إلى برهان كونى على استحقاق الله - تعالى - للعبادة وحده ، كما تشير إلى خطأ الكفار بعبادتهم أوثانهم التى لاشأن لها فى أرزاقهم ، وكفرهم بالبعث والنشور مع قيام الدليل عليه بإحياء البلد الميت .

---

(١) سورة هود ، من الآية : ١١٤

ومعنى الآية : والله وحده هو الذى أرسل الرياح لتحمل بُخار الماء إلى حيث يتكون سحاباً فتثيره وتفرقه ، ويسوقه الله إلى بلد أرضه يابسة لانبات فيها ، فتحيي به الأرض بعد يبسها ، كذلك بعث الناس من قبورهم يوم القيامة فى السهولة واليسر .

قال أبو حيان : وقع التشبيه [١] بجهات ، كما قبلت الأرض الميتة الحياة اللائقة بها ، كذلك الأعضاء تقبل الحياة ، أو كما أن الريح تجمع قطع السحاب ، كذلك يجمع الله – تعالى – أجزاء الأعضاء وأبعاض الموتى ، أو كمايسوق – سبحانه – السحاب إلى البلد الميت ، يسوق – عز وجل – الروح والحياة إلى البدن : إ هـ .

وجاء بالمعنى الأخير حديث أبى رُزَين قال : قلت يارسول الله ، كيف يحيى الله الموتى وما آية ذلك فى خلقه ؟ قال : يا أبا رُزَين ؛ أما مررت بوادى قومك مَحْلًا [٢] ، ثم مررت به يهتز خضرا ؟ قلت : بلى يا رسول الله ، قال : فكذلك يحيى الله الموتى ، وتلك آيته فى خلقه [٣] .

رأى الكلاميين فى كيفية البعث

اختلف علماءُ الكلام (علماءُ علم التوحيد) فى طريقة إعادة الجسم ، فقال بعضهم : إنها تكون بإعادة أجزاءِ المبعوث المتفرقة وضمها بعضها إلى بعض ، وقال آخرون : إن الإعادة عن عدم ، وقد اعترض على هذا الرأى ، بأنها إذا كانت عن عدم ، فهذا يؤدى إلى أن يكون البعث إيجادًا لشخص جـديد لم يكلف فى الدنيا ، فكيف يثاب ثواب الأول أو يعاقب عقابه ، وقد أجاب أصحاب هـذا الرأى بأن الثواب والعقاب للروح ، والجسد بدونها لا يحس بعقاب ولا بثواب .

---

(١) أى : تشبيه النشور . (٢) أى : جدبا لانبات فيه . (٣) ابن كثير ، والقرطبى .

(مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾)

المفردات :

(مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ) : يريد الشرف والمنعة .

(إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ) : إلى الله يصعد الكلام الطيب من التوحيد ، والذكر والدعوة إلى الحق ، وقراءة الكتاب ، والسنة ، والمراد من صعوده قبوله .

(وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) أى : أن العمل الصالح يرفع قدر الكلم الطيب عند الله تعالى.

(وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ) : ومكر أهل السيئات يهلك ولاينفذ .

(ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً) أى : زَوَّج بعضكم ببعض .

(وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ) : وما يطول عمر أحد حتى يصير معمرًا .

(وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ) : ولا ينقص من عمر أحد غيره ، بأن يعطى عمرًا ناقصاً عنه .

(هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ) : هذا عذب شديد العذوبة .

(وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ) : وهذا مالح شديد الملوحة يحرق بملوحته .

(وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا) : كاللؤلؤ والمرجان .

(وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ) : الفلك تطلق على السفينة الواحدة ، وعلى أكثر منها ؛ والمراد هنا السفن ، ومعنى مواخر : جاريات تشق الماء بجريها .

التفسير

١٠ - (مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ) :

كان الكفار يتعززون بالأصنام ، كما قال - تعالى - : « وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا[1] » والمنافقون يتعززون بالمشركين ، كما قال - سبحانه - : « الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ للهِ جَمِيعًا »[2] فأنزل الله - تعالى - هذه الآية تخطئة لهؤلاء وأولئك ، وبياناً لأن العزة من الله لمن أطاعه ، فهو الذى تطلب منه العزة بطاعته .

والصعود هو التحرك إلى أعلى ، وهو لا يكون فى الكلام على الحقيقة ، فهو مجاز عن قبوله ، والمقصود من قوله : (وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ . . .) قريش ، حيث اجتمعوا فى دار الندوة ليمكروا برسول الله ﷺ كما يشير إليه قوله - تعالى - : « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ »[3]

---

(١) سورة مريم : ٨١ (٢) سورة النساء : ١٣٩

(٣) سورة الأنفال ، آية : ٣٠

ومعنى الآية : من كان يريد الشرف الرفيع والمنعَةَ ، فليطلبها من الله بطاعته ، فللهِ العزة جميعاً يهبها لمن يشاء ، إليه يرتفع الكلام الطيب من التوحيد وقراءة القرآن ، والأحاديث النبوية والذكر والشكر والدعوة إلى الحق ونحوها ، والعمل الصالح يرفع قدر هذا الكلام الطيب عند الله - تعالى - بحيث يكون له من الأجر أعظم مما لو تجرد عن العمل الصالح ، ويصح أن يعود الضمير المستتر إلى الله - تعالى - ويعود الضمير الظاهر إلى العمل ، والتقدير : والعمل الصالح يرفع الله إياه ويتقبله كما صعد إليه الكلام الطيب وتقبله .

والذين يمكرون المكرات السيئات من قريش ضد رسول الله ﷺ لهم عذاب شديد فى الدنيا والآخرة ، ومكر أولئك هو يفْسُدُ ولايتحقق « وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » والآية وإن تنزلت فى مكر قريش برسول الله ﷺ فحكمها شامل لهم ولغيرهم ، كما قال - تعالى - : « وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ »[1] .

١١ - (وَاللهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِى كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ) :

تضمنت هذه الآية أن الله - تعالى - خلق جميع البشر من تراب ، وذلك إمّا باعتبار أبيهم آدم ، فقد خلقه الله من تراب ، وإما لأنهم خلقوا من النطفة التى ترجع إلى الأغذية ، والأغذية نشأت من تراب ، فهم مخلوقون جميعاً من تراب لهذا أو لذاك .

والمقصود من النطفة ماء الرجل الذى فيه الحيوانات المنوية وماء المرأة الذى فيه البويضة ، وقد مر بيان ذلك مستوفى فى تفسير قوله - تعالى - : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ »[2] فارجع إليها إن شئت .

وهذه الآية تشير إلى دليل آخر من أدلة البعث غير ما تقدم والمقصود من قوله - تعالى - : (وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ) : وما يمد فى عمر أحد حتى يصير معمرًا ، فسماه معمرًا باعتبار

---

(١) سورة فاطر : ٤٣

(٢) الآية : ٥ من سورة الحج .

ما يؤول إليه ، والمقصود من قوله : (وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ) ولا ينقص من عمر أحد آخر غير المعمر ، كما تقول : عندى درهم ونصفه ، أى : ونصف درهم آخر غير الدرهم الأول ، وهذا هو المعروف فى علوم البلاغة (بالاستخدام) وهو ذكر اللفظ بمعنى وإعادة الضمير عليه بمعنى آخر .

ومعنى الآية : والله خلقكم يا بنى آدم من تراب ضمن خلق أبيكم آدم منه ؛ أو لأنكم خلقتم من الأغذية التى منشؤها التراب ، ثم خلقكم من نُطَف أبويكم ذكرانا وإناثا ثم جعلكم أزواجاً – يتزوج الذكر منكم الأنثى – ليبقى النوع الإنسانى إلى انقضاء الدنيا ، وماتحمل من أنثى بعد مباشرة الزوج لها إلَّا بعلم الله وتدبيره ، وما يعطى أحد عمرًا طويلا يصير به معمرًا وما ينقص من عمر غيره ، بأن يعطى عمرًا ناقصاً عن هذا المعمر إلَّا ثابتا فى كتاب [1] إن ذلك على الله سهل يسير ، فكذلك البعث والنشور .

ولابن عباس فى تفسير الآية رأى غير ماتقدم يرويه عنه سعيد بن جبير ، وهو أن المعنى : « وما يعمرمن معمر إلَّا كتب عمره كم هو سنةً ، كم هو شهرًا ، كم هو يومًا ، كم هو ساعةً ، ثم يكتب تحته ، أو فى كتاب آخر ، نقص من عمره يوم ، نقص من عمره شهر ، نقصت سنة ، حتى يستوفى أجله ، فما مضى من عمره فهو النقصان ، وما يستقبله فهو الذى يعمره » وقد شارك ابن عباس فى رأيه هذا ابن جبير وأبو مالك وحسَّانُ بن عطية السُّدِّى ، كما ذكره الآلوسى ، وابن كثير .

ولكن جعل الآية شاملة لطويل العمر وقصيره أولى من قصرها على المعمر فقط ، فإن كليهما مكتوبٌ عند الله – تعالى – .

١٢ – (وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) :

(١) والمراد به : علم الله ، أو اللوح المحفوظ ، أو صحف الملائكة .

ينبهنا الله بهذه الآية إلى أنه – تعالى – مع قدرته على خلق الأشياء المتباينة طبعاً فهو قادر على أن يجعلها مشتركة فى بعض المنافع ، وأن يجعل بعضها منفردًا ببعض آخر منها ، والبحر فى اللغة : الماء الكثير ملحاً كان أو عذبا ، فكل ماء مستبحر فى المحيطات والبحار والبحيرات والخلجان والأنهار صغيرها وكبيرها يسمى بحرًا ، والاشتراك بين الملح والعذب فى هذه التسمية واضح من النص الكريم ،وقد بين الله فى هذه الآية أن البحرين العذب والملح نأكل منهما لحماً طريا هو السمك بمختلف أنواعه وأحجامه ، والتعبير عنه باللحم الطرى للإشارة إلى لطافته وسهولة مضغه لضعف أليافه ، وأنه يكاد يكون لحماً خالصاً لقلة العظم فيه بالنسبة إلى سائر الحيوان ، كما أشار بالأكل منهما إلى المسارعة فى أكله قبل أن يفسد .

كما ذكر أننا نستخرج من كليهما حلية نلبسها ، كاللؤلؤ والمرجان ، ولكن المعروف أن ذلك لا يستخرج إلا من الملح دون العذب .

وقد أجاب النحاس عن ذلك : بأن الله جمع البحرين فى اللحم الطرى وأفرد أحدهما فى الحلية وهو الملح ، كما فى قوله–تعالى– : « وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ » والسكون فى الليل ، والابتغاء من فضله فى النهار . وقال غيره : إنما تستخرج الأصداف التى فيها الحلية من الدر وغيره من المواضع التى فيها العذب والملح نحو العيون ، فهو مأخوذ منهما ؛ لأن فى البحر الملح عيوناً عذبة ، وبينهما يخرج اللؤلؤ عند التمازج ، وقيل : من مطر السماء[1] .

على أن الحلية ليس بلازم أن تكون من اللؤلؤ والمرجان ، فأى مانع من اتخاذ حلية من عظام السمك الضخم فى المياه العذبة الفسيحة الأطراف ، كالبحيرات الاستوائية ، ولهذا قال بعض قدامى العلماء : لا يبعد أن تكون الحلية من الماء العذب عظام السمك التى يصنع منها قبضات للسيوف والخناجر ، فتحمل ويتحلى بها .

وجاء فى التفسير المنتخب للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية أن العلم أثبت وجود الحلية فى الماء العذب ، كما أثبته الواقع ، فنى المياه العذبة بإنجلترا واسكتلندا وويلز وتشيكوسلوفاكيا واليابان وغيرها توجد أنواع من أصداف اللؤلؤ من الماس والياقوت إلى غير ذلك ، فارجع إلى تعليقه فى الهامش على هذه الآية ؛فإنه نفيس .

---

(١) انظر القرطبى .

ومعنى الآية : وما يستوى البحران فى صفاتهما وفى منافعهما ، هذا عذب شديد العذوبة سهل التناول لخلوه مما تعافه النفس ، وهذا ملح شديد الملوحة لذاع لايستساغ تناوله ، ومع تباينهما فى الصفة ، فإنكم تأكلون من كل منهما سمكا طرى الألياف ، وتستخرجون حلية تتحلون بلبسها ، وترى الفلك على اختلاف أحجامها تشق ماءه وهى تجرى بكم فيه ؛ لتطلبوا من فضل الله ورزقه متنقلين فيها من بلد إلى بلد ، ومن قطر إلى قطر ، ولتشكروه – تعالى – بأن تعرفوه وتعرفوا حقوقه فتؤدوها كما أمركم بها .

(يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾)

المفردات :

(يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ) : يدخله فيه فينقص الليل ويزيد النهار .

(وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) : ذللهما وأجراهما خاضعين لمشيئته .

(لِأَجَلٍ مُّسَمًّى) : لوقت معين ، وسيأتى شرحه .

(مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ) : القطمير : لفافة النواة .

التفسير

١٣ – (يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ) :

يدخل الله - تعالى - الليل فى النهار فيزيد النهار وينقص الليل ، وذلك فى فصلى الربيع والصيف ، ويدخل النهار فى الليل ، فيزيد الليل وينقص النهار ، وذلك فى فصلى الخريف والشتاء ، وأجرى الشمس والقمر خاضعين لمشيئته ، كل منهما يجرى فى فلكه ، ويرسل نوره لأجل سماه الله ، وهو يوم القيامة ، أو هو مدة الدورة فى كليهما ، فدورة القمر تستغرق شهرًا قمرياً ، ودورة الشمس تستغرق سنة شمسية ، ثم يعود كلاهما لابتداء دورة جديدة ؛ ذلكم العظيم الشأن الذى أبدع هذا النظام هو الله ربكم له وحده الملك كله ، لا شريك له فيه ، والذين تدعونهم آلهة غيره من الأصنام ما يملكون قشرة نواة .

١٤ - (إِن تَدْعُوهُمْ لَايَسْمَعُوا دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَايُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ) : إن تدعوهم يا عابديهم لتفريج كرب أو قضاء حاجة لايسمعوا دعاءكم ؛ لأنها جمادات ، ولو سمعوا على سبيل الفرض والتقدير ما حققوا دعاءكم لعدم قدرتهم على النفع والضر ، ويوم القيامة يتبرأون من إشراككم بألسنة مقالهم يخلقها الله لهم ، أو بألسنة حالهم قائلين : ما نحن آلهة وما أمرناكم بعبادتنا ، وما كنتم إيانا تعبدون وإنما كنتم تعبدون هواكم .

ويحتمل أن تكون الآية عامة لمن عبد الأصنام والملائكة والبشر كعيسى - عليه السلام - وعدم سماع الملائكة وعيسى لهم ؛ لأنهم فى شغل عنهم بما هم فيه ، أو لأن الله صان أسماعهم عن ذلك الدعاء لقبحه ، ولو سمعوا ما استجابوا لهم .

* (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾)

المفردات :

(أَنتُمُ الْفُقَرَآءُ إِلَى اللهِ) أى : المحتاجون إليه .

(هُوَ الْغَنِىُّ الْحَمِيدُ) أى : المستغنى عما سواه بالذات ، المحمود بكل لسان .

(إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ) : بأن يفنيكم ، ويستبدل بكم غيركم

(وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ) أى : وما ذلك بصعب أو ممتنع على الله .

١٥ - (يَٰأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَآءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) :

والمعنى : يا أيها الناس أنتم المحتاجون فى أنفسكم إيجادا وإبقاء ، وفى حركاتكم وسكناتكم وفيما يَعنّ لكم من أموركم ، أو خطب يُلِمُّ بكم ، وهو - سبحانه - الغنى بالذات عما سواه المحمود بكل لسان ، لِفَيْضِ إنعامه عليكم بعد فقركم إليه .

وفى توجيه الخطاب لجميع الناس تغليب للحاضرين منهم على الغائبين .

١٦ - (إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ) :

أى : إن يشأ يذهبكم - أيها العصاة - بإفنائكم وإبدالكم بخلق أطوع منكم وأزكى ، ليسوا على طبيعتكم ، بل مستمرون على طاعته وتوحيده ، أو بأن يأتى بعالم غيركم لا تعرفونه ، فإن غناه فى الأزل بذاته لا بكم .

وتفسير « الجديد » بما ذكر مروى عن ابن عباس ، وجملة « إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ » تقرير وتأكيد لاستغنائه - عز وجل - عنهم .

١٧ - (وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ) :

المعنى : أن إذهابهم والإتيان بخلق جديد ليس على الله بصعب أو متعذر ، فهو - سبحانه - القادر المتصرف إذا أراد شيئاً قال : كن ، فيكون .

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾)

المفردات :

(وَلَا تَزِرُ) أى : ولا تحمل ، والوزر : الإثم والثِّقْل ، يقال : وزر يزر من باب وعد ، إذا حمل الإثم أو الثِّقل .

(وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا) أى : وإن تدع نفس أثقلها الإثم إلى حملها – بكسر الحاء – وهو فى الأصل ما يحمل على الظهر ثم استعير للمعانى نحو : الذنوب والآثام . والجمع أحمال وحمول ، وهو من باب ضرب .

(وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ) أى : ومن يصلح حاله فإن ثمرة صلاحه تعود إليه ، يقال : زكا يزكو إذا صلح ، وزكيته بالتثقيل : نسبته إلى الزكاة وهى الصلاح والطهر .

(وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ) أى : المرجع والمآب .

التفسير

١٨ – (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ ..) :

روى أن الوليد بن المغيرة قال لقوم من المؤمنين : اكفروا بمحمد ﷺ وعلىَّ وِزْركم ، فنزلت .

والمعنى : ولا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى يوم القيامة ، بل كل نفس تحمل إثمها الذى اقترفته ، فلا تؤاخذ نفس بما لا تقترفه كما يفعل جبابرة الدنيا من أخذ الجار بجاره ، والمولى بوليه .

وأما قوله – تعالى – : « وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ » فهو وارد فى الضالين المضلين ؛ فإنهم يحملون أثقال إضلالهم الناس مع أثقال ضلالهم ، وذلك كله من أوزارهم فليس فيه شىء من أوزار غيرهم ، والمراد بأثقالهم : ماكان بمباشرتهم، وبما معها : ماكان بسببهم .

والمعنى : وإن تدع نفس مثقلة بحملها من الذنوب إنساناً ليتحمل عنها بعض أوزارها لم تُجب بحمل شىء منه ، ولو كان المدعو ذا قربى من الداعى كأب أو ولد أو أخ ، إذ كل مشغول بنفسه كما قال – تعالى – : « يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِىءٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ »[1] .

وروى عن عكرمة : أن الرجل يأتى إلى أبيه يوم القيامة فيقول له : ألم أكن بك براً ، وعليك مشفقاً ، وإليك محسناً ، وأنت ترى ما أنا فيه ؟ فهب لى حسنة من حسناتك ، أو احمل عنى سيئة . فيقول : إن الذى سألتنى يسير ولكنى أخاف مما تخاف منه ، وإن الأب يقول لابنه مثل ذلك ، فيرد عليه نحوا من هذا ، ثم تلا عكرمة : « وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى » .

وقال الفضيل بن عياض : هى المرأة تَلْقَى ولدها فتقول : يا ولدى ، ألم يكن بطنى لك وعاء ؟ ألم يكن لك ثديى سقاء ؟ ألم يكن حجرى لك وطاء ؟ فيقول : بلى يا أماه ، فتقول : يابنى ، قد أثقلتنى ذنوبى فاحمل عنى منها ذنباً واحدًا ، فيقول : إليك عنى يا أماه فإنى بذنبى عنك مشغول .

(إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ) : استئناف مسوق لبيان من يتعظ بما ذكر ، أى : إنما تنذر بهذه الإنذارات ونحوها الذين يخشون ربهم غائبين

(١) سورة عبس ، الآيات : ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧

عن عذابه ، أو عن الناس فى خلواتهم ، وأقاموا الصلاة بأركانها وشروطها ، بقلوب واعية ، وأفئدة ذاكرة ، فإنما ينتفع بإنذارك وتحذيرك هؤلاء من قومك دون من عداهم من أهل الكفر والعناد ، فلا تحزن على إعراضهم عنك وصدهم غيرهم عن دعوتك .

(وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ) أى : ومن تطهر من الأوزار والمعاصى بالإيمان والتوبة والعمل الصالح ؛ فإنما يتطهر لنفسه ؛ لاقتصار نفع عمله عليها ، كما أن من تدنس بالمعاصى والإعراض عن دعوة الرسول لا يتدنس إلا عليها .

وهذه الجملة فيها حث على تطهير النفس وتزكيتها .

(وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ) أى : وإلى الله المرجع والمآب لا إلى غيره ، وهو وعد للطائع بحسن العاقبة ، ووعيد للعاصى بسوء الخاتمة .

(وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾)

المفردات :

(وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ) : مثل للكافر والمؤمن . (وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ) : مثل للباطل والحق . (وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ) : مثل للثواب والعقاب ، والحرور : الريح الحارة كالسموم ، إلا أن السموم تكون بالنهار ، والحرور بالليل والنهار ، نقل ذلك عن الفراء ، وقال الأخفش : الحرور لا يكون إلا مع شمس النهار ، والسموم يكون بالليل .

١٩ ـ (وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ) : عطف على قوله : « وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ » ، والأعمى والبصير : مثلان للكافر والمؤمن كما قال قتادة والسدى وغيرهما ، أى : لا يستوى الكافر الذى يماثل الأعمى فى عدم الاهتداء إلى الطريق الموصلة للغاية ، لا يستوى مع المؤمن الذى يماثل البصير ، فى أنه يضع الأمور فى نصابها ، ويرى الضار والنافع ، ولا تلتبس عليه السبل ، ولا تخفى عليه المقاصد والغايات ، فيهتدى إلى خالقه ولا يشرك به غيره .

وقدم الأعمى على البصير مع أن البصير أشرف ، إشارة إلى أن الكافر موجود قبل البعثة والدعوة إلى الإيمان ، فالاستبصار يأتى بعد ضده .

٢٠ ـ (وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ) :

أى : ولا يستوى الباطل المشبه للظلمات ، ولا الحق المماثل للنور ، إذ الظلمات تدعو إلى الحيرة شأن الباطل ، والنور يهدى إلى الطريق القويم ، شأن الحق .

وجمع الظلمات مع إفراد النور ، لتعدد فنون الباطل ، مع اتحاد سبل الحق ، وقدمت الظلمات على النور ؛ لأنها عدم والنور وجود ، والعدم مقدم على الوجود .

٢١ ـ (وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ) :

أى : ولا يستوى الثواب المشبه للظل فى أنه داع إلى الراحة والنعيم ، مع العقاب الذى يماثل الحرور ، وهى الريح الحارة ، وهى ريح تلفح الوجوه وتكاد تمسك الأنفاس .

وتكرير لفظ (لا) . . بين المتقابلين للتأكيد .

٢٢ ـ (وَمَا يَسْتَوِى الْأَحْيَآءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى الْقُبُورِ) :

تمثيل للمؤمنين الذين دخلوا فى الدين بعد البعثة بالأحياء ، وللكافرين الذين استكبروا وأصروا على كفرهم بالأموات .

(إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ) أى : يسمع من يشاء من أوليائه الذين خلقهم لجنته سماع تدبر وقبول لآياته .

(وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى الْقُبُورِ) أى : إنك لا تسمع الكفار الذين أمات الكفر قلوبهم ، وأبطل حواسهم فأصبحوا كالأموات ، وكما أنك لا تسمع الأموات الذين توسدوا القبور ، فكذلك لا تسمع من مات قلبه من هؤلاء المشركين الذين كتبت عليهم الشقاوة والجملة ترشيح لتمثيل المصرين على الكفر بالأموات ، وإشباع فى إقناطه – عليه السلام – من إيمانهم ، حيث علم – سبحانه – من يدخل فى الإسلام ممن لا يدخل فيه ، فيهدى سبحانه من يشاء هدايته ، وأما أنت فخفى عليك أمرهم ، فلا تحرص على إيمان قوم مخذولين رضوا بالباطل وأصروا عليه .

٢٣ – (إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ) :

أى : ما أنت إلا منذر بتبليغ رسالة ربك ، فإن كان المنذر ممن أراد الله له الهداية وفق ما علم – سبحانه – عن طبيعته ، وحسن اختياره ، سمع واهتدى ، وإن كان ممن أراد الله ضلاله ، وطبع على قلبه لإصراره على الكفر ضل وغوى ، فلا تحزن عليهم ؛ لأنه ليس عليك من أمر هدايتهم أو ضلالهم سوى التبليغ والإنذار ، وأما الاهتداء فليس من وظائفك ولا حيلة لك فى المطبوع على قلوبهم لسوء اختيارهم ، وخبث نفوسهم .

(إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَٰبِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾)

المفردات :

(إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ) أى : محقين بإرسالك ، أو إرسالا مصحوبا بالحق

(وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) أى : ما من أمة مضى فيها نذير من نبى أو عالم يقال : مضى يمضى مضيا : خلا .

(وَبِالزُّبُرِ) أى : الكتب : جمع زبور ، فعول من الزبر بمعنى الكتابة ، والزبور كتاب داود – عليه السلام – (ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا) من الأخذ : بمعنى الإيقاع بالشخص وإنزال العقوبة به .

(فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) أى : فكان إنكارى عليهم شديدا بليغا .

التفسير

٢٤ – (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) :

المعنى : إنا أرسلناك – أيها النبى – محقين بإرسالك لتكون بشيرا بالوعد الحق ، ونذيرا بالوعيد الحق ، وما من أمة من الأمم التى وجدت فى الأزمنة السابقة إلا سلف فيها نذير من نبى أو عالم ، قام بما كلف به من نذارة أو بشارة ، والاكتفاء بقوله : « نذير » للعلم بأن النذارة قرينة البشارة ، ولا سيما أنهما اقترنتا فى صدر الآية .

٢٥ – (وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ) : الآية تسلية للرسول – صلى الله عليه وسلم – .

والمعنى : وإن أصر هؤلاء المكذبون من كفار قريش على تكذيبهم إياك ، فلا تبال بهم ، ولا تعبأ بإعراضهم ؛ لأنه قد كذب الذين من قبلهم من الأمم الفانية التى اتبعت هواها ، وقد جاءتهم رسلهم بالمعجزات الباهرة ، والآيات والبراهين البينة ، والشرائع الموضحة الدالة على نبوتهم ، وصدق دعوتهم ، كما جاءتهم الصحف الإلهية كصحف إبراهيم ، وبالكتاب الذى يشع نورا وحكمة كالتوراة والإنجيل – على إرادة التفصيل – ، يعنى : أن بعض الرسل جاء بالبينات لقوم ، وبعضهم جاء بالزبر لآخرين ، وبعض جاء بالكتاب المنير لغيرهم ، لا على معنى إرادة الجمع وأن كل رسول جاء بجميع ما ذكر ، ويلاحظ أن البينات بمعنى الدلائل أو الشرائع جاءت لجميعهم .

٢٦ - (ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) :

أى : ومع ما جاءهم به رسلهم من المعجزات والكتب استمروا على تكذيبهم ، فأمهلهم الله ثم عاقبهم بأنواع العقوبة التى تركتهم أثرًا بعد عين لكفرهم (فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) الاستفهام للتهويل والتعظيم ، والمعنى : فكان إنكارى عليهم عظيمًا بليغًا استأصلهم حتى لم تبق لهم باقية .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾)

المفردات :

(وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ) الجدد : الطرائق المختلفة فى ألوان الجبال ، جمع جُدة - بضم الجيم - وهى الطريقة .

(وَغَرَابِيبُ سُودٌ) : جمع غربيب ، وهو الذى أبعد فى السواد ، وأغرب فيه ، ومنه الغراب ، والعرب تقول للشديد السواد الذى لونه لون الغراب : أسود غربيب ، ولفظ « سود » بدل من غرابيب وليس توكيدًا ؛ لأن توكيد الكلمات لا يتقدم عليها . إهـ : قرطبى نقلًا عن القاموس .

(وَالدَّوَآبُّ) : جمع دابة ، وهى ما دب من الحيوان ، وغلب على ما يركب ، ويقع على المذكر أيضًا : قاموس .

التفسير

٢٧ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا . . .) الآية .

استئناف مسوق لتقرير ما أشعر به قوله - تعالى - : « ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ » من عظيم قدرته - عز وجل - وقال أبو حيان : هو لتقرير وحدانيته - تعالى - بأدلة سماوية وأرضية إثر تقريرها بأمثال ضربها - عز وجل - والاستفهام للتقرير ، والرؤية قلبية .

والمعنى : ألم ينته إلى علمك قدرة الله البالغة فيما ذكر ، وفى خلقه الأشياء المختلفة من شىء واحد وهو الماء الذى أنزله من السماء ، فأخرج به ثمرات مختلفًا ألوانها من أصفر ، وأحمر ، وأخضر ، وأبيض ، أو يراد باختلاف الألوان اختلاف الأنواع ، فيختلف كل نوع بتعدد أصنافه .

وقوله - تعالى - : (وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ) : إما عطف على ما قبله بحسب المعنى ؛ أو حال ، أى : وبعض الجبال ذو جدد بمعنى طرائق يخالف لون بعضها لون البعض الآخر ، حيث نجد منها طريقة بيضاء ، ومنها طريقة حمراء ، ومن الجبال ما اتحد لونه ، وهو الأسود شديد السواد ، وقيل : عطف على بيض فهو من تفاصيل الجدد والصفات القائمة بالجبال الملونة ، والغربيب تأكيد للأسود بحسب المعنى ، فيقال : أسود غربيب وهو الذى أبعد فى السواد وأغرب ، وقد جاء فى الآية على التقديم والتأخير ، أى : سود غرابيب ، كما قال الفراء ، فيعرب بدلا كما تقدم .

وفى تلك الجبال التى تختلف ألوانها آيات واضحة على كمال قدرة الله ، وعظيم صنعه ، تنزهت أسماؤه عن الشريك والنظير ، وعلا علوًّا كبيرًا .

٢٨ - (وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ . . .) الآية .

المعنى : وبعض الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، أى : اختلافًا كاختلاف الثمرات والجبال ، ففيهم الأحمر والأبيض والأسود ، وقوله : « كَذَٰلِكَ » من تمام ما قبله والوقف عليه حسن بإجماع أهل الأداء ، وهذا الاختلاف فى الألوان دليل على صانع مختار - جل شأنه -

وقوله ـ سبحانه ـ : (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) تكملة لقوله ـ تعالى ـ : « إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم » بتعيين من يخشى الله ـ عز وجل ـ من الناس ، بعد بيان اختلاف طبقاتهم ، وتباين مراتبهم ، أى : إنما يخشاه بالغيب العلماء الذين علموه بصفاته فعظموه ، ومن ازداد علمًا به ازداد منه خوفًا ، وأحق الناس بخشية الله هم العلماء الذين عرفوا أسرار اختلاف هذه الموجودات مع أنها من أصل واحد ، ومَنْ عِلْمُه به أقل كان آمنا لجهله وسوء نظره فيما وراء هذه الحياة ؛ لأن مدار الخشية معرفة المخشى والعلم بشئونه ، كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « أنا أخشاكم لله وأتقاكم له » ، وقال الربيع بن أنس : من لم يخش الله فليس بعالم ، وقال مجاهد : إنما العالم من خشى الله ـ عز وجل ـ وأسند الدارى أبو محمد عن مكحول قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (إن فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم ، ثم تلا : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ») وحيث كان الكفار بمعزل عن هذه المعرفة لم يفد إنذارهم بالكلية إلّا من ألقى السمع وهو شهيد .

وتقديم لفظ الجلالة وتأخير العلماء يؤذن أن الذين يخشون الله من عباده العلماء دون غيرهم ، وقرئ برفع لفظ الجلالة ونصب العلماء ، ويكون المعنى : إنما يعظم الله من عباده العلماء ويجلهم ، فالخشية مستعارة للتعظيم ؛ لأن المعظَّم يكون مهيبًا .

(إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ) : تعليل لوجوب الخشية لدلالة العزة على كمال القدرة على عقوبة العصاة وقهرهم ، ودلالة المغفرة على إثابة أهل الطاعة والعفو عنهم ، والمعاقب المثيب حقه أن يُخشى ، ولا يوصف بالمغفرة والرحمة إلّا القادر على العقوبة .

وفى بعض الآثار : نزلت فى أبى بكر الصديق ـ رضى الله تعالى عنه ـ وقد ظهرت عليه هذه الخشية حتى عرفت فيه .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾)

المفردات :

(يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ) : يقرءونه ، وفعله : تلاه يتلوه تلاوة ، ويقال : تلوت الرجل أتلوه تُلُوًّا على فُعُول : تبعته ، فأنا له تالٍ ، وتِلْو وزن حِمْل .

(لَن تَبُورَ) : لن تهلك . يقال : بارَ يبور بُورًا – بالضم – هلك . أو لن تكسد ، يقال : بار الشيءُ بَوْرا – بالفتح – : كسد ؛ لأنه إذا ترك صار كمهرمنتفع به فأشبه الهالك من هذا الوجه ، فالمعنيان متقاربان .

التفسير

٢٩ – (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ) :

المراد من الذين يتلون كتاب الله ، الذين يداومون على قراءته حتى صارت لهم سمة وعنوانًا ، والمقصود بهم أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقال عطاء : هم المؤمنون أى : عامّةً وهو الأرجح ، ويدخل فيهم الأصحاب دخولًا أوليًّا ، وهم مع مداومتهم على تلاوته يعملون به ، فتلك صفتهم .

وقيل : معنى يتلون كتاب الله : يتبعونه فيعملون بما فيه ، بجعل يتلو من تلاه إذا تبعه ، واختار بعضهم المعنى المتبادر حيث إنه – سبحانه – لما ذكر الخشية وهى عمل القلب ذكر بعدها عمل اللسان والجوارح والعبادة المالية .

(وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً) أى : لا يقنعون بتلاوته عن حلاوة العمل بما دعا إليه ، فيقيمون الصلاة فرضًا ونفلًا ، وينفقون ممّا آتاهم الله كيفما تيسر لهم الإنفاق فى السر أو العلانية ، وقيل : السر فى الإنفاق المسنون ، والعلانية فى الإنفاق المفروض .

وكون الإنفاق ممّا رزقوا إشارة إلى أنهم لم يُسْرِفوا ولم يبسطوا أيديهم كل البسط ، فمِنْ للتبعيض ، ومقام المدح يشعر بأنهم تحروا الحلال الطيب .

(يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ) أى : يرجون بما قدموا من الطاعات معاملة مع الله لنيل ربح الثواب ، فالتجارة مجاز عن ذلك ، وهذه تجارة لن تهلك ولن تكسد ، وجملة (لَن تَبُورَ) صفة لتجارة جىء بها للدلالة على أنها ليست كسائر التجارات الدائرة بين الربح والخسران ؛ لأنها اشتراء باقٍ بفانٍ ، وفيه إشعار بأنهم لا يقطعون برواج تجارتهم عند الله ، بل يأتون ما أتوا من الطاعات وقلوبهم وجلة ألّا يقبلها الله منهم .

٣٠ - (لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ) :

قوله - سبحانه - : « لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ » متعلق بـ « لَن تَبُورَ » أى : لن تبور ليوفيهم أجور ما قدموا من الطاعات والأعمال الصالحة ، ويزيدهم عليه من خزائن فضله ، وفيض إنعامه . (إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ) : تعليل لما قبله من التوفية والزيادة ، أى : غفور للذنوب ، شكور يقبل القليل من العمل الخالص ، ويثيب عليه الجزيل من الثواب .

(وَالَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَـٰبِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَـٰبَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِالْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِيٓ أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾)

المفـردات :

(مِنَ الْكِتَابِ) أى : القرآن .

(ثمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ) أى : جعلنا القرآن ميراثًا منك لأُمتك التى اخترناها على سائر الأُمم .

(فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ) : بأَن رجحت سيئاته على حسناته .

(وَمِنْهُم مُقْتَصِدٌ) : بأَن تساوت حسناته مع سيئاته .

(وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ) : بأَن رجحت حسناته على سيئاته .

(يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ) : الأَساور : جمع أسورة جمع سوار ، فهى جمع جمع ، وهو مايلبس فى المعصم ، وسوار المرأة معرب كما قال الراغب .

(الَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ) أى : أزال جنس الحزن الشامل لأحزان الدنيا والآخرة .

(لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ) أى : تعب ومشقة ، يقال : نَصِبَ كفرح إذا تعب وأعيا .

(وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ) أى : إعياءٌ وكلال من التعب ، يقال : لغب لَغْبًا ولغوبًا ، كمنع : أعيا أشد الإعياء .

التفسير

٣١ - (وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ) :

المعنى : والقرآن الذى أوحيناه إليك - أيها النبى - هو الحق مصدقا لما تقدمه من الكتب السماوية ، بمعنى أنه لا ينفك عن التصديق لها وموافقته إياها فى العقائد وأصول الأحكام ، وهو - سبحانه - محيط ببواطن أمور عباده وظواهرهم ، فَعلِمكَ وأبصر أحوالك ، ورآك أهلًا لأن يوحى إليك مثل هذا الكتاب المعجز الذى اشتمل على سائر الكتب .

٣٢ - (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ) :

المعنى : نحن أوحينا إليك القرآن الكريم ثم قضينا بتوريثه منك الذين اصطفيناهم من عبادنا ، وهم - كما قال ابن عباس وغيره - : أمته من الصحابة والتابعين وتابعيهم من بعدهم ممن يسير سيرتهم إلى يوم القيامة ، أو أمته بأسرهم ، فإن الله اصطفاهم على سائر الأمم وجعلهم أمة وَسَطًا ، واختصهم بكرامة الانتماء إلى أفضل رسله - عليهم الصلاة والسلام - وليس من ضرورة وراثة الكتاب مراعاته حق رعايته لقوله - تعالى - : « فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ[1] » والتعبير عن الإيراث بلفظ الماضى لتحقق وقوعه ، ولأنهم ورثوه أزلًا فى علم الله .

(١) سورة الأعراف من الآية : ١٦٩

(فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ) : الفاء للتفصيل ، أى : ظالم لها بالتقصير وهو المرجأُ لأمر الله .

(وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ) : يتردد بين العمل بالقرآن ومخالفته .

(وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ) أى : مقبل عليها ، حريص على تحصيلها قبل غيره ، بعلم الله وتوفيقه .

وفى قوله : « بِإِذْنِ اللهِ » تنبيه على عزة منال هذه الرتبة وصعوبة مأْخذها .

وخلاصة القول إن الظالم لنفسه : مَن رجحت سيئاته على حسناته ، والمقتصد : مَن استوت سيئاته وحسناته ، والسابق : مَن سبقت حسناته على سيئاته ـ كما تقدم فى المفردات ـ وكلهم من أهل الجنة مآلًا بعد عفو الله ، وقد روى عن عمر ـ رضى الله عنه ـ قال ـ وهو على المنبر ـ : قال رسول الله ﷺ : « سابقنا سـابق ، ومقتصدنا ناج ، وظالمنا مغفور له » ، وسئل أبو يوسف ـ رحمه الله ـ عن هذه الآية فقال : كلهم مؤمنون ، وأمَّا الكافرون فصفتهم بعد هذا ، وهو قوله ـ تعالى ـ : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ » وكون الطبقات الثلاث من أهل الإيمان هو ما عليه الجمهور .

وإنما قدم الظالم للإيذان بكثرة أفراده ، وأن المقتصدين قليل بالنظر إليهم ، والسابقين أقل من القليل ، وقيل : قدم الظالم لئلا ييأس من رحمة الله ، وأخر السابق لئلا يعجب بعمله ، فتعين توسيط المقتصد .

(ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ) أى : ما تقدم من توريث الكتاب ، والاصطفاء : هو الفضل الذى لا يعادله فضل فى سموه ، وعلو منزلته عند الله . وقيل : الإشارة إلى السبق فى الخيرات ، وهو الفضل الذى لا ينال إلَّا بتوفيق الله وتأْييده .

٣٣ ـ (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ) :

يخبر الله أن مأْوى هؤلاء المصطفين من عباده الجنة ، وهم الظالم لنفسه ، والمقتصد ،

والسابق ؛ لأن الدخول ميراث ، والميراث يستحقه العاق والبار إذا كان نسبهم صحيحًا ، وهؤلاء قد صح نسبهم إلى الإسلام بالإيمان ، غير أن الظالم يحبس يوم القيامة ويُردع ويقرع ثم يدخل هؤلاء جميعًا الجنة ، يحلون فيها بعض أساور من ذهب ، ويحلون لؤلؤا كذلك .

(وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ) أى : حرير محض ، وتغيير الأُسلوب حيث لم يقل : ويلبسون فيها حريرا ، للإيذان بأَن ثبوت اللباس لهم أمر محقق غنى عن البيان ، إذ لا يمكن عراؤهم عنه ، وإنما المحتاج إلى البيان ماذا يلبسون ؟ بخلاف الأَساور واللؤلؤ فإنها ليست من اللوازم الضرورية ، فجعل بيان تحليتهم بها مقصودًا بالذات ، ولعل هذا هو الباعث على تقديم التحلية على بيان صفة اللباس ، وهذا الحرير محظور عليهم فى الدنيا ، فكان لهم فى الآخرة ، ثبت فى الصحيح أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « من لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة ، وقال : هى لهم فى الدنيا ولكم فى الآخرة » .

٣٤ – (وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ) :

المعنى : ويقول الذين ظلموا أنفسهم بعمل ما يؤاخذون به – بعد أن يتلقاهم الله برحمته – : الحمد لله الذى أذهب عنا جنس الحزن المنتظم لجميع أحزان الدين والدنيا والآخرة إن ربنا يغفر الجنايات وإن كثرت ، شكور بقبول الطاعات وإن قلت .

أخرج ابن المنذر عن ابن عباس أنه قال فى ذلك : « غفر لنا العظيم من ذنوبنا ، وشكر القليل من أعمالنا » .

٣٥ – (الَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ) :

هذا من تتمة كلام الذين حمدوا الله وأثنوا عليه ، أى يقولون : الحمد لله الذى أعطانا دار الإقامة فى الجنة التى لا انتقال بعدها من فضله ومنته وكرمه ، فإن العمل وإن كان سببًا لدخول الجنة فى الجملة ، لكن سببيته بفضل الله ، إذ ليس هناك استحقاق ذاتى ، ومن علم أن العمل متناه زائل ، وثواب الله دائم لا يزول لم يشك فى أن الله ما أحل من أحل دار الإقامة إلَّا بمحض فضله – سبحانه – كما ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « لن يدخل أحدًا منكم عملُه الجنةَ . قالوا : ولا أنت يا رسولَ الله ؟ قال : ولا أنا إلَّا أن يتغمدَنى اللهُ برحمةٍ منه وفضل » .

(لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ) أي : لا يمسنا فى الجنة تعب ومشقة ، ولا يلحقنا فيها كلال وفتور ، واللغوب وإن كان نتيجة النصب إلَّا أنه ضم إليه بالعطف ، وتكرير الفعل للمبالغة فى بيان انتفاء كل منهما ، قاله جمع من الأجلة .

وفرق بعضهم بين النصَب واللغوب فقال : النصب : التعب الجسمانى ، واللغوب : التعب النفسانى .

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾)

المفـردات :

(لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا) : لا يحكم عليهم بموت ثان فتحصل لهم الاستراحة .

(وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا) أى : يستغيثون فى النار بصوت عال ، والصراخ : الصوت المرتفع .

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ) أى : أولم نعمركم عمرًا يتذكر فيه من أراد التذكر والتفكر ، وهو متناول لكل عمر تمكن فيه المكلف من إصلاح شأنه .

(وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ) : الرسول أو المشيب ، أو العقل ، أو موت الأقارب ، أو كل أولئك .

(إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) : بخفاياها من النزوات والميول ، وعبر عنها بذات الصدور لملازمتها لها .

التفسير

٣٦ - (وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ) :

لما ذكر -سبحانه- أهل الجنة وأحوالهم ومقالتهم ، ذكر أهل النار وأحوالهم ومقالتهم .

والمعنى : أن أهل النار يعذبون عذابًا مستمرًّا بحيث لا يقضى عليهم بموت ثان فيستريحوا بذلك من عذابها مثل قوله -تعالى- : « لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ » . « وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا » . « كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا » وهذا لا ينافى تعذيبهم بالزمهرير ونحوه ، ومثل هذا الجزاء البالغ الشدة يجازى كل كفور مبالغ فى الكفر ، لا بجزاء أخف منه وأيسر .

٣٧ - (وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ) :

المعنى : أن الكفار يستغيثون فى النار بصوت عال ؛ لأن المستغيث يصيح عاليًا وبه فسره هنا قتادة . ويقولون تحسرا وألمًا على ما عملوه من غير الصالح مع الاعتراف به ، يقولون : ربنا أخرجنا من النار إلى الدنيا نؤمن بدل الكفر ، ونطع بدل المعصية . وعن ابن عباس : أرادوا بالعمل الصالح : لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ « أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ » جواب من قبل الله -تعالى- وتوبيخ لهم . أى : ألم نمهلكم ونعمركم عمرًا يتمكن فيه المكلف من التذكر والتفكر وإن قصر ؛ لأن الحق واضح يستوى فى إدراكه من طال عمره ومن قصر ، إلَّا أن التوبيخ فى المتطاول أعظم ، وقد جاء فيه ما أخرجه الإمام أحمد والبخارى والنسائى وغيرهم عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أعذر الله تعالى إلى امرئ أخر عمره حتى بلغ ستين سنة » . (وَجَآءَكُمُ النَّذِيرُ) : يحذركم ،

والمراد به جنس النذير ، فيشمل العقل والأنبياء وكتبهم ، ويؤيده أنه قرئ : « وَجَآءَكُمُ النُّذُرُ » بصيغة الجمع .

وعن ابن عباس ، وعكرمة ، وسفيان بن عيينة ، ووكيع ، والحسين بن الفضل ، والفراء ، والطبرى : هو الشيب ، وفى الأثر : « ما من شعرة تبيض إلّا قالت لأختها : استعدى فقد قرب الموت » .

(فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ) الفاء فى قوله : « فَذُوقُوا » لترتيب الأمر بالذوق على ما قبلها من التعمير ومجىء النذير ، أى : فذوقوا العذاب ؛ لأنه معد للظالمين أمثالكم وليس لكم ناصر ولا معين ، والمراد بالظلم هنا الكفر ، وأفادت الجملة استمرار نفى أن يكون لهم نصير يدفع عنهم العذاب .

٣٨ - (إِنَّ اللهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) :

أى : أنه - سبحانه - يعلم كل غيب فى السموات والأرض ، فلا تخفى عليه أحوالهم التى اقتضت الحكمة أن يعاملوا بها هذه المعاملة ولا يخرجوا من النار ، ولو أجابهم وأعادهم إلى الدنيا لعادوا لما نهاهم عنه : (إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) تعليل لما قبله ؛ لأنه إذا علم مضمرات الصدور ، وهى أخفى ما يكون ، فقد علم - عز وجل - كل غيب فى العالم .

(هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾)

المفـردات :

(خَلَآئِفَ فِى الْأَرْضِ) أى : جعلكم خلفًا بعد خلف ، وقرنًا بعد قرن ، ترثون ما بأيديهم من مال وجاه ، والخلف : التالى للمتقدم ، والخلائف : جمع خليفة ، وهو مطرد فى فعيلة .

(إِلَّا مَقْتًا) : بغضا وغضباً .

(إِلَّا خَسَارًا) : هلاكا وضلالا .

التفسير

٣٩ـ (وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِى الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا) :

الخطاب فى الآية قيل : عام ، واستظهره فى البحر ، وقيل : لأهل مكة .

والمعنى : أنه ـ سبحانه ـ ألقى إليكم مقاليد التصرف فى الأرض والانتفاع بما فيها من خيرات جمة ، وأباح لكم منافعها المتعددة ، وجعلكم تخلفون من قبلكم من الأمم ، وأورثكم ما بأيديهم من متع الدنيا ؛ لتشكروه بالتوحيد والطاعة ، أو جعلكم بدل من كان قبلكم من الأمم الذين كذبوا الرسل فهلكوا ، فلم تتعظوا بحالهم ، وما حل بهم من الهلاك ، فمنْ جحد منكم ، وكفر بهذه النعمة العظيمة ، وغمطها حقها ، ولم يعتبر بما حل بالسابق من الأمم فعليه وبال كفره لا يتعداه إلى غيره ، وكل نفس بما كسبت رهينة ، ثم بين ـ سبحانه ـ وبال كفرهم بقوله : (وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا) أى : أن عاقبة كفرهم هى مقت الله الشديد ، وخسار الآخرة الذى ما بعده شر ولا إذلال .

وجملة (وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ) إلى آخر الآية بيان وتفسير لقوله ـ تعالى ـ : « فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ » ولزيادة تفصيله نزل منزلة المغاير له فعطف عليه .

(قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾)

المفـردات :

(أَرَأَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمْ) أى : أخبرونى عن آلهتكم الذين أشركتموهم فى العبادة .

(أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمٰوَاتِ) أى : نصيب فى خلقها .

(فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ) أى : حجة ظاهرة .

(بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا) أى : أباطيل تغر ، وهى قول الرؤساء للأتباع : إن هذه الآلهة تنفعكم وتقربكم إلى الله ــ عز وجل .

التفسير

٤٠ ــ (قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمٰوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا) :

الآية عند الكثير فى عبدة الأصنام ، وقيل : فى غير عبادة الله ــ عز وجل ــ صنمًا كان أو ملكا أو غيرهما .

والمعنى : قل ــ أيها الرسول تبكيتًا للمشركين وإنكارًا عليهم ــ : أخبرونى عن شركائكم الذين أشركتموهم فى العبادة ، ودعوتموهم آلهتكم من دون الله : (أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ) أى : أخبرونى عن هؤلاء الشركاء وعما استحقوا به الشركة أرونى أى جزء خلقوا من الأرض ، واستبدوا بخلقه دون الله حتى استحقوا الألوهية والشركة ، ثمّ أضرب عن ذلك فقال : (أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمَاوَاتِ) أى : بل ألهم شرك مع الله فى خلق السموات ليستحقوا بذلك شركة فى الألوهية (أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا) : أم بمعنى بل والهمزة ، أى : بل أآتيناهم كتابًا ينطق بأنا اتخذناهم شركاء فهم على حجة واضحة من ذلك الكتاب المنزل عليهم بأن لهم شركة معه ــ سبحانه ــ خلقًا وبقاء وتصرفا ، حتى يستحقوا ما زعمتم فيهم . وليس الأمر كذلك فهم لا يملكون من قطمير ، وفى هذا رد على من عبد غيره ؛ لأنهم لا يجدون فى كتاب من الكتب السماوية أن الله ــ عز وجل ــ أمر أن يعبد غيره فهم لا يجدون تبريرا لما صنعوا ، وفيه إيماء إلى أن الشرك أمر خطير سلكوه من غير دليل ، ولا بد فى إثباته من تعاضد الدلائل ، وهو ضرب من المستحيل .

وأُسندت الشركة إليهم فى قوله ـ تعالى ـ : (أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمْ) أى : آلهتكم لأنهم هم الذين جعلوهم شركاء لله ـ تعالى ـ واعتقدوهم كذلك من غير أن يكون له أصل ما قطعًا .

وقيل : الإضافة حقيقية ؛ لأنهم جعلوهم شركاء لأنفسهم فيما يملكونه ، أو جعلهم الله شركاء لهم فى النار كما قال ـ سبحانه ـ : « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ».

ولما تقرر نفى أنواع الحجج فيما ذكر أضرب عنه بذكر ما حملهم على الشرك فقال ـ سبحانه ـ : (بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا) أى : إن الذى حملهم على الشرك هو تغرير الأسلاف للأخلاف ، وإضلال الرؤساء للأتباع بأنهم شفعاء لهم عند الله يشفعون لهم بالتقرب إليه ، وما هو إلا أباطيل اقترفوها للتغرير والتمويه .

* (إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١))

المفـردات :

(يُمْسِكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ) : يحفظهما كراهة زوالهما ، أو يمنعهما ، فالإمساك مجاز عن الحفظ أو المنع .

(أَن تَزُولَا) : أن تنهدّا وتضمحلا .

التفسـير

٤١ ـ (إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِن أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) :

قررت الآية السابقة أن الآلهة التى اتخذها المشركون شركاء لله ، أو عبدوها من دونه ، عاجزة عن خلق شىء من الأرض والسماء استقلالًا أو مشاركة ، وجاءت هذه الآية بعدها

استئنافا يقرر قبح الشرك، ويصور قدرة الله-تعالى-الواضحة بذكر عظمته فى حفظ السموات والأرض .

والمعنى : إن من مظاهر قدرة الله - تعالى - الجلية التى لا تنكرها عين ، ولا يجحدها عقـل ، إمساك الله السموات والأرض وحفظهما ومنعهما أن تنهدًا ، أو تغيرا مسيرتهما زمانًا أو مكانًا ؛ فإن الممكن حال بقائه لابد له من حافظ يحفظه ، ولا يكون ذلك إلَّا دائم الوجود-سبحانه-(وَلَئِن زَالَتَا) أى : ولئن أشرفتا على الزوال بشرك هؤلاء المشركين- ما أمسكهما من أحد بعد الله كائنا من كان ، أو بعد زوالهما .

وقوله -تعالى- : (إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) معناه : إن الله - تعالى - عظيم الحلم واسع العفو ، ومن جملة ذلك حلمه - تعالى - على المشركين ، وتوبته على من تاب منهم مع عظم جرمهم المقتضى لتعجيل العقوبة لهم ، وعدم إمساك السموات والأرض ، وتخريب العالم الذى هم فيه ، وكانتا جديرتين أن تهدا هدًّا ؛ لشؤم معصيتهم كما فى قوله -تعالى- : « تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا »[1] .

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال لرجل مقبل من الشام : « من لقيت ؟ قال : كعبًا . قال : وما سمعته يقول ؟ قال : سمعته يقول : إن السموات على منكب ملك قال : كذب كعبٌ ، أما ترك يهوديته بعد ؟ ثم قرأ هذه الآية :

(وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾)

(١) سورة مريم الآية : ٩٠

المفـردات :

(وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ) : حلفوا وبالغوا فى الحلف واجتهدوا أن يأتوا به على أبلغ ما فى وسعهم .

(نَذِيرٌ) : نبى يبلغهم ويخوفهم .

(أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ) : أهدى من كل واحدة من أمة اليهود ، والنصارى وغيرهم ، فإحدى بمعنى واحدة ، وأريد بها العموم وإن كانت فى الإثبات لا تعم إلَّا لاقتضاء المقام ، أو المعنى : أهدى من أمة يقال فيها : إحدى الأُمم بمعنى واحدتها ، تفضيلًا على غيرها من الأُمم ، كما يقال : واحد قومه ، وواحد عصره ، وقيل المعنى : أهدى من بعض الأُمم والبعض المبهم قد يقصد به التعظيم ، وإحدى مثله .

(نُفُورًا) : تباعدا عن الحق وهرباً منه .

(اسْتِكْبَارًا) : تعاليًا وعتوا عن الإيمان .

(وَمَكْرَ السَّيِّءِ) : مكر العمل السيء وهو الشرك ، وخداع الضعفاء ، وردهم عن الإيمان والكيد لرسول الله ، وأصل التركيب : استكبارًا فى الأرض ، وأن مكروا المكر السيء ، ثم أقيم المصدر مقام أن والفعل وأضمر فيه الفاعل ، وأضيف إلى ما كان صفته .

(وَلَا يَحِيقُ) : ولا يحيط ، من حاق بالشيء إذا أحاط به ، من باب باع ، وقال الراغب : أى : لا يصيب ولا ينزل .

(سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ) : طريقة الأولين وسيرتهم ، أى : سنة الله فيهم بتعذيب مكذبيهم .

((تَبْدِيلًا) : وَضع غير العذاب موضع العذاب .

(تَحْوِيلًا) : نقل العذاب من المكذبين إلى غيرهم .

التفسير

٤٢ - (وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا) :

بلغ قريشا قبل مبعث رسول الله ﷺ أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم ، فقالوا : لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم ، فو الله لئن أتانا رسول لنكونن أهدى من إحدى الأمم ، ثم كان منهم بَعْدُ ماكان ، فأنزل الله هذه الآية .

والمعنى : حلف مشركو مكة ، وبالغوا فى الحلف ، واجتهدوا أن يأتوا به على أبلغ ما فى وسعهم من جهد ، لئن جاءهم رسول كما جاء اليهودوالنصارى يدعوهم إلى عبادة الله ليكونن فى تصديقه واتباعه أهدى من كل أمة من اليهود ومن النصارى ، ومن أية أمة بلغت من الطاعة والهداية وحسن الاتباع أن يقال فيها واحدة الأمم تفضيلا لها على غيرها ، فلما جاءهم نذير أكرم نذير ، وهو أشرف الرسل محمد ﷺ مازادهم النذير أو مجيئه إلا نفورا وتباعدًا عن الحق ، وهربا من الإيمان به .

٤٣ - (اسْتِكْبَارًا فِى الْأَرْضِ ومَكْرَ السَّيِّء وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ، فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلًا) :

ترتبط هذه الآية بالآية التى قبلها وتُتِم معناها ، والمعنى : مازادهم الرسول أو مجيئه إلا تباعدًا عن الحق استكبارًا منهم ، وتجبرا فى الأرض واستعلاء وإمعاناً فى الشرك ، ومكر العمل السيء الذى يتفننون فى تبييته ، ويدينون به ، ويندفعون فيه من الخداع والصد عن الإيمان والكيد لرسول الله ، وإلحاق الأذى به وبأصحابه ؛ ظانين أن ذلك سيرد الدعوة ، ويضعف شوكة الرسول وصحبه ، جاهلين أن وبال مكرهم سينزل بهم ، ويذهب بكبريائهم ، ويذل استعلاءهم وعنادهم ، ولا يحيط المكر السيءُ ولا ينزل عقابه إلا بأهله الذين دبَّروه وبيتوه ، ومن أمثال العرب : « من حفر لأخيه جُبًّا وقع فيه منكبا » وعن كعب أنه قال لابن عباس : قرأت فى التوراة : « من حفر مَغْواةً وقع فيها » قال : وَجَدْتُ ذلك فى كتاب الله ، فقرأ الآية .

وفى الخبر : « لا تمكروا ولا تعينوا ماكرا ، فإن الله -تعالى- يقول : « وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ » : ولَا تبغوا ولا تعينوا باغيا ، فإن الله -تعالى- يقول : « إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُمْ » وقد حاق مكر هؤلاء بهم يوم بدر ، والأمور بعواقبها ووراء الدنيا الآخرة ، وصدق قول الله -تعالى- : (فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ) أى : ما ينتظرون إلا سنة الله -تعالى- فيهم

بتعذيب مكذبيهم ، فلن تجد لسنة الله تبديلا بأن يضع موضع العذاب غير العذاب ، ولن تجد لسنة الله تحويلا بأن ينقل العذاب من المكذبين إلى غيرهم ؛ فالله عادل لايضع الشىء فى غير موضعه .

(أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾)

المفردات :

(لِيُعْجِزَهُ) : ليمنعه بالقهر والغلبة . (كَسَبُوا) : فعلوا من السيئات (دَآبَّةٍ) : حيوان يدب على الأرض ، وقيل : المراد الإنس والجن .

التفسير

٤٤ ـ (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَىْءٍ فِى السَّمٰوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ ، إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيرًا) :

ذكرت الآية السابقة جريان سنة الله ـ تعالى ـ على المكذبين من الأمم السابقة بإنزال العذاب بهم وإهلاكهم .

وجاءت هذه الآية استشهادا وتأكيدًا لهذا المعنى ، وتنويعاً فى المحاجَّة بمالا يستطيعون دفعه ، ولا يتأتى منهم إنكاره .

والمعنى : أقعد هؤلاء المشركون فى مساكنهم ، ولم يسيروا فى الأرض ، ولم يتنقلوا بين ربوعها فينظروا نظر اعتبار وتأمل بما يشاهدونه فى مسايرهم ، كيف كان عاقبة المكذبين من قبلهم من الأمم السابقة من آثار الدمار ، وعلامات الهلاك والخراب عقوبة لهم على معارضة أنبيائهم وتكذيبهم ، وقد كانت هذه الأمم أشد منهم قوة ، وأطول أعمارًا ، وأوسع نعمة ، فلم تغن عنهم قوة ، ولم يمنعهم طول أعمار ، ولم تدفع عنهم نعمهم من عذاب الله شيئاً ، وما كان الله ليمنعه عن مراده أى شىء فى السموات ولا فى الأرض ، إنه - جلت قدرته - عليم لايغيب عن علمه شىء ، قدير لا يغلبه غالب ، ولا يفوته هارب .

٤٥ - (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا) :

كان المشركون من شدة عنادهم ، وفساد عقائدهم يتعجلون العذاب الذى يتوعدهم الله به ، فأخبر الله - تعالى - فى هذه الآية وفى مثيلاتها من الآيات التى تعرض لذكر العذاب وتتوعد به ، أن للعذاب أجلا مضروبا هو يوم القيامة .

والمعنى : ولو يؤاخذ الله الناس جميعاً ، ويعاقبهم بما كسبوا من السيئات ، ويعجل لهم العذاب فى الدنيا كما فعل بأسلافهم ، ما ترك ولا أبقى على ظهر الأرض من دابة تدب ، أو نسمة تدرج من إنسان وجن وحيوان ، قال - تعالى - : « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَآصَّةً »[1] .

قال ابن مسعود : « كاد الجُعَل أن يعذب فى جحره بذنب ابن آدم » فالمراد بالدابة على هذا عموم المخلوقات ، وقيل : إن المراد بالدابة المكلفون من الإنس ، ويؤيده ذكر (الناس) وقوله - تعالى - : (وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى) بضمير العقلاء العائد إلى الناس .

ويوم القيامة هو الأجل المضروب لبقاء نوعهم . (فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا) أى : فإذا حل يوم القيامة فإن الله - سبحانه وتعالى - بصير بأحوالهم فيجازيهم عند ذلك بأعمالهم ، إن شرا فشر ، وإن خيرا فخير ، ولا يظلم ربك أحدا .

---

(١) سورة الأنفال الآية : ٢٥

سورة يس

وهى مكية وآياتها ثلاث وثمانون

المناسبة بينها وبين السورة التى قبلها أن السورة التى قبلها ذكرت النذير فى قوله تعالى : (لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ) وقوله : (فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ) وفسر النذير بأشرف الرسل والأنبياء محمد ﷺ فافتتحت سورة « يس » بالقسم على صدق رسالته ، واستقامة طريقه ، تبكيتاً للمشركين على إعراضهم عنه ، وتكذيبهم إياه .

كما أنها عرضت لبعض ماعرضت له السورة السابقة « فاطر » من حركات الشمس والقمر وغيرهما من الآيات الكونية .

أهداف السورة وأغراضها

ابتدأت سورة « يس » بالحديث عن صدق رسالة محمد ﷺ مؤكدة رسالته بالقسم : (إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ) ثم انتقلت إلى الحديث عن أحوال المشركين الذين حقت عليهم اللعنة بمعارضتهم الدعوة ، فرزحوا فى أغلال الشرك عمياً عن الحق ، لا يجدى فيهم نصح ، ولا يؤثر معهم إرشاد أو توجيه ، وخلصت من هذا إلى الإشارة إلى البعث الذى يلقى فيه كل إنسان عمله فى إمام مبين ، وكتاب محفوظ .

ثم عرضت الآيات بعد هذا إلى قصة أصحاب القرية ، وشدة مقاومتهم للرسل الذين أرسلوا إليهم ، وقوة لَدَدِهم ، وسوء حوارهم معهم ، وتطيرهم منهم .

كما عرضت لحوار أهل القرية مع الرجل الصالح الذى جاءهم من أقصى المدينة مسرعاً ، يدعوهم إلى تصديق الرسل واتباعهم فيما يدعونهم إليه من الهداية التى هم عليها ، ولا يبتغون على ذلك نفعاً ، ولا يسألون أجرًا ، فأوقعوا به ما أوقعوا مما أعقبه الجنة والنعيم ، وأوردهم موارد الهلاك والجحيم . (إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ) .

ثم انتقلت الآيات إلى عرض صور من مظاهر قدرة الله ، ومشاهد حكمته ، التى تصرف بها فى ملكوت السموات والأرض ، وتصنيف النبات ، وتسخير الأفلاك ، وتفجير الأنهار والبحار وتسيير الفلك لنقل الأحمال والأثقال ، وغير هذا مما تتجلى فيه آيات القدرة ، وبدائع الصنعة .

وتنتهى الآيات من هذا إلى غرض يكاد يكون المقصود الأول فى سياق السورة وهو البعث ومصائر الخلق بعده ، فأصحاب الجنة فى شغل فاكهون . هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون ، وأهل الشرك يدفعون إلى الجحيم « هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ، اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ » ويختم الله على أفواههم .

ثم تعود الآيات إلى مثل ما بدأت من صدق رسالة الرسول ، وتنزه قوله عن اللغو لتخلص منه إلى تعداد ألوان من القدرة تتمثل فى خلق الأنعام وتذليلها ، والانتفاع بها وبخيراتها وإنتاجها ، وبغير ذلك مما لا يتأتى منه شىء من آلهة المشركين المزعومة ، وتأتى فى هذا على أعظم ما تتجلى عنه قدرة الله من خلق الإنسان من ماء مهين ، ثم تسويته إنساناً سوياً ، وخصماً مبينا ، وتنعى عليه نسيان أصله ، وغفلة عقله حين يستبعد العودة إلى الحياة بالبعث ، وخلق العظام وهى رميم ، وتقرر أن الله الذى خلقها أول مرة هو القادر على إحيائها ، فقد عرفوا أنه قادر على أن يجعل من الشجر الأخضر ناراً مضطرمة ، وعلى خلق السموات والأرض ، فلا يعجزه أن يعيد خلق الإنسان ، فهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ؛ لأن أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون .

وهكذا تدور السورة فى تجلية البعث فى صور مختلفة تقطع على كل منكر حجته ، وتؤكد لكل عاقل حقيقته .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾)

المفـردات :

(الْحَكِيمُ) : المتضمن للحكمة ، أو الناطق بها .

(صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) المراد بالصراط المستقيم : ما يعم العقائد والشرائع الحقة الشريفة بكمالها .

التفسـير

١ ـ (يسٓ) : يصح أن تكون هذه الكلمة من قبيل الحروف المسرودة التى ابتدأت بمثلها سور أُخرى ، مثل : (الٓمٓ) و (طسٓمٓ) وأمثالها ، فيكون الكلام عنها كالكلام الذى قيل فى مثيلاتها وبخاصة فى أول سورتَى « البقرة ، وآل عمران » وهى على هذا خالية من الإعراب .

ويصح أن تكون اسماً للسورة كما نص عليه الخليل وسيبويه ، وعليه الأكثر ، وإعرابها على هذا كإعراب سائر التراجم . فهى مرفوعة خبرًا لمبتدإ محذوف ، أو منصوبة مفعولا به لفعل مضمر ، والتقدير : هذه يسٓ ـ أو اقرأ يسٓ .

وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ معناه : يا إنسان فى لغة « طيء » قالوا : والمراد به محمد ﷺ كما يشير إليه الخطاب بعده فى قوله ـ تعالى ـ : (إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ) .

قال الزمخشرى : إن صح هذا فوجهه أن يكون أصله : يا أليسين ، فكثر النداءُ به على ألسنتهم حتى اقتصروا على شطره ، كما فى القسم بـ « مُ الله » فى « أيمن الله » .

وقال الآلوسى : وظاهر كلام بعضهم كابن جبير أن «يس» بمجموعه اسم من أسمائه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو ظاهر قول السيد الحميرى :

يا نفس لاتمحضى بالود جاهدة على المودة إلا آل ياسينا

ولتسميته ـ عليه الصلاة والسلام ـ بهذين الحرفين الجليلين سر جليل عند الواقفين على أسرار الحروف .

٢ ، ٣ ، ٤ ـ (وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ . إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) :

قوله ـ تعالى ـ : « وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ » ابتداء قسم ، معناه : وأقسم بالقرآن المحكم ، أو المتضمن للحكمة والناطق بها ، وقوله ـ تعالى ـ : « إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ » جواب للقسم معناه : إنك يا محمد لمن المرسلين الذين أرسلهم الله لهداية أقوامهم بدعوتهم إلى الحق ، وتوجيههم إلى سبل الخير ، والجملة لرد إنكار المشركين المنكرين لرسالته ، المتمثل فى كثير من كلامهم فى مثل قولهم : « لَسْتَ مُرْسَلًا » . وفى مثل ما سبق فى سورة « فاطر » مما يشعر بأنهم فى قمة العناد ، من قوله ـ تعالى ـ : « فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّازَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ، اسْتِكْبَارًا فِى الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّءِ) .

وفى القسم بالقرآن أولا ، ووصفه بالحكمة ثانياً تنويه بقدره ، وإشادة بشأنه على أكمل وجه ، وأوفى بيان .

وقوله ـ تعالى ـ : (عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) خبر ثان داخل فى حيز القسم ، أى : إنك يا محمد لمن المرسلين ، وإنك على طريق مستقيم بالغ ذروة الكمال فى الاستقامة ، والبعد عن الزيغ والانحراف ، قائم على العقائد الصحيحة ، والشرائع الحقة الشريفة بكمالها ، وتضمنها كل خير للإنسان والإنسانية كما يفهم من التنكير المفيد للتعظيم والتفخيم ، والمقصود من هذه الآية التنويه بشأنه ﷺ وإعلاء قدره ، وتقرير أنه على السنة المثلى والطريق السوى ، فإن أحداً من أهل النظر لا يجهل أن المرسلين جميعاً على صراط مستقيم .

(تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوۡمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٧﴾)

المفردات :

(لِتُنذِرَ) : لتخوف وتعظ .

(لَقَدْ حقَّ الْقَوْلُ) : لقد ثبت ووجب القول بالعذاب .

التفسير

٥ ، ٦ - (تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أُنذِرَ آبَآؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ) :

قوله -تعالى- : (تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ) : استئناف لإظهار فخامة القرآن الإضافية بعد بيان فخامته الذاتية بالقسم به ، ووصفه بالحكمة .

والمعنى : نزل هذا القرآن تنزيلا على محمد من الله العزيز فى ملكه ، الرحيم بخلقه . ولهذا قال الله فى شأنه : « وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ » .

وفى تخصيص الاسمين الكريمين المعبرين عن الغلبة الكاملة ، والرحمة الشاملة مزيد من التنويه بفضل القرآن الكريم ، وسمو مرتبته .

وقوله تعالى : « لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أُنذِرَ آبَآؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ) : تعليل للتنزيل متعلق به ، أى : نَزَّل هذا القرآن العظيم العزيزُ الرحيمُ ؛ لتخوف به يا محمد قوماً لم ينذر ولم يخوف بمثله آباؤُهم الأقربون ؛ لتطاول مدة الفترة عليهم حتى تغشاهم الجهل . وران على قلوبهم الكدر فهم غافلون لا تستشعر قلوبهم رسالة ، ولا تستشرف لرسل قبله حتى أصبحوا فى الحاجة الملحة إلى من ينذرهم ويرشدهم تخويفاً من عذاب الله ، وطمعًا فى رحمته .

وقيل : إن المعنى لتنذر قوماً الإنذار الذى أُنذر بمثله آباؤهم الأقدمون فى عهد إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - فنسوه وغفلوا عنه ، ف(ما) هنا فى قوله : « مَآ أُنذِرَ آبَآؤُهُمْ » مصدرية وليست نافية .

وهناك وجه غفل عنه معظم المفسرين ، وهو أن رسالة إسماعيل - عليه السلام - كانت للعرب العاربة ، أما العرب المستعربة الذين نشأُوا من ذرية إسماعيل فلم يأْتهم رسول قبل محمد ﷺ وقريش من ذريتهم .

٧ - (لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) :

أى : والله لقد ثبت القول بعدم الإيمان على أكثر هؤلاء المشركين بسبب إصرارهم على الشرك ، وإعراضهم عن إجابة الرسول ، وعدم تأثرهم بالإنذار ، والتذكير ، وغلوهم فى العتو والعناد ، حتى صح فيهم قول القرآن على لسان إبليس : « وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ [1] » .

وقوله تعالى : (فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) متفرع على إصرارهم على الشرك ، وتماديهم فى العناد والمعنى : فهؤلاء مصرون على الشرك إلى الموت ، مختارون له لا ينتظر منهم امتثال ، ولايرجى ، لهم إيمان باختيارهم ، ولهذا هداهم الله إليه بفتح مكة فى السنة الثامنة من الهجرة .

(إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾)

المفردات :

(أَغْلَٰلًا) : جمع غل ، وهو القيد الذى يوضع فى العنق ، تشد به اليد إلى العنق .

(١) سورة الحجر ، من الآية : ٣٩

(مُقْمَحُونَ) : رافعو رءوسهم ، غاضُّو أبصارهم ، من : قمح البعير إذا رفع رأسه عن الحوض ولم يشرب .

(سَدًّا) : حاجزًا ومانعاً .

(أَغشَيْنَاهُمْ) : غطينا أبصارهم وأعميناهم .

التفسير

٨ ، ٩ ـ (إِنَّا جَعَلْنَا فِى أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِىَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ . وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ) :

هاتان الآيتان وما بعدهما تأكيد لمعانى الآية السابقة ، وتقرير لتصميم المشركين على شركهم ، وعدم إذعانهم للحق بتمثيل حالهم بحال من جعلت الأغلال فى أعناقهم منتهية إلى أذقانهم ، فلا تدعهم يلتفتون إلى الحق ولايعطفون أعناقهم نحوه ، ولا يطأطئون رءوسهم له فهم مقمحون رافعون رءوسهم غاضون أبصارهم بحيث لايكادون يرون الحق ، أو يلتفتون إلى جهته .

وقوله ـ تعالى ـ : (وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ) : من تمام التمثيل وتكميله ، أى : وجعلنا مع ماذكر من الأغلال أمامهم سداً عظيماً ، ووراءهم سَدًّا مثله . فأغشيناهم بذلك ، وغطينا أبصارهم فهم لايقدرون على إبصار شىء أصلا لا من أمامهم ولا من خلفهم .

ويصح أن يكون تمثيلا مستقلا ، فإن جعلهم بين سدين هائلين يغطى أبصارهم بحيث لايبصرون شيئاً ، ويعطى صورة جديدة تنم عن كمال فظاعة حالهم ، وكونهم محبوسين فى مطمورة الغىّ والجهالات محرومين من النظر والانتفاع بالأدلة والآيات .

وقيل : الآيتان فى بنى مخزوم ؛ وذلك أن أبا جهل حلف لئن رأى محمداً ﷺ يصلى ليرضخن رأسه ، فأتاه وهو يصلى ، ومعه حجر ليدمغه ، فلما رفع يده انثنت إلى عنقه ولزق الحجر بيده حتى فكوه عنها بجهد ، فرجع إلى قومه فأخبرهم .

والأولى أن تبقى الآية على عمومها متممة لسياق الآيات قبلها وبعدها ، ولامانع أن يكون أبوجهل ضمن ما اشتملت عليهم من المشركين الذين حق القول على أكثرهم ، وتكون الآية من قوله ـ تعالى ـ :

١٠ ـ (وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) :

بياناً لشأنهم بطريق التصريح إثر بيانه بطريق التمثيل ، أى : ويستوى عند هؤلاء المشركين المصرين على الكفر إنذارك إياهم وعدم إنذارك فقد اختاروا لأنفسهم ، وحق عليهم العذاب والنكال .

وقوله : (لَا يُؤْمِنُونَ) استئناف مؤكد لما قبله ، موضح لإجمال ما فيه الاستواء .

(إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾)

المفـردات :

(تُنذِرُ) : تخوف وتبلغ . (الذِّكْرَ) : القرآن .

(خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ) أى : خاف عقاب الله قبل حلوله ، أو من غير أن يراه ، أو خافه فى سريرته ، ولم يغتر برحمته .

(نُحْيِي الْمَوْتَىٰ) : نبعثهم من موتهم يوم القيامة للحساب .

(وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا) : ونكتب ما أسلفوا من أعمال صالحة وغير صالحة .

(وَآثَارَهُمْ) : أعمالهم التى تبقى بعد موتهم .

(أَحْصَيْنَاهُ) : بيناه وحفظناه ، وأصل الإحصاء العد للحفظ .

(إِمَامٍ مُّبِينٍ) : أصل عظيم ، مظهر لما كان وسيكون ، وهو اللوح المحفوظ .

التفسير

١١ - (إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ) :

لما قررت الآية السابقة أن إنذار الرسول وعدمه سواء فيمن أصر على تنكب طريق الصواب ناسب أن تجيء هذه الآية لتجلية حقيقة من ينتفع بأسلوب التذكير من القلوب اللينة ، والنفوس الخصبة التي تحسن اتباع القرآن خشية من الرحمن ، وجاءت الآية بعدها لبيان أن الله هو الذى يحيي موات القلوب ، كما يحيي الموتى ، وذلك حين يجيء أوان الهداية ، وقد حدث ذلك عند فتح مكة .

والمعنى : إنما يجدى الإنذار ، ويؤتى ثماره ، ويتحقق نفعه ، وتظهر آثاره مع من اتبع القرآن وتدبره ، وأدام فكره ونظره فيه ، وتأمل معانيه ، ولم يصر على اتباع خطوات الشيطان ، وخشى الرحمن بالغيب ، فخاف عقابه قبل حلوله ومعاينة أهواله ، أو خشى الرحمن وهو غائب عنه ، أو خشى الرحمن وتحاشى معصيته فى سريرته ، كما يتحاشاها فى علانيته وجلوته ، فمن كان هذا حاله ، وذاك سلوكه ، فهو حرى أن يبشره بمغفرة واسعة ، وأجر كريم عظيم ، لايقادر قدره ، ولا يخضع للتقدير حَزْره .

١٢ - (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ) :

تنتهى الآيات السابقة كلها بهذه الآية تذييلا عاماً ينتظم المصممين على الكفر ، والمنتفعين بالإنذار والتخويف ترهيباً وترغيبا ، ووعيدًا ووعدًا ، وإيذاناً بأن الله الذى سوف يحيي موتاهم عند البعث ، سيحيي موات قلوبهم حينما يجيء أوان هدايتهم ، وقد تم ذلك فى السنة الثامنة من الهجرة حيث أسلموا جميعاً عند فتح مكة .

والمعنى : إنا نحن -وحدنا دون غيرنا- القادرون على أن نحيي الموتى جميعاً المؤمنين منهم والكافرين ، المصدقين بالبعث منهم والمكذبين ، ونبعثهم يوم القيامة للحساب والجزاء ، ونكتب ونثبت ماقدموا وأسلفوا من الأعمال الصالحة وغير الصالحة ، وتحفظها لهم ، ونثبت آثارهم التى يبقى بعد موتهم ثوابها من الحسنات : من علم علّموه ،

أو كتاب ألّفوه ، أو نبع أجروه ، أو أرض وقفوا غلتها على الفقراء والمعوزين ، أو غير ذلك من نواحي البر ووجوه الخير ، كما نثبت آثارهم السيئة التي يبقى بعد موتهم شرها وضرها من القوانين الظالمة التي سنوها ، والعادات القبيحة التي اعتادوها واعتادها الناس تبعاً لهم ، والمظالم التي ارتكبوها ، وغير ذلك من ضروب الشر ، وألوان الفساد والمنكر .

أخرج ابن أبي حاتم عن جرير بن عبد الله البجلي قال : قال رسول الله ﷺ : « من سَنَّ سنة حسنة فله أجْرُها وأجرُ مَن عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا ، ومن سنَّ سنةً سيئةً كان عليه وِزْرُها ووزر مَن عمل بها من بعده لا ينقص من أوزارهم شيئاً ، ثم تلا : « وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ » .

وفسر بعضهم الآثار بالخُطى إلى المساجد ، مستظهرين على ذلك بما أخرجه عبد الرزاق وابن جرير ، وابن المنذر ، والترمذي وحسنه عن أبي سعيد الخدري – قال : كان بنو سلمة في ناحية من المدينة فأرادوا أن ينتقلوا إلى قرب المسجد فأنزل الله –تعالى– : (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ) : فدعاهم رسول الله ﷺ فقال : « إنه يكتب آثاركم ثم تلا عليهم الآية فتركوا » .

والأظهر أن تحمل الآثار على ما يعم الخطى إلى المساجد ، وغير ذلك من الأعمال الصالحة والطالحة ويترجح ذلك بأُمور :

١ – أن الآية تذييل عام لكل ما سبقها من آيات .

٢ – أن السورة مكية ، واعتبار هذه الآية في بني سلمة يجعلها مدنية بين آيات السورة كلها .

٣ – أن قصارى ما يفيده الخبر اعتبار الخطى إلى المساجد من الآثار التي يبقى ثوابها بعد موت صاحبها ، وتعميم ذلك خير من تخصيصه .

وقوله –تعالى– : (وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ) معناه : وكل شيء من الأعمال كائنا ما كان قليلا أو كثيرًا ، عظيماً أو صغيرًا ، نافعاً أو ضارًا ، بيناه وحفظناه في إمام مبين ، وأصل عظيم الشأن مظهرًا لما كان وما سيكون ، وهو اللوح المحفوظ الذي يؤتم به ويقتدى ، ويتبع ولا يخالف .

(وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾)

المفردات :

(وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا) : ضرب المثل يستعمل تارة فى تطبيق حالة غريبة بحالة أخرى مثلها كما فى قوله تعالى : « مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا ... » الآية ،وتارة أخرى فى ذكر حالة غريبة وبيانها للناس من غير قصد إلى تطبيقها بنظيرة لها .

(الْقَرْيَةِ) قيل : إنها إنطاكية (فَعَزَّزْنَا) : قوينا ودعمنا .

(الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) : التبليغ الواضح .

التفسير

١٣ ، ١٤ـ (واضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا الْمُرْسَلُونَ . إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ) :

انتقلت الآيات إلى قصة أصحاب القرية وحوارهم مع الرسل الذين أرسلهم الله تأييدًا لعيسى ، كما أرسل هارون تأييدًا لموسى ـ عليه السلام ـ وذلك تسلية للرسول ﷺ وتخويفاً للمشركين من مغبة إصرارهم على العناد والكفر .

والمعنى : واجعل يارسول الله أصحاب قرية إنطاكية مثلا لهؤلاء المشركين ، وطبق حال أمتك وسلوكهم معك ومثّله بحالهم من الغلو فى الكفر ، والإصرار على تكذيب الرسل ، وما انتهى إليه أمرهم من الهلاك ، طبق هذا وقسْهُ حتى يدركوا عاقبة سوء فعلهم ، ومآل كفرهم وعنادهم .

ومعنى (إِذْ جَآءَهَا الْمُرْسَلُونَ) أى : وقت أن جاء أهلها المرسلون الذين أرسلهم الله تأييدًا لعيسى – عليه السلام – يدعون إلى توحيد الله ، واختصاصه بالعبادة ، وترك عبادة غيره .

وقوله – تعالى – : (إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ) : تفصيل للإجمال فى قوله : (إِذْ جَآءَهَا الْمُرْسَلُونَ) .

ومعنى (إِذْ أَرْسَلْنَا) أى : وقت أن أرسلنا إليهم رسولين هما : « يحيى ، وبولس » – على ما قيل – وقوله تعالى – : (فَكَذَّبُوهُمَا) يشير إلى إيجاز فى الأسلوب مفاده : فأتياهم فدعواهم إلى الحق فكذبوهما فعززناهما وقويناهما برسول ثالث هو « شمعون » – على ماقيل – فقال ثلاثتهم لأهل القرية : (إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ) ندعوكم لعبادة الله دون غيره من الآلهة العاجزة التى لا تنفع ولا تضر ، وجاء قولهم : (إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ) : مؤكدا يناسب حالهم وتكذيبهم للرسولين الأولين .

١٥ – (قَالُوا مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ) :

أى : قال أصحاب القرية إنكارًا لقول الرسل لهم : (إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ) : ما أنتم فى أية حال من أحوالكم إلا بشر منا ومثلنا فأنّى لكم مزية موجبة لاختصاصكم بهذه الدعوة ، والارتفاع إلى مستوى القيادة علينا والدعوة لنا .

ثم يتدرجون فى الإنكار عليهم وتكذيبهم بإثبات البشرية لهم ، فينكرون أن يكون الله – تعالى – قد أنزل شيئاً مما يدعونهم إليه من الوحى والرسالة ، ثم يترقون من ذلك إلى تكذيبهم تكذيباً مباشرًا صريحاً بقولهم : (إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ) بأسلوب يحصرهم فى إطار الكذب والاختلاق ، ويسجل عليهم التمادى فيه .

١٦ ـ ١٧ ـ (قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ . وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) :

أى : قال الرسل لأهل القرية : ربنا وحده يعلم حقيقة رسالتنا ، وصدق دعوتنا ، ويعلم إنا إليكم لمرسلون لتبليغكم الرسالة ، ودعوتكم إلى التوحيد ، يردون بذلك تكذيب أهل القرية ويسفهون قولهم بإشارات ثلاث :

أولا : بإسناد علم الرسالة إلى الله ـ تعالى ـ ردا على قولهم : (مَآ أَنزَلَ الرَّحْمَـٰنُ مِن شَىْءٍ) وهو أسلوب جرى مجرى القسم مع مافيه من تخويفهم ، وتحذيرهم معارضة علم الله .

ثانيا : بإعادة القول بتأكيد إرسالهم إليهم مع اختصاص الله بعلمه ، وأنهم لاينكرونه إلا عنادا ومكابرة .

ثالثا : ببيان أن مهمتهم تبليغ الرسالة تبليغا واضحا بالآيات الشاهدة على صدقه ، وأنهم بهذا التبليغ قد خرجوا عن عهدته ، فلا مؤاخذة لهم من جهة الله ـ تعالى ـ سواء صدقوا أو كذبوا .

(قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾)

المفردات :

(تَطَيَّرْنَا) : تشاءمنا ، وأصل التطير : التفاؤل والتشاؤم بالطير .

(لَنَرْجُمَنَّكُم) : لنرمينكم بالحجارة حتى تموتوا .

(لَيَمَسَّنَّكُمْ) : ليصيبنكم .

(أَلِيمٌ) : موجع .

(طَآئِرُكُمْ) : سبب شؤمكم .

(مُسْرِفُونَ) : مجاوزون الحد فى العصيان مستمرون عليه .

التفسير

١٨ ـ ١٩ ـ (قَالُوٓا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ . قَالُوا طَآئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ) :

تطور حوار أهل القرية مع الرسل من مجرد التكذيب والإنكار إلى الشتم والتهديد ، والتوعد المقترن بالقسم ، قالوا لما ضاقت عليهم الحيل ، وعييت بهم العلل ، وانسدت أمامهم أساليب الجدل ـ قالوا ـ للرسل جريا على عادة الجهال : إنا تشاءمنا بوجودكم ، وضقنا من قولكم ، ثم أتبعوا ذلك قولهم توعدا مؤكدا بالقسم ، والله لئن لم ترجعوا عن دعوتكم ، وتمسكوا عن مقالتكم ، لنرمينكم بالحجارة وليصيبنكم منا عذاب أليم ، وإيذاء موجع لايقادر قدره .

قيل : إن سبب التطير انقطاع المطر عنهم ، أو انتشار الجذام فيهم ـ والله أعلم بصحة ذلك ـ ورد عليهم الرسل ، قالوا : طائركم وتشاؤمكم ملازم لكم ، نابع من قبح أعمالكم ، وسوء عقيدتكم ، ومافعلنا معكم مايقتضى تشاؤما ، أو يثير ضيقا ، سوى أن ذكرناكم وخوفناكم عذاب ربكم ، ودعوناكم لما فيه سلامتكم وسعادتكم ، وليس فى ذلك مايقتضى تشاؤما ، بل أنتم قوم مسرفون ومتجاوزون الحد فى الظلم والعتو ، ممعنون فى الشرك تعيشون فيه وتقيمون عليه ، والمصائب التى حاقت بكم من سوء أعمالكم .

(وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾)

المفردات :

(أَقْصَى الْمَدِينَةِ) : أبعد مكان فيها .

(رَجُلٌ) قيل : هو حبيب النجار .

(يَسْعَىٰ) : يعدو مسرعا فى عدوه ومشيه .

التفسير

٢٠ – ٢١ – (وَجَآءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ . اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ) :

انتقلت الآيات من حوار أهل القرية مع الرسل إلى حوار بين رجل من أهل القرية وقومه تنويعا فى أسلوب التأسية ، وتوسيعا فى صور التسلية للرسول ﷺ وأصحابه .

والمعنى : وجاء من أبعد موضع فى المدينة رجل من أهلها يسرع فى عدوه ، ويجد فى سيره إثر تورط قومه فى تهديد الرسل ، وارتفاع أصواتهم بتوعدهم ، ينصحهم حرصا على هدايتهم ، وخوفا على الرسل منهم ، قال بنداء يتألف به قلوبهم : «يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ) أى : صدقوا وأجيبوا المرسلين الذين أرسلهم الله لدعوتكم وهدايتكم ، وتحريركم من الشرك ، وعبادة الأوثان .

(اتَّبِعُوا مَن لَّايَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ) أى : أجيبوا دعاء من لايبتغون من وراء دعوتكم أجرا ولايطلبون على إجابتها نفعا ولا كسبا ، وإنما يقومون بها امتثالا لأمر الله ، ورجاءً فى هدايتكم وإرشادكم إلى مافيه استقامة دنياكم ، وسعادة آخرتكم ، وحسبكم فى صدقهم وتصديقكم لهم أنهم يدعونكم لما هم مهتدون إليه ، طامعون أن يكون لكم من الخير والهداية مايرجونه لأنفسهم دون أن يطلبوا على ذلك أجرا ، وذلك دليل على صدقهم .

قال وهب : كان حبيب مجذوما ومنزله عند أقصى باب من أبواب المدينة ، وكان يعكف على عبادة الأصنام سبعين سنة ، وكان يدعوهم لعلهم يرحمونه ، ويكشفون ضره ، فما استجابوا له ، فلما أبصر الرسل دعوه إلى عبادة الله ، فقال : هل من آية ؟ قالوا : نعم ، ندعو ربنا القادر يفرج عنك مابك ، فقال : إن هذا لعجيب ! ! ! أدعو هذه الآلهة سبعين سنة تفرج عنى فلم تستطع ، فكيف يفرجه ربكم فى غداة واحدة ؟ ؟ فقالوا : نعم ، ربنا على مايشاءُ قدير ! ! وهذه لاتنفع شيئا ولاتضر ، ودعوا ربهم فكشف الله عنه كأن لم يكن به بأس ، فآمن وأقبل على التكسب ، فإذا أمسى تصدق من كسبه ، فأطعم عياله نصفا ، وتصدق بنصف . فلما هم قومه بقتل الرسل جاء فنصحهم — والله أعلم بصحة هذا الخبر .

(وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾)

المفـردات :

(فَطَرَنِى) : خلقنى وابتدأ وجودى ، من : فطر البئر إذا ابتدأ حفرها .

(تُرْجَعُونَ) : تردون من الموت إلى الحياة بالبعث .

التفسـير

٢٢ – ٢٤ – (وَمَالِيَ لَآ أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّاتُغْنِ عَنِّى شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ . إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ) :

هذه الآيات ومابعدها استمرار من الرجل فى حوار قومه مع التلطف والملاينة فى إرشادهم بإيراده فى معرض المناصحة لنفسه ، حيث أراهم أنه اختار لهم ما اختار لها مع التعريض بهم والتقريع لهم على ترك عبادة خالقهم إلى عبادة غيره .

والمعنى : وأى شىء أصابنى ؟ وأى سفه خالط عقلى حتى أمسك عن عبادة ربى الذى ابتدأ خلقى ، وابتدع وجودى ووجودكم ، وله مرجعى ومرجعكم نرجع إليه بالبعث فيجازينا بأعمالنا خيرا وثوابا أو شرا وعقابا ؟

ومعنى قوله –تعالى –حكاية عنه : (ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً ....) إلى آخر الآية أيستقيم لى ويتأتى فى عقلى أن أتخذ من دون الله آلهة غيره ، أعبدهم وأدين لهم ، إن يردنى – سبحانه وتعالى – بضر ، ويقدره على؛ لاتغنى شفاعتهم عنى شيئا من النفع ، ولاتقدر أن تخلصنى

وتنقذنى مما أراده لى وقدره على بالنصرة والمظاهرة ، إنى إذا فعلت ذلك لفى ضلال مبين وهلاك أكيد ؛ لأن إشراك ماليس من شأنه جلب النفع ، ولادفع الضر ، بالخالق القادر الذى لاقادر غيره ولاخير إلا خيره ، سفه بين وضلال واضح .

(إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾)

التفسير

٢٥ـ (إِنِّىٓ آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ) :

الخطاب فى هذه الآية يحتمل أن يكون من الرجل للرسل بعد أن نصح قومه بما نصحهم به ، فهموا بقتله ، فأسرع نحو الرسل قائلا : (إِنِّىٓ آمَنتُ بِرَبِّكُمْ) وأكده لإظهار صدوره عنه بكمال الرغبة ، وصادق اليقين ، وأضاف الرب إلى ضميرهم لزيادة التقدير كأنه قال : بربكم الذى أرسلكم إلينا والذى تدعوننا إلى الإيمان به .

ومعنى (فَاسْمَعُونِ) : فاسمعوا إيمانى ، وسجلوه على ، واشهدوا لى به عند ربكم وربى . ويحتمل أن يكون الخطاب من الرجل لقومه شافههم به إظهارا للتصلب فى الدين ،

وعدم المبالاة بهم ، وإضافة الرب إلى ضميرهم لبطلان ماهم عليه من اتخاذ الأصنام أربابا ، ويقال : إنهم قتلوه بعد أن وقف فى صف الرسل وقفة متينة .

٢٦ – ٢٧ – (قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَالَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُكْرَمِينَ) :

اشتملت الآيتان على جوابين عن سؤالين مقدرين :

الأول : كيف كان لقاؤه ربه بعد هذا التمسك بالدين ، وقتل قومه له ؟ ؟ .

والجواب : قيل له : ادخل الجنة جزاءً موفوراً على صدق إيمانك ، وسخائك بروحك ويكون ذلك تبشيراً له بدخولها ، ووعدا له بها وأنه من أهلها .

الثانى : فماذا قال بعد نيله تلك الكرامة ، وتلقيه هذه البشرى ؟ ؟ .

والجواب : تمنى علم قومه بحاله ليحملهم ذلك على اكتساب مثله بالرجوع عن الكفر ، والدخول فى الإيمان إشفاقاً على قومه أو ليعلموا أنهم كانوا على خطأ عظيم فى أمره وأمرهم ، وأن عداوتهم له لم تكسبه إلا سعادة ونعيما .

ومعنى (بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُكْرَمِينَ) : ياليت قومى يعلمون بمغفرة ربى لى بإيمانى به وتركى عبادة الأصنام وأنه أعقبنى بذلك هذا الفوز العظيم ، والمراد تعظيم رحمته ، وتفخيم مغفرته تعالى .

وبالجملة فقد تمنى الرجل أن يعلم قومه حاله ، وعاقبة أمره لقاء إيمانه ، وصدق يقينه وتصلبه فى دينه ، وسخائه بروحه فداءً لعقيدته ، وانتصاراً لرسله حتى استحق أن يكون من جملة المكرمين من الله المبشرين بجنته ، الموعودين بنعيمه فى حظيرة قدسه ، ودار أنسه ، ومستقر رحمته .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة
رمزى السيد شعبان

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩/ ١٩٨٦

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

٥٥٨٣ س ١٩٨٦ — ٢٥٠٠٤



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث

الحزب الخامس والأربعون

الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٨

* (وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾)

المفردات :

(صَيْحَةً) : صوتا قويا .

(خَامِدُونَ) : ميتون خامدون كما تخمد النار .

التفسير

٢٨ - (وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ) :

ذكر الله - سبحانه وتعالى - فى الآيات السابقة أنه جاء رجل من أقصى المدينة (مدينة أنطاكية على ماذكره كثير من المفسرين) - جاء - يسعى ليحث قومه على اتباع المرسلين الذين لايطلبون أجرا على إرشادهم ونصحهم وهم مهتدون ، فلما نصحهم ، وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه فقيل له - من عند الله جزاءً على إيمانه ، وحسن دعوته إلى الله - : ادخل الجنة فدخلها ، فلما شاهد ماشاهد من إكرام الله له قال : «يَالَيْتَ قَوْمِى يعْلَمُونَ*بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعلَنِى مِنَ الْمُكْرَمِينَ» ليؤمنوا كما آمنت ، وهكذا : نصح هذا الرجل المؤمن قومه فى حياته بقوله : «اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ» وتمنى أن يعرفوا حُسْنَ جزائه بعد مماته ليؤمنوا وذلك بقوله : (يَالَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ*بِمَا غَفَرَلِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُكْرَمِينَ) فما أعظم هذا الرجل ، فقد كان حريصا على هداية قومه حيا وميتا .

وفى قوله تعالى : « وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ » : يخبر الله - تعالى - أنه انتقم من قومه بعد قتلهم إيّاه ، غضبا منه عليهم ، لأنهم كذّبوا رسله وقتلوا وليّه ، ويذكر - عز وجل - أنه ما أنزل على قومه ملائكة لإهلاكهم ، بل كان الأمر أيسر من ذلك ، ومعنى قوله تعالى : (وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ) أى : وما ينبغى فى حكمتنا أن ننزل فى إهلاك قوم هذا الرجل - الذى يسميه كثير من المفسرين حبيبا - ماينبغى فى حكمتنا أن ننزل جندا من السماء ، لأن الله - تعالى - أجرى هلاك كل قوم على بعض الوجوه دون بعض بناءً على ما اقتضته الحكمة ، ألا ترى إلى قوله - تعالى - : « فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ، وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ، وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ ، وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا [1] » وكأنه أشار بقوله : « وَمَآ أَنزَلْنَا - وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ » إلى أن إنزال الجنود من السماء من عظائم الأمور ولايليق إنزالها إلا من أجلك يامحمد ، كما حدث فى غزوتى بدر والخندق انتصارا لك من قومك ، وماكان ينبغى أن نفعل ذلك من أجل غيرك .

٢٩ - (إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ) :

أى : ماكان إهلاكهم وعقوبتهم إلا بصيحة واحدة أرسلناها عليهم فإذا هم ساكنون سكون الميت كالنار الخامدة ، وفى ذلك تحقير لهم وتقليل لشأنهم ، روى أن الله - تعالى - بعث عليهم جبريل فصاح بهم صيحة فماتوا ، ذكره الآلوسى وغيره ، وفى التعبير بإذا الفجائية فى قوله - تعالى - : « فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ » مايشير إلى سرعة هلاكهم بحيث كان مع الصيحة .

ولقد ذكر بعض المفسرين أن هذه القرية التى أهلك الله أهلها (أنطاكية) كما تقدم ذكره ، ويرى ابن كثير أنَّ أهل (أنطاكية)[2] كانوا أول أهل بلد آمن بالمسيح

---

(١) سورة العنكبوت ، من الآية : ٤٠

(٢) أنطاكية فى القاموس بدون تشديد الياء وفى هامشه بتشديدها .

ـ عليه السلام ـ ولهذا كانت عند النصارى إحدى المدائن الأربعة التى فيها «بطارقة» وهى : ١ ـ القدس ٢ ـ أنطاكية ٣ ـ الإسكندرية ٤ ـ روما

فعلى هذا يتبين أن هذه القرية المذكورة فى القرآن قرية أخرى غير أنطاكية المعروفة كما قال بذلك غير واحد من السلف . ا هـ ابن كثير .

(يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾)

المفـردات :

(يَاحَسْرَةً) الحسرة : الغم والندم .

(الْقُرُونِ) : جمع قرن والمراد بهم : القوم المقترنون فى زمن واحد .

التفسـير

٣٠ ـ (يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ) :

نداء للحسرة تنزل بهم كأنما قيل لها : تعالى ياحسرة فهذه من أحوالك التى حقك أن تحضرى فيها ، وهى حال استهزائهم بالرسل الذين جاءوهم ليخرجوهم من الظلمات إلى النور .

والمعنى : أنهم أحقاء بأن يتحسر عليهم المتحسرون من الملائكة والمؤمنين من الثقلين ، ويجوز أن يكون من الله على سبيل المجاز لتهويل ماجنوه على أنفسهم وفرط إنكاره له ؛ لأنهم ما يأتيهم رسول من الرسل إلا كانوا به يستهزئون ، ومنه يسخرون ، وبما جاءهم

به من الحق يكذبون ويجحدون ، والحسرة كما قال الراغب : الغم على مافات والندم عليه ، والمراد بالعباد مكذبو الرسل ويدخل فيهم المهلكون المتقدمون دخولا أوّليا .

٣١ـ (أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ) :

أى : ألم يعلموا فيتعظوا بمن أهلك الله قبلهم من القرون الماضية والأُمم السابقة المكذبين للرسل وهم كثيرون ، ألم يروا كيف قضينا أنهم إليهم لايرجعون ، وليس لهم فى هذه الدنيا كرة ولا رجعة ، ولم يكن الأمر كما زعم كثير من جهلتهم من قولهم : « إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ »[1] وهم القائلون بالدور من الدهرية وغيرهم من الذين يعتقدون أنهم يعودون إلى الدنيا كما كانوا فيها ، يحكى عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ أنه قيل له يوما : إن قوما يزعمون أن عليا مبعوث قبل يوم القيامة ، فقال : بئس القوم نحن : نكحنا نساءه وقسمنا ميراثه ، أما تقرءون : « أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ » .

٣٢ـ (وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ) :

بيان لرجوع الكل إلى المحشر بعد بيان عدم الرجوع إلى الدنيا ، أى : ما كل الأُمم السابقة واللاحقة إلا مجموعون لدينا مقهورون على الحضور إلينا يوم القيامة فنجازيهم بأعمالهم كلها خيرها وشرها ، وهذا كقوله ــ تعالى ــ : «وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ [2]» وفى الآية دليل على أن المهلَك عقابا لايترك بل يعذب فى الآخرة على كفره فوق ماناله من عقاب فى الدنيا .

(١) سورة (المؤمنون) الآية : ٣٧

(٢) سورة هود ، من الآية : ١١١

(وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾)

المفردات :

(الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ) : المُجْدبة .

(فَجَّرْنَا) : شققنا .

(الْأَزْوَاجَ) : الأنواع والأصناف ، وقال قتادة : الذكر والأنثى .

التفسير

٣٣ـ (وَءَايَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ) :

أى : ودلالة قوية لهم على وجود الصانع وقدرته التامة وإحيائه للموتى ، الأرض الجدباءُ تراها ميتة هامدة لاشىءَ فيها من النبات ، فإذا أنزلنا عليها الماءَ اهتزت وربت وأنبتت وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون .

وتقديم لفظ (منه) فى قوله ـ تعالى ـ :(فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ) للدلالة على أن الحَبَّ هو الشىءُ الذى يرتبط به معظم العيش ، فكأنه لامأكول سواه ، فإذا قلَّ الماءُ جاءَ القحط ووقع الضرر ، وإذا فقد جاءَ الهلاك ونزل البلاءُ .

٣٤ـ (وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ) :

وأنشأْنا فى الأرض جنات ـحدائق ـ وبساتين من : نخيل وأعناب وغيرهما ، وخصهما

بالذكر لأنهما غذاء ودواء وفاكهة ، وشققنا فيها من عيون الماء ماينبت الشجر ، ويخرج الزهر وينضج الثمر .

والجنات : جمع جنة - وهى كما قال الراغب - الجنة - كل بستان ذى شجر يستر بأشجاره الأرض ، وقد تسمى الأشجار الساترة جنة ، من الجَنّ وهو الستر .

٣٥ - (لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ) :

أى: وجعلنا فيها جنات ليأكلوا مما خلق الله فيها من الثمر، وليأكلوا من الذى عملوه وصنعوه بأيديهم ، والمراد به : مايتخذ من الثمر كالعصير والدبس وغيرهما ، وقال الزمخشرى : وما عملته أيديهم من الغرس والسقى والآبار وغير ذلك من الأعمال إلى أن بلغ الثمر منتهاه وإبّان أكله ، يعنى أن الثمر فى نفسه فعل الله وخلقه ،وفيه آثار من كد بنى آدم .

ويجوز أن تكون (ما) نافية فى قوله : (وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ) والمعنى: وما عملت الثمر أيديهم فهو من خلق الله ، وأثر ذلك عن ابن عباس والضحاك وغيرهما .

(أَفَلاَ يَشْكُرُونَ) إنكار واستقباح لعدم شكرهم للمنعم بالنعم الكثيرة ، وحث ودعوة إلى شكر المتفضل ، ويكون الشكر بالتوحيد ، والعبادة ، وحسن الثناء على الله ، والاعتراف بآلائه .

٣٦ - (سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَيَعْلَمُونَ) :

استئناف مسوق لاستعظام ماذكر فى الآيات الكريمة قبلها من بديع آثار قدرته ، وأسرار حكمته ، وروائع نعمائه ، الموجبة لشكره ، والمقصود من قوله : « سُبْحَانَ . . . » تنزيه الله - تعالى - عن كل نقص وتخصيصه بالعبادة ، والتعجيب من إخلالهم بذلك والحال هذه .

والمعنى : تنزيها وتقديسا لله الذى خلق الأشياء كلها على سنن : الذكورة والأنوثة من النبات والإنسان ومما لايعلم الناس ،قال -تعالى- : «وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ »[1] .

(١) سورة الذاريات ، الآية : ٤٩

فهو ـ سبحانه ـ جعل قانون الذكورة والأنوثة فى مخلوقاته كلها ، سواءٌ فى ذلك النباتات والحيوانات والبشر ، وفيما لايعلمه الناس من الأحياء غير المنظورة من أزواج لم يطلعهم الله عليها ولاتوصلوا إلى معرفتها بطريق من طرق العلم ، ولايبعد أن يخلق الله على هذا النحو من الخلائق مالم يجعل للبشر طريقا إلى العلم به ؛ لأنه لاحاجة بهم فى دينهم ودنياهم إلى ذلك العلم ، ولو كانت بهم إليه حاجة لأعلمهم بما لايعلمون قال ـ تعالى ـ : « وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ »[١] .

وفى الإعلام بكثرة أنواع ماخلق ـ ماعلموه وماجهلوه ـ مايدل على عظم قدرته واتساع ملكه .

وقال الراغب : (الأزواج) : جمع زوج ، ويقال لكل واحد من القرينين ولكل مايقترن بآخر مماثلا له أو مضادا ، وكل مافى العالم زوج من حيث إن له ضدا أو مماثلاً ما ، بل لاينفك بوجه من تركيب صورة ومادة وجوهر وعرض . اهـ : آلوسى .

(وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾) .

المفردات :

(نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ) : ننزع من مكانه الضوء ونزيله ونفصله فيظلم .

---

(١) سورة النحل ، من الآية : ٨

(لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا) : لحد معين من فلكها تنتهى إليه فى آخر السنة ، وسيأتى تفصيل أكثر .

(قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ) : قدرنا سيره فى منازل ومسافات ، والمنازل جمع منزل ، والمراد به المسافة التى يقطعها القمر فى يوم وليلة .

(كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ) العرجون القديم : أصل شمراخ النخل القديم وهو اليابس الذى دق وانحنى واصفر .

(ذَلِكَ) قال الراغب : مجرى الكواكب .

(يَسْبَحُونَ) : يسيرون ويدورون .

التفسير

٣٧ - (وَءَايَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ) :

بيان لقدرته - سبحانه وتعالى - الباهرة فى الزمان بعد ما بينها فى المكان ، أى : وعلامة دالة على توحيد الله وقدرته ووجوب ألوهيته : الليل ننزع ونفصل عنه النهار الساتر له ، ونكشف ونزيل الضوء عن مكانه ، فإذا الناس داخلون فى الظلام المشتمل عليهم من كل جانب ، المحيط بهم من كل جهة .

٣٨ - (وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) :

أى : وآية أخرى لهم الشمس تجرى لمستقر لها ، أى : لحد لها مؤقت تنتهى إليه من فلكها فى آخر السنة ، شبه بمستقر المسافر إذا قطع سيره ، أو لمُنتهَى لها من المشارق والمغارب فذلك حدها ، ومستقرها ؛ لأنها لا تعدوه ، أو لحد لها من مسيرها كل يوم فى رأى عيوننا وهو المغرب ، وقيل : مستقرها : أجلها الذى أقر الله عليه أمرها فى جريها فتستقر وينقطع جريها وهو يوم القيامة .

(ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) ذلك الجرى على هذا التقدير والحساب الدقيق الذى تكل الفطَنُ عن استخراجه وتتحير الأفهام فى استنباطه ما هو إلا تقدير الغالب بقدرته على كل مقدور ، المحيط علمه بكل معلوم .

٣٩ ـ (وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ) :

والقمر جعلناه بتدبير محكم وتنظيم دقيق منازل ، يبدو أول الشهر ضئيلا ، ثم يزداد نوره حتى يكتمل بدرا ، ثم يأخذ فى النقصان فى أواخر سيره حتى يعود فى مرآه كأصل الشمراخ إذا قدُم فدق وانحنى واصفر .

٤٠ ـ (لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ، وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) :

إن الله ـ تعالى ـ قسم لكل واحد من الليل والنهار قسما من الزمان ، وضرب لهما حدا معلوماً ، ودبَّر أمرهما على التعاقب ، فلا ينبغى للشمس التى هى آية النهار أى : لا يصح ولا يستقيم لها أن تدرك القمر الذى هو آية الليل فتجتمع معه فى وقت واحد ، وتداخله فى سلطانه ، فتجعل الليل نهارًا ، ولا الليل بظلامه غالب النهار فيجعله ليلًا .

وكل واحد من الشمس والقمر فى مجراه الذى حدده الله له يسيران فيه كالسابح فى الماء ، ويدوران حسب النظام الذى وضعه الله ، ولا يزال الأمر على هذا الترتيب إلى نهاية العالم حيث تطلع الشمس من مغربها فى آخر الزمان ، وجعلت الشمس غير مدركة والقمر غير سابق ، لأن الشمس لا تقطع فلكها إلا فى سنة ، والقمر يقطع فلكه فى شهر فكانت الشمس جديرة بأن توصف بالإدراك لتباطؤ سيرها عن سير القمر ، والقمر خليقاً بأن يوصف بالسبق لسرعة سيره فى رأى العين .

(وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾)

المفردات :

(ذُرِّيَّتَهُمْ) : أولادهم ، وقال الطبرى : من نجا من ذرية آدم ، وسيأتى بيان ذلك .

(الْمَشْحُونِ) : المملوء .

(فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ) : فلا مغيث لهم من الغرق .

التفسير

٤١ – (وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ) :

وآية أخرى لهم أنا حملنا بنى الإنسان فى السفن المملوءة بهم الموقرة بأمتعتهم وبأرزاقهم قيل : المراد بالفلك المشحون : سفينة نوح – عليه السلام – ومعنى حمل الله ذرياتهم فيها أنه حمل فيها آباءهم الأقدمين وفى أصلابهم هم وذرياتهم ، وإنما ذكر ذرياتهم ؛ لأنه أبلغ فى الامتنان عليهم وأدخل فى التعجب من قدرته فى حمل أعقابهم إلى يوم القيامة فى سفينة نوح – عليه السلام – وقال الإمام: يحتمل عندى أن تخصيص ذريتهم بالذكر لأن الموجودين المخاطبين من أهل مكة بهذا كانوا كفارا لا فائدة فى وجودهم ، أى : لم يكن الحمل حملا لهم وإنما كان حملا لما فى أصلابهم من المؤمنين – ذكره الآلوسى – والآية تحتمل العبرة والنعمة والإنذار .

٤٢ – (وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ) :

وخلقنا لهم من مثل الفلك ما يركبون عليه وهى الإبل فإنها سفائن البر لكثرة ما تحمل وقلة كلالها فى المسيرة ، وإطلاق السفائن عليها شائع معروف فى اللغة كما قيل : «سفائن بَرٍّ والسرابُ بحارها» ، وفسره مجاهد بكل ما يركب، وقيل : هى السفن والزوارق التى كانت بعد سفينة نوح – قال النحاس : وهو أصحها لأنه متصل الإسناد عن ابن عباس ١٠ هـ : قرطبى .

٤٣ – (وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ) :

وإن نشأ إغراقهم فى الماء بما اكتسبت أيديهم ، وبما اجترحوا من سيئات ، وعملوا من موبقات ، مع ما حملناهم فيه من الفلك فلا مغيث لهم يحفظهم مما نزل بهم ولا هم ينجون من الغرق بعد وقوعه .

٤٤ – (إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ) :

أى : لا يغاثون ولا ينقذون لشىء من الأشياء إلا لرحمة عظيمة من قبلنا ، داعية إلى

الإغاثة والإنقاذ وتمتيع بالحياة إلى زمان قدر فيه انتهاء آجالهم ، حسبما تقتضيه الحكمة ومن هنا أخذ أبو الطيب قوله :

ولم أسلم لكى أبقى ولكن .·. سلمت من الحِمام إلى الحِمام[1] .

فنحن لا نغرقهم إلا رحمة منا بهم لنمتعهم إلى أجل قدرناه لهم .

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾)

المفـردات :

(اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ) : خافوا واحذروا مثل عذاب الأمم التى قبلكم .

(وَمَا خَلْفَكُمْ) : عذاب الآخرة ،وقيل : (مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ) : ما تقدم من ذنوبكم ، (وَمَا خَلْفَكُمْ) : ما يأتى منها .

التفسـير

٤٥ ـ (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) :

بيان لإعراضهم عن الآيات التنزيلية بعد بيان إعراضهم عن الآيات الآفاقية التى كانوا يشاهدونها ولا يتأملون فيها ، أى : وإذا قيل لأهل مكة بطريق الإنذار بما نزل فيهم من الآيات : (اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ) أى : احذروا مثل عذاب الأمم التى قبلكم (وَمَا خَلْفَكُمْ) أى : عذاب الآخرة الذى أعده الله لكم لسوء أعمالكم وإصراركم على كفركم (لَعَلَّكُمْ

(١) الحِمام ـ بكسر الحاء ـ : الموت .

تُرْحَمُونَ) أى : لكى يرحمكم ربكم إن اتقيتموه فتنجوا من العذاب ، وجواب (إِذَا قِيلَ لَهُمْ . . .) تقديره : أعرضوا ، ويدل على هذا الجواب قوله – تعالى – :

٤٦ – (وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ) :

أى : وما تأتيهم من حجة وعلامة على التوحيد وصدق الرسل إلا كانوا عنها معرضين لا يتأملونها ولا يقبلونها ولا ينتفعون بها لأن دأبهم الإعراض عن كل آية وموعظة .

والمراد بالآيات : إما هذه الآيات الناطقة بما فصل من بدائع صنعه – تعالى – وسوابغ آلائه الموجبة للإقبال عليها والإيمان بها ، وإيتاؤها : نزول الوحى بها ، أى : ما نزل الوحى بآية من الآيات الناطقة بذلك إلا كانوا عنها معرضين على وجه التكذيب والاستهزاء ، وإمَّا مايعمها والآيات التكوينية الشاملة للمعجزات وغرائب المصنوعات ، وإيتاؤها : ظهورها لهم ، أى : وما تظهر لهم من آية من الآيات التى من جملتها ما ذكر من شئونه – تعالى – الشاهدة بوحدانيته – سبحانه – وتفرده بالألوهية إلا كانوا عنها معرضين تاركين للنظر الصحيح فيها المؤدى إلى الإيمان به – عز وجل – .

٤٧ – (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ) :

الآية الكريمة لذمٍّ الكفار على ترك الشفقة على خلق الله إثر ذمهم على ترك تعظيمه – عز وجل – بترك التقوى ، وفى ذلك إشارة إلى أنهم أخلوا بجميع التكاليف ؛ لأنها كلها ترجع إلى أمرين : التعظيم لله ، والشفقة على خلقه – سبحانه – .

والمعنى : وإذا أُمر الكفار بالإنفاق مما رزقهم الله على الفقراء والمحتاجين من المسلمين قال الذين كفروا لمن أمرهم من المؤمنين بالإنفاق محاجين لهم فيما أمروهم به : (أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ) أى : هؤلاء الذين أمرتمونا بالإنفاق عليهم لو شاء الله لأغناهم ولأطعمهم من رزقه ، فنحن نوافق مشيئةَ الله – تعالى – فيهم فلا نطعمهم تحقيقاً لمشيئة الله ، ما أنتم فى أمركم لنا بإطعامهم إلا فى ضلال واضح ، حيث تأمروننا بما يخالف مشيئة الله ، وقيل : (إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ) : قول الله لهم وهو رأى ابن جرير ،

وقيل : كلام المؤمنين للرد على الكافرين وآرائهم الضالة وأقيستهم الفاسدة ؛ لأن الله يطعم بأسباب : منها حث الأغنياء على إطعام الفقراء وتوفيقهم له ، وذلك لحكمة غابت عن عقولهم ، وهى نشر المودة والرحمة والتعاون والعدل الاجتماعى .

ولقد نزلت الآية الكريمة فى مشركى قريش حين قال فقراءُ أصحاب رسول الله ﷺ : أعطونا مما زعمتم من أموالكم أنها لله ، يعنون قوله ـ تعالى ـ :(وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً)(١) فحرموهم وقالوا : لو شاء الله لأطعمكم .

وعن ابن عباس : كان بمكة زنادقة فإذا أمروا بالصدقة على المساكين قالوا : لا والله أيفقرهم الله ونطعمهم نحن ؟ وعن الحسن وأبى خالد أن الآية نزلت فى اليهود أُمروا بالإنفاق فقالوا ذلك ، والظاهر أنها فى كفار مكة كما تقدم .

(وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾)

المفردات :

(مَتَى هَٰذَا الْوَعْدُ) : يعنون وعد البعث .

(صَيْحَةً وَاحِدَةً) : نفخة الموت بها يموت جميع الناس ، يحدثها إسرافيل فى الصور .

(تَأْخُذُهُمْ) : تقهرهم وتستولى عليهم فيهلكون .

(يَخِصِّمُونَ) : يختصمون ويتنازعون فى أمورهم غافلين عنها .

(١) سورة الأنعام ، أول الآية : ١٣٦

التفسير

٤٨ - (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ) :

ويقول المشركون للرسول والمؤمنين - استبعادا للبعث وإنكارا له واستهزاء بالمؤمنين - : متى يقع هذا الذى وعدتمونا به ويتحقق؟إن كنتم صادقين فيما تقولون وتعدوننا به فأخبرونا بذلك ، يقولون ذلك لأنهم كانوا يتلون عليهم الآيات الدالَّة عليه والآمرة بالإيمان بالله وبالبعث .

٤٩ - (مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُم وَهُمْ يَخِصِّمُونَ) :

جواب من الله - تعالى - أى : ما ينتظرون إلا صيحة واحدة عظيمة وهى النفخة الأُولى فى الصور التى يموت بها الناس ، ولأن الصيحة لا بد من وقوعها جعلوا كأنهم منتظرون لها تهكما بهم (تَأْخُذُهُمْ) أى : تقهرهم وتستولى عليهم فيهلكون وهم يتخاصمون ويتنازعون فى معاملاتهم ومتاجرهم لا يخطر ببالهم شىء من مخايلها كقوله - تعالى - : (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)[1] أخرج الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «لَتَقُومَنَّ الساعة وقد نشر الرجلان ثَوْبَهُما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطْويانِه ، ولتقومنَّ الساعةُ والرجل يليط[2] حوضه فلا يُسْقَى منه ، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن نعجته فلا يطْعمُه ، ولتقومن الساعة وقد رفع أُكلَتَهُ[3] إلى فمه فلا يطعمها » إ هـ : آلوسى .

٥٠ - (فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ) :

فلا يستطيعون لسرعة ما نزل بهم توصية على مايملكون ولا أن يوصوا بشىء فى أمورهم لأن الأمر أهم من ذلك ، ولا إلى أهلهم ومنازلهم يرجعون إذا كانوا فى خارج ديارهم ، بل تبغتهم الصيحة فيموتون حيثما كانوا ووجدوا ، ويرجعون إلى الله - عز وجل - لا إلى غيره - سبحانه - .

---

(١) سورة الزخرف ، الآية : ٦٦

(٢) يليط حوضه : يطينه واللياط - ككتاب - : الجص .

(٣) أكلته - بالضم - : اللقمة ، - وبالفتح - : المرة من الأكل .

(وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾)

المفردات :

(الصُّورِ) : القرن ، وحقيقة الصور وكيفية النفخ مما استأثر الله بعلمه .

(الأَجْدَاثِ) : القبور ، جمع جدث .

(يَنسِلُونَ) : يسرعون .

(مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا) : من أيقظنا من منامنا ؟

التفسير

٥١ ـ (وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَإِذَاهُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ) :

ونفخ فى الصور نفخة البعث فإذا الأموات من القبور إلى ربهم ومالك أمرهم يسرعون بطريق الإجبار لقوله ـ تعالى ـ : (لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ)[1] وذكر الرب للإشارة إلى إسراعهم بعد الإساءة إلى من أحسن إليهم وربَّاهم بنعمه على موائد كرمه .

٥٢ ـ (قَالُوا يَاوَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ) :

قال المبعوثون من القبور بعضهم لبعض : ياهلاكنا وعذابنا ،أو ياقومنا انظروا أهوال ما ينتظرنا وتعجبوا منه (مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ؟) أى : من أيقظنا من منامنا ، وفيه تشبيه الموت بالرقاد لعدم ظهور الفعل فى كل ، وقيل : سموا ذلك مرقدا مع علمهم بما كانوا

(١) سورة يس من الآية : ٣٢

والمراد هنا الأول ،وتنكيره للتعظيم ، كأنه شغل لايدرك كُنْهُه ، والمراد به ماهم فيه من النعيم الذى شغلهم عن كل ماسواه ، وماظنك بشغل مَنْ سعد بدخول الجنة التى هى دار المتقين ، ووصل إلى نيل تلك الغبطة وذلك الخير الكثير والنعيم المقيم ، وتمتع بتلك الملاذ التى أعدها الله للمرتَضَيْنَ من عباده ، ثوابا لهم على أعمالهم مع كرامة وتعظيم .

وعن ابن كيسان : الشغل : التزاور وضيافة الله . (فَاكِهُونَ) متلذذون فرحون معجبون بما أكرمهم الله به ، والفاكِهُ والفَكِهُ : المتنعم المتلذذ ، ومنه الفاكهة لأنها مما يتلذذ بها ، وكذلك الفُكاهة التى هى المزاحة .

٥٦ ــ (هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِى ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَآئِكِ مُتَّكِئُونَ) :

استئناف مسوق لبيان كيفية شغلهم وتفكههم وتكميلها بما يزيدهم بهجة وسرورا من مشاركة أزواجهم لهم فى ذلك الشغل والتفكه والاتكاء على الأرائك تحت الظلال ، فهم وأزواجهم فى ظلال ، جمع ظُلَّة أو ظِلّ ، وفسر الإمام الظل بالوقاية عن مظان الألم ، ولأهل الجنة من ظل الله ــ تعالى ــ ما يقيهم كل سوء وألم ، والجمع (فى ظلال) باعتبار ما لكل واحد منهم من ذلك ، أو هو متعدد للشخص الواحد باعتبار تعدد ما منه الوقاية .

ويجوز حمل الظلال على القوة والمنعة ، كما يجوز حمله على الستور التى تكون فوق الرأس من سقف وشجر ونحوها ، ووجود ذلك فى الجنة مما لا شبهة فيه ، فقد جاء فى الكتاب وصح فى السنة : أن فيها غرفاً ، وجاء فيها أيضاً ماهو ظاهر فى أن فيها شجرًا يظل من تحته ، وقد صح من رواية الشيخين أنه ﷺ قال : « إن فى الجنةِ شجرةً يسيرُ الراكبُ فى ظلها مائةَ عام لا يقطعها ، فاقرءُوا إن شئتم : (وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ) »[1] .

وابن الأثير يقول : فى ظلها فى ذراها وناحيتها ، وهذا الرأى لدفع أنها تظلُّ من الشمس لأنه لا شمس فى الجنة ، والقول فى الآراء السابقة كذلك فى أنها لاتظل من الشمس ، إذ لا شمس فيها .

(١) سورة الواقعة ، الآية : ٣٠

(عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ) : على السرر المنجدة المزينة بالستور متكئون ، والظاهر أن المراد بالأزواج : أزواجهم المؤمنات اللائى كن لهم فى الدنيا ، وقيل : أزواجهم اللاتى زوجهم الله - تعالى - إياهن من الحور العين ، كما يجوز أن يكون المراد بأزواجهم أشكالهم فى الإحسان ، وأمثالهم فى الإيمان .

٥٧ - (لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ) :

بيان لما يتمتعون به فى الجنة من المآكل والمشارب وما يتلذذون به من الملاذ الجسمية والروحية بعد بيان مالهم فيها من مجالس الأنس ومحافل المتعة تكميلا لبيان كيفية ماهم فيه من الشغل والبهجة .

والمعنى : لهم فى الجنة فاكهة كثيرة من خير أنواعها ، لا مقطوعة ولا ممنوعة ، مذللة لهم إن شاءوا أكلوا ، وإن شاءوا أمسكوا ، ولهم فيها كل ما يطلبونه ويتمنونه .

٥٨ - (سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ) :

أى : سلام يقال لهم قولا من جهة رب رحيم ، أى : يسلم عليهم الله - جل جلاله - بلا وسيط تعظيماً لهم ، فقد أخرج ابن ماجة وجماعة عن جابر قال : قال النبى ﷺ : « بينا أهل الجنة فى نعيم إذ سطع لهم نورٌ فرفعوا رءوسهم فإذا الربُّ قد أشرف عليهم من فوقهم فقال : السلام عليكم يا أهلَ الجنةِ وذلك قول الله - تعالى - : (سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ) قال : فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شىء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم ويبقى نوره وبركته عليهم فى ديارهم » .

وقيل : يسلم عليهم عن طريق الملائكة لقوله - تعالى - : « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُم »[1] . وروى ذلك عن ابن عباس ، يقول الآلوسى : وعلى الأول الأكثرون ، وأقول : لامنافاة ، فالله - سبحانه وتعالى - يسلم عليهم والملائكة كذلك .

---

(١) سورة الرعد ، من الآيتين : ٢٣ ، ٢٤

٦٢ ـ (وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ) :

استئناف مسُوق لتشديد التوبيخ والتقريع ، ببيان عدم اتعاظهم بغيرهم إثر بيان نقضهم للعهد ، والخطاب لمتأخريهم ومنهم كفار مكة .

والمعنى : ولقد أضل الشيطان منكم ـ يا بنى آدم ـ أمما كثيرة ، أكنتم تشاهدون آثار عقوباتهم فلم تكونوا تعقلون أنها لضلالهم ، أو أفلم تكونوا تعقلون شيئا أصلاً ، فلذلك كفرتم ككفرهم واستحققتم العذاب مثلهم .

(هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾)

المفردات :

(اصْلَوْهَا الْيَوْمَ) : ادخلوها اليوم وقاسوا سعيرها .

(نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَاهِهِمْ) : نمنعها من الكلام .

(وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ) : كلام دلالة أو نطق .

التفسير

٦٣ ـ (هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ) :

هذا كلام مستأنفٌ تقوله خزنة جهنم لأهل النار عند إشرافهم على شفير جهنم بعد انتهاء التوبيخ والإلزام .

والمعنى : هذه ـ التى ترونها ـ جهنم التى كنتم فى الدنيا توعدون بها على ألسنة الرسل والمبلغين عنهم إن اتبعتم الشيطان فيما يزينه لكم من الكفر والمعاصى كقوله ـ تعالى ـ : (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ) .

٤ ـ (اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ) :

اصلوها : أمر تحقير وإهانة لأهل النار ، والمعنى : ادخلوا جهنم فى هذا اليوم وقاسوا ألوان العذاب فيها بسبب ما كنتم مستمرين عليه من الكفر والمعاصى فى الدنيا .

٦٥ ـ (الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) :

الأفواه : جمع فوه ، وهو الفم ، والختم عليها كناية عن منعها من الكلام ، وتوفيقاً بين هذه الآية وبين آية سورة النور « يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِم وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » (١) أن يوم القيامة مواقف ، ففى موقف تخرس الألسنة ، وفى آخر تتكلم .

أخرج أحمد ومسلم وابن أبى الدنيا واللفظ له عن أنس فى قوله ـ تعالى ـ : (الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ) قال : « كنا عند النبى ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه ، قال : أتدرون مم ضَحِكْتُ » ؟ قلنا : لا يا رسول الله ، قال : « من مخاطبةِ العبدِ ربَّه يقول : يارب ألم تجرنى من الظلم؟ فيقول : بلى ، فيقول : إنى لا أُجيز علىَّ شاهدًا إلا شاهدًا منى ، فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا وبالكرام الكاتبين شهودًا ، فيختم على فيه ، ويقال لأركانه : انطقى ، فتنطق بأعماله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول : بُعْدًا لَكُنَّ ، فعنكن كنت أناضل ، وشهادة الأيدى والأرجل عليهم دلالتها على أفعالها ، وظهور آثار معاصيها عليها ، وقيل : ذلك على الحقيقة ، بأن ينطقها الله فتتكلم وتشهد ، وهذا هو ظاهر الآية والحديث .

---

(١) الآية ، ٢٤

قال الشاعر :

من عاش أخلقت الأيام جدَّتَهُ وخانه ثقتاه السمع والبصر

وعن سفيان أن التنكيس يبدأ من سن الثمانين ، والحق أنه يختلف باختلاف تكوين كل إنسان ، والعوارض التى تمر عليه حسب مشيئة الله – تعالى – وقد يكون للوراثة بعض التأثير فى ذلك .

ومعنى الآية : ومن نطل عمره نَقْلِبْهُ فى الخلق والصورة والقوة على عكس ماكان عليه فى نشأته ، أيرون ذلك فلا يعقلون أن من قدر على تنكيس خلق الإنسان فهو قادر على طمس أعينهم ومسخهم فى أماكنهم فى هذه الدنيا ، وأن الله – تعالى – لم يفعل ذلك لعدم تعلق مشيئته به .

(وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾)

المفردات :

(وَمَا يَنبَغِى لَهُ) : ما يصح الشعر له ولا يصح منه .

(إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ) : ما القرآن إلا تذكير ووعظ وإرشاد .

(وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ) : وكتاب مقروء واضح يُقْرأ للاعتبار .

(وَيَحِقَّ الْقَوْلُ) : ويثبت القول بالعذاب ويجب على الكافرين .

التفسير

٦٩ – (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِى لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ) :

لما جاءهم محمد ﷺ بالقرآن زعموا أن محمدًا شاعر ، وأن القرآن الذى أيده الله به شعر ، فأنزل الله هذه الآية لإبطال ما زعموه من الأمرين ، فإن نفى تعليم الشعر لمحمد يستتبع نفى أن القرآن شعر ، وأن الذى جاء به شاعر .

والمعنى : وما علمنا محمدًا الشعر قبل أن يقول ما قال ، حتى يصح زعمكم أن محمدًا شاعر وماجاء به شعر ، وليس القرآن من قبيل الشعر لا وزنا ولا غرضاً ولا تكويناً ، فالشعر متكلف مصنوع ، ومبنى على خيالات وأغراض واهية ، وتصورات ومبالغات مخالفة للواقع ، حتى قالوا : أعذب الشعر أكذبه ، وله أوزان معينة وقواف ثابتة ، أما القرآن فليس له أوزان الشعر ولا خيالاته الواهية ، ولا أغراضه الهزيلة ، ولا يعرف الأكاذيب التى تصور الباطل حقًا والحق باطلا ، ولا يعرف المبالغات التى تجعل من الحبة قبة ، ومن القليل كثيرًا ، بل نظم فريد لاعهد للبشر بمثله ، ولا يستطيعون أن يحاكوه ، اشتمل على العقائد النظيفة ذات البراهين العقلية ، والأدلة الكونية ، كما اشتمل على الأحكام المنظمة لشئون الخلق ، المعلمة لحقوق الخالق ، الموصلة إلى سعادة الدارين ، وعلى الأخلاق العالية ، والحكم السديدة ، فأين الثرى من الثريا ، وإذا انتفى أن يكون شعرًا انتفى أن يكون من جاء به شاعرا ؛ لأنهم وصفوه بالشاعر من أجله « وَمَا يَنبَغِى لَهُ » أى : وما ينبغى الشعر لمحمد ﷺ ولا يليق به ، ولا يستقيم له عقلا ؛ لأنه كما قال ابن الحاجب : لوكان ممن يقوله لتطرقت التهمة عند كثير من الناس فى أن ما جاء به من قبل نفسه ، وأنه جاء من تلك القوة .

وقال غيره فى معنى « وَمَا يَنبَغِى لَهُ » : وما يصح الشعر له ؛ لأنه يدعو إلى تغيير المعنى لمراعاة اللفظ والوزن ؛ ولأن من أحسنه المبالغة والانحراف فى الوصف ، وغالبه يميل إلى الكذب ، فلا يليق بمحمد الذى عرف بالصدق منذ صباه .

وقد حدث أن النبى ﷺ قال بعض عبارات قابلة لأوزان الشعر ، مثل قوله يوم حنين : « أنا النبى لا كذب . أنا ابن عبد المطلب » وهذا لا يجعل صاحبه شاعرًا ، لأنه كلام يرد على الخاطر من غير قصد إلى الشعر ، كما يحدث لكثير من الناس .

(إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ) : أى : ما القرآن إلا وعظ وتذكير من الله لخلقه ، ليسيروا على المنهج المستقيم ، وكتاب سماوى يقرأ ليعمل به ، واضح أنه من عند الله -تعالى- بما يشتمل عليه من ألوان الإعجاز ، فأين هو مما افترى عليه من الوصف بكونه شعرًا ومن جاء به شاعرًا .

٧٣ - (وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ) :

ولهم فى الأنعام بقسميها منافع غير الركوب والأكل ، فمن جلودها تصنع الحقائب والنعال والسروج وسائر المصالح المرتبطة بها ، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها يتخذ الناس اللباس والفراش والأثاث وسائر المتاع ، ومن عظامها يتخذ ما يُكَرَّر به الدبس ليكون سكرا أبيض ، وعلاج لين العظام بما يستخلص منها ، ومن ألبانها يشربون إلى غير ذلك من المنافع ، أيشاهدون هذه النعم فلا يشكرون الله - تعالى - الذى أنعم عليهم بها ، بأن يخصوه وحده بالعبادة ؟.

(وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾)

المفردات :

(مِن دُونِ اللهِ) : من غير الله .

(جُندٌ مُّحْضَرُونَ) : جند معدون لحفظهم ، أو محضرون فى النار .

التفسير

٧٤ - (وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ) :

أى : واتخذ أولئك المشركون من غير الله القادر المنعم آلهة يعبدونها معه - سبحانه - راجين أن ينصروا بها فى دنياهم بإنقاذهم من الشدائد ، وفى أخراهم بالشفاعة لهم عند الله ، وهذا خطأ بيِّن ، فإن من لا يستطيع دفع المكروه عن نفسه ، لا يستطيع دفعه عن سواه ، ولذا قال - سبحانه - مستأنفاً ردًّا عليهم :

٧٥ - (لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ) :

أى : لا تقدر آلهة المشركين على نصرهم ، والحال أن هؤلاء المشركين جند مهيأون لحفظها ووقايتها ، فكيف يعبدونها ويستنصرون بها ؟ !.

ويجوز أن يكون المعنى : والآلهة المزعومة جند محضرون لتعذيب المشركين يوم الدين ، إذ تكون وقودا للنار التى يعذبون بها ، أو محضرون عند حساب الكفرة إظهاراً لعجزهم ، وإقناطا للمشركين من شفاعتهم ، وكلاهما معنى جيد .

والتعبير عن الآلهة فى المعنيين الأخيرين بالجند ، وكذا ذكر اللام الدالة على المنفعة فى « لهم » للتهكم بالمشركين الذين يستنصرون بهم ، فإنهم وقود لعذابهم أو شهود عليهم ، وكلاهما مباين لما أملوه فيهم من أن يكونوا جنود نصرة ومنفعة لهم .

٧٦ - (فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ) :

هذه الآية لتسلية الرسول وتسرية الحزن عنه بسبب إشراكهم بالله ، وقولهم على الله وعلى رسوله مالا يليق ، وقد ختمت بإنذارهم على مقالتهم .

ومعنى الآية : إذا كان حالهم مع ربهم - سبحانه - ما علمته يامحمد من الإشراك ، فلا تحزن لقولهم فى الله بالإلحاد ، وفيك بالتكذيب والتهجين ، فإننا نعلم ما يسرون وما يظهرون من الجرائم فنجازيهم عليها حتى لا يستوى المحسن والمسيء ، والعلم بما ذكر مجاز أو كناية عن الجزاء عليه ، فالجزاء على الذنب من مقتضيات علم العادل الحكيم .

(أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾)

المفـردات :

(مِن نُّطْفَةٍ) : من منِيٍّ ، أطلقت عليه لأنه ينطف ، أى : يصب فى الرحم ، من النطف وهو الصب .

(خَصِيمٌ مُّبِينٌ) : شديد الخصومة واضحها .

(وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا) أى : جعل لنا مثلًا ونظيرًا من الخلق .

(وَهِيَ رَمِيمٌ) : وهى بالية أشد البلى ، وهى فعيل بمعنى فاعل من رمَّ إذا بلى ، ولم يؤنث مع المؤنث لأنه ألحق بالأسماء الجامدة لغلبة استعماله دون موصوف ، وقيل : هو اسم مفعول من رممته بمعنى أبليته ، وهو إذا كان كذلك يستوى فيه المذكر والمؤنث كقتيل .

التفسير

٧٧ - (أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ) :

بعد ما بين بطلان شركهم ، وأقام الدليل على أنه - تعالى - هو المستحق للعبادة وحده ، أتبع ذلك إقامة البرهان على أن البعث حق ردا على إنكارهم له .

والهمزة فى (أَوَلَمْ) للإنكار والتعجب ، والواو لعطف ما بعدها على جملة مقدرة أى : أغفل ولم ير الإنسان .

والمعنى : أغفل الإنسان المنكر للبعث ، ولم يعلم أنا خلقناه من نطفة حقيرة ليس بينها وبين خلقه العظيم مناسبة تذكر ، فإذا هو شديد الخصومة ، واضح الجدال ، إذ ينكر البعث مع أنه فى قضايا العقل أيسر من الابتداء ، وإن كان كلاهما فى اليسر عند الله سواء .

واعلم أن الإنسان مخلوق من منىّ الرجل ، وماء المرأة جميعًا ، فإن للمرأة ماء كماء الرجل مع فارق سنذكره بعده ، سألت امرأة النبى - صلى الله عليه وسلم - : « هل على المرأة من غسل إذا هى احتلمت ؟ » قال : « نعم إذا رأت الماء » .

وفى ماء الرجل حيوانات منوية لا تحصى لكثرتها ، ولا ترى إلا بالمجهر لصغرها ، وفى ماء المرأة بويضة وحيدة تفرزها كل دورة طهر بعد الحيض ، فإذا التقى الرجل بالمرأة لقاء جنسيًّا

فى طهرها ، وأخرجا ماءهما عند اللقاء ، وأراد الله الحمل ، لقحت بويضة المرأة بحيوان من منى الرجل فى قناة واصلة من مبيضها إلى الرحم ، يسميها الطب الحديث « القناة الفالوبية » نسبة إلى مكتشفها ، ثم تنحدر البويضة بعد تلقيحها بأربعة أيام إلى الرحم بعد انقسامها إلى عديد من الخلايا ، فتستقر فى قرار مكين من جدار الرحم حيث تتطور إلى إنسان سوى ، فتبارك الله أحسن الخالقين . (انظر تفصيل ذلك فى مثله فى صدر سورتى الحج والمؤمنون) .

وسبب نزول هذه الآية على ما أخرجه جماعة عن ابن عباس قال : « جاء العاص بن وائل إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بعظم حائل ، ففتَّه بيده فقال : يا محمد أيجمع الله هذا بعد ما رمَّ ؟ قال : نعم يبعث الله هذا ثم يميتك ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم » ، فنزلت الآيات : « أَوَلَمْ يرَ الْإِنسَانُ . . . » إلى آخر السورة .

والقصة متفقة فى جميع الروايات ، وإن اختلفت فيمن خاصم الرسول ، فعن مجاهد ، والسدى ، وعكرمة وغيرهم أنه أُبىّ بن خلف الذى قتله الرسول فى أُحد بحربة ، وقيل : هو أبو جهل ، وقيل : غيرهما .

٧٨ – (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ) :

هذه الآية معطوفة على الجملة المنفية فى الآية قبلها ، أى : أولم ير الإنسان أنَّا خلقناه من نطفة ، ففاجأ بالخصومة وضرب لنا مثلًا .

والمعنى : وجعل لله نظيرا من الخلق ، إذ قاس قدرته على قدرتهم ، فنفى قدرته على أن يبعث الخلائق ، ونسى خلق الله له من نطفة ، إذ قال – وهو يضرب المثل لله بطريق الإنكار والنفى العام –: « مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ » أى : شديدة البلى ، يريد أنه لا يستطيع أحد أن يحييها ، فأدرج المولى مع الخلائق فى هذا النفى العام ، وبهذا سواه بالخلائق فى العجز عن إعادة الحياة للعظم الرميم وجعله مثلهم ، فهذا هو معنى : « وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا » .

ومن العلماء من فسر المثل بالأمر الغريب ، والمعنى عليه : وأورد فى شأننا أمرًا غريبًا يشبه المثل فى غرابته ، وهو إنكار إحيائنا للعظم الرميم ، والمعنى السابق أظهر .

٧٩ ـ (قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ . . .) الآية :

أمر من الله لرسوله أن يجيب على سؤال هذا المعاند ، مرشدًا إلى سبيل معرفة الحق .

والمعنى : قل له أيها الرسول : يحيى هذه العظام بعد أن تبلى أشد البلى ـ يحييها ـ الذى أبدعها أول مرة ورباها ، وذلك بأن يحيى الجسد كله والعظام فى جملته ، فتجرى فيها الحياة لجريانها فيه ، وتصبح صلبة مترابطة ، بعد أن كانت هشة متفتتة ، وذلك أيسر فى القياس من بدء خلقها ، فذلك من القياس الأولوى؛ وكان الفارابى يقول : وددت لو أن أرسطو وقف على القياس الجلى فى قوله ـ تعالى ـ : « قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ » (وهو الله تعالى ، أنشأ العظام وأحياها أول مرة ، وكل من أنشأ شيئًا أولا قادر على إنشائه وإحيائه ثانيًا ، فيلزم أن الله ـ عز وجل ـ قادر على إنشائها وإحيائها بقواها ثانيًا) . إهـ .

(وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) : وهو بكل مخلوق واسع العلم ، ولهذا يعلم من كل إنسان صفاته التى كان عليها فى الدنيا ، وتفاصيل أجزائه وأوضاعها بعضها من بعض ، فيعيد كل ذلك على النمط الذى كان عليه ، على حد قوله ـ تعالى ـ : « كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ »[1] .

٨٠ ـ (الَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ) :

المراد من الشجر الأخضر على المشهور نوعان : (أحدهما) المَرْخُ ، (والثانى) العَفَار (بفتح العين) ، وإخراج النار منهما على ما قاله العلامة أبو السعود : بأن تقطع منهما عُصيَّتَين مثل السواكين ، وهما خضراوان ؛ يقطر منهما الماء ، فيسحق المرخ وهو ذكر على العفار وهو أنثى ، فتقدح النار بإذن الله ـ تعالى ـ وقيل : المراد من الشجر العموم ، لصلاحية كل الأشجار للاتقاد ، وفى المَثَل : فى كل شجرة نار ، واستمجد المرخ والعفار ، أى : استكثرا من النار ، من مجدت الإبل إذا وقعت فى مرعى واسع كثير ، وإرادة المرخ والعفار أنسب بالمقام ، ويقول صاحب المختار : واستمجد المرخ والعفار ، أى : استكثرا منها كأنهما أخذا من النار ما هو حسبهما ، ويقال : لأنهما يسرعان الوَرْىَ ، فشُبِّهَا بمن يُكْثِر العطاء طلباً للمجد .

وأجاز بعضهم ـ جمعًا بين الرأيين ـ أن يكون المعنى : الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارًا بالفعل بقدح المرخ بالعفار ، فإذا أنتم من الشجر الأخضر المذكور توقدون النار فى سواه .

(١) الأعراف ، من الآية : ٢٩

ووجه الاستدلال على البعث بذلك : أن من قدر على إخراج النار من الشجر الأخضر مع ما فيه من الماء المضاد لها ، فهو أقدر على إعادة الغضاضة فيما كان غضا طريًّا فبلى ويبس .

(أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾)

المفردات :

(بَلَىٰ) : حرف يجاب به بعد النفى لتحويل النفى إلى إثبات .

(بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ) اليد : كناية عن القدرة ، والملكوت مبالغة فى الملك ، كالرحموت فى الرحمة ، والرهبوت فى الرهبة ، ومعناه : الملك التام .

التفسير

٨١ـ(أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ) :

هذه الآية استئناف من جهة الله ـ تعالى ـ لتأييد ما كلف الرسول بتبليغه ، وهو : « قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ » ... الآيتين . والهمزة للإنكار والنفى ، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام .

والمعنى : أليس الذى أنشأها أول مرة ، وليس الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارًا وليس الذى خلق السموات والأرض ـ مع كبرهما وعظم شأنهما ـ بقادر على أن يخلقهم ومثلهم ويبعثهم من قبورهم مع صغرهم ، وحقارة شأنهم ، بل هو قادر وهو الخلاق الكثير الخلق ، العليم الواسع العلم ، فلا يعجز عن بعثهم .

٨٢ ـ (إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ) :

ذهب معظم السلف إلى أن الله حين يريد أن يخلق شيئًا يصدر فى شأنه أمرًا كلاميا هو قوله : « كُن » حسب النص « فيكون » .

والمعنى على هذا الرأى : ما شأن الله تعالى ، أو ما أمره إذا أراد إيجاد شىء إلَّا أن يقول له : كُن فيكون ويحدث استجابة لأمر الله .

وذهب بعض المحققين إلى أنه لا قول أصلًا ، والمراد بما جاء فى الآية تمثيل قدرة الله فى تحقيق مراده بأمر الآمر المطاع للمأمور المطيع ، فى سرعة حصول المراد من غير امتناع ولا توقف ، ورجح هذا بأن الأمر الكلامى لا يوجه إلى معدوم ، بل إلى موجود .

والمعنى على هذا : ما شأنه ـ تعالى ـ إذا أراد إيجاد شىء إلَّا أن ينفذه فورا فى الحين الذى حدده له .

٨٣ ـ (فَسُبْحَانَ الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) :

المعنى : إذا كان قد تحقق ما تقدم بيانه من عظيم قدرة الله ـ تعالى ـ وأنه إذا أراد شيئًا قال له : « كُنْ فَيَكُونُ » فتنزيهًا للذى فى قدرته الملك التام لكل شىء عمَّا نسبوه إليه من عدم قدرته على بعث الخلائق ، وإليه ترجعون جميعًا ـ مؤمنين وكافرين ـ لا إلى غيره ، فيثيب المؤمنين ، ويعاقب المنكرين .

واعلم أن الرجوع يوم القيامة سيكون للأرواح والأجسام على الوجه الذى كانت عليه فى الدنيا ، ليكون الحساب والجزاء لهما جميعًا .

فإن قيل : إنَّ الأجساد تلاشت وتداخلت فى تكوين غيرها بعد أن عادت إلى عناصرها الأُولى من تراب وهواء وماء ، فقد دخلت فى تكوين النبات والحيوان والإنسان ، فكيف يمكن إرجاع الأجساد بعد أن تداخلت فى تكوين غيرها .

فالجواب : أن المهم فى البعث هو الروح ، فهو المسئول الأول عن الأعمال ، وهو الذى يشعر بالنعيم والعذاب ، ولولاه لما كان تكليف ولا جزاء ، والله تعالى يخلق عند البعث جسدًا

لكل روح يشبه صاحبه تمام الشبه ، وينشئه من العدم أو من الكون على مثاله تماما ، ليمكن التمايز بين الناس حتى يستطيع أصحاب الظلامات تمييز غرمائهم عن غيرهم ، ولا يقال : إن الجسد الذى ينال الجزاء على هذا ليس هو الذى أطاع أو عصى ، بل غيره ؛ لأن الجزاء فى الحقيقة للروح لا للجسد ، والروح هو بعينه لم يتغير .

وقيل : يجمع الله الأجزاء المتفرقة ، ويعيدها كما كانت قبل الموت ، وينفخ فيها الروح ، والنفس تميل إلى الرأى الأول ، لما قلناه من تداخل عناصره بعد تحلله فى مخلوقات أخرى ومكلفين آخرين ، ويشير إلى الرأيين المذكورين صاحب الجوهرة بقوله :

وقل يعاد الجسم بالتحقيق   عن عدم وقيل عن تفريق

سـورة الصافات

مكية وآيها ثنتان وثمانون ومائة آية ، وقد نزلت بعد الأنعام

مناسبتها لما قبلها

تناسب الصافات (يس) التى قبلها فى أنها مثلها فى الكلام على أحوال المؤمنين والكافرين فى الدنيا والآخرة ، والمبدأ والمعاد ، وإثبات إمكان البعث ، ووجوب توحيد الله ونبذ الشركاء إلى غير ذلك من المقاصد المتجانسة ، فلذلك كانت تالية لها .

خلاصة ما جاء فيها

أقسم الله فى صدرها بمخلوقات عظيمة وصفها بأنها صافات وزاجرات وتاليات للذكر ، على أنه ـ تعالى ـ واحد ، وأنه رب المشارق والمغارب ، وبين جمال السماء وزينتها ، وأنها محفوظة من الشياطين ، وأنهم يرجمون بالشهب إن حاولوا التسمع إلى الملأ الأعلى – وهم الملائكة ـ ثم أثبت إمكان البعث بقدرته ـ تعالى ـ فإنه خلق الخلق كله ، فلا تصعب عليه إعادتهم ، وذكر أنهم سيعودون بأيسر سبيل ، وذلك بأن ينفخ فى الصور نفخة واحدة فإذا هم قيام ينظرون ، ثم يحشرون ويسألون ، وأن بعضهم يلقى على البعض الآخر تهمة التسبب فى كفرهم ، وأن ذلك لا ينفعهم ، فهم يومئذ فى العذاب مشتركون ؛ لأنهم « كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ : لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ ، وَيَقُولُونَ : أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ » وأن عباد الله على نقيضهم ، فهم فى جنات النعيم ، على سرر متقابلين ، يطوف عليهم الولدان بكئوس الشراب : (وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ) .

ثم قارنت بين هذا النعيم الذى ينعم به المؤمنون ، وبين العذاب الذى يشقى به الكافرون فهم فى نار جهنم ، وإذا طعموا يطعمون من شجر الزقوم ، ويشربون من الحميم ، ومرجعهم إلى الجحيم ، ثم ذكرت بعض القصص للأمم السابقة وما جره كفرهم عليهم من العقاب فى الدنيا ، ثم كذبت المشركين فى دعواهم أن الملائكة بنات الله ، وأن بينه وبين الجنة نسبا

ثم بينت أنه ـ تعالى ـ سبقت كلمته لعباده المرسلين ، إنهم لهم المنصورون ، وإن جنده لهم الغالبون ، وأوصت الرسول بالإعراض عنهم وعن سفاهتهم ، وختمت بتنزيه الله ـ تعالى ـ عمَّا يصفونه به من أن له شريكًا وأن له بنات ، وبالسـلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾)

المفردات :

(وَالصَّآفَّاتِ) أى : وحق الملائكة الصافين أنفسهم ، وقيل غير ذلك ، وسيأتى بيانه .

(فَالزَّاجِرَاتِ) : وصف ثان للملائكة المقسم بهم ، مأخوذ من الزجر وهو المنع أو الحث أو السَّوْق .

(فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا) : وصف ثالث لهم بأنهم يتلون ذكر الله .

(الْمَشَارِقِ) هى : مشارق الشمس والكواكب على امتداد خط المشرق .

التفسير

١ـ ٤ ـ (وَالصَّآفَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا * إِنَّ إِلَـٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ) :

الصافات والزاجرات والتاليات أوصاف لم يذكر القرآن الكريم معها موصوفها ، وقد أقسم الله ـ تعالى ـ بها على أن إلٰهنا واحد ، وإذا كان المقسم هو الله ، والمقسم عليه وحدانيته ، فلابد أن يكون الموصوف المقسم بصفاته عظيما .

لهذا اختلف المفسرون فى الموصوف بهذه الصفات ، فقيل : هم الملائكة ، فهم يصفون أنفسهم حسب مراتبهم ومقاماتهم فى طاعة الله ، وانتظارا لأمره ، وقد جاء وصفهم بذلك فى قوله ـ تعالى ـ : « وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا »[1] .

---

(١) سورة الفجر ، الآية : ٢٢

والزجر يطلق لغة على المنع والنهى والحث والسَّوْق ، ولا يكون الزاجر إلَّا متسلطًا ، وليس بلازم أن يصحب الزجر صياح كما فى أصل معناه ، ووصف الملائكة به لزجرهم الأَجرام العلوية والسفلية على وجه يناسب المزجور ، من سوق كما فى سوق السحاب إلى مواقع المطر ، أو حث كما فى أمر رئيسهم لمرءوسهم ، أو نهى كما فى زجر العباد عن المعاصى بالتخويف من عواقبها ، أو منع كما فى كف الشياطين عن الإغواء واستراق السمع ، وكما أن الملائكة صافات وزاجرات ، فهم يتلون ذكر الله فيما بينهم فى جملة ما يذكرونه من معارف وتلاوات ، يعلمها الله ، كما يتلونه عندما يبلغون الأَنبياءَ وحْيه سبحانه .

وحمل هذه الأَوصاف على الملائكة قال به ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وعكرمة ، وغيرهم . والملائكة ليسوا إناثًا لقوله تعالى : « وَجَعَلُواْ الْمَلَآئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ »[1] ووصفهم هنا بأَوصاف الإناث مراعاة لتاء التأْنيث فى لفظها ؛ ولأَن الجمع يجوز تأْنيث وصفه أو ضميره على معنى الجماعة .

وقيل : إنه – تعالى – أقسم بطوائف الأَجرام السماوية المرئية كالصفوف المرصوصة ، وبالأَرواح الزاجرات ، أى : السائقات لها فى مداراتها ، حيث ترعاها وتدبر أمرها ، والمراد بها الملائكة الموكلة بها ، وبالجواهر القدسية الذين يَتْلون ذكر الله ، وهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، والمراد بها الملائكة الكروبيون ، وقيل : أقسم بنفوس العلماءِ التى لها هذه الصفات الثلاثة ، وقيل : بنفوس الغزاة الصافين فى الجهاد ، والزاجرين الخيل ، أو العدو ، التالين لذكر الله لا يشغلهم العدو عنه .

ونحن نقول : لا مانع من إرادة من يتصف بهذه الصفات فى طاعة الله ممن ذكروا ومن غيرهم ، تعظيمًا لشأْنهم ، والعطف إما لتغاير الذات أو لتغاير الصفات ، وإن اتحدت الذات وكان العطف بالفاءِ للإيذان بالترتيب الوجودى أو الشرف .

وقد يقال : ما فائدة القسم بأَن الإِلٰه واحد عند المنكرين ، والجواب : أن القسم لتعظيم المقسم به ، وتأْكيد المقسم عليه – كما هو المعروف عند العرب الذين نزل القرآن بلغتهم –

---

(١) سورة الزخرف ، الآية : ١٩

أما تحقيق المقسم عليه فقد تكفل به قوله ـ تعالى ـ : (رَبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ) كما سنبينه بعد .

٥ ـ (رَبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ) :

أفادت هذه الآية أنه ـ تعالى ـ خالق السَّمٰوات والأَرض وما بينهما ورب مشارق الكواكب ، وهذه دعوى تحمل فى أعطافها الدليل عليها ، فإن وجود السموات والأَرض فى الفضاءِ محفوظة من التلف مصونة من العيب ، مع أداء كل كوكب ونجم وظيفته نحو غيره من الكواكب ونحو نفسه ، مع عظمتها فى نفسها ، وعظمتها فى أغراضها ، وضرورة كل ذرة فيها لتحقيق أغراضها ، وانطواء كل ذرة على أسرار عظيمة ، كما كشفت عنه الكشوف المعاصرة ، كل ذلك وغيره من أسرار السموات والأَرض ، يدل أوضح الدلالة على وحدة تدبيرها ، ووحدة مدبرها ومنشئها ، إذ « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا » والمشركون يقرون بذلك : « وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ » وحيث انتهى التفكير فى هذا الكون العجيب إلى أن منشئه واحد ، ومدبره والقائم على حفظه وأداءِ وظائفه واحد ، فإن ذلك يستتبع أن إلٰهنا الذى يجب أن نتجه بعبادتنا إليه واحد ، وهذا هو جواب القسم السابق : « إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ » .

وكثيرًا ما تتعرض الآيات القرآنية إلى ما بين السموات والأَرض كشاهد على وجود الله وربوبيته ووحدانيته كما هنا ، ولابد أنه شىء عظيم حتى يجعل القرآن الكريم له هذه الأَهمية فى عديد من الآيات ، وقد كشف الناس منه الأَشعة الكونية والجاذبية ، والأَجرام الكثيرة الدائرة بسرعة رهيبة فى الفضاء ، والشهب والسحب والرعد والبرق والأَمطار والرياح ، وغير ذلك مما عرف ، أمَّا ما لم يعرف فلا ريب فى أنه شىء عظيم ، فسبحان من خلق ودبر ، واحتجب عن العيون ذاته ، وأظهرته آياته .

(إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾)

المفردات :

(السَّمَآءَ الدُّنْيَا) : السماء القربى .

(شَيْطَانٍ مَّارِدٍ) : خارج عن الطاعة .

(دُحُورًا) الدحور : الطرد .

(عَذَابٌ وَاصِبٌ) : عذاب دائم أو شديد .

(إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ) : إلا من اختلس من كلام الملائكة اختلاسة .

(فَأَتْبَعَهُ) أى : تبعه ، فهو رباعى بمعنى الثلاثى ويتعدى مثله .

(شِهَابٌ) : هو ما يرى مضيئًا مارقًا بسرعة فى الجو كأنه كوكب ساقط .

(ثَاقِبٌ) : مضىء .

التفسير

٦ - (إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ) :

السماء لغة : كل ما علاك ، ولهذا تطلق على السحاب كما فى قوله -تعالى- : « وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً مُّبَارَكًا »[1] والمراد هنا ما جعل الله الكواكب زينة لها ، ولابد أن تكون شيئًا آخر غير الكواكب ، فإن الزينة شىء وما تزينه شىء آخر ، ولأن النبى -صلى الله عليه وسلم-

(١) سورة (ق) من الآية : ٩

كان يستفتح ليلة الإسراء والمعـراج ، وكان استفتاحه على السموات لا على الكواكب ، ولأن الكواكب لا حصر لها ، وتتجاوز الأرقام الحسابية التي عرفها البشر ، كما أن طبقاتها لا حصر لها أيضًا ، فهي مجاميع سُدُمية [١] ، لا يبلغها الحساب ، وطبقاتها لا يبلغها العدد ، وليست سبع طبقات ، والله تعالى يقول : « الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ طِبَاقًا » [٢] .

والقبة الزرقاء التي تراها العيون ليست هي السماء التي جعلت الكواكب زينة لها ، فهي الغلاف الجوى المحيط بالأرض ، فإذا تجاوزه فلا يراه ، وهذا أمر تحقق علميًّا وكشفيًّا .

وعلى هذا تكون السموات السبع التي جعلت الكواكب زينة لها غير مرئية ولا معروفة لنا ، ولكننا نرى الكواكب التي جعلها الله زينة للسماء الدنيا أي : القربى من أهل الأرض ، وهي أول السموات السبع ، فسبحان من لا يعلم سواه عظمته وعظمة الكون الذى أبدعه .

وهذا التفسير هو الذى يساعد عليه ظاهر النص ، ومن العلماء من جعل السموات هي نفس الكواكب وما حولها من أجوائها والأشعة الكونية ، وقد انقسموا قسمين : فمنهم من يقول : إنها سبع طبقات كوكبية فعلًا ، ومنهم من يقول : إن العدد لا مفهوم له سوى التكثير ، فإن العرب تستعمل عدد السبع مفردًا أو جمعًا ، كالسبعين لغرض التكثير ، ويقولون : إنها طبقات كثيرة لا تقف عند عدد السبع

ونحن نقول لهؤلاء : إذا كانت السموات مجموعات من طبقات الكواكب ، فلماذا جعلت الكواكب زينة للسماء الدنيا وحدها كما فى هذه الآية وفى آية سورة الملك ، وكيف تكون زينة لنفسها ، والزينة شيء وما تزينه شيء آخر ، وكيف يستفتح الرسول — صلى الله عليه وسلم — ليلة المعراج على كواكب ، ثم نقول : علينا أن نؤمن بأن لله سموات سبعًا ، وأن الكواكب زينة للسماء الدنيا منها ، ونترك العلم بحقيقة ذلك إلى الخالق — جل وعلا — .

والكواكب هي تلك الأجرام المتلألئة التي نشاهدها فى الفضاء ليلًا ، ومنها القمر أقربها إلى الأرض ، وقد وصل الإنسان فى عصرنا هذا إلى القمر داخل أجهزة علمية ، وقد حصل

(١) سدم : جمع سديم وهو مجموعة من الكواكب لا حصر لها .

(٢) سورة الملك ، من الآية : ٣

العلماء على معلومات عنه أكثر وضوحا من ذى قبل ، ومنها أن عناصر تكوينه تشابه عناصر تكوين الأرض ، وأن جوه لا يصلح لحياة الإنسان فوقه .

٧ ـ (وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ) :

وحفظنا السماء حفظًا بتلك الكواكب من كل عفريت من الجن شرير متمرد خارج عن الطاعة ، حيث تنزل منها الشهب فتحرق من يحاول استراق السمع فى جو السماء من أولئك الشياطين المتمردين .

٨ ـ (لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ) :

الملأ الأعلى : الملائكة أو رؤساؤهم ، والمعنى : لا يتمكن مردة الشياطين أن يتسمعوا ، ويصغوا إلى الملائكة وهم يتحدثون فيما عهد الله به إليهم من شئون الخلائق ، فقد حفظت السماء منهم بشهب أصلها من الكواكب ، فإن حاولوا الاستماع يقذفون بها من كل جانب من جوانب السماء .

٩ ـ (دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ) :

الدُّحُور : الطرد ، والواصب : الدائم أو الشديد كما تقدم فى المفردات .

والمعنى : ويقذف أولئك الشياطين بالشهب من كل جانب لأجل دحرهم عن مجتمع الملائكة فى جو السماء ، وهم يتحدثون فيما عهد الله به إليهم . ولأولئك الشياطين عذابٌ شديد دائم فى الآخرة ، غير عذاب الإحراق بالشهب فى الدنيا .

١٠ ـ (إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ) :

أى : لا يتسمع أولئك الشياطين إلى الملأ الأعلى ، إلَّا من اختلس منهم كلام الملائكة مسارقة ، فتبعه شهاب ثاقب ، أى : شعلة قوية الضوء والحرارة فتحرقه .

والشهاب : واحد الشهب ، وهى أحجار صغيرة منفصلة عن الكواكب ، سابحة فى فضاء الله ـ تعالى ـ فإذا وصلت فى دورانها إلى جاذبية الأرض جذبتها ، فمرت بسرعة متجهة

نحوها ، فمن سرعتها تحترق بقوة احتكاكها المتتابع السريع بالهواء ، ويكون لاحتراقها لمعان مستطيل . ثاقب : أى ساطع .

(فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾)

المفردات :

(فَاسْتَفْتِهِمْ) : فاستخبرهم .

(طِينٍ لَّازِبٍ) : طين لاصق .

(يَسْتَسْخِرُونَ) : يبالغون فى السخرية .

التفسير

١١ - (فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ) :

المعنى : فاستخبر يا محمد مشركى مكة المنكرين للبعث ، أهم أصعب خلقاً وإيجادًا ، أو أقوى خلقة وبنياناً ، أم من خلقناه من السموات وما فيها من الملائكة والكواكب وروائع العجائب ، والأرض ومافيها من جبال وتلال ، ونجاد ووهاد ، وزروع نضرة ، وزهور عطرة ، وجماد وحيوان ، وماء وحيتان ، ومابين الأرض والسماء من الرياح اللواقح ، والشهب الثواقب ، وغير ذلك من عجائب مبدعاته ، وروائع مخلوقاته ، إنا خلقنا بنى آدم من طين لاصق بعضه ببعض ، فى ضمن خلق أبيهم آدم ، أو خلقناهم أنفسهم من الطين ، فإن أصلهم النطفة ، والنطفة أصلها غذاء مخلوق من الطين ، فهم باعتبار هذا التسلسل مخلوقون من الطين .

وإذا كانوا مخلوقين من الطين على أى وجه ، فكيف يستبعدون بعثهم من التراب ، إذ قالوا : « أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ »[1] مع أنهم خلقوا فى أول أمرهم من تراب ممزوج بالماء فصار طيناً .

١٢ - (بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ) :

بل : هنا لابتداء كلام آخر ، كما قاله صاحب المغنى فى قوله - تعالى - : « بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا »[2] وليست للعطف ، نقله الخطيب معلقاً على البيضاوى ، والخطاب للرسول وكل من يدافع عن الحق .

والمعنى : بل عجبت يا منصف الحق من قدرة الله على ماخلقه من الكائنات العلوية أو السفلية ، ومع هذا ينكر الكافرون البعث ، ويسخرون من تعجبك وتقريرك للبعث .

١٣ - (وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذْكُرُونَ) :

وإذا وعظوا ليؤمنوا بالبعث لا يتعظون ، لقساوة قلوبهم ، وقلة فطنتهم .

١٤ - (وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ) :

السين والتاء فى « يستسخرون » للمبالغة ، والمعنى : وإذا شاهدوا معجزة تدل على صدق من يعظهم ويدعوهم إلى ترك ماهم عليه ، يبالغون فى السخرية ، ويجوز أن تكون السين والتاء للطلب ، أى : يطلب بعضهم من بعض أن يسخروا .

١٥ - (وَقَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ) :

أى : وقالوا فى شأن الآية التى رأوها : ما هذا الذى نراه إلا سحر واضح .

١٦ ، ١٧ - (أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ آبَآؤُنَا الْأَوَّلُونَ) :

أى : أنبعث نحن وآباؤنا الأولون إذا متنا جميعًا ، وتحولت أجسادنا إلى تراب وعظام ؟ يقولون ذلك منكرين نافين للبعث ، والهمزة فى « أئذا » وفى « أئنا » للإنكار والنفى .

---

(١) سورة المؤمنون من الآية : ٨٢ (٢) سورة الأعلى ، الآية : ١٦

(قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَاوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾)

المفردات :

(دَاخِرُونَ) : صاغرون .

(زَجْرَةً) : صَيْحَةً .

(يَنظُرُونَ) : يبصرون ، أو ينتظرون .

(يَاوَيْلَنَا) : يا هلاكنا .

(يَوْمُ الدِّينِ) : يوم الجزاء ، تقول : دِنْتُه ، أى : جازيته .

(يَوْمُ الْفَصْلِ) : يوم القضاء بعد البعث .

التفسير

١٨ - (قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ) :

قل - يامحمد لمنكرى البعث - : نعم تبعثون أنتم وآباؤكم الأولون الذين ماتوا قبلكم ، والحال أنكم جميعًا صاغرون أذلاء ، غير معجزين لقدرة الله - تعالى - .

وقد اكتفى هنا فى إجابة منكرى البعث بذلك من غير إقامة الدليل على إمكانه لأنه سبق قريبا ، ولأنه تكرر فى القرآن فى مواضع شتى .

١٩ - (فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ) :

الزجرة : الصيحة ، من : زجر غنمه : إذا صاح بها .

والمعنى : لاتستصعبوا البعث من القبور ، فما هو إلا صيحة واحدة ، وهى النفخة الثانية فى الصور فإذا هم قائمون من مراقدهم أحياء ينظرون بأبصارهم ، أو ينتظرون مايفعل بهم .

٢٠ ، ٢١ - (وَقَالُواْ يَاوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ * هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ) :

الدِّين : الجزاء، تقول : أدانه القاضى ، أى : جازاه ، والفصل : القضاء والحكم ، ففيه فصل ، أى : فرق بين المحق والمبطل .

والمعنى : وقال المنكرون للبعث حين بعثوا وتذكروا ماكانت الرسل تقول لهم فى الدنيا عن هذا اليوم : هذا يوم الجزاء من الله لعباده ، ويقول بعضهم لبعض : هذا يوم القضاء والحكم فى نزاعنا مع رسل الله فى شأن البعث وغيره مما جاءونا به ، هذا هو اليوم الذى كنتم به تكذبون ، فما أشقانا فيه وقد كذبناهم ، ويجوز أن يكون قوله تعالى : «هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ» حكاية لكلام الملائكة للمنكرين للبعث لما بعثوا وقالوا : «يَاوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ» وليس من كلام بعض المنكرين لبعض .

وكان أبو حاتم يقف على قولهم : «ياويلنا» ويجعل مابعده من كلام الملائكة جوابا للمنكرين وتوبيخا لهم وإيذانا بأن وَلْوَلَتَهم وتندمهم لاينفعانهم .

* (ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾)

المفردات :

(ٱحْشُرُواْ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَاجَهُمْ) أى : اجمعوا الظالمين وأمثالهم من أصحاب المعاصى .

(وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللهِ) : من الأصنام والأوثان ، فإنها تحشر معهم .

(فَاهْدُوهُم إِلَى صِرَاطِ الجَحِيمِ) أى : فدلوهم ووجهوهم إلى طريق النار .

(مَالَكُمْ لَاتَنَاصَرُونَ) أى : لماذا لاينصر بعضكم بعضا .

(مُسْتَسْلِمُونَ) : منقادون ، أو قد أسلم بعضهم بعضا وخذله عن عجز ، وأصل الاستسلام : طلب السلامة ، والانقياد تابع لذلك عرفا .

التفسير

٢٢ ، ٢٣ - (ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُم إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ) :

خطاب من الله للملائكة ، أو من الملائكة بعضهم لبعض . وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - تقول الملائكة للزبانية :

(احشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ . . .) الآية ويراد بالظلم : الشرك ؛ قال تعالى : (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) : وهو أمر بحشر الظالمين يوم البعث من أماكنهم المختلفة إلى موقف الحساب ، وقيل : من الموقف إلى الجحيم ، يحشرون هم وأمثالهم ونظراؤهم من الكفار ، فيحشر الكافر مع الكافر . قاله قتادة وأبو العالية . وقال عمر بن الخطاب فى معنى الآية : أزواجهم أمثالهم الذين هم مثلهم . يحشر الزانى مع الزانى ، وشارب الخمر مع شارب الخمر ، وصاحب السرقة مع صاحب السرقة . وقيل فى رواية عن ابن عباس : وأزواجهم أى : نساؤهم الموافقات على الكفر ، ورجّحه الرُّمَّانى ، وقيل : مع قرنائهم من الشياطين ، وروى عن الضحاك وهو قول مقاتل - أيضا - : فيحشر كل كافر مع شيطانه فى سلسلة ، كما يحشرون مع مايعبدون من دون الله من الأصنام والأوثان ونحوها مما لايعقل ؛ لأن الحديث عن المشركين عبدة ذلك . وحشرهم معها لزيادة التحسير والتخجيل .

(فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ) أى : فعرفوهم طريق النار ، ودلوهم عليه ، والجحيم : طبقة من طبقاتها شديدة الاشتعال . والتعبير بالهداية للتهكم .

٢٤ ـ (وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ) :

أى : احبسوهم فى الموقف إنهم مسئولون عن شركهم وخطاياهم ، وهذا الحبس يكون للحساب قبل السوق إلى الجحيم وبعده يساقون إلى النار ، ونص الآية يؤذن بأن هذا الموقف ليس للعفو عنهم ولا ليستريحوا بتأخير العذاب ، بل ليسألوا عن أعمالهم وأقوالهم وأفعالهم .

وظاهر الآية : أن الحبس للسؤال بعد هدايتهم إلى طريق الجحيم ، بمعنى تعريفهم إياه ، ودلالتهم عليه ، لابمعنى إدخالهم فيه.

٢٥ ـ (مَالَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ) :

المعنى : يقال لهم ـ على جهة التقريع والتوبيخ ـ : مالكم لاينصر بعضكم بعضا فيمنعه من عذاب الله كما كنتم تزعمون فى الدنيا .

وقيل : هذه الآية إشارة إلى قول أبى جهل يوم بدر : نحن جميع منتصر .

والسؤال عن هذا فى موقف المحاسبة بعد استيفاء حسابهم ، والأمر بهدايتهم إلى الجحيم كما قيل : وتأخير السؤال إلى هذا الوقت ؛ لأنه وقت تنجيز العذاب ، وشدة الحاجة إلى النصرة ، وحالة انقطاع الرجاء عنها بالكلية ، والتوبيخ والتقريع حينئذ أشد وقعا وتأثيرا . والخطاب لهم ولآلهتهم أولهم فحسب .

٢٦ ـ (بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ) أى : منقادون ، وقال قتادة : مستسلمون لعذاب الله ـ عز وجل ـ بمعنى أن كلهم مستسلم غير منتصر .

(وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾)

المفردات :

(يَتَسَآءَلُونَ) : يتخاصمون بطريق الجدال .

(تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ) أى : تمنعوننا بقوة وغلبة وقهر ، أو تأتوننا من جهة الخير فتنهوننا عنه ، وتمنعوننا منه ـ قاله قتادة .

(مِّن سُلْطَانٍ) أى : من حجة فى ترك الحق .

(قَوْماً طَٰغِينَ) أى : مجاوزين الحد فى الضلال .

(فَأَغْوَيْنَاكُمْ) أى : زينا لكم ماكنتم عليه من الكفر .

(غَاوِينَ) : بالوسوسة لكم . (بِالْمُجْرِمِينَ) : بالمشركين .

التفسير

٢٧ ـ (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ) :

المعنى : وأقبل الرؤساء المُضِلُّون والأتباع المُضَلُّون . أو الكفرة من الإنس وقرناؤُهم

من الجن -أقبلوا- يتخاصمون ، أى : يسأل بعضهم بعضا بطريق الخصومة والجدال ، ويوبخه فى أنه أضله وفتح له بابا واسعا من المعصية .

٢٨ - (قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ) :

استئناف بيانى ، كأنه قيل : كيف يتساءلون ؟ فقيل : قالوا - أى الأتباع للرؤساء أو الكل للقرناء - : «إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ» .

والمعنى : إنكم كنتم تأتوننا فى الدنيا عن اليمين ، أى : عن اليمن والخير ، وتزعمون لنا أن ماأنتم عليه خيرٌ ودين حق ، فترغبوننا فيه ، وتهونون علينا أمر شريعة الحق ، وتنفروننا منها ، فتبعناكم فهلكنا ، ولشرف اليمين جاهلية وإسلاما ، دنيا وأخرى ، استعيرت لجهة الخير .

أو : تأتوننا عن اليمين بمعنى القوة والقهر ، واليمين تستعمل مجازاً عن القوة ؛ لأن بها يقع البطش ، أى : إنكم تحملوننا على الضلال وتقسروننا عليه .

أو : تأتوننا عن اليمين بمعنى الحلف . بمعنى أنهم كانوا يوالونهم مقسمين عليهم بأن ماهم عليه من الكفر هو الحق الذى يجب اتباعه .

٢٩ - (قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ) :

استئناف . أى : قال الرؤساء أو القرناء - فى جوابهم بطريق الإضراب - : بل أبيتم أنتم الإيمان وأعرضتم عنه ، فأنتم لم تكونوا مستعدين للإيمان ، حيث أعرضتم عنه مع تمكنكم منه . مختارين غير ملجئين . وآثرتم عليه الكفر ، فلم تكونوا قابلين للإيمان قط حتى ننقلكم من استعدادكم للإيمان إلى الكفر بل كنتم على الكفر فأقمتم عليه متمسكين به للإلف والعادة .

٣٠ - (وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْماً طَٰغِينَ) :

أى : وما كان لنا عليكم من قهر وتسلط ، أو حجة على ترك الحق نسلبكم بهما اختياركم ، وتمكنكم من الإيمان ، بل كنتم وفق طبيعتكم قوما مجاوزين الحد فى العصيان ،

مختارين له ، مصرين عليه دون إجبار ، وإنما دعوناكم إلى الضلال فأجبتم لموافقة هواكم لما دعيتم إليه .

٣١- (فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ) :

ذلك - أيضا - من قول المتبوعين، وهو تفريع على ماتقدم من عدم إيمان المتخاصمين ، وكونهم قوما طاغين فى حد ذاتهم . أى : وجب علينا وعليكم قول ربنا : (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ) فكلنا ذائقو العذاب الذى ورد به الوعيد .

فكأنهم قالوا : ولأجل أننا جميعا لم نكن مؤمنين ، وكنا قوما طاغين ، وثبت علينا وعيد ربنا بأنا ذائقون لامحالة لعذابه - عز وجل - .

٣٢- (فَأَغْوَيْنَـٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَـٰوِينَ) :

أى : فدعوناكم إلى الغواية ، وزينا لكم ماكنتم عليه من الكفر ، فاستجبتم لنا باختياركم ،واستحبابكم الغى على الرشد .

(إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ) جملة مستأنفة لتعليل ماقبلها ، أى : إنما أغويناكم لتكونوا مثلنا فى الغواية - والمراد الكفر - وهذا كقولهم : « رَبَّنَا هَـٰؤُلَآءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا [1] » .

٣٣- (فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ) :

المعنى : أن الفريقين المتسائلين - المضِل والمضَل - يوم إذ يتساءلون . وهو يوم القيامة هم فى العذاب الذى استحقوه مشتركون . كما كانوا مشتركين فى الكفر والغواية ، واستظهر أن المغوين أشد عذابا لإغوائهم لغيرهم مع ضلالهم ، فالشركة لاتقتضى المساواة .

---

(١) سورة القصص ، من الآية : ٦٣

٣٤ـ (إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ) :

أى : إنا مثل ذلك الفعل الدال على الحكمة التشريعية نفعل بأُولئك المتناهين فى الإجرام وهم المشركون فى عهد الإسلام كما يشير إليه التعليل بقوله ـ تعالى ـ :

٣٥ـ (إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ) :

أى : إنا مثلَ ذلك العذاب نفعل بالمشركين المتخاصمين من أُمتك يا محمد؛ لأَنهم كانوا إذا قيل لهم : لا إلٰه إلا الله ـ بطريق الدعوة والتلقين ـ يستكبرون عن القبول ، ومن ذلك ماروى أن النبى ﷺ لما قال لأَبى طالب ـ عند موته ـ واجتماع قريش حوله : قولوا : لا إلٰه إلا الله تملكوا بها العرب ، وتدين لكم العجم ، أَبَوا وأَنِفُوا من ذلك . وقال أَبو هريرة عن النبى ﷺ أنزل الله فى كتابه . فذكر قوما استكبروا . فقال : إنهم كانوا إذا قيل لهم : لا إلٰه إلا الله يستكبرون . وقد استكبر عنها المشركون يوم الحديبية ، يوم كاتبهم رسول الله ﷺ على قضية المدة ، ذكر هذا الخبر البيهقى . والذى قبله القشيرى [1] .

(وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾)

المفردات :

(لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ) : يعنون محمدا ﷺ وقد كذبوا ، فما هو بشاعر ولا مجنون .

(بَلْ جَآءَ بِالْحَقِّ) : جاء بالتوحيد .

(إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ) : الذين أَخلصهم الله لطاعته .

(١) تفسير الإمام القرطبى .

التفسير

٣٦ - (وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ) :

يعنون بذلك - قبحهم الله - النبي ﷺ . وقد جمعوا بين إنكار الوحدانية وجحد الرسالة . أى : أنحن تاركو عبادة آلهتنا وآلهة آبائنا لقول شاعر مجنون ؟ والاستفهام للاستبعاد ، فرد الله - عز وجل - عليهم بقوله :

٣٧ - (بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ) :

تكذيبًا لهم ، ببيان أن ما جاء به رسول الله ﷺ من التوحيد هــو الحق الذى قام عليه البرهان ، وأجمع عليه كافة الرسل - عليهم الصــلاة والسلام ، وصدقهم ﷺ فيما أخبروا عن الله من الصفات الحميدة ، والمناهج السديدة ، وأخبر - عليه الصلاة والسلام - فى شرعه وأمره كما أخبروا قال الله - سبحانه -: « مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ[1] » .

٣٨ - (إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ) :

المعنى : إنكم لذائقو العذاب المؤلم بما كان منكم من الإشراك وتكذيب الرسل والاستكبار ، والالتفات إلى الخطاب لإظهار كمال الغضب عليهم بمشافهتهم بهذا الوعيد وعدم الاكتراث بهم وهو اللائق بالمستكبرين .

٣٩ - (وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) :

أى : وما تجزون إلا بما عملتم من الضلال والشرك ، لايزاد عليه ولاينقص منه ، والآية تشير إلى أن ذوقهم العذاب ليس إلا من جهتهم لامن جهة غيرهم أصلا .

٤٠ - (إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ) :

أى : إنكم أيها المجرمون لذائقو العذاب الأليم . لكن عباد الله المخلصين الذين أخلصهم الله لطاعته لايذوقون العذاب ولا يناقشون الحساب ، وإنما يجزون بالثواب أضعافا مضاعفة

(١) سورة فصلت من الآية : ٤٣

بالنسبة لأعمالهم ، فيجزون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، إلى ماشاء الله من التضعيف ، ويراد بهم على قراءة المخلصين ـ بكسر اللام ـ عباد الله الذين أخلصوا له العبادة .

(أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾)

المفردات :

(رِزْقٌ مَّعْلُومٌ) أى : عطية معلومة الخصائص .

(عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ) أى : لا ينظر بعضهم فى قفا بعض . وإنما ينظر فى وجهه تواصلا وتحاببا .

(بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ) أى : بخمر من نهر ظاهر للعيون .

(لَا فِيهَا غَوْلٌ) : لاتغتال عقولهم وصحتهم .

(وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ) أى : ولا هم بسببها يسكرون . يقال : نُزِفَ الرجلُ ينزَف فهو منزوف ونزيف: إذا سكر .

(قَٰصِرَٰتُ الطَّرْفِ عِينٌ) أى : يقصرن أبصارهن على أزواجهن فـلا ينظرن إلى غيرهم . وعين : جمع عيناء . وهى شديدة بياض العين شديدة سوادها . وقال السُّدىُّ ومجاهد : «عين » : حسان العيون .

(كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ) أى : بيض مصون عن الريح والغبار حيث تكنّه النعامة أو الفرخة بريشها .

التفسير

٤١ ـ (أُوْلَـٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ) أى : لهم رزق معلوم الخصائص ككونه غير مقطوع ولا ممنوع عن النظر ، لذيذ الطعم طيب الرائحة إلى غير ذلك من الصفات المرغوبة ، أو معلوم الوقت لقوله ـ تعالى ـ : « وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا » .

٤٢ ـ ٤٤ ـ (فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ * فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ * عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ) أى : إن الرزق المعلوم مع تميزه بخصائصه ـ كله فواكه ـ والمراد بها : ما يؤكل لمجرد التلذذ دون الاقتيات وجميع ما يأكله أهل الجنة كذلك حتى اللحم ، لكونهم مستغنين عن القوت ، لأن خِلْقتهم محكمة محفوظة من التحلل المحوج إلى البدل ، والمراد بالفواكه : الثمار كلها رطبها ويابسها : قاله ابن عباس ، (وَهُم مُّكْرَمُونَ) عند الله ـ عز وجل ـ برفع الدرجات وسماع كلامه لا يلحقهم هوان ، وذلك أعظم المثوبات وأليقها بأولى الهمم ، وهل فى هذا إشارة إلى النعيم الروحانى بعد النعيم الجسمانى الذى يأتى به الأكل .

وقيل : مكرمون فى نيل رزقهم حيث يصل إليهم بغير تعب وسؤال ، بخلاف رزق الدنيا ، ورزقهم هذا (فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ) وإضافة الجنات إلى النعيم على معنى لام الاختصاص المفيدة للحصر ، أى : فى جنات ليس فيها إلا النعيم ، وهم على سرر يقابل بعضهم بعضا للاستئناس والمحادثة ، والأسرة تدور بهم كيف شاءوا تواصلا وتحاببا بالنظر إلى الوجوه .

٤٥ ـ ٤٧ ـ (يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ * لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ) :

استئناف لبيان ما يكون فى مجالس أنسهم من شرابهم بعد ذكر مطاعمهم ، والكأس فى اللغة : الإناء وفيه شرابه ، فإن كان فارغاً يقال : إناء أو قدح ، وتطلق ـ أيضاً ـ على

الخمر مجازا ، وهو المراد هنا ، والمعين : الماء الجارى الظاهر للعيون ، وكذلك تجرى الخمر فى الجنة كما قال - تعالى - : (وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ) .

ولم تعين هذه الآية من يطوف عليهم بالكأس ، وقد بين الله الطائفين فى قوله تعالى : (يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ) وقوله : (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ) كما بينت السنة الصحيحة : أن أطفال المشركين ممن يطوف على أهل الجنة ، لخدمتهم .

وقد وصفت بأنها بيضاء ، وبأنها لذة لشاربيها ، ولتمام لذتها وصفت بها فكأنها نفس اللذة وعينها مبالغة .

وهى لاغائلة فيها ، فلا تؤثر فى شاربيها باغتيال عقولهم كما فى خمر الدنيا ، من غاله يغوله : إذا أفسده وأهلكه . والمراد هنا : نفى أن يكون فيها ضرر أصلا (وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ) أى : يسكرون ، كما روى عن ابن عباس وغيره ، من نُزِف[1] الشارب إذا سكر ، ويقال للسكران : نزيف ومنزوف ، وعدى الفعل بعن بمعنى باء السببية ،أى :ولاهم بسببها يسكرون ،وأفرد هذا الفساد بالنفى مع اندراجه فيما قبله من نفى الغَوْل عنها ، لأنه من عظم فساده كأنه جنس برأسه ، وصرْفُ الله السُّكرعن أهل الجنة ، لئلا ينقطع الالتذاذ عنهم .

٤٨ ، ٤٩ - (وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ . كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ) : المعنى : وعندهم نساء عفيفات قد قصرن طرفهن على أزواجهن ، فلا ينظرن إلى غيرهم : قاله ابن عباس ، ومجاهد ، ومحمد بن كعب وغيرهم ، كناية عن فرط محبتهن لأزواجهن ، وعدم ميلهن إلى سواهم . وقيل :المعنى : ذابلات الجفن مِراضُه ، وما أجمل ذبول الأجفان فى النساء وقد كثر التغزل بذلك قديماً وحديثاً ومنه قول ابن الأزدى :

مَرِضَت سَلْوَتِى وَصَحَّ غرامى من لحاظ هُنَّ المِراضُ الصحاح

ويجوز أن يكون المعنى : قاصرات طرف أزواجهن عن التجاوز إلى سواهن لغاية حسنهن وهن « عين » جمع عيناء ،وهى :الواسعة العين فى جمال . وقال الحسن : العين : الشديدات بياض العين الشديدات سوادها ، ولصونهن من كل أذى شبهن بالبيض المكنون ، وحمله الجمهور

---

(١) بضم النون وكسر الزاى - على صيغة المبنى للمجهول .

على بيض النعام ؛ لأنه أجمل أنواع البيض لوناً وفيه صفرة قليلة تُحَب في النساء . ومعنى أنه بيض مكنون : أن النعام تكنه بريشها من الريح والغبار . وقيل المكنون : المصون عن الكسر ، أي : أنهن عذارى . وقيل : المراد بالبيض اللؤلؤ كقوله تعالى : « وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُوِ الْمَكْنُونِ »[1] أي المصون : في أصدافه قاله ابن عباس ، إلى غير ذلك من أقوال وكلها تدور حول الإشادة بحسنهن .

(فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١))

المفردات :

(فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ) : يتفاوضون فيما بينهم بأحاديثهم في الدنيا وهو من تمام الأُنس في الجنة .

(كَانَ لِي قَرِينٌ) أي صديق : ملازم .

(أَءِنَّا لَمَدِينُونَ) : مجزيون محاسبون بعد الموت .

(فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ) : في وسطها ، وسمى الوسط سواء لاستواء المسافة منه إلى الجوانب

---

(١) سورة الواقعة ، الآيتان : ٢٢ ، ٢٣

(إن كِدتَّ لَتُرْدِينِ) أى : لتهلكنى إن أطعتك ، والردى : الهلاك .

(لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ) أى : لكنت مثلك من المحضرين إلى سواء الجحيم حيث أنت .

التفسير

٥٠ - (فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ) :

معطوف على « يُطَافُ عَلَيْهِمْ » أى : يطاف عليهم بالشراب ، فيقبل بعضهم على بعض ، يتساءلون عن الفضائل والمعارف وعما جرى لهم وعليهم فى الدنيا ، وما أحلى تذكر ما فات عند رفاهية الحال وخلو البال .

٥١ - (قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ) أى : قالَ قائل من أهل الجنة فى تضاعيف محاورتهم : إنى كان لى ملازم ومصاحب من شأنه ما حكاه الله بقوله :

٥٢ -(يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ) : يقول لى فى الدنيا على طريق التوبيخ : أءنك لمن المصدقين ، أى : بالبعث كما ينبىء عنه قوله سبحانه :

٥٣ - (أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ) :

أى : لمبعوثون ومجزيون؟من الدِّين بمعنى الجزاء ، وهذا منه إنكار واستبعاد لوقوع البعث والجزاء بعد الموت ، وبعد أن صار الجسد تراباً وعظاماً نخرة .

قال أبو السعود : قيل : كان رجل تصدق بماله لوجه الله فاحتاج فاستجدى بعض إخوانه فقال له : أين مالك ؟ قال : تصدقت به ليعوضنى الله - تعالى - فى الآخرة خيراً منه. فقال : أئنَّك لمن المصدقين بيوم الدين؟ والله لا أُعطيك شيئاً : فيكون التعرض لذكر موتهم وكونهم تراباً وعظاماً حينئذ لتأكيد إنكار الجزاء المبنى على إنكار البعث .

٥٤ - (قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ) : هذا من قول الله لأهل الجنة، وقيل : القائل بعض الملائكة ، وقيل : هو من قول المؤمن لإخوانه فى الجنة بعد ماحكى لهم مقالة قرينه فى الدنيا يقول لهم : هل أنتم مطلعون إلى أهل النار ، لأُريكم ذلك القرين ، يريد بذلك صدقه فيما حكاه ، وعلى أن القائل هو الله أو بعض الملائكة يكون المعنى : هل تحبون أن تطلعوا على أهل النار لأُريكم ذلك القرين ، فتعلموا منزلتكم من منزلتهم ؟

٥٥ ـ (فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَآءِ الْجَحِيمِ) :

فاطلع المسلم على أهل النار تلبية للعرض أو الأمر فرأى قرينه وسط الجحيم ، قال كعب فيما ذكر ابن المبارك : إن بين الجنة والنار كُوًى فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدو كان له فى الدنيا اطلع من بعض الكوى .

٥٦ ـ (قَالَ تَاللهِ إن كِدتَّ لَتُرْدِينِ) :

قال القائل لقرينه :إن كدت لتهلكنى بالإغواء وبما تزينه لى من عدم تصديق الوعيد بالبعث والحساب والجزاء .

٥٧ ـ (وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ) :

أى : ولولا العصمة والتوفيق فى الاستمساك بعروة الإسلام لكنت من الذين أُحضروا العذاب كما أُحضرت أنت وأمثالك .

٥٨ ، ٥٩ ـ (أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) :

رجوع إلى محاورة جلسائه بعد إتمام الكلام مع قرينه ابتهاجاً بما آتاه الله من الفضل العظيم ، وتقريعا للقرين بالتوبيخ .

والمعنى : أنحن مخلدون منعمون فما نحن بميتين ولا معذبين ، والهمزة للتقرير وفيها معنى التعجب والفرح ، ويراد أن حال المؤمنين ألا يذوقوا إلا الموتة الأُولى فهم فى الجنة أحياءٌ حياة دائمة لا يعتريها فناء ، بخلاف الكفار فإنهم يتمنون فى موقفهم الموت كل ساعة ، وقيل لحكيم : ما شر من الموت؟ قال : الذى يتمنى فيه الموت ،وهذا قول يقوله المؤمن تحدثا بنعمة الله بمسمع من قرينه ، ليكون تعذيباً لهذا القرين ، وزيادة فى توبيخه ، وقيل : هو قول يقوله أهل الجنة للملائكة يقولونه اغتباطاً وفرحاً .

(وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) هذه الجملة تفيد استمرار نفى العذاب وتأْكيده ،واستمرار نفيه نعمة عظيمة مستوجبة للتحدث بها ، وذلك مفض إلى نفى زوال نعيمهم المحكى فى قوله تعالى : « أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ » الآيات ، واختير التعرض لاستمرار نفى العذاب دون إثبات استمرار النعيم ؛ لأن نفى العذاب أسرع خطورا ببال من لم يعذب عند مشاهدة من يعذب ، وقيل : درءُ الضرر أهم من جلب المنفعة .

٦٠ - (إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) :

هذا من تتمة قول القائل : (أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ) وجوز أن يكون من كلامه - تعالى - قاله - سبحانه - تصديقاً لقول ذلك القائل ، وتقريرا له مخبرا به - جلّ وعلا - حبيبه ﷺ وأمته ، والتأكيد للاعتناء بشأن الخبر .

٦١ - (لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ) :

أى :لنيل مثل هذا الأمر الرفيع ينبغى أن يعمل العاملون لا للحظوظ الدنيوية السريعة الزوال المشوبة بفنون الآلام ، وهذا الكلام من قول الله - عز وجل - لأهل الدنيا . أى : قد سمعتم مافى الجنة من الخيرات والجزاء و (لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ) .

(أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾)

المفردات :

(أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا) النزل : ما يُقَدَّم للنازل من الرزق .

(أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ) الزقوم : شجر مُرٌّ يكون بتهامة ، سميت به الشجرة الموصوفة وهى صغيرة الورق كريهة الرائحة .

(فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ) : محنة وعذاباً لهم فى الآخرة . وابتلاءً لهم فى الدنيا .

(طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَٰطِينِ) أى : ثمرها كأنه فى تناهى الكراهة وقبح المنظر رءوس الشياطين ، والعرب تشبه القبيح الصورة بالشيطان أو رأس الشيطان أو وجهه .

(لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ) أى : لشراباً ممزوجاً من ماءٍ شديد الحرارة يقطع أمعاءهم ، قال الفراء : شابَ طعامه وشرابه : إذا خلطهما بشيء يشوبهما .

(ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ) أى : إن مرجعهم ومردهم إلى دركات جهنم بعد أن ذهب بهم من مقارهم فيها إلى شجرة الزقوم ليأكلوا منها ويملأوا بطونهم .

التفسير

٦٢ - (أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ) :

ذلك من كلامه - عز وجل - عند الأكثرين لا من كلام القائل ، وهو متعلق بقوله - تعالى - : (أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ) :

والمعنى : أذلك الرزق المعلوم الذى حاصلهُ اللذة والسرور ، خير نزلا وطعاما أم شجرة الزقوم التى حاصلها الهم والغم ، ويراد من التفاضل بين النزلين التوبيخ والتهكم ، وهو أسلوب كثير الورود فى القرآن الكريم ،ومعنى ذلك : أن الرزق المعلوم اللذيذ نزل أهل الجنة الذى يقدم لهم ، وأهل النار نزلهم شجرة الزقوم ، فأيهما خير نزلًا ؟ .

٦٣ - (إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ) :

أى :جعلنا شجرة الزقوم محنة وعذاباً لهم فى الآخرة ، وابتلاءً لهم فى الدنيا ، فإنهم لما سمعوا أنها فى النار قالوا : كيف يمكن ذلك والنار تحرق الشجر؟ ولم يعلموا أن إبراهيم -عليه السلام - أُلقى فى النار ولم تحرقه ، فالله أقدر على خلق الشجر فى النار ، وحفظه من الاحتراق ، فالنار لا تحرق إلا بإذنه ومشيئته . على أنه لا يستحيل فى العقل أن يخلق الله فى النار شجرًا من جنسها لا تأكله النار ، كما يخلق الله فيها الحيات والعقارب وخزنة النار . واختلف فى شأنها على قولين :

الأول : أنها معروفة من شجر الدنيا يعرفها العرب بتهامة من أخبث الشجر وأقبحه منظرا وطعماً .

والثانى : أنها لا تعرف فى شجر الدنيا ، فلما نزلت هذه الآية قال كفار قريش :ما نعرف هذه الشجرة .

٦٤ - (إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ الْجَحِيمِ) :

أى : منبتها فى قعرها ، وأغصانها ترتفع إلى دركاتها .

٦٥ - (طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَٰطِينِ) :

أى : ثمرها كأنه لقبحه وهوْلِه شبيه برءُوس الشياطين ، وهى وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين إلا أنه قد استقر فى النفوس أن الشياطين شديدة القبح ومن ذلك قولهم لكل قبيح : هو كصورة الشيطان ، ولكل حسن : هو كصورة ملك ، كما يتصورون صورة للغول وإن كانت لا تعرف ، ومنه قول امرىء القيس :

أتقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وقيل : الشياطين : الحيات الهائلة القبيحة المنظر لها أعراف ، وقيل : إن شجراً - يقال له : الأستن - خشنا منتنا مرًّا منكر الصورة يسمى ثمره رءُوس الشياطين ، ولا حرج على قدرة الله - تعالى - أن ينبت هذا النوع من الشجر فى أصل الجحيم بأن يجعل فى تركيبه (كيمياء خاصة) تمنع احتراقه بالنار ، وتجعل النار غذاء له ، وكم لله من عجائب منها : أن الله - تعالى - جعل النار على إبراهيم بردًا وسلاماً . - كما تقدم ذكره -

٦٦ - (فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ) :

أى : فمن شجرة الزقوم طعامهم وفاكهتهم بدل رزق أهل الجنة يأكلون منها أو من ثمرها ، فيملأون البطون لغلبة الجوع ، أو لقهرهم على أكلها وإن كرهوها ، لأنهم لا يجدون إلَّا إياها أو نحوها ، كما قال - تعالى - : (لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ * لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ)

٦٧ - (ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ) :

أى : ثم إن لهم على أكلها لشرابا مزج بالحميم تعذيباً لهم .

٦٨ - (ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ) :

أى : إن مرجعهم لإلى مقرهم من النار ؛ فإن فى جهنم مواضع أُعد فى كل موضع منها نوع من البلاء ، فالقوم يخرجون من مقارهم فى النار ، إلى موضع آخر فيه ذلك الشراب المشوب بالحميم ، ثم يردون إلى دركاتهم ، وهذا الحميم فى موضع آخر من جهنم خارج عن مقرهم . وقيل : خارج عنها لقوله - تعالى - : (هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ)[1] .

وكأن بين خروج القوم للشراب وعودهم إلى مساكنهم زماناً غير يسير يتجرعون فيه ذلك الشراب ، ولذلك جىء بلفظ ثم ، وهو فى مقابلة مالأهل الجنة من شراب ، وفيه يقول سبحانه : (وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ . عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ[2]) والمدلول عليه بقوله تعالى : (يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ) إلخ . كما أن الزقوم فى مقابلة مالهم من الفواكه .

(إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾)

المفردات :

(إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَالِّينَ) أى : وجدوهم وصادفوهم بعيدين عن الحق .

(يُهْرَعُونَ) أى : يسرعون كهيئة الهرولة ، وقيل : الإسراع الشديد .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ) أى : رسلا أنذروهم العذاب فكفروا .

(عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ) أى : نهاية الذين أُنذروا وحذِّروا وهى إهلاكهم لكفرهم .

---

(١) الرحمن الآية ٤٣ ، ٤٤ (٢) سورة المطففين ٢٧ ، ٢٨

التفسير

٦٩ ، ٧٠ ـ (إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ * فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ) :

تعليل لاستحقاقهم ما ذكر من فنون العذاب ، بتقليد الآباء فى أصول الدين من غير أن يكون لهم ولا لآبائهم شىء يستمسك به أصلا ، أى : صادفوهم ضالين فى نفس الأمر ، ليس لهم ما يصلح شبهة ، فضلا عن صلاحية كونه دليلا ، وكانوا فى اتباعهم آباءهم مسرعين إسراعاً شديدًا ، كأنهم يُحَثُّون على ذلك حثاً ، وقد فعلوا ذلك من غير أن يثبت لديهم أن آباءهم محقون فى حين أنهم على الباطل بأدنى تأمل .

٧١ ، ٧٢ ـ (وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ *) :

أى : ولقد ضل قبل هؤلاء الظالمين وهم قريش ـ ضل قبلهم ـ أكثر الأولين من الأمم السابقة ، حيث جعلوا مع الله آلهة أخرى ، وهو جواب قسم مقدر ، وكذا قوله تعالى : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ) أى : والله لقد أرسلنا فى الضالين عددًا كثيرًا من الأنبياء بينوا لهم بطلان ما هم عليه . وأنذروهم ، وحذروهم عاقبته الوخيمة التى يصيرون إليها وهى النكال الشديد والعذاب الأليم ، وتكرير القسم فى الآيتين لإبراز كمال الاعتناء بتحقيق مضمونهما .

٧٣ ـ (فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الْمُنذَرِينَ) :

من الهول والفظاعة حيث لم يلتفتوا إلى الإنذار ، ولم يتأثروا به ، ويرفعوا له رأساً ، فأهلكهم الله ودمرهم ونجى المؤمنين ونصرهم .

والخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل أحد يتمكن من مشاهدة آثارهم ، ولما كان المعنى أنهم أهلكوا هلاكاً فظيعاً استثنى منهم المخلصين بقوله ـ تعالى ـ :

٧٤ ـ (إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ) :

وهم الذين استخلصهم الله من الكفر للإيمان والعمل الصالح ، بموجب الإنذار ، أو الذين أخلصوا لله دينهم على القراءتين بفتح اللام وكسرها ، فهو استثناء من المنذرين فى الآية السابقة ، أو استثناء من قوله ـ تعالى ـ : (وَلَقَد ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ) .

(وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾)

المفردات :

(وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ) من النداء : وهو الاستغاثة .

(وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ) أى : أهل دينه .

(مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ) أى : الغرق ، أو الغم الشديد : على ما قاله الراغب .

(وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الْآخِرِينَ) أى : تركنا عليه ثناءً حسناً فى كل أمةٍ لأنه محبب إلى جميع الأديان .

التفسير

٧٥ - (وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ) :

لما ذكر -تعالى- عن أكثر الأولين أنهم ضلوا عن سبيل النجاة ، شرع يبين ذلك مع نوع تفصيل لما أجمل من قبل ، ببيان أحوال بعض المرسلين وحسن عاقبتهم ، مع بيان سوء عاقبة بعض المنذرين ، كقوم نوح - عليه السلام - وحسن عاقبة بعضهم الذين أخلصهم الله لطاعته ، كقوم يونس - عليه السلام - .

والقصص التى شرع فى بيانها هى : قصص نوح ، وإبراهيم ، وإسماعيل ، وموسى وهارون ، وإلياس ، ولوط ، ويونس -عليهم السلام- وفيها عبر بالغة ،وإنذار وتهديد لقريش ، وتسلية للرسول ﷺ .

وقدم الحديث عن قصة نوح لسبقه المذكورين جميعًا. ومعنى الآية: أن نوحا ـ عليه السلام ـ: نادى ربه نداء استغاثة متضمنا الدعاء على كفار قومه، وسؤال النجاة، وطلب النصرة، حين أيس من إيمانهم بعد أن دعاهم أحقابًا ودهورًا، فقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا فلم يؤمن معه إلا القليل، وكان كلما دعاهم ازدادوا نفرة وتكذيبًا « فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ »[1] فغضب الله لغضبه عليهم، ولهذا قال: (وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ) أى: فوالله لنعم المجيبون نحن حيث أجبناه أحسن إجابة، ونصرناه على أعدائه، فانتقمنا منهم بأبلغ ما يكون، وفيه من تعظيم الإجابة ما فيه.

وأخرج ابن مردويه: عن عائشة ـ رضى الله تعالى عنها ـ قالت: كان النبى ﷺ إذا صلى فى بيتى فمرَّ بهذه الآية (وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ) قال: صدقت ربنا أنت أقرب من دُعى، وأقرب من بُغى فنعم المدعو، ونعم المعطى، ونعم المسئول ونعم المولى أنت ربنا، ونعم النصير.

٧٦ ـ (وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ):

أى: ونجينا نوحًا وأهله وهم من آمن معه وأولاده ـ نجيناهم ـ من الغرق، والغمّ الشديد.

٧٧ ـ (وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ):

أى: ضمنا لذريته وحدهم البقاء، فجميع البشر بعده من أحفاده. « ربِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا »[2]

قال ابن عباس: لما خرج نوح من السفينة مات من معه من الرجال والنساء إلا ولده ونساءه فذلك قوله: (وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ)

وقال سعيد بن المسيب: كان ولد نوح ثلاثة والناس كلهم من ولده.

فسام أبو العرب، وفارس، والروم، واليهود، والنصارى.

وحام: أبو السودان من المشرق إلى المغرب، والسند، والهند، والزنج، والحبشة، والبربر وغيرهم.

(١) سورة القمر، آية: ١٠ (٢) سورة نوح، من الآية: ٢٦

ويافث : أبو الترك ، ويأجوج ، والصقالبة .

والأكثر على أن الناس كلهم فى مشارق الأرض ومغاربها من ذرية نوح - عليه السلام - ولذا قيل له : آدم الثانى ، واستدل على ذلك بهذه الآية .

وقال قوم : كان لغير ولد نوح - أيضاً - نسل بدليل قوله -تعالى- : « ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ »(١)

وقوله : « قِيلَ يَا نوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ »(٢) فعلى هذا يكون معنى الآية : وجعلنا ذريته هم الباقين دون ذرية من كفر ، فإنا أغرقنا أولئك ، ذكر ذلك القرطبى ، والراجح الأول لحصر البقاء فى ذريته صراحة فى قوله-تعالى- : (وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ) .

٧٨ - (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الْآخِرِينَ) :

أى : تركنا عليه ثناءً حسنًا فى الباقين من الأمم إلى نهاية الدهر . وهذا الثناء أشار إليه قوله : - تعالى - :

٧٩ - (سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِى الْعَٰلَمِينَ) :

هذا الكلام وارد على الحكاية ، وهو محكى بتَرَك من قوله (وتركنا . .) فى موضع نصب بها على ماقاله الفراءُ وغيره من الكوفيين ، أى تركنا عليه هذا الكلام بمعناه ، والمراد أبقينا له دعاءَ الناس وتسليمهم عليه أُمة بعد أُمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وقيل : هذا سلام من الله - عزَّ وجل - لا من الآخرين ، ومفعول تركنا مقدر ، أى : تركنا عليه الثناء الحسن وأبقيناه له فيمن بعده إلى آخر الدهر ، وجملة « سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ » مفعول لقول مقدر على ما ذكر الخفاجى ، أى : وقلنا : سلام إلى آخره (فِى الْعَٰلَمِينَ) : من تتمة الجملة السابقة . جيء به للدلالة على الاعتناء التام بثبات هذا الدعاء واستمرار هذه التحية أبدًا فى العالمين ، من الملائكة والثقلين جميعًا .

---

(١) الإسراء ، من الآية : ٣

(٢) سورة هود ، من الآية : ٤٨

وقيل: المراد من العالمين الأنبياءُ، إذ لم يبعث بعده نبي إلا أُمر بالاقتداء به، قال الله تعالى: «شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا»[1].

٨٠ - (إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ) :

تعليل لما فعل به - عليه الصلاة والسلام - من التكرمة السنية من إجابة دعائه أحسن إجابة، وإبقاء ذريته، وذكره الجميل وتسليم العالمين عليه إلى آخر الدهر، لكونه من المعروفين بالإحسان الراسخين فيه الذين نجزيهم أحسن الجزاء، ويكون ما وقع له من قبيل مجازاة الإحسان بالإحسان، وإحسانه مجاهدة أعداء الله - تعالى - والدعوة إلى دينه، والصبر الطويل على أذاهم، أى: مثل هذا الجزاء الكامل نجزى العاملين فى الإحسان، أى: نجعل لهم لسان صدق يذكرون به بعدهم بحسب مراتبهم فى ذلك.

٨١ - (إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ) :

تعليل لكونه - عليه السلام - محسنا بخلوص عبوديته، وكمال إيمانه، للدلالة على جلالة الإيمان، وأنه القصارى من صفات المدح والتعظيم.

٨٢ - (ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ) :

أى: المغايرين لنوح - عليه السلام - وأهله، وهم كفار قومه أجمعين. فلم يبق منهم أحد، ولا عين ولا أثر، ولا يعرفون إلا بهذه الصفات القبيحة، وثم للتراخى فى الذكر لا فى الواقع، إذ بقاؤه - عليه السلام - ومن معه متأخر عن الإغراق.

* (وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾)

---

(١) سورة الشورى، من الآية: ١٣

المفردات :

(مِن شِيعَتِهِ) : من أنصاره وأعوانه وأهل دينه الذين على منهاجه .

(بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) : بقلب خالص من آفات القلوب .

(أَئِفْكاً) الإِفْكُ : أسوأُ الكذب والاختلاق .

التفسـير

٨٣ ، ٨٤ – (وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَٰهِيمَ * إِذْ جَآءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ *) :

هذه الآيات شروع فى جانب من قصة إبراهيم بعد الفراغ من قصة نوح–عليهما السلام–

وقصة إبراهيم متعددة الجوانب ، كثيرة الأحداث– وقد جاءت فى سور كثيرة من سور القرآن وكلُّها تعتمد الجانب العقدى أولا ثم تنتقل إلى الغرض الذى اختص بسورته ماعدا ماجاء فى سورة الأَنعام ، فقد اختص بالجانب العقدى والتفكير فى ملكوت السموات والأَرض وخالقهما ومسخِّرهما حتّى خلص بابراهيم – عليه السلام – من هذا إلى توحيد الله ، وتوجيه وجهه إلى الذى فطر السمٰوات والأَرض .

أَما السور الأُخرى التى جمعت بين الكلام على العقيدة والتوحيد وجوانب أُخرى فكثيرة فى القرآن الكريم مع اختلاف فى العرض والتصوير ، والتطويل والتقصير .من ذلك ماجاء فى سورة البقرة من رفع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت ، والاتجاه إلى الله أَن يتقبل منهما وأَن يباركه ، ويبارك ذريتهما .

وما جاءَ فى سورة مريم من حواره مع أَبيه : « إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَالَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْئًا »؟[1] وما انتهى إليه أَمر أَبيه من رفض الإِيمان حتّى اضطر إبراهيم – عليه السلام – إلى اعتزاله .

وماجاءَ فى سورة الأَنبياءِ من تسفيه قومه على عبادة الأَصنام ، وعلى الضلال الذى يعيشون فيه ، وما انتهى إليه أَمره من الكيد للأَصنام ، وتكسيرها ، وكيد قومه له بإلقائه فى النار التى جعلها الله عليه بردا وسلاماً ، وردّ كيدهم عليهم فكانوا هم الأَخسرين .

---

(١) الآية ٤٢ من سورة مريم .

ومن هذا أيضًا ما جاء فى سورة الشعراء حول تبكيت قومه على عبادة من لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر ، ثم يخلص من هذا إلى تعداد نعم الله - تعالى - عليه وعلى عباده ، وفضله فيهم « الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ . . . »[1] . ثم تنتهى هذه الآيات بأصدق دعاء وأخلص تضرع « رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الْآخِرِينَ * وَاجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ . . . » .

ثم تأتى هذه السورة - سورة الصافات - فتوضح محنة الابتلاء وما كان من صدق الأب فى تنفيذ أمر الله ، وما كان من طاعة الابن لأمر ربه ، والرضا بالقضاء حتى تجلى عليهما بكشف البلاء ، وإنزال الفداء .

هذا وقد جاء أسلوب قصة إبراهيم مرتبطًا بقصة نوح - عليهما السلام - لما قيل من أن إبراهيم - عليه السلام - يعتبر آدم الثالث بالنسبة للأنبياء والمرسلين بعده لأنهم من ذريته إلا لوطا ، ومما يزيد فى حسن هذا الارتباط اشتراكهما فى المنحة ونجاتهما فى المحنة : فنوح - عليه السلام - نجاه الله من الغرق ، وإبراهيم نجاه الله من الحرق .

ومعنى : (وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَٰهِيمَ) وإن من شيعة نوح وأنصاره - الذين تابعوه فى أصول الدين ، وسلامة العقيدة . وإخلاص التوحيد لله - لإبراهيم - عليه السلام - فقد اتفقت شريعتهما على توحيد الله ، واختصاصه بالعبادة ، وإن اختلفت فروع شريعتيهما .

وقيل : شايعه فى التصلب فى الدين ، ومصابرة المكذبين ، ونقل هذا عن ابن عباس .

وليس فى الكلام ما يمنع من اجتماع المعنيين معا .

وقوله تعالى : (إِذْ جَآءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) : توقيت وتوضيح للمشايعة ، والمعنى : شايعه حين جاء ربَّهُ ، أى : أقبل على ربه الذى أحسن خلقه وتربيته - جاءه - بقلب سليم خالص من آفات القلوب نَقِىٍّ من العلائق الدنيوية الشاغلة عن العبادة ، والتبتل لله تعالى .

---

(١) الآيات من ٦٩-٨٩ من سورة الشعراء .

وسلامة القلب أهم ما ينبغى أن يتوافر فى المسلم؛ لسلامة أعماله ، وصلاح جميع أحواله .

٨٥، ٨٦، ٨٧ - (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَئِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ *) :

قوله - تعالى - « إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ.. » الآيات بيان وتفسير لقوله - تعالى - : « إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » .

والمعنى : إذ قال إبراهيم لأبيه آزر - منكرًا عليه ، ساخرًا من سلوكه - ما الذى تعبدونه من دون الله ؟

أتريدون - لأسوأ الكذب ، وأقبح الافتراء والسفه - أن تتخذوا آلهة موهومة ، وأصناماً تصنعونها بأيديكم تؤمنون بها ، وتخصونها من دون الله بالعبادة ولو فكّرتم لرأيتم أنكم أشرف منها لأنكم الصانعون ، وهى المصنوعة .

« فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ » أى : فما ظنكم إذ تفعلون هذا الفعل المنكر بمن هو حقيق بالعبادة ، جدير بالتوحيد ؛ لأنه ربُّ العالمين ، وخالقهم ، ومدبر أمورهم حتى تركتم عبادته وحده ، وأشركتم معه غيره من مخلوقاته .

أو فما ظنكم بما يفعل بكم رب العالمين ، وكيف يعاقبكم بعد ما فعلتم من الإشراك به .

(فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾)

المفردات :

(نَظَرَ) : تأمل بعينه .

(سَقِيمٌ) : مريض عليل .

(فَتَوَلَّوْا) : أعرضوا .

(مُدْبِرِينَ) : راجعين .

التفسير

٨٨ - (فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى النُّجُومِ) :

نظر فيها كما كانوا يفعلون فى تعرف أحوالهم ، فأوهمهم من تلك الجهة ، وأراهم من معتقداتهم عذرا لنفسه .

والمعنى : فنظر إبراهيم -عليه السلام- حين دعاه قومه للخروج معهم فى عيدهم للعب واللهو والسمر -نظر فى النجوم - يوهم قومه أنه يستنبئها- ويستطلع الرأى من حركاتها ومطالعها ليريهم عذرا لنفسه فى عدم خروجه معهم فى عيدهم مأخوذا من معتقداتهم .

٨٩ - (فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ) :

أى : فقال إبراهيم حين نظر إلى النجم : إنى مريض عليل ، يقصد أنه مريض القلب من عبادتهم لغير الله -تعالى- ، وإن كان ظاهره الاعتذار عن عدم الخروج معهم لمرضه ، وعلى هذا يكون قوله : إنى سقيم من المعاريض على نحو ما ذكر فى سورة الأنبياء .

وقيل : كانت له -عليه السلام- حُمَّى لها نوبة معينة فى بعض ساعات الليل ، فنظر ليعرف هل هى تلك الساعة ، فإذا هى قد حضرت ، وكان صادقاً فى ذلك ؛ لأن نوبات الحمى لا تتخلف عادة ، قال المتنبى فى شأن الحمى واعتياد أوقاتها :

وزائرتى كأن بها حياء فليس تزور إلا فى الظلام

بذلت لها المطارف والحشايا فعافتها وباتت فى عظامى

٩٠ - (فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ) :

أى : فأعرض قومه عنه وتركوه راجعين خائفين من عدوى المرض مسرعين إلى عيدهم حين أخبرهم بأنه سقيم ، ولوح لهم بالمرض .

وهكذا احتال فى عدم خروجه معهم بما لم يقنعهم بعذره فحسب ، بل بما حملهم على الفرار وإجلاء المكان منهم ليفعل بأصنامهم ما شاء .

(فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾)

المفردات :

(فَرَاغَ إِلَىٰٓ آلِهَتِهِمْ) : مال إليها فى خفية وحيلة .

(بِالْيَمِينِ) : بالقوة والشدة .

(يَزِفُّونَ) : يسرعون . من زف القوم زفيفاً إذا أسرعوا . ومنه زفيف النعام .

التفسير

٩١ ـ (فَرَاغَ إِلَىٰٓ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ) :

أى : فمال إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى خفية وحيلة وتسلل إلى الأصنام التى يتخذونها آلهة بعد أن خلا المكان بخروج القوم إلى عيدهم ، فقال للأصنام ـ استهزاءً بهم ، وسخرية منهم ـ : أَلاَ تأكلون من هذا الطعام المتعدد الأصناف ، المختلف الأنواع الذى نثره حولكم ، ووضعه بينكم هؤلاء السفهاء الجهال فى يوم عيدهم ، جاهلين أنكم أحجار صمٌّ وتماثيل بُكمٌ .

٩٢ ـ (مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ) :

أى : ما الذى دهاكم ، وأى شىء أصابكم وأسكتكم فجعلكم لاتردون جواباً ، ولا تنطقون . وهو سؤال يقصد به المبالغة فى السخرية والاستهزاء .

٩٣ ـ (فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ) :

أى : فمال إبراهيم ـ عليه السلام ـ متسلطاً مستعلياً عليهم متمكناً منهم يضربهم ضرباً

شديدًا أليماً بالغاً أقصى القوة والشدة ؛ لأن اليمين أقوى الجارحتين وأشدهما ،وقوة الأداة تقتضى قوة الفعل وشدته .

وقيل : باليمين معناه بسبب اليمين ووفاءً به ،وهو المذكور فى قوله تعالى : « وَتَاللهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ »[1] :

والمعنى الأول أولى وأوفى بالمقام ،ويتلاقى مع قوله تعالى : « وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ »[2]

٩٤ - (فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ) :

فأقبلوا إلى إبراهيم بعد أن رجعوا من عيدهم فألْفوْا أصنامهم مهشَّمة محطَّمة ، أقبلوا يسرعون فى طلبه والإمساك به ظنا منهم أو يقيناً بأنه هو الذى فعل هذا بها .

(قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾)

المفردات :

(مَا تَنْحِتُونَ) : ما تَبْرونه وتصنعونه بأيديكم .

(الْجَحِيمِ) : النار الشديدة الاتقاد . من الجحمة وهى شدة التأجج .

(كَيْدًا) : مكرًا وسوءا .

(الْأَسْفَلِينَ) : الأذلين المقهورين .

---

(١) الآية ٥٧ من سورة الأنبياء .

(٢) الآية ٤٤ ، ٤٥ من سورة الحاقة ، وأخذه باليمين مجاز عن أخذه بالشدة والقوة .

التفسير

٩٥ - ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ :

قال إبراهيم - عليه السلام - لقومه حين واجهوه بتهمة تحطيم أصنامهم وقالوا له: «أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَاإِبْرَاهِيمُ» [1] قال : أيستقيم منكم ويصح فى عقولكم أن تعبدوا أصناماً نحتموها من الصخر ، وصنعتموها بأيديكم من الحجارة ، ثم تتخذونها آلهة تدعونها رغباً ورهباً من دون الله ، وإنما سألهم ذلك تبكيتا لهم ، وسخرية بهم ، واستخفافاً بعقولهم .

٩٦ - ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ :

هذه الآية من جملة كلام إبراهيم - عليه السلام - والمعنى : أتعبدون ما تنحتون وتتركون عبادة الله الواحد القهار والحال أن الله خلقكم فأحسن خلقكم ، وصوركم فأبدع صوركم ، وخلق هذه الأصنام التى تصنعونها لأن جوهرها ومادتها من خلق الله - تعالى - وأما صورها وأشكالها - وإن كانت من أعمالهم - فهى من إقداره لهم - جل شأنه - وخلق ما يتوقف عليه فعلهم من العدد والأسباب .

خرّج البيهقى من حديث حذيفة ، قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله - عز وجل - خلق كل صانع وصنعته ، فهو الخالق ، وهو الصانع سبحانه» .

٩٧ - ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِى الْجَحِيمِ﴾ :

أى : قال قوم إبراهيم حين انقطعت بهم الحجة ، وأعياهم الجواب المقنع - قالوا - : ابنوا له حائطاً ضخماً ، وبنيانا كبيرا واجمعوا فيه الأحطاب ، وأضرموا فيها النار ، وألقوه فى لهيبها المتقد ، وجحمتها المتأججة عقوبة له على فعلته ، وتخلصا من خطره وسطوته

---

(١) الآية ٦٢ من سورة الأنبياء .

٩٨ - (فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ) :

أى : وأراد قومه بهذا العمل معه كيدا به وإحراقاً له ، فرد الله كيدهم إلى نحورهم ، وجعل النار برهاناً على صدق دعوته وعلو قدره حيث جعلها عليه بردا وسلاماً ، وجعلهم الأذلين المقهورين الأسفلين .

(وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾)

المفردات :

(ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي) : مهاجر إلى حيث أمرنى . أو ذاهب إلى حيث أتجرد لعبادته .

(هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ) : ارزقنى الولد الصالح .

التفسير

٩٩ - (وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ) :

أى : وقال إبراهيم -عليه السلام- بعد أن نجاه ربُّه من كيد قومه ، وجعل النار بردا وسلاماً عليه ، وبعد أن يئس من إيمانهم ، وكره المقام معهم - قال - : إنى مهاجر إلى حيث أمرنى ربِّى - يريد الهجرة إلى الشام - أو إنى مهاجر إلى حيث أتجرد لعبادته ، وأخلص لتقديسه وتسبيحه .

ومعنى سيهدين : سيرشدنى ويوفقنى إلى ما فيه صلاح دينى وراحة نفسى .

وَبَتٌّ القول فى الهداية لسبق الوعد ، أو لفرط توكله ، أو بناء على ما جرت به السوابق معه ولم يكن كذلك حال موسى -عليه السلام- حيث قال : «عَسَى رَبِّى أَن يَهْدِيَنِى

سَوَآءَ السَّبِيلِ »[١] بصيغة الرجاء والتوقع لعدم سبق الوعد معه ، أو لأنه كان بصدد أمر دنيوى فناسبه عدم الجزم .

١٠٠ ـ (رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصَّالِحِينَ) :

هذه الآية اتجاه من إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى ربه وتضرع إليه أن يرزقه من ذريته ما يعينه ، ويجبر ضعفه ، ويشد أزره ، والمعنى : ربِّ ارزقنى بعض الصالحين يعيننى على الدعوة والطاعة ، ويؤنسنى فى الغربة ويواسينى فى الكربة ، يعنى بهذا طلب الولد لأن الهبة عند الإطلاق تخصه غالباً .

١٠١ ـ (فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ) :

هذه الآية صريحة فى أن المبشر به عين ما استوهبه ـ عليه السلام ـ والمعنى : فاستجاب الله دعاء خليله وبشره بغلام حليم ، وانطوت البشارة على بشارات ثلاث :

١ ـ أنه ولد ذكر . ٢ ـ أنه يبلغ ويدرك مدارك الشباب . ٣ ـ أنه يكون غاية فى الحلم ، والخلق والرضا .

وأى حلم يعدل حلمه ـ عليه السلام ـ وقد عرض عليه أبوه أمر ذبحه ، وهو فتى فى عنفوان شبابه وازدهار قوته ، فيقول فى إذعان ورضاً : « يَآ أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِى إن شَآءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ » .

(فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾)

---

(١) من الآية ٢٢ من سورة القصص .

المفردات :

(بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ) : وصل إلى رتبة أن يسعى مع والده فى أعماله ، ويعاونه فى حوائجه .

(تَرَى) أى : تشير وتفكر ، مأخوذ من الرأى .

التفسير

١٠٢ ـ (فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ قَالَ يَا بُنَىَّ إِنِّى أَرَى فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ، قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ) :

جرى الأسلوب فى هذه الآيات على نمط القصص القرآنى بطىِّ ما يقتضيه السياق وحذف ما ترشد إليه أحداث القصة ، والمعنى : وهبنا له هذا الغلام الذى استوهبنا إياه وبشرناه به ، « فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ » أى : فلما اشتد عوده وبلغ رتبة أن يسعى مع أبيه ويعينه فى أعماله ، ويساعده على حوائجه كاشفه بواقع الأمر وصارحه بحقيقته فناداه بإشفاق وتحنن « يَا بُنَىَّ إِنِّى أَرَى فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى » أى : فتأمل هذا الأمر ، وَأَدِرْ فيه رأيك ، وأشر علىَّ بما يستقر عندك .

وإنما شاوره ـ وهو حتم لا خيار فيه ـ ليعلم ما عنده ويهيئه لقبول ما نزل من بلاء الله ـ عز وجل ـ فيثبت قدمه إن جزع ، وليوطن نفسه فيهون الأمر عليه ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر الله ـ تعالى ـ قبل نزوله خوفاً من المفاجأة ، ولتكون سنة فى المشاورة .

« قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ » أى : فأجاب الغلام أباه فى طمأنينة وصدق امتثال : يا أبت افعل ما تؤمر به ، ونفِّذ ما أراكه الله ، ستجدنى إن شاء الله من جملة الراضين بأمر الله ، الصابرين على قضائه ، المذعنين لمشيئته وحكمه .

قال بعض أهل الإشارة : فلما استثنى [1] وفقه الله للصبر .

قيل : إن إبراهيم ـ عليه السلام ـ رأى ليلة الثامن من ذى الحجة كأن قائلا يقول له : إن الله يأمرك بذبح ابنك هذا ، فلما أصبح روَّى فى ذلك من الصباح إلى الرواح ، قائلا

(١) المراد من الاستثناء : تعليق صبره على مشيئة الله ـ تعالى ـ فى قوله : (سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ) .

فى نفسه : أمِنَ الله هذا الحلم أم من الشيطان ؟ فمن ثمة سُمِّى يوم التروية ، فلما أمسى رأى مثل ذلك فعرف أنه من الله . فمن ثمة سمى يوم عرفة ، ثم رأى مثل ذلك فى الليلة الثالثة فهم بنحر ولده فسمى اليوم يوم النحر .

واختلف العلماءُ فى حقيقة الذبيح . هل هو إسماعيل أو إسحق ؟ والأظهر الأشهر أن الذبيح المخاطب هو إسماعيل - عليه السلام- إذ هو الذى وهب إثر المهاجرة ؛ لأن البشارة بإسحق بعده معطوفة على البشارة بهذا الغلام . ولقوله -عليه الصلاة والسلام- : «أنا ابن الذبيحين » فأحدهما جدّه إسماعيل ، والآخر أبوه عبد الله ؛ فإن عبد المطلب نذر أن يذبح ولدا إن سهل الله - تعالى - له حفر بئر زمزم ، أو بلغ بنوه عشرة ، فلما حصل ذلك وأسهم بين أولاده وخرج السهم على عبد الله فداه بمائة من الإبل ،ولأن ذلك كان بمكة ولأن بشارة إسحق كانت مقرونة بولادة يعقوب منه وذلك فى قوله - تعالى - : « فَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحٰقَ يَعْقُوبَ »[1] فكيف يأمره الله بذبحه وقد أخبره بأنه سيكون له منه يعقوب ، وعن الأصمعى قال : سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح فقال : يا أصنمعى ! ! ! أين عزب عنك عقلك ؟ ومتى كان إسحق بمكة ؟ وإنما كان إسماعيل ، وهو الذى بنى البيت مع أبيه .

ومما يقوى هذا الرأى وينصره أن الله وصف إسماعيل بالصبر دون أخيه إسحق فى قوله : « وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ »[2] وهو صبره على الذبح .

ووصفه بصدق الوعد فى قوله : «إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ»[3] لأنه وعد أباه بالصبر على الذبح فوفّى به .

---

(١) من الآية ٧١ من سورة هود .

(٢) الآية ٨٥ من سورة الأنبياء .

(٣) من الآية ٥٤ من سورة مريم .

(فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾)

المفردات :

(أَسْلَمَا) استسلما : لأمر الله ، وانقادا له .

(تَلَّهُ) : أضجعه .

(لِلْجَبِينِ) : يطلق الجبين على أحد جانبى الجبهة ، ويطلق أيضاً على الوجه .

(صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا) : وفيتها حقها بالعزم على تنفيذ ما أمر الله .

(الْبَلَاءُ الْمُبِينُ) : الاختبار البين الشدة .

(بِذِبْحٍ عَظِيمٍ) : كبش سمين عظيم القدر .

(ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ) : موبق لها ومهلكها بالكفر والمعاصى .

التفسير

١٠٣-١٠٦ - (فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَن يَآ إِبْرَاهِيمُ * قَد صَدَّقْتَ الرُّؤْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَآءُ الْمُبِينُ) :

المعنى : فلما استسلم إبراهيم وولده لقضاء الله وانْقَادَا لإنفاذ أمره ، وأخلصا أنفسهما له وفوضا أمرهما إليه أضجع إبراهيم ولده على شقه فوقع جبينه على الأرض ، وهو أحد جانبي الجبهة ، أو : كبّه على وجهه بإشارة الولد كى لا يرى منه ما يورث رقة تحول بينه وبين تنفيذ أمر الله ، وأسلم الولد نفسه للذبح راضياً بقضاء الله ، صابرا محتسبا نفسه عند الله — لما فعلا ذلك — فى صدق ، وإخلاص أدركتهما رحمة الله ووافاهما النداء من قبل الله : يا إبراهيم ،قد صدقت الرؤيا بالعزم على تنفيذ ما رأيت فى منامك وترتيب مقدماته ، وإعداد مقتضياته ، إنا كذلك نجزى المحسنين الذين ينزلون على قضاء الله ، ولا يؤثرون شيئاً على طاعته وتحصيل رضاه .

وهذا التذييل تعليل لتفريج تلك الكربة عنهما بإحسانهما ، وصدق عزمهما .

قال الآلوسى : أخرج غير واحد أنه قال لأبيه : لا تذبحنى وأنت تنظر إلى وجهى عسى أن ترحمنى فلا تجهز علىّ . اربط يدىّ إلى رقبتى ، ثم ضع وجهى للأرض .

وفى الآثار حكاية أقوال كثيرة غير ذلك ، وكل هذه الأقوال تدور حول امتثال الغلام لأمر الله . وإذعانه لقضائه .

وقوله تعالى : « إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ » تعقيب يجسد عظم البلاء . وقسوته ، والمعنى : إن هذا الأمر الذى ابتلينا به إبراهيم وهذا الاختبار الذى سبرنا به غور إيمانه وعمق يقينه ، وتمحيص نبوته لهو الاختبار المتناهى فى وضوح شدته ، الذى يتميز فيه المخلصون ، أو لهو المحنة البينة الصعوبة البالغة أقصى غايات القسوة والمرارة ، إذ لا شىء أصعب ولا أقسى من أن يذبح الإنسان ولده بيده .

١٠٧ — (وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ) :

كان حديث الآيات السابقة عن عظم البلاء تنويهاً بعظم الفداء ، وترشيحًا لجلال قدره ليقع قوله — تعالى — : « وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ » موقعه من قوة التصور ، وسموّ التفخيم .

والمعنى : أنجينا الغلام من الذبح ، وعافيناه من محنته ، وفديناه بما يذبح بدله ـ فديناه ـ بكبش عظيم الجثة مكتنزٍ لحمًا وشحمًا ، أو كبش عظيم القدر لأنه عطاءُ الله ، والعطاءُ يعظم بعظمة معطيه ، ولأنه يفدى به الله نبيًّا ابن نبى .

١٠٨ ، ١٠٩ ـ (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ) :

أى : لم ينته فضلنا على إبراهيم وولده عند كشف غمته ، وإنزال الفداء ، بل تجاوزنا هذا وزدناه حيث تركنا عليه ، أى : أبقينا له وأعقبناه الثناء الحسن والذكر الجميل فى الأمم المتعاقبة بعده تتحرك به الشفاه وتنطلق به الألسن ترديدًا إلى آخر الزمان ـ تركنا عليه ـ « سَلَامٌ عَلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ » . فكل أهل الأديان يحيونه بالسلام عليه بلغاتهم .

١١٠ ـ (كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ) :

أى : مثل هذا الجزاء العظيم : من دوام الذكر ، وخالد الثناء نجزى المحسنين فى أعمالهم ، الصادقين فى نيّاتهم وإخلاصهم .

١١١ ـ (إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ) :

أى : إن إبراهيم ـ عليه السلام ـ من جملة عبادنا المؤمنين الراسخين فى الإيمان ، الصادقين فى العقيدة ، ومن كان من جملة عبادنا المؤمنين لا يكون منه إلّا أطيب الأعمال ، وأصدق الطاعات ، ولا يكون له إلّا أكرم الحسنات ، وأوفى المثوبات .

١١٢ ـ (وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ) :

أى : وتوالى إكرامنا لإبراهيم ، واستمرت منحتنا عليه حيث بشرناه بعد إسماعيل بإسحاق ولدًا آخر ، وطويت فى هذه البشارة بشارات حسن تنشئته وإدراكه مدارك الرجال ، ونبوّته .

وفى ذكر الصلاح بعد النبوّة تعظيم لشأنه ، وإيماءٌ إلى أنه الغاية للنبوة ، وأنه الثمرة المرجوة .

١١٣ ـ (وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ) :

أى : وباركنا على إبراهيم وإسحاق ـ عليهما السلام ـ بأن أفضنا عليهما بركات الدين

والدنيا ، فأكثرنا نسلهما وجعلنا منهما أنبياءَ ورسلًا ، واختلفت أحوال ذريتهما فكان منها محسن بالإيمان والطاعة لنفسه ، وظالمٌ لنفسه بالكفر والمعاصى ظلمًا بيِّنًا ظاهر القبح .

وفى هذا تنبيه إلى أن الخبيث والطيب لا يجرى أمرهما على العرق والعنصر ، فقد يلد البر فاجرًا ، وقد يلد الفاجر برًّا ، وهذا مما يهدم أمر الطبائع والعناصر ، وينبِّه إلى أن الظلم فى أعقابهما لم يعد عليهما بعيب ولا نقيصة ، وإنما يعاب المرء بسوءِ فعله ، ويعاقب على ما اجترحت يداه لا على ما وجد من أصله وفرعه .

(وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾)

المفردات :

(مَنَنَّا) : أحسنَّا وأنعمنا عليهما بالنبوة والنجاة والنصرة .

(الْكربِ) : المكروه والشِّدة .

(الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ) : الواضح . وهو التوراة .

(الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) : الذى لا عوج فيه ؛ لأنه الموصل إلى الحق والصواب .

التفسير

١١٤ – (وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ) :

شروع فى قصة موسى وهارون بعد الفراغ من قصة إبراهيم وما تضمنت من أخبار غريبة ، وأحداث عجيبة ، ومنح جزيلة ، ومواقف جليلة .

وصدّرت قصتهما بالمنّة لإبراز فضل الله – تعالى – عليهما فى ظهورهما على قوم جبّارين فى أمة عاتية ، على رأسها فرعون الغاشم المتألّه ، لا يبالون بما يرتكبون من مظالم ، ولا يخجلون مما يقترفون من مغاشم .

والمعنى : ولقد أحسنّا وأنعمنا على موسى وأخيه هارون بالنبوّة وغيرها من النعم الدينية والدنيوية ، حيث بعثناهما فى قوم جبارين ، يستعبدون الأحرار ، ويسخرونهم فى مصالحهم ، ويسومونهم سوء العذاب .

١١٥ – (وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ) :

أى : ونجّينا موسى وهارون ومن تبعهما من قومهما من تسلّط فرعون وقومه وغشمهم ، وخلّصناهم من الكرب والشدة وألوان العذاب المتفاقم فى العظم والقبح المتمثل فى قوله تعالى : « وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ الْعَذَابِ »[1] .

١١٦ – (وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ) :

أى : لم يقف أمرنا معهما على الإنجاء من كرب فرعون وقومه ، وبطشهم بهم ، بل تجاوز ذلك إلى نصر موسى وهارون وقومهما على هذا الطاغوت ، فكانوا هم الغالبين عليهم غلبة ليس وراءها غاية ، القاضين عليهم قضاء تركهم عبرة للعالمين وآية للمتأملين .

وقد بدىء فى الآية بالتنجية ، وإن كانت مقارنة للنصر للإشارة إلى أن مجرّد التّنجية من عذاب فرعون وقومه فى ذاتها نعمة ، فضلًا عمّا صحبها من النصر والغلبة ، لتوفية مقام الامتنان حقه بإظهار كل مرتبة من المراتب الثلاث : التنجية ، والنصر ، والغلبة نعمةً جليلة على حيالها .

---

(١) من الآية ٤٩ من سورة البقرة .

١١٧ - (وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ) :

هذه الآية من جملة ما مَنَّ الله به على موسى وهارون ، وهى فى موقعها من تتابع المنن وتساوقها بعد التنجية والنصرة والغلبة ليتم الأمن والاستقرار ، ويتعبد الطريق إلى إنزال الكتاب.

والمعنى : وآتينا موسى وهارون بعد تحقيق ما سبق - آتيناهما - الكتاب المستنير الواضح فى تفصيل الشرائع ، البين فى توضيح الأحكام ، وهو التوراة .

١١٨ - (وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) :

الهداية إلى الصراط المستقيم أثر لإتيان الكتاب .

والمعنى : وهديناهما بإتيان الكتاب الصراطَ المستقيم ، والطريق الممهّد الموصل إلى الحق والصواب بما فيه من تفصيل الشرائع ، وتفاريع الأحكام .

١١٩ ، ١٢٠ - (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ) :

أى : وأعقبناهما زيادة فى المنّة ووفرة فى الإحسان والفضل - أعقبناهما - الذكر الحسن والثناء الجميل فى الأمم التى تأتى بعدهما إلى آخر الزمان بقولهم : « سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ » وما فى معناه .

١٢١ ، ١٢٢ - (إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ) :

إنا مثل هذا الجزاء الذى جازينا به موسى وهارون وقومهما من كل ما ذكرنا ، وما شهدت به الأحداث ، وصار حديثًا عجبًا بين الناس - إنّا كذلك نجزى المحسنين منهم ومن غيرهم جزاءً سخيًا وافيًا ، إنهما من جملة عبادنا المؤمنين المخلصين فى العبودية ، وكمال الإيمان الذين لا يصدر عنهم إلّا العمل الصالح ، والسلوك السوى . ولا يقع منهم إلّا ما يقتضى جزيل الثواب وعظيم الجزاء .

(وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾)

المفردات :

(إِلْيَاسَ) : هو إلياس بن يس من سبط هارون أخى موسى - عليهم السلام - بعث بعده ، وقيل هو « إدريس » .

(بَعْلًا) : اسم صنم لأهل بك من الشام ، وهو البلد المعروف اليوم باسم « بعلبك » ، وقال عكرمة وقتادة : البعل : الرب بلغة اليمن .

التفسير

١٢٣ ، ١٢٤ - (وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ) :

هذه الآيات دخول على قصة إلياس ومن بلاغة التنزيل ، وروعة إعجازه اختلاف مداخل هذه القصص ، ففى قصة نوح - عليه السلام - كان المدخل : « وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ ». وفى قصة إبراهيم : « وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ » ، وفى قصة موسى وهارون : « وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ » وهذا تفنن فى الأسلوب يزيده جمالًا ، ويزيد القارىء إقبالًا ، حيث يتصدر كل قصة الحدث الجليل فيها .

وقد صدرت قصة إلياس ومن بعده بتكرار المؤكدات ، لأن أخبارهم لم تبلغ فى الاشتهار والتداول مبلغ نوح وإبراهيم وموسى - عليهم السلام - .

والمعنى : وإن من أنبياء الله -تعالى- ورسله الذين أرسلهم إلى أقوامهم لإرشادهم وهدايتهم إلياس من سبط هارون أخى موسى وبعث بعده ، فاذكر يا رسول الله إذ قال لقومه

حين بعث فيهم : أَلَا تتَّقون الله وتخافون عذابه على كفركم به وجحدكم آلاءه ونعمه عليكم ، وإعراضكم عن توحيده وشكر عطائه ، واتخاذكم آلهة زائفة ، ومعبودات زائلة تالفة .

١٢٥ ، ١٢٦ - (أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ * اللهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ) :

أى : أيستقيم منكم ، ويصح فى عقولكم وأفهامكم أن تعبدوا صنمًا أصم ، وحجرًا أبكم تجثون حوله ، وتقدمون له القرابين تدعونه لقضاء حوائجكم فتطلبون الخير مما لاخير فيه ، ولايملك لكم ولا لنفسه نفعًا ولاضرًّا (وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ) ، وتتركون عبادته وتوحيده وهو ربكم الذى خلقكم فأحسن خلقكم ، وصوركم فأبدع صوركم ، وخلق آباءكم الأولين السابقين عليكم من لدن آدم - عليه السلام - الذين عمرت بهم الدنيا ، وامتد الوجود ، وأجرى عليكم وعليهم نعمه ، وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعًا منه .

(فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾)

المفردات :

(لَمُحْضَرُونَ) : لشاهدون العذاب مساقون إليه ، والإطلاق فى الحضور اكتفاء بالقرائن ، أو لأن الإحضار المطلق مخصوص بالشر عرفًا .

(إِلْيَاسِينَ) : لغة فى إلياس كسيناء فى سينين ، وهو الأولى ، وقيل : هو جمع له أريد به هو وأتباعه كالمُهلَّبيين والخُبَيْبِيين .

التفسير

١٢٧ ، ١٢٨ - (فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ) :

أى : فكذب قوم إلياس رسولهم وعارضوا دعوته ، وأنكروا عليه رسالته فحق عليهم عذاب الله ، وحقت فيهم كلمته فإنهم لشاهدون هذا العذاب ومدفوعون إليه ، ومساقون له لا يفلت منهم أحد إلَّا من آمن به وصدقه ، واتبع هداه فكان من الناجين المخلصين فى عقيدتهم وطاعتهم لله .

١٢٩ - ١٣٢ - (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْيَاسِينَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ) :

تختم قصة إلياس - عليه السلام - بما اختتمت به قصص الأنبياء قبله .

والمعنى : وتركنا على إلياس - فى الأمم الآتية بعده - الذكر الحسن والثناء الجميل المتمثل فى قول الآخرين : « سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْيَاسِينَ » وما فى معناه ، إنا مثل هذا الجزاء من الثناء نجزى كل محسن من عبادنا المؤمنين الذين لا يصدر عنهم إلَّا القول الطيب والفعل الجميل .

(وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾)

المفردات :

(الْغَابِرِينَ) : الباقين فى العذاب ، أو الماضين الهالكين ، من : غَبَر بمعنى بقى أو مضى فهو من الأضداد .

(دَمَّرْنَا) : أهلكنا .

(مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ) : داخلين فى الصباح والمساء ، أى : نهارًا وليلًا .

التفسير

١٣٣ - ١٣٦ - (وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ * ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ) :

بدئت قصة لوط بما بدئت به قصة إلياس من تأكيد رسالته ، ثم ذكرت نجاته وأهله إلَّا امرأته من شناعة العذاب الذى لحق بقومه فهدَّم عليهم قراهم تنبيهًا إلى أن نجاته من هذا العذاب نعمة من أجلّ النعم .

والمعنى : وإن لوطًا - عليه السلام - لمن جملة المرسلين الذين أرسلهم الله لهداية أقوامهم فدعاهم ونصحهم ووجههم إلى ما يصلح دينهم ودنياهم فعارضوه ، وكذَّبوه وأمعنوا فى الفاحشة النكراء من إتيان الرجال دون النساء ، فاستوجبوا أنكى عذاب وأقسى عقاب حيث ائتفكت بهم قراهم ، وتهدمت عليهم منازلهم فذهبوا فوق التراب أثرا ، وبقوا للناس عبرا ، فاعلم ذلك يا رسول الله ، واذكر لقومك ترشيدًا ونصحًا إذ نجينا لوطًا وأهله من هذا العذاب الشديد والبطش العتيد إلَّا امرأته العجوز التى انتصرت لقومها فكانت من الباقين فى العذاب ، أو الماضين الهالكين فى التراب . ثمَّ دمَّرْنَا الآخرين فلم يبق منهم باق فإن فى ذلك شواهد على صدق دعوته وكونه من جملة المرسلين .

١٣٧ ، ١٣٨ - (وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) :

أى : وإنكم يا كفار قريش لتمرون على منازلهم المهدَّمة فى سفركم إلى الشام للتجارة وأنتم داخلون فى الصباح وفى المساء ، أى : نهارًا وليلًا «وسدوم» من قراهم المؤتفكة فى طريقكم ترونها ، وتشاهدون ما حلَّ بأهلها .

وقوله - تعالى - : « أَفَلَا تَعْقِلُونَ » معناه : أتشاهدون ذلك فلا تتدبرون ولا تعقلون حتى تعتبروا وتخافوا أن يصيبكم مثل ما أصابهم ، وينزل بكم ما نزل بهم ، فإن منشأ ذلك مخالفتهم رسولهم ، وأنتم فى مخالفتكم لرسولكم تفعلون مثل فعلهم .

(وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾)

المفردات :

(أَبَقَ) : هرب ، وأصل الإباق : هرب العبد من سيده بغير إذنه .

(الْمَشْحُونِ) : المملوء .

(فَسَاهَمَ) : قارع .

(الْمُدْحَضِينَ) : المغلوبين بالقرعة .

(الْتَقَمَهُ) : ابتلعه .

(وَهُوَ مُلِيمٌ) : داخل فى الملامة مستحق لها .

(الْمُسَبِّحِينَ) : الذاكرين .

(لَلَبِثَ) : مكث .

(يَوْمِ يُبْعَثُونَ) : يوم القيامة .

التفسير

١٣٩ – ١٤٢ – (وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ) :

بهذه الآيات الكريمة تنتهى قصص الأنبياء التى احتوتها هذه السورة من كتاب الله .

ومما يثير النظر ، ويسترعى الانتباه فى هذا التنزيل البليغ أن الفلك التى نجَّى الله بها نوحًا وأهله فى أول هذه القصص تكرر ذكرمثلها فى فلك آخر غرق منه يونس فى اليم فى آخر قصة منها .

ويونس – عليه السلام – هو يونس بن متّى ، قيل : إنه نُبِّئ وهو ابن ثمان وعشرين سنة ، وحكى فى البحر أنه كان فى زمن ملوك الطوائف من الفرس.

وقال الآلوسى : « يروى أنه أوعد قومه العذاب ، وأخبرهم أنه ينزل بهم إلى ثلاثة أيام فلما كان اليوم الثالث خرج يونس قبل أن ينزل العذاب بهم ، فعجُّوا إلى الله وأنابوا واستقالوا فأقالهم الله – تعالى – وصرف عنهم العذاب ، فلمَّا لم ير يونس نزول العذاب استحيى أن يرجع إليهم وقال : لا أرجع إليهم كذَّابًا أبدًا ، ومضى على وجهه ، فأتى سفينة فركبها ، فلما وصلت اللجّة وقفت فلم تسر ، فقال صاحبها : ما يمنعها أن تسير إلَّا أنَّ فيكم رجلًا مشئومًا فاقترعوا ليلقوا من وقعت عليه القرعة فى الماء ، فوقعت على يونس ، ثم أعادوها فوقعت عليه ، ثم أعادوها فوقعت عليه ، فلما رأى ذلك رمى بنفسه فى الماء » .

ومعنى الآيات : وإن يونس – عليه السلام – لمن جماعة المرسلين ، فاذكر يارسول الله قصته وخبره إذ هرب قبل أن يأذن له ربُّه إلى الفُلْك المملوء بالراكبين المزحوم بكثرتهم فرارًا من العذاب الذى أُخبر بنزوله على قومه .

وعبَّر عن خروجه بالإباق مع أن الإباق لا يكون إلَّا فى هرب العبد من سيِّده ، لأنه خرج قبل أن يأذن الله له بالخروج فاعتبر إباقًا كإباق العبد من سيِّده ، وحسّنه أن كل مخلوق عبد لله تعالى .

وقوله – تعالى – : (فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ) معناه : فقارع مع من كانوا معه فى السفينة ليلقوا من تصيبه القرعة فى الماء فأصابته القرعة ، وكرروا ذلك ثلاثًا فلم تخطئه فكان من المدحضين بالقرعة المغلوبين فيها ، فلما رأى ذلك رمى بنفسه فى اليم ، فتلقاه الحوت وابتلعه ، وهو آتٍ بما يلام عليه مستحق لذلك.

١٤٣ ، ١٤٤ – (فَلَوْلَآ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ) :

أى : فلولا أن يونس – عليه السلام – كان من الذاكرين الله كثيرًا الذين ديدنهم التسبيح يعيشون فيه ويدومون عليه طوال حياتهم لا ينقطعون عن ذلك ولا يفترون لمكث فى بطن الحوت حيًّا إلى يوم يبعثون : يوم القيامة .

والمراد بالتسبيح : مطلق الذكر كما حمله بعضهم ، وحمله بعض آخر على العبادة ، وقال آخرون : إن التسبيح هو ما ذكره الله – تعالى – فى قوله : « فَنَادَى فِى الظُّلُمَاتِ أَلَّآ إِلٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ »[1] .

وذهب جماعة منهم ابن عباس إلى حمله على الصلاة ، بل رُوى عنه أنه قال : « كل ما فى القرآن من التسبيح فهو بمعنى الصلاة » .

وفى النص الكريم حثٌّ على إكثار الذكر ، ومداومة التسبيح ، وتعظيم لشأنه ، وتنبيه إلى أن من أقبل على الله فى السراء ، أخذ بيده عند الضراء .

أخرج ابن أبى شيبة عن الضحاك بن قيس قال : « اذكروا الله تعالى فى الرخاء يذكركم فى الشدة فإن يونس – عليه السلام – كان عبدًا صالحًا ذاكرًا لله – تعالى – فلما وقع فى بطن الحوت قال الله تعالى : « فَلَوْلَآ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ . . .) الآية وإن فرعون كان عبدًا طاغيًا ناسيًا لذكر الله – تعالى – فلما أدركه الغرق قال : « آمَنتُ أَنَّهُ لَآ إِلٰهَ إِلَّا الَّذِىٓ آمَنَتْ بِهِ بَنُوٓ إِسْرَآئِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ » فقيل له : « آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ »[2]

وكما اختلف المفسرون فى كنه التسبيح اختلفوا فى مقدار المكث ، فقيل : أربعون يومًا ، وقيل : عشرون ، وقيل : سبعة ، وقيل : ثلاثة ، وقيل : لم يلبث إلَّا قليلًا ثم أُخرج من بطنه عقب الوقت الذى التُقم فيه .

روى عطاء أنه حين ابتلع الحوت يونس أوحى الله – تعالى – إلى الحوت : « إنى جعلت بطنك له سجنًا ولم أجعله لك طعامًا » .

والمراد من الوحى إلى الحوت إلهامه ، وحبس جهازه الهضمى عن هضمه ، والله أعلم .

---

(١) من الآية ٨٧ من سورة الأنبياء .

(٢) الآية ٩٠ ، ٩١ من سورة يونس .

بيان للقراء الكرام

بسم الله والحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله ، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد : فقد بدأنا – بتوفيق الله تعالى – تفسير النصف الثانى من القرآن الكريم ، من قوله تعالى : « أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِى الْبَحْرِ . . . » من الآية ٧٩ من سورة الكهف – كما وعدنا القراء – ووصلنا إلى نهاية الآيتين : « فَلَوْلَآ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ » من سورة الصافات الآيتين ١٤٣ ، ١٤٤ وبهما ينتهى الحزب الخامس والأربعون من القرآن العظيم ، وبذلك يكون قد تم تفسير ثلاثة أرباع القرآن الكريم .

وقد توفى فى هذه الفترة فضيلة الأستاذ الشيخ طه الساكت ، والسيد الأستاذ على عبد العظيم ، عضوا لجنة التفسير الوسيط – عليهما رحمة الله – وجزاهما أحسن الجزاء على صالح أعمالهما ، وقد حل محلهما فضيلة الأستاذ الشيخ محمد مرسى عامر ، وفضيلة الأستاذ الشيخ إبراهيم السويركى ، وأصبحت اللجنة مؤلفة كالآتى حسب ترتيب الحروف الهجائية :

١ – الشيخ إبراهيم السويركى .

٢ – الشيخ سيد مصطفى شريف .

٣ – الشيخ عبد المهيمن الفقى .

٤ – الشيخ محمد مرسى عامر .

٥ – الشيخ مصطفى محمد الحديدى الطير .

ويقوم فضيلة الشيخ مصطفى محمد الحديدى الطير بتنسيق أعمال هذه اللجنة ويتولى رياستها ، وقد عرف القراء – مما صدر من تفسيرها الأحزاب التى طبعت – أن اللجنة عند التزامها إخراج التفسير خاليا من التعقيد والمصطلحات الفنية ، إلا ما تدعو إليه شدة الضرورة ،

كما عرفوا خلوه من الإسرائيليات والآراء الهابطة ،كما أدركوا تقاربه بفضل التنسيق الدقيق والمراجعة اللذين يتولاهما رئيس اللجنة .

ونحن لا ندعى الكمال فيما قدمناه للقراء الكرام ، كما لا ندعى خلوه من الخطأ ، فالعصمة لله ولرسوله ، وحسبنا أننا بذلنا فيه الوسع ، ورجونا فيه الأجر من رب العالمين ، وإننا لنشكر للقراء الكرام – فى مصر والبلاد العربية – إقبالهم على شراء ما يصدر منه من الطبعات .

وقد فرغت اللجنة من تأليف وتنسيق أكثرَ من ذلك ، وهو تحت الطبع .

والله تعالى ولى التوفيق ،

رئيس اللجنة

مصطفى محمد الحديدى الطير

عضو مجمع البحوث الإسلامية

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة
رمزى السيد شعبان

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩/١٩٨٦

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
٥٧٤٩ — ١٩٨٦ — ٢٥٠٠٤



التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تأليف
لجنة من العلماء
بإشراف
مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث
الحزب السادس والأربعون

الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

القاهرة
الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٨

* (فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾)

المفردات :

(فَنَبَذْنَاهُ) : فطرحناه وألقيناه .

(بِالْعَرَآءِ) : بالأرض الفضاء .

(سَقِيمٌ) : مريض ضعيف البدن .

(يَقْطِينٍ) : شجرة القرع وليس لها ساق تقوم عليه .

التفسير

١٤٥ - (فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ) :

ذكر الله - سبحانه وتعالى - فى الآيات السابقة أن يونس - عليه السلام - التقمه الحوت وهو مُلِيم لأنه حين رأى العذاب لم ينزل بقومه ، وكان قد توعدهم به تركهم وقال : لا أرجع إليهم كاذبًا ، ولم يستأذن ربه فى تركهم ، ولولا أنه كان من المواظبين على تسبيح الله والدعاء لبقى فى بطن الحوت إلى يوم البعث ، وفى هذه الآية الكريمة يقول - سبحانه - : « فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ » بأن حملنا الحوت على لَفْظِه وطرحه فى الفضاء الواسع من الأرض لاشجر فيه ، ولا شىء يُغَطِّيه ويواريه من بناء أو سقف ، وهو عليل واهن البدن خائر القوى مما أصابه ، قال ابن عباس : كبدن الصبى حين يولد ، قيل : إنه نبذه على شط دِجْلَةَ قرب مدينة « نينوى » والله أعلم بمكان طرحه فى العراء .

١٤٦ - (وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ) :

أى : وأنبتناها عليه مُظِلَّة له كالخيمة ، واليقطين : يفْعِيل من قَطَن بالمكان إذا أقام به ، والمراد به على ماجاء عن ابن عباس فى رواية : الدُّبَّاء ، وهو القرع

المعروف أنبتها الله - تعالى - فَغَطَّته ووقَتْه غوائل الجـو لأنها تجمع خِصالا عدَّة : بَرْد الظِّلِّ ، ونعومة الملمس ، وعظم الورق ، وأَنَّ الذباب لا يقع عليها كما قيل ، وكان - عليه السلام - لرقَّة جلده بمكثه فى بطن الحوت يُؤْذيه الذباب ، ومُماسَّة ما فيه خشونة ، ويؤلمه حر الشمس ، ويستطيب بارد الظل ، فلطف الله - تعالى - به بذلك ، وذكر الزمخشرى أنه قيل لرسول الله : إنك لتحب القرع : قال : أجل هى شجرة أخى يونس .

وذكر القرطبى عن أنس - رضى الله عنه - قال : قُدِّم للنبى ﷺ مَرَقٌ فِيه دُبَّاء وقَدِيد ، فجعل يتَّبع الدُّبَّاء حول القصعة . قال أنس : فلم أزل أُحب الدُّبَّاء من يومئذ . - أخرجه الأئمة - وقيل : اليقطين شجرة التين ، وقيل : الموز ، والأكثر على أنه القرع ، وعلى هذا يكون المولى - سبحانه - قد جعل لهذا القرع ساقًا عالية ليظلله ورقها ، والله على كل شىء قدير .

١٤٧ - (وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ) :

بعد أن أَبَلَّ يونس من مرضه ، وعُوفى من ضعفه ، وصح بدنه ، أرسلناه إلى عدد كبير يقول من يراه : إنهم مائة ألف أو يزيدون فى مرأى الناظر ، والغرض الوصف بالكثرة ، وقيل : لَفْظ « أَوْ » فى قوله : « أَوْ يَزِيدُونَ » بمعنى الواو ، أى : ويزيدون مع استمرار التبليغ ، والمراد بقوله - تعالى - : (وَأَرْسَلْنَاهُ) ماسبق من إرساله إلى قومه من أهل نينَوى ، حين كُفْرهم قبل أن يؤمنوا ، وقيل غير ذلك .

١٤٨ - (فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ) :

فاستجابوا جميعاً لدعوته ، وآمنوا برسالته ، واتبعوا النور الذى أُنزل معه بعد أن رأوا أمارات العذاب ، فأبقيناهم مُمتَّعين بمالهم وأملاكهم ، آمنين فى سربهم ، وبسطنا عليهم نعمتنا إلى الوقت المعلوم حين تنقضى آجالهم . وكان يونس لايعلم بأنهم آمنوا فرفع عنهم العذاب روى عن عبد الله بن مسعود أن النبى ﷺ قال : « إن يونس وعد قومه بالعذاب ، وأخبرهم أن يأتيهم إلى ثلاثة أيام ، ففرقوا بين كل والدة وولدها وخرجوا ، فجاروا إلى الله واستغفروا فكف عنهم العذاب ، وغدا يونس ينتظر العذاب فلم ير شيئًا ، فخرج يونس مغاضبًا ، فأتى قومًا فى سفينة فحملوه... » انظر القرطبى .

(فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾).

المفردات :

(فَاسْتَفْتِهِمْ) : فاستخبر كفار مكة توبيخا لهم ، وسلْهُم على سبيل الإنكار عليهم .

(إِفْكِهِمْ) : كذبهم .

(أَصْطَفَى) : أختارَ ، وهو استفهام توبيخ .

التفسير

١٤٩ - (فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ) :

أمر الله تعالى نبيه - صلى الله عليه وسلم - فى صدر هذه السورة الكريمة بتبكيت قريش وإبطال مذهبهم فى إنكار البعث بطريق الاستفتاء فى قوله - تعالى - : (فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَم مَّنْ خَلَقْنَآ)[1] وساق البراهين الناطقة بأنه سيتحقق لامحالة وبيَّن ما سوف يلقونه عند ذلك من فنون العذاب واستثنى منهم عباده المخلصين ، وفصل - سبحانه - مالهم من النعيم المقيم ، ثم ذكر - سبحانه - أنه قد ضلَّ مِنْ قبلهم أكثر الأوَّلين ، وأنه - تعالى - أرسل إليهم منذرين على وجه الإجمال ، ثم أورد قصص بعض الأنبياء - عليهم السلام - بنوع تفصيل متضمنا كل منها ما يدل على فضلهم وعبوديتهم له - عز وجل - ثم أمره ﷺ هنا بتبكيتهم بطريق الاستفتاء عن وجه ما زعموه من نسبة البنات إلى الله - تعالى - وقد قال بذلك

---

(١) سورة الصافات : من الآية ١١ .

جهينة ، وبنو سلمة ، وخزاعة وغيرهم ، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا ، فجعلوا لله الإناث ، ولأنفسهم الذكور فى قولهم : الملائكة بنات الله ، مع كراهيتهم الشديدة لهنَّ ، ووأدهن ، واستنكافهم من ذكرهنَّ ، وقد ارتكبوا فى ذلك ثلاثة أنواع من الكفر :

أحدها : التَّجْسِيم لأن الولادة مختصة بالأجسام ، والثانى : تفضيل أنفسهم على ربهم حيث جعلوا أقل الجنسين فى نظرهم له ، وأرفعها لهم كما قال ـ تعالى ـ : (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ)(1) .

الثالث : أنهم استهانوا بالملائكة وهم أكرم خلق الله عليه ، وأقربهم إليه ، حيث حكموا عليهم بالأنوثة ، ولو قيل لأقلهم درجة وأدناهم منزلة : فيك أنوثة أو نحوها لثار لكرامته ، وللبس لقائله ثوب النمر .

١٥٠ ـ (أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ) :

إضراب وانتقال من التبكيت بالاستفتاء السابق إلى التبكيت بهذا ، أى : بل أخلقنا الملائكة إناثاً وهم معاينون لخلقهم حتى حكموا هذا الحكم الباطل ، فهم من أشرف الخلائق عند ربهم ، وأعظمهم بعدا عن الأنوثة ، وقوله ـ تعالى ـ : (وَهُمْ شَاهِدُونَ) استهزاء بهم ، وتجهيل لهم ، ومثله قوله ـ تعالى ـ : (أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ)(2) فإن هذه الأمور لا تُعْلَم إلّا بالمشاهدة ، إذ لا سبيل إلى معرفتها بطريق العقل ولا النقل ، فلا بد أن يكون القائل بأنوثتهم شاهد خلقهم على هذه الصورة ليصح قوله ، ولا سبيل لهم إلى ذلك .

١٥١ ، ١٥٢ ـ (أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) :

استئناف من جهته ـ تعالى ـ غير داخل تحت الاستفتاء ، سِيق لإبطال أصل مذهبهم الفاسد ببيان أن مبناه الإفك والافتراء القبيح ، من غير أن يكون لهم دليل ولا شبهة ، وإنهم لكاذبون فيما يتدينون به مطلقاً أو فى هذا القول ، والمعنى : تنبَّه أيها السامع : إنهم من كذبهم واختلاقهم ليقولون : ولد الله ، بقولهم : الملائكة بنات الله ، وهو المنزه

---

(١) سورة الزخرف : الآية ١٧ .
(٢) سورة الزخرف : من الآية ١٩ .

عن الوالدية والولدية ، وإنهم لكاذبون فى هذا الادعاء بشهادة الأدلة على وحدانيته - تعالى - ، والولد يقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث .

١٥٣ - (أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ) :

أى : أى شىء يحمله على أن يختار البنات - المكروهات فى زعمكم - على البنين المحبوبين لديكم وهو - سبحانه - الخالق للبنات والبنين ، ومثل ذلك قوله - تعالى - : (أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيماً)[1] والاستفهام للإنكار والتوبيخ ، والمراد : إثبات إفكهم وتقرير كذبهم . ولهذا قال تبارك وتعالى :

١٥٤ - (مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) :

ماذا أصابكم حين حكمتم بغير دليل ، كيف تحكمون هذا الحكم الفاسد مع وضوح بطلانه ؟

١٥٥ - (أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) :

أنسيتم دلائل القدرة والتنزيه المركوزة فى كل العقول ، فلا تتذكرون أنه لا يجوز أن يكون له ولد حتى وقعتم فى هذا الضلال ؟

(أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾)

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٤٠

المفردات :

(سُلْطَانٌ مُّبِينٌ) : حجّةٌ واضحة وبرهان على أن الملائكة بنات الله .

(الْجِنَّةُ) : الملائكة لأنهم يستجنّون ، أى : يختفون ويستترون ، أو الجن .

التفسير

١٥٦ - (أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ) :

إضرابٌ وانتقال من توبيخهم بما ذكر بتكليفهم مالا يدخل تحت الوجود أصلًا ، أى : بل ألكم حجة واضحة نزلت من السماء بأن الملائكة بناته ، ضرورة أن الحكم بذلك لابد له من دليل حسّى أو عقلى ، وحيث انتفى كلاهما فلابد من سند نقلى له سلطان وقوة ، ولا سبيل إلى ذلك .

١٥٧ - (فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) :

أى : هاتوا برهانًا على ذلك يكون مستندًا إلى كتاب منزل من السماء عن الله - تعالى - أنه اتخذ ما تقولونه ، ويكون ناطقا بصحة دعواكم إن كنتم صادقين فيها ، والأمر للتعجيز ، وإضافة الكتاب إليهم للتهكم ، وفى الآيات السابقة من الإنباء عن السخط العظيم ، والإنكار الشديد لأقاويلهم ، والاستبعاد لأباطيلهم ، وتسفيه أحلامهم ، مع استهزاء بهم وتعجيب من قولهم ما لا يخفى على من تأمّل فيها .

١٥٨ - (وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ) :

التفات للغيبة للإيذان بانقطاعهم عن الجواب ، وسقوطهم عن درجة الخطاب ، واقتضاء حالهم أن يُعْرض عنهم ، وتُحْكى لآخرين جناياتهم .

والمعنى : استمرأ المشركون غيّهم ، وتمادوا فى باطلهم وضلالهم ، وجعلوا بين الله - سبحانه وتعالى - وبين الجن المستورين عن العيون قرابة ومصاهرة ، ووالله لقد علمت الجن إن الكفار لمحضرون إلى الله - تعالى - لينالوا جزاء ما ارتكبوا من جرم ، وما اجترحوا من إثم ، بسبب اعتقادهم الفاسد ، أخرج آدم بن أبى إياس ، وعبد بن حميد ، وابن جرير وغيرهم ،

عن مجاهد قال كفار قريش : الملائكة بنات الله ، فقال لهم أبو بكر الصديق – على سبيل التبكيت – : فمن أمهاتهن ؟ فقالوا : بنات سروات الجن ، وروى هذا ابن أبي حاتم : عن عطية ، أو أريد وجعلوا بينه وبين الجِنَّة نسبًا حيث أشركوهم به – تعالى – في استحقاق العبادة ، وروى هذا عن الحسن حيث قال : أشركوا الشيطان في عبادة الله ، فهذا النسب الذي جعلوه .

١٥٩ – (سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ) :

أي : تعالى الله وتقدَّس وتنزَّه عن أن يكون له ولد ، وعمَّا يصفه به الظالمون الملحدون المفترون من صفات النقص التي لا تليق بمقامه الكريم .

١٦٠ – (إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ) :

لكن عباد الله المخلصين وهم المتبعون للحق المنزَّل على كل نبي ورسول برآءٌ مما يصفه به الكافرون ، وهم ناجون من النار .

(فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾)

المفردات :

(بِفَاتِنِينَ) : بمضلين أو مفسدين .

(صَالِ الْجَحِيمِ) : داخلها ومُقَاسٍ حرها .

(الصَّآفُّونَ) : الواقفون فى العبادة صفوفًا .

(الْمُسَبِّحُونَ) : المنزِّهُون الله - تعالى - عمَّا لا يليق بجلاله .

(ذِكْرًا) : كتابًا . أو من يُذَكِّرُنا بأمر الله أو بكتابه .

التفسير

١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣-(فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ) :

عود إلى خطاب المشركين ، والضمير فى (عليه) لله - عز وجل - .

والمعنى : فإنكم ومعبوديكم من دون الله ما أنتم وهم جميعًا على الله بفاتنين إلَّا أصحاب النار الذين سبق فى علمه أنهم لسوءِ اختيارهم يستوجبون أن يصْلَوْها ويذوقوا حرَّها ، ومعنى يفتنونهم على الله: يفسدونهم عليه بإغوائِهم واستهوائِهم ، من قولك : فتن فلان على فلان امرأته أى : أفسدها .

ويجوز أن تكون الواو فى قوله : (وماتعبدون) بمعنى مع كما فى قولهم :كل رجل وضيعته .

والمعنى : فإنكم مع ماتعبدون ، من دون الله (مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ) أى :على الله (بِفَاتِنِينَ) أى : بمضلين مفسدين (إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ) أى : إلَّا من هو ضال مثلكم معذب بالجحيم .

قال النَّحَّاس : أهل التفسير مجمعون فيما علمت على أن المعنى : ما أنتم بمضِلِّين أحداً إلَّا من قدَّر الله - عز وجل - أن يَضلَّ .

وفيها من المعانى أن الشياطين لَايصِلُون إلى إضلال أحد إلَّا من كتب الله عليه أنه لايهتدى لسوءِ اختياره ، ولو علم الله- جلَّ شأْنه- أنه يهتدى لحال بينه وبينهم .

١٦٤ - (وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ) :

هذه الآية ومابعدها من قول الملائكة تعظيمًا لله -عز وجل- وإنكارًا منهم عبادة من عبدهم ، أى : وما مِنَّا إلَّا له مقام معلوم فى العبادة والعلم والرُّتْبة ، والرُّجوع إلى أمر الله- تعالى -

فى تدبير العالم مقصور عليه لايتجاوزه ، ولا يستطيع أن ينزلَ عنه خضوعًا لعظمته ـ تعالى ـ وخشوعًا لهيبته ـ سبحانه ـ وتواضعًا لجلاله ـ جل شأنه ـ .

والآية تشير إلى أَنَّ المَلَك لا يتعدَّى مقامه إلى ما فوقه ، ولا يهبط عنه إلى ما دونه ، قال مقاتل : هذه الثلاث الآيات (وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ) ومابعدها ، نزلت ورسول الله ﷺ عند سدرة المنتهى ، فتأَخَّر جبريل ، فقال النبى : أهنا تفارقنى ؟ فقال : ما أستطيع أن أتقدم من مكانى . وأنزل الله ـ تعالى ـ حكاية عن قول الملائكة : (وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ . . .) إلى آخر الآيات .

١٦٥ ـ (وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّآفُّونَ) :

أى : وإنَّا لنحن الصَّافون أنفسنا فى مواقف العبودية دائمًا ، وقيل : الصافون أقدامنا فى الصلاة ، وقيل : الصافون حول العرش ننتظر الأَمر الإلٰهى ، وأخرج ابن أَبى حاتم عن الوليد ابن عبد الله بن مغيث قال : كانوا لَا يَصُفُّون فى الصلاة حتى نزلت (وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّآفُّونَ) ، وأَخرج مسلم عن حذيفة قال : قال رسـول الله ﷺ : « فُضِّلْنا على الناس بثلاث : جُعِلَت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وجُعِلت لنا الأَرض مسجدًا ، وجُعِلت لنا تربتها طهورًا إذا لم نجد الماءَ ، وليس يصطف أَحد من أَهل المِلل فى صلاتهم غير المسلمين » .

وفى صحيح مسلم عن جابر بن سَمُرة قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن فى المسجد فقال : « أَلَا تَصُفُّون كما تصفُّ الملائكة عند ربها ، فقلنا : يارسول الله ، كيف تَصُفُّ الملائكة عند ربها ؟ قال : يُتِمُّون الصفوف الأُوَل ، ويتراصُّون فى الصف » . وقال أَبو نَضرة : كان عمر ـ رضى الله عنه ـ إذا أُقيمت الصلاة استقبل الناس بوجهه ثم قال : « أَقيموا صفوفكم ، استووا قيامًا يريد الله بكم هَدْى الملائكة ، ثم يقول : (وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّآفُّونَ) تأَخر يافلان ، تقدم يافلان ، ثم يتقدم فيكبِّر » .

١٦٦ ـ (وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ) :

أى : المنزِّهون الله عمَّا لا يليق به ــ سبحانه ــ ويدخل فيه ما نسبه الكفرة إلى الله ــ تعالى ــ وقيل : أى القائلون : سبحان الله ، وأخرج عبد بن حُميد وغيره عن قتادة أنه قال : المُسبِّحون ، أى : المصلُّون ، ويقتضيه ما روى عن ابن عباس : أنَّ كل تسبيح فى القرآن بمعنى الصلاة ، والأُسلوب يُفيد أنهم المواظبون على ذلك من غير فُتور ، وخواص البشر لا تخلو من الاشتغال بالمعاش ، ولعلَّ الكلام لا يخلو عن تعريض بالكفرة .

قال الزمخشرى : (وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ) أى : الْمُنَزِّهُون ، أو المصَلُّون ، والوجه أن يكون وما قبله وهو قوله : (سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ) من كلام الملائكة حتى يتصل بذكرهم فى قوله : (وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ) كأنَّه قيل: وقد علمت الملائكة وشهدوا : أن المشركين محضرون يوم القيامة لعقابهم ، وقالوا : سبحان الله ، فنزَّهوه عن ذلك ، واستثنوا عباد الله المخلصين ، وبرَّءوهم منه ، وقالوا للكفرة : إنَّكم وآلهتكم لا تقدرون أنْ تفتنوا على الله أحدًا من خلقه وتضلوه ، إلَّا من كان مثلكم ممن علم الله أنهم من أهل النار لكفرهم ، وكيف نكون مناسبين لرب العزة ويجمعنا وإياه جنس واحد ، وما نحن إلَّا عبيد أذلَّاء بين يديه لكل منا مقام من الطاعة لا يستطيع أن يزلّ عنه خشوعًا لعظمته وتواضعًا لجلاله ، ونحن الصَّافُّون أقدامنا وأجنحتنا لعبادته ، مذعنين خاضعين مسبِّحين مُمَجِّدين كما يجب على العباد لربهم .

١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ـ (وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ٭ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ٭ لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ) :

عود إلى الإخبار عن المشركين : بأَنهم كانوا قبل بعثة محمد ﷺ يقولون : لو أنَّ عندنا ذكرًا ، أى : كتابا من كتب الأَولين الذين أُنزل عليهم التوراة والإنجيل ؛ لأَخلصنا

العبادة لله ، ولما كذَّبنا كما كذبوا ، وخالفنا كما خالفوا ، وقيل : كانوا يتمنون قبل أن تُبعث يا محمد لو كان عندهم من يذكِّرهم بأمر الله ، وما كان من أخبار القرون الأُولى ، ويأْتيهم بكتاب من عند الله ، إذا لاتَّبعوه ، ولما حاربوه ، فجاءهم نبي هو خير الأَنبياءِ ، وسيد المرسلين ، ومعه كتاب مُعجز مهيمن على سائر الكتب والأَخبار ، وهو القرآن الكريم ، كتاب الله الذى لا يأْتيه الباطل من بين يديه ولا من خَلْفه ، حوى الخير والسعادة للبشرية كلها .

١٧٠ - (فَكَفَرُواْ بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) :

فجاءهم الكتاب الذى تمنوه وطلبوه فكفروا به ، فسوف يعلمون عاقبة كفرهم ، وما يحل بهم من الانتقام ، وهو وعيد أكيد ، وتهديد شديد على كفرهم بربهم ، وتكذيبهم لكتابه ورسوله .

(وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾)

المفـردات :

(فَتَولَّ عَنهُمْ) : فأَعرض عن كفار مكة .

(حَتَّىٰ حِينٍ) : إلى الوقت الذى أمهلوا فيه ، أَو إلى بدر أَو فتح مكة .

(بِسَاحَتِهِمْ) : بفنائِهم ، والمراد : بهم .

(فَسَآءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ) أَى : فبئس الصباح صباحهم .

التفســـير

١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ـ (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ) :

استئناف مُقرِّر للوعيد ، وتصديره بالقسم لتمام العناية بتحقيق مضمونه ، أى : وبالله لقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين بالنصرة والغلبة على الكافرين ، والكلمة هى قوله ـ تعالى ـ : (إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ) وإنما سماها كلمة وهى كلمات عدة ؛ لأنَّها لمَّا انتظمت فى معنى واحد كانت فى حكم كلمة مفردة . وقُرِئَ : كلماتنا ، والمراد : الوعد بِعلوِّهم على عدوهم فى مقام الحِجاج ، وملاحم القتال فى الدنيا ، وعلوهم على غيرهم فى الآخرة ، كما قال ـ تعالى ـ : « وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »[1] ولا يلزم انهزامهم فى بعض المشاهد ، وماجرى على بعضهم من القتل ؛ لأن قاعدة أمرهم وأساسه والغالب منه الظفر والنصرة وإن وقع فى تضاعيف ذلك شَوْبٌ من البلاء والمحنة ، فالحكم للغالب ، وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : « إن لم يُنْصروا فى الدنيا نصروا فى الآخرة » .

١٧٤ ـ (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ) :

أى : فأعرض عن كفار مكة ، واصبر على أذاهم لك ، وانتظر إلى وقت مؤَجل ، فإنا سنجعل لك العاقبة والنصرة عليهم ، والظفر بهم ، وذلك يوم بدر ، أو فتح مكة ، والأخير هو الظاهر ، فإنه ﷺ قد نصر عليهم نهائيا فى فتح مكة ؛ ودخلوا فى دين الله أفواجا ، وصدق الله إذ يقول : (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى) فقد أحياهم الله بالإسلام .

١٧٥ ـ (وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ) :

وأبصر ما يكونون عليه يوم القيامة من العذاب فسوف يُبصرون ما يكون لك من مزيد الثواب ، أو المراد : وأبصرهم يوم القيامة وهم يعذبون ، فسوف يبصرون ويندمون حين لا ينفعهم ذلك ، وفى ذكر ذلك تسلية للرسول ﷺ وتنفيس عنه .

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٢١٢ .

١٧٦ ـ (أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ) : استفهام توبيخ :

والمعنى : أَسُلبوا عقولهم فبعذابنا يستعجلون ؟ فكأنه يقول : لا تستعجلوه فإنه واقع بكم ، إن استمررتم على كفركم وتكذيبكم لرسولكم ، ورُوى أنه لَمَّا نزل (فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ) قالوا : متى ذلك ؟ فنزلت .

١٧٧ ـ (فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ) :

أى : فإذا نزل العذاب الموعود بساحتهم وحل بهم وهم مصرون على الكفر فبئس صباح المنذرين صباحُهم ، رُوى فى الصحيحين : عن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال : لما أتى رسولُ الله ﷺ خيبرَ وكانوا خارجين إلى مزارعهم ومعهم الْمَساحِى قالوا : محمد والخميس ، ورجعوا إلى حصنهم ، فقال ﷺ : « الله أكبر خربت خيبر ، إنَّا إذا نزلنا بساحة قوم (فَسَآءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ) » .

قال الزمخشرى : مَثَّل العذاب النازل بهم بعد ما أُنْذِرُوه فأَنكروه بجيش أنذر بعضُ النصحاء قومه بهجومه عليهم فلم يلتفتوا إلى إنذارهم ، ولا أخذوا أهبتهم ، ولا دبَّروا أمرهم تدبيرًا ينجيهم حتى أناخ بفنائهم بغتة ، فشنَّ عليهم الغارة ، وقطع دابرهم ، وكانت عادة مغاويرهم أن يغيروا صباحاً فسميت الغارة صباحاً وإن وقعت فى وقت آخر ، وما فَصُحَتْ هذه الآية ولا كانت لها الرَّوْعة التى تحسُّ بها ويروقك موردها على نفسك وطبعك إلا لمجيئها على طريق التمثيل . ا هـ :كشاف بتصرف .

١٧٨ ـ (وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ) :

أى : أعرض عنهم إلى وقت ينتهى فيه أمرهم ولا تهتم بمعارضتهم وتكذيبهم إياك .

١٧٩ ـ (وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ) :

أى : أبصر ما يستقبلك ويستقبلهم ، فسوف يرون مابه يستعجلون ، إن استمروا على كفرهم .

والآية تسلية لرسول الله إثر تسلية ، وتأكيد لوقوع ما أُنذروا به عقب تأكيد ، مع ما في إطلاق الفعلين عن المفعول من الإيذان بأن ما يبصره - عليه السلام - حينئذ من فنون المسرّات وما يبصرونه من أنواع المضار لايحيط به الوصف والبيان ، ويجوز أن يراد بقوله - تعالى - : (وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ) عذاب الدنيا وعذاب الآخرة .

(سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾)

المفردات :

(سُبْحَانَ رَبِّكَ) : تنزيهاً لربك يا محمد عما يصفه به المشركون .

(الْعِزَّةِ) : الغلبة والقدرة .

التفسير

١٨٠ - (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ) :

أى : تنزيهاً لله - تعالى - عن كل ما يصفه به المشركون مما لا يليق بكبريائه وجبروته ، مما حكى عنهم فى السورة الكريمة « كاتِّخَاذ الصَّاحبة والولد » وزعمهم أن الله لن ينصره عليهم وكأنه قيل : سبحان من هو مربِّيك ومكمِّلك ومن له الْعِزةُ والغلبة والبطش على الإطلاق عما يصفه به المشركون ، وما يلحقونه به من الأُمور التى منها : ترك نصرتك عليهم ، كما يدل عليه استعجالهم بالعذاب والمقصود من قوله : (رَبِّ الْعِزَّةِ) أَنَّهَا لَهُ - تعالى - وحده ، وما من عزة لأحد من الملوك وغيرهم إلَّا وهو - عز وجل - ربُّهَا ومالكها .

قال الزمخشرى : أضيف الرب إلى العزة لاختصاصه ـ تعالى ـ بها ، كأنه قيل : ذى العزة ، كما تقول : صاحب صدق لاختصاصه بالصدق .

١٨١ ـ (وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ) :

تشريف للرسل كلهم بعد تنزيه ـ تعالى ـ لنفسه عمَّا ذُكر ، وتنويه بشأنهم وإيذان بأنهم سالمون من كل المكاره ، فائزون بكل المآرب ، لهم أمن الله ـ عز وجل ـ فى الدنيا ويوم الفزع الأكبر ؛ لأنهم الذين بلَّغوا عن الله الشرائع ، ونشروا رسالة السماء إلى الأرض ، وكانوا رواد الناس إلى الصراط المستقيم ، والطريق القويم .

١٨٢ ـ (وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) :

إشارة إلى وصفه ـ تعالى ـ بصفاته الكريمة الثبوتية ، بعد التنبيه على اتصافه ـ عز وجل ـ بجميع صفاته السلبية . والمعنى : والثناء لله وحده . خالق العالمين ومربيهم على موائد كرمه ، القائم على الخلق أجمعين . وقال القرطبى : (الحمد لله رب العالمين) أى : على إرسال الرسل مبشرين ومنذرين ، وقيل : على هلاك المشركين . ودليله : « فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » [1] .

قلت : والكل مراد ، والحمد يعمُّ . ا هـ « بتصرف يسير » .

والمراد من هذه الآيات : تنبيه المؤمنين على كيفية تسبيحه ـ سبحانه ـ وتحميده والتسليم على رسله ـ عليهم السلام ـ ولعلَّ توسيط التسليم على المرسلين بين تسبيحه ـ تعالى ـ وتحميده لختم السورة الكريمة بحمده ـ تعالى ـ على مافيه من الإشعار بأن توفيقه ـ تعالى ـ للتسليم على المرسلين من جملة نعمه الموجبة للحمد .

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٤٥ .

وهذه الآيات من الجوامع والكوامل ، ووقوعها في موقعها هذا ينادى بأنه كلام من له الكبرياء ومنه العزة ــ جل جلاله ــ وعمَّ نواله ، وقد أخرج الخطيب : عن أبي سعيد قال : كان رسول الله ﷺ يقول بعد أن يسلم : (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) وأخرج ابن أبي حاتم : عن الشعبي قال : قال رسول الله ﷺ : « من سرَّه أن يُكْتَال له بالمكيال الأوفى من الأَجْـر يوم القيامة فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم : (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) » .

ســورة ((ص))

وجه مناسبتها لما قبلها

١ ـ سورة « صٓ » هي كالمتممة لسورة «الصافات» التي قبلها لأنه ـ سبحانه وتعالى ـ ذكر فيها بعض الأنبياء الذين لم يذكرهم في السورة السابقة كداود وسليمان ـ عليهما السلام ـ

٢ ـ كذلك لما ذكر ـ سبحانه وتعالى ـ في سورة « الصافات » عن الكفار أنهم قالوا : « لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ » وأنهم كفروا بالذكر لما جاءهم بدأ ـ عزَّ وجلَّ ـ في سورة « صٓ » بالقسم بالقرآن ذي الذكر ، وفصَّل فيها ما أجمله هناك من أحوال كفرهم .

ومن دقَّق النَّظر في السورتين لاحت له مناسبات أخرى كذكر قصص الأنبياء والمرسلين مع أممهم . وكيف نصر الله الحق وأعزَّ سلطانه ، ودمر الباطل وقوَّض صولجانه .

مقـــدمة :

سورة « صٓ » مكيَّة وآياتها ثمان وثمانون آية . وهي السورة الثامنة والثلاثون من سور القرآن الكريم .

بدئت السورة الكريمة بالقسم بالقرآن ذي الشَّرَف على أنه الحقُّ لا ريب فيه ، ثم ذكرت أنَّ الَّذين كفروا ما منعهم عن الإيمان بالله ، والتَّصديق برسوله إلَّا الأنفة والتكبُّر على الحقِّ وحب الجدل والمشاقَّة والمعاندة لرسوله .

ثم قصَّ الله فيها أخبار الأنبياء والرسل السابقين ليكون ذلك زجرًا للكافرين والمكذبين ، وتثبيتًا للرَّسول وللمؤمنين ، وليصبر الرسول على تبليغ الدعوة مهما لاقى في سبيلها من أهوال وأذى .

وذكر الله فى هذه السورة ما لم يذكره فى سورة « الصَّافَّات » ذكر قِصَّة داود ذى القوَّة فى الدين والدُّنيا ، الأَوَّاب الَّذِى ذَلَّل الله الجبال تسبِّح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار ، وذلَّل له الطَّيْر تُرَجِّعُ معه التسبيح ، وقَوَّى الله ملكه وآتاه النُّبوة والقضاء فى الخصومات ، ثم تحدَّثت السورة عن خبر الخصم الَّذين تَسوَّرُوا المحراب على داود ، وقضى بينهم دون تثبُّت ومراجعة لأَقوال الخصم الآخر حتى يتَّضِح له وجه الحق جليًّا ، وعلم داود أن الله امتحنه بهذه القصة ، فاستغفر رَبَّه ، وخَرَّ راكعًا وأناب ، فغفر الله له ذلك ، وله عنده زلفى وحسن مآب ، ووَصَّى الله نبيَّه داود - وهى وصيَّة من الله كذلك لكل الولاة ، والحكام - أن يحكموا بين الناس بالحقِّ المنزَّل من عنده ، ولا يعدلوا عن ذلك فيضلُّوا عن سبيل الله ؛ لأَنَّ العدل أساس الملك ، وقِوام الأمم ، وأمان الشعوب ، ولقد تَوعَّد الله من ضلَّ عن سبيله ، وتناسى يوم الحساب بالوعيد الشديد ، والعذاب الأَليم .

ثم بيَّنت السورة أنَّ مِن حكمة الله وعدله أَلَّا يُسوِّى بين المؤمنين والكافرين ، وذكرت السورة أن الله وهب لداود سليمان الكثير العبادة والإنابة ، ومن أخباره أنه عُرض عليه بالعَشِىِّ الخيلُ فقال : إنِّى آثرت حب الخير - أى : الخيل - لأنَّها عدَّة الخير ، وهو الجهاد فى سبيل الله ، وظلَّ مشغولًا بعرضها عليه حتى غابت عن ناظريه ، ثم أمر بردها عليه ليتعرف أحوالها وأخذ يمسح سوقها وأعناقها رفقًا بها وحبًّا لها ، وحدبًا عليها ، ولقد امتحن الله سليمان لئلا يغترَّ بأُبَّهة الملك وعظمته فألقاه على كرسيِّه جسدًا بلا قُوَّة يستطيع بها تدبير الملك ، فتنبَّه لهذا الامتحان فرجع إلى الله وأناب ، وطلب من الله ملكًا لا ينبغى لأَحد من بعده ، فسخَّر له الوهَّاب الرِّياح تجرى بأمره ، كما سخَّر الشياطين وجعلها طوع مشيئته .

وعقَّبت السورة على ذلك ببيان ما أعدَّه الله للطائعين والمتقين من ثواب وحسن مآب ، وللعاصين والطاغين من عذاب وعقاب وشر مآب .

ثم صوَّرت السورة تخاصم أهل النار وتحسرهم حينما يقولون : (مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ * أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ) .

وفى السورة يأمر الله رسوله أن يقول للكافرين المشركين به : إنّما أنا منذر ولست إلهًا ، ومامن إله إلّا الله الواحد القهّار ، ربّ السّموات والأرض ومابينهما ، مالك جميع ذلك ، ومتصرف فيه ، العزيز الغفار يغفر مع عظمته وعزته . قل لهم يامحمد: إرسال الله إيّاى لكم خير عظيم وشأن بليغ هام أنتم عنه مُعْرضون غافلون ، لا تفكّرون فيه ، ولولا الوحى ماكنت أدرى باختلاف الملأ الأعلى فى شأن آدم ــ عليه السلام ــ وخلقه وخلافته ، وامتناع إبليس عن السجود له ، ومحاجّته ربّه فى تفضيله عليه .

وهذه القصة ذكرها الله فى سورة « البَقَرة » وفى أول سورة « الأَعْرَافِ » وفى سورة « الْحِجْر » وسورة « سبحان » ــ « والكَهْف » وذكرها القرآن هنا ليذكّر الناس بما كان بين أبيهم آدم وعدوّه وعدُو الله إبليس عليه اللّعنة، وليعلموا أن تكبُّره كان سببًا فى طرده من رحمة الله إلى يوم القيامة .

وفى ختام السورة يقول الله ــ تعالى ــ : قل يامحمد لهؤلاء المشركين : ماأسألكم على هذا الإبلاغ وهذا النصح أجرًا من عرض الحياة الدنيا ، وماأنا من المتكلّفين المتصنّعين المدّعين للنبوّة ، وماالقرآن الذى نزل علىّ إلّا تذكير وموعظة للعالمين ، ولتعلمنّ صحة خبره وصدق ماجاء به من وعد ووعيد ، وبعث وجزاء ، وعلوم وآيات كونية بعد حين ، عندما تُكشف الأستار ، وتُذاع الأسرار أمام من لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣)

المفردات :

(صٓ) : اختلف فى تفسيره اختلافهم فى نظيره من فواتح السُّور ، فارجع إلى ما كتبناه فى صدر سورة « البقرة » .

(ذِى الذِّكْرِ) : ذى الشَّرف ، أو الذكر : الموعظة .

(عِزَّةٍ) : حمية واستكبار عن الحق .

(وَشِقَاقٍ) : ومعاندة ومخالفة .

(قَرْنٍ) : يطلق مجازًا على الأمة .

(فَنَادَوْا) : فاستغاثوا وجأَروا ، والنداءُ والجؤار : رفع الصوت .

(وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ) : وليس الوقت وقت فِرارٍ وخلاص .

والمناص : التأخر والْفَوْت .

التفسير

١ - (صٓ وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ) :

(صٓ) : بالسكون على الوقف عند الجمهور ؛ لأنها حرف من حروف الهجاء مسرودة على منهاج التعداد ، ويقول فى مثله السلف : الله أعلم بمراده ، وقد فصلنا آراءَ العلماء فى مثله أول « البقرة » وغيرها فارجع إليه ، وقرأ أُبى والحسن وغيرهما « صادِ » بكسر الدال ، وأخرج ابن جرير عن الحسن : أنَّ صادِ - بكسر الدال منونا - أمْر من صَادى ، أى : عارض ، ومنه الصَّدى وهو ما يعارض الصوت الأَول ، ويقابله بمثله فى الأَماكن الخالية .

والمعنى : عَارِضِ القرآن بعملك ، أى : اعمل بأَوامره ونواهيه ، وقال عبد الوهاب : أى : اعرضه على عملك فانظر أين عملك من القرآن .

(وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ) : قسم أَقسم به ربنا - عز وجل - أى : أُقسم بالقرآن المشتمل على ما فيه ذكر للعباد ونفع لهم فى المعاش والمعاد ، وقيل : ذى الذكر : ذى الشرف والمكانة ، ولا منافاة بين القولين فإنه كتاب شريف مشتمل على التذكير والإنذار ، وجواب القسم

يدل عليه المقام ، أى : وحق القرآن إنه لمُعجز ، أو إنه ليجب العمل به ، وقيل : الجواب قوله تعالى : (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ) .

٢ ـ (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ) :

معنى الآية مع ما قبلها كما يلى : وحق القرآن المشتمل على التذكير والعبرة إنه ليجب الإيمان به ، لكن الكافرين لم يؤمنوا ، لا لخَلَل وجدوه فيه ، بل لأنهم فى استكبار شديد عن اتباع الحق ، وشقاق أى : مخالفة لله ومعاندة ومشاقَّة لرسوله ، ولذلك كفروا به .

وأصل الشِّقاق : إظهار المخالفة على وجه المساواة للمُخَالِف ، أو على وجه الفضيلة عليه ، وهو مأخوذ من الشِّق أى : كأنه فى شِق غير شِق صاحبه ، فهو يترفَّع عليه بأن يكون معه فى شِق واحد ، ومثله المعاداة ، وهو أن يكون أحدهما فى عُدْوَة والآخر فى عُدْوة ، والتعبير بفِى فى قوله تعالى : (فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ) للدلالة على استغراقهم فيهما ، والتنكير فى (عزة وشقاق) لشدتهما .

٣ ـ (كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ) :

وعيد لهم على كفرهم واستكبارهم ببيان ما أصاب أضْرابهم ، لتخويفهم بما أهلك به الأمم المكذِّبة المستكبرة قبلهم بسبب مخالفتهم للرسل ، وتكذيبهم الكتب المنزَّلة من السماء ، وتماديهم فى الشقاق والعناد والكِبْر .

والمعنى : كثيرًا ما أهلكنا قبلهم من أُمَّة مكذِّبة ، وحين جاءهم العذاب وحلَّ بهم العقاب استغاثوا وجأروا إلى الله بالدعاء والتوبة ، وليس ذلك بمُجْدٍ عنهم شيئًا ، فليس الوقت وقت فرار من العقاب ، ولا وقت هرب ونجاة من العذاب بالتَّوبة والدعاء ، وما اعتبر كفار مكة بهؤلاء ، بل تمادوا فى غيِّهم وفرارهم من الإيمان ، وأخرج الطَّسْتِى عن ابن عباس : أنَّ نافع بن الأزرق قال له : أخبرنى عن قوله تعالى : (وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ) فقال : ليس بحين فرار .

وعن الكلبى أنه قال : كانوا إذا تقاتلوا فاضطروا قال بعضهم لبعض : مناص ، أى : عليكم بالفرار ، فلما أتاهم العذاب قالوا : مناص ، فقال تعالى : (وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ)[1] .

---

(١) وقال الفراء : النوص : التأخر ، يقال : ناص عن قرنه ينوص نوصا ومناصا فروزاغ ، ويقال : ناص ينوص إذا تقدم . أضداد .

(وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾)

المفردات :

(عُجَابٌ) : بالغ الغاية فى العجب .

(الْمَلأُ) الأشراف والوجوه .

(امْشُواْ) : سيروا على طريقتكم وامضوا على دينكم .

(الْمِلَّةِ الآخِرَةِ) : دين النصرانية .

(اخْتِلَاقٌ) : كذب وافتراء من غير سبْق مِثْل له .

(الأَسْبَابِ) : المعارج إلى السماء .

التفسير

٤ ـ (وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ) :

حكاية لأباطيلهم المتفرعة على ما حكى من استكبارهم وشقاقهم ، أى : عجب مشركو مكّة من أنْ جاءهم رسول بشرمن جنسهم أُمىّ من نوعهم ، والمراد : أنهم عدُّوا ذلك أمرا عجيباً خارجاً عن احتمال الوقوع ، وأنكروه أشد الإنكار ، لا أنهم اعتقدوا وقوعه وتعجبوا منه ، وأعجب العجب أن ينكروا أن يكون الرسول من البشر ، ولا ينكروا أن يكون الإله المعبود لهم من الحجر .

وقال الكافرون : هذا ساحر يجىء بالكلام المموه الذى يخدع به الناس ، شديد الكذب فيما يسنده إلى الله – عز وجل – من الإرسال والإنزال ، وهل ترى كفرًا أعظم ، وجهلا أبلغ من أن يسمُّوا من صدَّقه الله بوحيه ، وأيَّده بالمعجزة الدالة على صدقه ساحرًا كذابا .

وقوله – تعالى – : (وَقَالَ الْكَافِرُونَ) فيه وضع الظَّاهر موضع الضمير غضباً عليهم وذمًّا لهم ، وإيذاناً بأنه لايتجاسر على مثل ما يقولون إلَّا المتوغِّلون فى الكفر .

٥ – (أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَـٰهاً وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ) :

أى : أزَعم أن المعبود واحد لا إله إلا هو ، أنكر المشركون ذلك – قبحهم الله تعالى – وتعجَّبوا من ترك الشرك بالله لأنهم كانوا قد تلقَّوا عن آبائهم حُبَّ عبادة الأوثان ، وأشربته قلوبهم ، فلما دعاهم الرسول ﷺ إلى خلع ذلك من قلوبهم وإفراد الإله بالوحدانية ، أعظموا ذلك ، وتعجَّبوا غاية العجب وأشده ، وقالوا : (أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهاً وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ) .

وقيل : مـــدار تعجبهم عدم وفاء علم الإله الواحد وقدرته بالأشياء الكثيرة الموجودة فى هذا الكون الكبير ، أخرج الترمذى وصححه عن ابن عباس قال : لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جهل فقالوا : إنَّ ابن أخيك يشتم آلهتنا ويفعل ويقول ويقول ، فلو بعثت إليه فنهيته ، فبعث إليه فجاء النبى ﷺ فدخل البيت وبينهم وبين أبى طالب قدر مجلس فخشى أبو جهل إن جلس إلى أبى طالب أن يكون أرقَّ عليه فجلس فى ذلك المجلس فلم يجد رسولُ الله ﷺ مجلساً قرب عمه فجلس عند الباب ، فقال له أبو طالب : أى ابن أخى مابال قومك يشكونك ؟ يزعمون أنكَ تشتم آلهتهم وتقول وتقول ، قال : وأكثروا عليه القول ، وتكلم رسول الله ﷺ فقال :

يا عم ، إنى أريدهم على كلمة واحدة يقولونها يدين لهم بها العرب ، وتؤدى إليهم بها العجم الجزية ففرحوا لكلمته ولقوله ، فقال القوم : ما هى ؟ وأبيك لَنُعْطِيَنَّهَا وعشرا ، قال : لَا إِلٰه إِلَّا الله . فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم وهم يقولون : أجعل الآلهة إلٰها واحدًا إن هذا لشىءٌ عجاب ، وفى رواية : أنهم قالوا : سلْنا غير هذا . فقال – عليه الصلاة والسلام – : لوجئتمونى بالشمس حتى تضعوها فى يدى ما سألتكم غيرها ، فغضبوا وقاموا غِضَاباً وقالوا : والله لنشتمنك وإلٰهك الذى يأمرك بهذا .

٦ – (وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُواْ وَاصْبِرُواْ عَلَىٰٓ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ) :

أى : وانطلق الأشراف من قريش من مجلس أبى طالب بعد ما قاله لهم رسول الله ﷺ وشاهدوا صموده فى تبليغ الرسالة ، ونشر عقيدة التوحيد ويئسوا ممـــا كانوا يرجونه منه – عليه السلام – وكان فيهم : أبو جهل ، والعاص بن وائل ، والأسود بن عبد المطلب ابن عبد يغوث ، وعقبة بن أبى مُعيط يوصى بعضهم بعضاً – انطلقوا – وهم يتحاورون ويتفاوضون – أن سيروا على طريقتكم ، وداوموا على مسيرتكم ، واثبتوا على عبادة آلهتكم متحمِّلين لما تسمعونه فى حقِّها من القدح .

والإشارة فى (إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ) إلى ما وقع وشاهدوه من أمر النبى ﷺ وشدة تمسُّكه بعقيدته من التوحيد ، ونفى ألوهية آلهتهم ، أى : إنَّ هذا لشىء يراد من جهته، إمضاؤه وتنفيذه لا محالة من غير صارف يلويه ، ولا عاطف يثنيه ، لا قول يُقَال من طرف اللسان أو أمر يُرجَى فيه المسامحة بشفاعة إنسان ، فاقطعوا أطماعكم بنزوله على إرادتكم ، واصبروا على عبادة آلهتكم ، وقال القفال : هذه عبارة تذكر للتحذير والتخويف .

وقيل فى معنى الآية : إنَّ هذا الذى يدَّعيه من أمر التوحيد أو يقصده من أمر الرِّياسة والترفُّع على العرب والعجم لشىء يُتَمَنَّى أو يريده كل أحد ، ولكن لا يكون لكلٍّ ما يتمناه أو يريده فاصبروا .

والمعنى : ليس غرضه من هذا القول تقرير الدين ، وإنما غرضه أن يستولى علينا ، ونكون له أتباعاً ، فيتحكم فى أموالنا وأولادنا بما يريد فاحذروا أن تطيعوه .

٧ - (مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا اخْتِلَاقٌ) :

أى : ما سمعنا بهذا التوحيد الذى يدعونا إليه محمد فى ملَّة النصارى آخر الْمِلَل ، بل سمعنا خلافه وهو عدم التوحيد من أفواه النصارى ، لأنهم كانوا يدينون بالتَّثْلِيث ويزعمون أنه الدِّين الَّذى جاء به عيسى - عليه السلام - ، (إِنْ هَٰذَآ إِلَّا اخْتِلَاقٌ) أى : ما هذا الذى يدعونا إليه محمد من التوحيد وترك عبادة الأصنام إلَّا افتراء من غير سبق مِثْلٍ له ، وكذب مصنوع اختلقه محمد وابتدعه .

٨ - (أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ) :

استفهام إنكار ، أنكروا اختصاصه بالوحى من بينهم وقالوا : أَخُصَّ محمدٌ بنزول القرآن عليه من بيننا ونحن رؤساء الناس وأشرافهم ؟ وهذا كقولهم : « لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ »[1] وأمثال هذه المقالات الباطلة ترجمة عما كانت تغلى به صدورهم من الحسد لرسول الله والحقد عليه أن خُصَّ دونهم بالرسالة ، وفاز من بينهم بالنبوة (بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى) أى : ليس كفرهم بالقرآن عن يقين بل هم فى حيرة وتردُّد وتخبُّط فى شأن ذِكْرِى وهو القرآن الذى أنزلته على رسولى لميلهم إلى التَّقليد ، وإعراضهم عن الأدلة المؤدِّية إلى العلم بحقِّيَّته ، وليس عندهم بالنسبة للقرآن ما يقطعون به من التهم ، فلذا تراهم ينسبونه إلى السِّحر تارة ، وإلى الاختلاق مرة أخرى (بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ) أى : بل إنهم لم يتحيروا ويتخبطوا إلَّا لأنَّهُمْ لم يذوقوا عذابى بعد ، فاغتروا بطول الإمهال ، فإذا ذاقوه زال عنهم ما بهم من الحسد والشك ، يعنى : أنهم لا يصدقون إلَّا أن يمسهم العذاب ، فيضطروا إلى التصديق ، ولن ينفعهم ذلك حينئذ .

وفى التعبير بلمَّا دلالة على أن ذوقهم العذاب محقق وقريب الوقوع إن لم يؤمنوا .

٩ - (أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ) :

يعنى : أنهم ليسوا بمالكى خزائن الرحمة حتى يصيبوا بها من شاءُوا ويصرفوها عمن شاءُوا ، ويتخيروا للنبوَّة بعض صناديدهم وأشرافهم ، ويترفَّعوا بها عن محمد - عليه الصلاة

---

(١) سورة الزخرف ، الآية : ٣١

والسلام - وإنما يملك الرحمة وخزائنها العزيز القاهر على خلقه ، الوهاب الكثير العطايا المصيب بها مواقعها . الذى يقسِّمها على ما تقتضيه حكمته ، يعطى - سبحانه - ما يريد لمن يريد، وفى هذا إشارة إلى أن النبوّة هبة ربَّانيَّة ومنحة إلٰهيَّة ليس لأحد من خلقه شأن فيها .

١٠ - (أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُواْ فِى الْأَسْبَابِ) :

أى : بل أَلَهم ملك هذه الأجرام العلويَّة ، والأجسام السفليَّة حتى يتكلموا فى الأمور الربانية ، ويتحكَّموا فى التدابير الإلهية التى يستأثر بها رب العزة والكبرياء ، فإن كان لهم ما ذكر من الملك فليصعدوا فى المعارج ، وليتدرَّجوا فى المراقى والمناهج التى يُتَّصل بها إلى السموات ، فليدبِّروها وليتصرَّفوا فيها ويعطوا النبوة لمن شاءوا .

وقال الزمخشرى ومتابعوه : أى : فليصعدوا فى المعارج والطرق التى يُتوصَّل بها إلى العرش حتى يستولوا عليه ، ويدبِّروا أمر العالم وملكوت الله - تعالى - وينزلوا الوحى على محمد ، وهذا أمر توبيخ وتعجيز .

ثم وعد نبيَّه النصر عليهم فقال :

١١ - (جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ) :

أى : هم جند حقير مقْمُوع[1] ذليل قد انقطعت حُجَّتهم فقالوا ما قالوا ، والكلام مرتبط بما قبل (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ) أى : هم جند حقير من الأحزاب الذين تحزَّبوا على المرسلين فاستأصلناهم ، فلا تَهمنك عزتهم وشقاقهم فإنى أهزم جمعهم وأسلب عزَّهم ، وهذا إيناس للرسول ﷺ وقد فعل بهم هذا فى يوم بدر ، قال قتادة : وعدهم الله أنَّه سيهزمهم وهم بمكة فجاء تأويلها يوم بدر .

---

(١) قمعه - كمنعه - : ضربه وقهره وذلله ، والمقموع : المقهور .ا هـ : القاموس .

و (هُنَالِكَ) : إشارة لبدر وهو موضع تحزّبهم لقتال الرسول ، والأحزاب : الجند ، كما يقال : جند من قبائل شتّى ، وقال الفرّاء : المعنى : هم جند مغلوب ، أى : ممنوع من أن يصعد إلى السماء .

وأصل الْهَزْم : غمز الشّىء اليابس حتى ينحطم كهزم الشّنّ وهزم القِثّاء والبَطّيخ ، ومنه الهزيمة ، كما يعبر عنه بالحطْم والكسر .

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾)

المفردات :

(الأَوْتَادِ) : جمع وتِد وهو معروف .

(وَأَصْحَابُ الْئَيْكَةِ) الأَيكة : الشجر الكثيف الملتف ، وأصحابها هم قوم شعيب .

التفسير

١٢ ، ١٣ - (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ * وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُوْلَٰئِكَ الْأَحْزَابُ) :

استئناف مقرر لمضمون ما قبله ببيان أحوال الطغاة العتاة ، وما فعلوا من الكفر والتكذيب لرسلهم وما فُعِل بهم من العقاب تعزية للرسول وتسلية .

والمعنى : كذّبت قبل هؤلاء قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد ، أى : صاحب الملك المستقر والعرش الثابت ، وأصل ذلك : أنّ البيت من بيوت الشّعر إنما يثبت ويقوم بالأوتاد ، وقال الأَسْوَد بن يعْفُر :

ولقــد غَنَوْا فِيها بأنعم عيشة ... فى ظـل ملك ثابت الأوتاد

أو : ذو الأبنية العظيمة والجنود الكثيرة ، وقيل : ذو الأوتاد المعروفة ، كان المذنبون يُعَذَّبُون عليها فى عهد فرعون .

وقوم لوط وقوم شعيب أصحاب الشجر الكثيف الملتف أولئك الكفار المتحزبون على الرسل - عليهم السلام - كما تحزَّب عليك قومك يامحمد ، ولقد كانوا أعظم من قومك مكانة وأشدّ قوّة وأكثر أموالًا وأولادًا ،فما دفع ذلك عنهم من عذاب الله من شيء لمّا جاء أمر ربِّك . وفى ذلك يقول سبحانه:

١٤ - (إن كُلٌّ إلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ) :

استئناف جيء به تقريرا لتكذيب الأحزاب على أبلغ وجه ، وتمهيدا لما يعقبه ، ولقد ذكر القرآن تكذيبهم على وجه الإجمال فى الجملة الخبرية (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ)ثم جاء بالجملة الاستثنائية وفصله فيها بأنَّ كل واحد من الأحزاب كذَّب الرسل ، لأنهم إذا كذَّبوا واحدا منهم فقد كذبوهم جميعا ، لأن دعوتهم واحدة ، وفى تكرير التكذيب وإيضاحه بعد إبهامه والتنويع فى تكريره بالجملة الخبرية أولا والاستثنائية ثانيا ومافيها من التوكيد أنواع من المبالغة المسجّلة عليهم استحقاق أشدِّ العقاب وأبلغه ، ولذا قال : (فَحَقَّ عِقَابِ) أى : ثبت ووقع على كلٍّ منهم عقابى الذى كانت توجبه جناياتهم ، فأغرق قوم نوح ، وأهلك فرعون وقومه بالغرق أيضا ، وقوم هود بالرِّيح العقيم ، وثمود بالصَّيحة ، وقوم لوط بالحاصب ، وأصحاب الأيكة بعذاب الظُّلة .

(وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾)

المفردات :

(وَمَايَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ) : ومايننتظرون .

(فَوَاقٍ) الفوَاقُ : الوقتُ بين الحلبتين .

التفسير

١٥ - (وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِن فَوَاقٍ) :

شروع فى بيان عقاب كفار مكة إثر بيان عقاب أضرابهم ، فإن الكلام السابق مما يوجب ترقب السامع بيانه ، والنظر بمعنى الانتظار ، وبما أن القوم لاينتظرون وقوع

العقاب بهم لكفرهم برسلهم جعلوا منتظرين له لتحقق وقوعه إن بقوا على كفرهم ، وذلك على سبيل المجاز ، والإشارة بهؤلاء إلى كفار مكة للتحقير ، والمراد بالصيحة الواحدة : نفخة البعث والقيامة .

والمعنى : ماينتظر هؤلاء الكفّار المجرمون من قومك الذين هم أمثال أولئك الطوائف المُهلكة فى الكفر والتكذيب ـ ما ينتظرون ـ شيئا إلّا صيحة واحدة لاتحتاج إلى تكْرير وتَرْديد ، أو مالها توقُّف مقدار فَواق ناقة ، والفواق : الزمن الذى بين حلبتى الحالب ، ورضعتى الرّاضع ، وقيل : هل النفخة الأُولى رُوى عن أبى هريرة قال : حدَّثنا رسول الله ﷺ ونحن فى طائفة من أصحابه ، وذكر حديثا مطولا جاء فيه : « يأمر الله ـ عز وجل ـ إسرافيل بالنفخة الأُولى فيقول : انفخ نفخة الفزع ، فيفزع أهل السموات وأهل الأَرض إلّا من شاء الله ، ويأمره فيمدُّها ويديمها ويُطوِّلها يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً مَّالَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ ا هـ : ملخصا من القرطبى .

وليس المراد أن النفخة نفسها عقاب لهم لعمومها للبرّ والفاجر من جميع الأمم ، بل المراد : أنه ليس بينهم وبين العذاب الذى يستحقونه إلّا هذه النفخة إن بقوا واستمروا على كفرهم ، وقد لطف الله بهم ولم يستأصلهم كما فعل بكفار الأُمم السابقة إكرامًا لنبيه محمد ﷺ وفى ذلك يقول الله تعالى : « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ »[1] ولأنه سبق فى علم الله أنهم سوف يسلمون ، وقد مَنَّ الله عليهم بالإسلام بعد فتح مكة .

﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ﴾

المفردات :

(قِطَّنَا) : قسطنا ونصيبنا .

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٣٣

التفسير

١٦ - (وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ) :

حكاية لما قالوه عند سماعهم تأخير عقابهم إلى الآخرة ، أى : قالوا بطريق الاستهزاء والسخرية : ياربَّنا عجِّل لنا قِطَّنا ونصيبنا من العذاب الذى تتوعدنا به ولا تؤخره إلى يوم الحساب الذى مبدؤُه الصيحة المذكورة .

وتصدير دعائهم بالنداء المذكور للإمعان فى الاستهزاء، كأنَّهم يدعون إلى ذلك بكمال الرغبة والابتهال ، والقائل - على ماروى عن عطاء - : النَّضر بن الحارث وهو الَّذى قال الله فيه : «سَأَلَ سَآئِلُ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ »[1] وأبو جهل - على ماروى عن قتادة - وعلى القولَين فالباقون راضون عن هذه السخرية ، فلذا جىء بضمير الجمع .

والقِط : القطعة من الشىء ، من قَطَّه : إذا قطعه ، ويقال لصحيفة الجائزة[2] : قِطٌّ ؛ لأنَّها قطعة من القرطاس ، وقد فسَّره بها أبو العالية والكلبى، أى : عجِّل لنا صحيفة أعمالنا لننظر فيها ، وجاء فى رواية أُخرى : أنَّهم أرادوا نصيبهم من الجنَّة ، وروى ذلك عن قتادة وابن جبير ، وذلك أنهم سمعوا رسول الله ﷺ يذكر وعد الله - تعالى - المؤمنين الجنة فقالوا على سبيل الاستهزاء : عجل لنا نصيبنا منها ، لنتنعم به فى الدنيا .

قال الفراء : القِطُّ فى كلام العرب : الحظ والنصيب .

(ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾)

---

(١) سورة المعارج : الآية ١

(٢) أى : صحيفة العطاء .

المفــردات :

(الْأَيْدِ) : القوَّة والبطش .

(أَوَّابٌ) : رجَّاع إلى الله ، أو مُسبِّح .

(الْعَشِيِّ) : من زوال الشمس إلى غروبها ، وقال الراغب : إلى الصباح .

(الْإِشْرَاقِ) : وقت الضحى ، قال ثعلب : شرقت الشمس إذا طلعت ، وأشرقت إذا أضاءت وصَفَت ، فوقت الإشراق وقت ارتفاعها عن الأُفق ولذا يقال : شَرِقت الشمس ولما تُشْرِق .

(مَحْشُورَةً) : مجموعة ، أو محبوسة فى الهواء .

(شَدَدْنَا مُلْكَهُ) : قوَّيناه بكل أسباب القوة .

(الْحِكْمَةَ) : النبوَّة ، أو كمال العلم والعمل .

(فَصْلَ الْخِطَابِ) الخطاب هنا : بمعنى الخصام ؛لاشتماله عليه ، أو لأَنه أحد أنواعه ، وفصل الخطاب : التمييز بين حقه وباطله .

التفسـير

١٧ - (اَصْبِرْ عَلَىٰ مَايَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ) :

أى : اصبر يا محمد على مايقوله فيك المشركون من أمثال هذه المقالات الباطلة المؤذية الَّتى حكى القرآن عنهم بعضها فيما سبق ، كقولهم : (هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ) ... إلخ واذكر لهم قصَّة عبدنا داود - عليه السلام - تعظيما لأَمر المعصية فى نفوسهم وتنبيها لهم على قبح ما اجترءوا عليه مِمّا رموا به الرسول ، فإن داود - عليه السلام - مع علو شأْنه وإيتائه النبوَّة والملك لما أَلمَّ بما هو خلاف الأَوْلى رجع إلى الله واستغفره مع أَنَّه لم يفعل معصية ، فما الظن بهؤلاء الكفرة الأَذلِّين الذين لم يزالوا على أكبر الكبائر مصرين .

قِيل : إنَّ داود قضى بين الخصمين بسماع دعوى أحدهما دون سماع الآخر .

وقيل : المعنى اصبر على قولهم واذكر لهم قصص الأنبياء لتكون برهانا على صحة نبوّتك. ذكره القرطبي .

(ذَا الْأَيْدِ) أى : ذا القوة فى الدين والدنيا، شديد البطش فى مخالفة الله ، كثير الصبر على عبادته وطاعته ،(إِنَّهُ أَوَّابٌ) : إنه كان رجّاعا إلى الله وطاعته فى جميع أحواله وكل أموره وشئونه ، أخرج الدّيْلمى : عن مجاهد قال : سألت ابن عمر عن الأوّاب فقال : سألت النبى ﷺ قال : « هـو الرجل يذكر ذنوبه فى الخلاء فيستغفر الله تعالى » قال ابن كثير : ثبت فى الصّحيحين عن رسول الله أنه قال : « أحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله – عز وجل – صيام داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، وكان يصوم يوما ويفطر يوما ، ولايَفر إذا لاَقَى ، وأنه كان أوّابا » والتعبير بعبدنا إظهار لشرفه بهذه الإضافة .

١٨ – (إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ) :

استئناف لبيان قصته – عليه السلام – ويجوز أن يكون تعليلا لقوته فى الدين وأوّابيته إلى الله – عز وجل – وإيثار ذكر لفظ «معــه» على «اللّام» فى الآية الكريمة لأن تسخير الجبال له لم يكن بطريق التّفويض بالتّصرّف المطلق فيها كتسخير الرِّيح لسليمان بل بطريق الاقتداء فى عبادة الله – تعالى – أى : إنّا ذلّلنا له الجبال وسخرناها تسبح معه آخــر النهار ووقت الضحى ، رُوى عن أم هانىء بنت أبى طالب : أن النبى ﷺ صلّى صلاة الضحى وقال : « هذه صلاة الإشراق » وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد : عن عطاء الخراسانى أن ابن عباس قال : لم يزل فى نفسى من صلاة الضحى شىءٌ حتى قرأت هذه الآية (يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ) وفى رواية عنه أيضا : ماعرفت صلاة الضحى إلّا بهذه الآية ، وللعلماء فى صــلاة الضحى كلام طويل والحق سنّيتها ، وقد ورد فيها – كما قال الشيخ ولى الدين بن العراقى – أحاديث كثيرة مشهورة حتى قال محمد بن جرير الطبرى : بلغت مبلغ التواتر ، وذكر الشافعية : أنها أفضل التطوع بعد الرواتب ، لكن النووى قدّم عليها صلاة التّراويح ، وأقلها ركعتان ، لخبر البخارى : عن أبى هريرة

أنه – عليه الصلاة والسلام – أوصاه بهما وألّا يدعهما . وأدنى كمالها: أربع ، فست ، فثمان .

١٩ – (وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ) :

وذلّلنا لداود الطير وسخّرناها مجموعة من كل صنف ومكان (كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ) أى : كل واحد من الجبال والطير لأجل تسبيحه رجّاع إلى التسبيح ، قال ابن عباس : كان داود إذا سبّح جاوبته الجبال، واجتمعت إليه الطير فسبحت معه ، فاجتماعها إليه : حشرها .

فالمعنى: وسخّرنا الطير مجموعة إليه لتسبّح الله معه ، ويجوز أن يكون الضمير فى (كُلٌّ لَّهُ) عائدا على الله – تعالى – لا على داود ، والمعنى: كل من داود والجبال والطير : أوّاب لله – تعالى – ، أى : مسبّح مرجّع للتسبيح .

٢٠ – (وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ) :

وقوينا ملك داود بالهيبة ، والنّصرة ، وكثرة الجنود ، ومزيد النّعمة . قال ابن كثير : ذكر ابن جرير : عن عكرمة : عن ابن عباس – رضى الله عنهما – : أن نَفَرين من بنى إسرائيل استعدى أحدهما على الآخر إلى داود – عليه السلام – أنّه اغتصبه بقرا ، فأنكر الآخر ، ولم يكن للمدعى بيّنة ، فأرجأ أمرهما ، فلما كان الليل أُمِر داود – عليه السلام – فى المنام بقتل المدّعِى ، فلما كان النهار طلبهما وأمر بقتل المدّعِى ، فقال : يانبى الله علام تقتلنى وقد اغتصبنى هذا بقرى ؟ فقال له : إنّ الله – تعالى – أمرنى بقتلك فأنا قاتلك لامحالة ، فقال : والله يانبى الله إن الله لم يأمرك بقتلى لأجل هذا الذى ادعيت عليه ، وإنّى لصادق فيما ادّعيت ، ولكنى كنت قد اغتلت أباه وقتلته ولم يشعر بذلك أحد ، فأمر داود – عليه السلام – بقتله فقُتِل ، قال ابن عباس : فاشتدت هيبته فى بنى إسرائيل وهو الذى يقول الله : (وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ) ولقد ذكر هذا الخبر الزمخشرى والآلوسى . (وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ) : النبوّة ، أو كمال العلم وإتقان العمل ، وتطلق الحكمة على إتقان الأمور ، وصاحبها حكيم (وَفَصْلَ الْخِطَابِ) أى : الفصل فى الخصومات وعلم القضاء ، ورُوى عن على والشّعبى : أنه البيّنة على من ادّعى واليمين على من أنكر ، ورُوى عن أبى موسى الأشعرى أنّه : أمّا بعد ، ويقول الآلوسى : والّذى يترجح عندى أنّ المراد بفصل الخطاب : علم القضاء

والفصل فى الخصومات ، وهو يتوقَّف على مزيد علم ، ودقَّة فهم وتفهيم ، وفيه تمييز بين الحق والباطل ، وإيتاء الحقوق أربابها ، وهو العدل الذى هو أساس الملك. ويلائمه أتمَّ ملاءمة قوله – تعالى – بعد ذلك : (وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ) والله أعلم .

* (وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(وَهَلْ أَتَاكَ) : استفهام يراد منه التعجب والتشويق إلى استماع ما بعده .

(نَبَأُ): خبر .

(الْخَصْمِ): هو فى الأصل مصدر خصمه ، بمعنى خاصمه أى : جادله ، أو غلبه ، ويطلق على المفرد والمثنى والجمع ، والمراد به فى هذه الآية : الجمع .

(تَسَوَّرُواْ الْمِحْرَابَ): تصعدوا سوره وعلوه لينزلوا إلى داود

(الْمِحْرَابَ) فى الأصل : صدر المجلس ، ومنه محراب المسجد؛ لأنه فى صدره ، ويطلق على مكان العبادة .

(فَفَزِعَ مِنْهُمْ) الفزع : انقباض يعترى الإنسان من الشىء المخيف .

(بَغَى بَعْضُنَا) : جار وظلم .

(وَلاَ تُشْطِطْ) : ولا تتجاوز العدل وتتخط الحق .

(وَاهْدِنَا) : دُلَّنا وأرشدنا .

(سَوَآءِ الصِّرَاطِ) والمراد : الطريق السوى ، وهو من إضافة الصفة للموصوف .

التفسير

ذكر - سبحانه - فى الآيات السابقة أن نبى الله داود كان عبدا لله ، قويا فى دينه ، توابا ورجاعا إلى ربه ، وأنه - جل ثناؤه - سخر الجبال معه تسبح فى العشى والإشراقَ وكذلك جمع له الطير كل يقدس الله ويعظمه ، وأنه -تعالى- قوى ملكه وأعطاه القول الحق والمنطق الفصل . ثم أتى - عز علاه - بعد ذلك بتلك القصة العجيبة ، وساقها فى كتابه الكريم المنزل لتدل على أن الكمال المطلق لله وحده ، وقدم لها بما يشوق إليها ويجذب إلى الاستماع والإصغاء لها فقال :

٢١ - (وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ الْمِحْرَابَ) :

أى : وهل جاءك يا محمد : نبأُ هؤلاء الخصماء الذين تسلقوا سور محراب داود وعلوه ، ودخلوا عليه وهو متبتل لربه منقطع لعبادة مولاه؟

٢٢ - (إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لاَ تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَآءِ الصِّرَاطِ) :

فما إن دخلوا عليه حتى خاف وفزع منهم ، إذ لم يأتوا البيت من بابه ، ولم يمنعهم حراسه وخدمه من الدخول عليه ، فظن - عليه السلام- أنهم يريدون به شرا ، ويقصدونه بسوء ، ولكنهم بادروه وقالوا له : لا تخف منا فما أردنا لك كيدا ، ولا أضمرنا لك شرا فشأننا وأمرنا أن أحدنا قد بغى وظلم صاحبه ، فجئناك ابتغاء أن تحكم بيننا بالحق والعدل ، ولا تتجاوز الحد فتحيد فى حكمك وتجور فى قضائك ، ونطلب أن ترشدنا وتدلنا على الصراط المستقيم فى تلك القضية التى اختلفنا فيها .

ويبدو أن الذى كلم سيدنا داود وطلب منه الحكم بالعدل والبعد عن الجور والظلم هو ذلك الخصم الذى شعر بمرارة الظلم وفداحته ، فأخرجه ذلك عن مَرْضِىِّ القول وجميل النطق .

وكان نبى الله داود ـ عليه السلام ـ فى احتمال خطأ الخصوم مثالا ، وقدوة حسنة لكل من يحكم بين الناس من حاكم أو محكَّم ، فلم يبدر منه ـ عليه السلام ـ ما يدل على غضبه من القائل أو استهجانه لما يقول .

(إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ ۩ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾)

المفردات :

(نَعْجَةً): هى أنثى الضأن ، وتطلق على المرأة مجازا ، لما هى عليه من السكون ، والضعف .

(أَكْفِلْنِيهَا) أى : اجعلنى أكفلها كما أكفل ما تحت يدى ، والمراد ملكنيها ، أو اجعلها كِفلى ، أى : نصيبى .

(وَعَزَّنِى) : غلبنى .

(فِى الْخِطَابِ) : فى المجادلة والمحاجة .

(الْخُلَطَآءِ) : الشركاء .

(فَتَنَّاهُ): امتحناه وابتليناه .

(فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ) : سأله المغفرة ، وهى الصفح .

(خَرَّ رَاكِعاً) : سقط وهوى ساجدا .

(وَأَنَابَ) : ورجع إلى الله - تعالى - بالتوبة .

(لَزُلْفَىٰ) : لَقُرْبَةً ومَكَانَةً .

(مَآبٍ) : مرجع فى الآخرة .

التفسير

٢٣ - ٢٤ (إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى الْخِطَابِ . قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ...) الآية :

فى الآية السابقة طوى ذلك المظلوم شكايته وأجملها ، وفى هذه الآية بسطها وفصلها فقال : (إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى الْخِطَابِ) اختلف فى المراد من قوله : (أَخِى) أيريد أخاه فى النسب ، أم صاحبه وأخاه فى الإنسانية أم شريكه وخليطه .

وعقَّبذلك بأن سجل على أخيه تجاوزه تلك الأُخوة فلم يقنع هذا الأخ بما أ[illegible] الله عليه من نعمة اتسعت وجلت وعظمت حيث كان (لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً) بل ينفس على أخيه ما لديه من تلك النعمة فى أدنى صورها وهى (نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ) يريد أن يستأثر لنفسه ويضمها إلى ملكه بعد أن تملكته الأَثَرة واستسلم لضراوة حب الذات ، وصدق رسولنا ﷺ حيث يقول : (لو أن لابن آدم واديا من ذهب أحب أن يكون له واديان ولا يملأُ فاه إلا التراب ويتوب الله على من تاب) طلب صاحب التسع والتسعين من أخيه الذى ليس له إلا واحدة أن ينزل له عنها ، وأن يعطيه إياها ، وكان صاحب التسع والتسعين أقوى فى سوق حجته والإدلاء بها فى فطانة وبلاغة فغلب شريكه وأخاه وأفحمه فى الجدال والمخاصمة فواساه نبى الله داود -عليه السلام- وسلاه بما جاء فى قوله -تعالى-:(لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ) وبين نبى الله داود وأكد له أن كثيرا من الشركاء والخلطاء يبغى ويظلم بعضهم بعضا ولا ينجو من هذا الخلق الجائر والحيف القاسط إلا الذين آمنوا بربهم وعلموا أنه يحاسبهم

على أعمالهم ويجازيهم عليها ، وهم مع إيمانهم هذا قد عملوا الأعمال المرضية والأفعال الصالحة التى تحفظ عليهم إيمانهم من أن يتسرب إليه وهن ، أو يصيبه ضعف ، وزيادة فى مواساة هذا المظلوم بين له - عليه الصلاة والسلام - أن هؤلاء المؤمنين الصالحين فى قلة قليلة (وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ) أى : ليس شأنك مع خليطك بالأمر الذى لا يماثله أمر ، بل إنه جرى على أكثر ما يفعله الخلطاء من غبن وجور . (وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ) وعلم داود - عليه السلام - بدلائل لاحت له أن الله قد امتحنه وابتلاه وظهر له أنه فعل أمرا كان أولى به وأجدر ألا يفعله ؛ فهو نبى ورسول ، فطلب من الله أن يغفر ذنبه ويصفح عنه وهوى ساجداً وخاشعاً لعظمة ربه معترفاً بذنبه منيباً لبارئه وخالقه (فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ) فقبل الله منه - عليه السلام - توبته وإن له عند ربه لمنزلة ومكانة يزلفه بها ويدنيه من رحمته ، وإن له مآبا حسناً ومرجعاً كريما فى الآخرة عند مليك مقتدر .

وقد مضت الآيات السابقة دون ما إشارة إلى الذنب الذى وقع فيه داود فاستغفر ربه منه ، وقد كثر الكلام حول هذا الموضوع ، وتعددت الآثار الواردة فيه ، ومنها :

ما قيل من أن نبى الله داود رأى امرأة أحد جنوده فوقعت من نفسه فأرسل إلى قائده أن يقدم هذا الجندى على التابوت ، وكان من يقدم على التابوت لا يحل له أن يرجع حتى يفتح الله على يديه أو يستشهد ففتح الله على يدى هذا الجندى وسلم من القتل فرده مرة أخرى وثالثة حتى قتل ، فلم يحزن عليه ، وتزوج امرأته .

وهذه الرواية عليها مسحة اليهود الذين دأبوا على النيل من الأنبياء والحط من شأنهم فإن ما ينسب إلى نبى الله داود يقبح أن ينسب إلى بعض المعروفين بالصلاح من آحاد الناس وعامتهم ، فكيف يسوغ أن ينسب إلى أحد الأنبياء كداود - عليه السلام - فعن سعيد بن المسيب والحارث الأعور أن على بن أبى طالب - رضى الله عنه وكرم الله وجهه - قال : « من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين جلدة » وهو حد القذف فى حق الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - كما روى أنه حُدِّث بذلك عمر بن عبد العزيز وعنده رجل من أهل الحق فكذب المحدث به وقال : إن كانت القصة

على ما فى كتاب الله فالتماس خلافها كذب واختلاق ، فقال عمر ــ رضى الله عنه ــ : لَسَمَاعِى هذا الكلام أحبُّ إلىَّ مما طلعت عليه الشمس .

وقيل : إن نبى الله داود خطب على خِطْبة أخيه فآثره أولياءُ المرأة على الآخر ، وكان ذلك جائزا فى شرعه ، وهذا أيضاً غير لائق بإنسان صاحب مروءة ، فما بالك بالأنبياء صلى الله عليهم وسلم ــ ؟ .

وقيل : إن داود ــ عليه السلام ــ احتجب عن رعيته متبتلا منقطعا لعبادة ربه فعوتب فى ذلك لأنه ترك أمر رعيته دون القيام على شأنهم .

قال الإمام ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ : إن داود ــ عليه السلام ــ جزأ زمانه أربعة أجزاء : يوماً للعبادة ، ويوماً للقضاء ، ويوماً للاشتغال بخواص أموره ، ويوماً يجمع فيه بنى إسرائيل فيعظهم ويبكيهم ، ففاجئوه فى غير يوم القضاء ففزع منهم لأنهم نزلوا عليه من فوق ، وفى يوم الاحتجاب والحرس حوله لا يتركون من يدخل عليه .

وقيل : إن داود ــ عليه السلام ــ تعجل ورمى بالظلم ذلك الذى سأل نعجة أخيه إلى نعاجه دون تثبت أو شهادة شهود ، ودون أن يسمع قول المدعى عليه .

ولعل هذا القائل يؤكد رأيه فى الآية بقوله ــ تعالى ــ عقبها وصية لداود ــ عليه السلام ــ : (يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ) .

ونحن نرى صحة هذا الرأى. والله أعلم .

وقد التزم المحققون من أئمتنا أن الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ داود وغيره منزهون عن الوقوع فى صغائر الذنوب مبرأون من ذلك ، والتمسوا المحامل الصحيحة لأمثال هذه القصة ، كالذى قيل فى الرأى الأخير أو الذى قبله .

وهذا هو الحق الأبلج والسبيل المستقيم .. وما ذهب إليه هؤلاء المحققون من الأئمة ــ رضى الله عنهم ــ هو مــا تطمئن إليه القلوب وتنشرح له الصدور ، لأن أقصى ما يتصور حدوثه من الأنبياء هو أن يفعلوا خلاف الأولى بمقامهم ــ عليهم الصلاة والسلام .

(يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾)

المفردات :

(جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ) : استخلفناك على الملك فيها ، أو جعلناك خليفة لمن كان قبلك من الأنبياء القائمين بالحق .

(سَبِيلِ اللهِ) : طريق الله الحق وصراطه المستقيم .

(نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ) : من النسيان ، وهو إما أن يكون ضد الذكر والحفظ ، أو يكون بمعنى الترك العمد .

التفسير

٢٦ـ (يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ) ... الآية :

نبه الله ـ سبحانه وتعالى ـ نبيَّه داود ـ عليه السلام ـ إلى شرف مسئوليته وخطر وعظم رسالته فقال له : (يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ) الآية ، أى : إنا أقمناك خليفة عنا فى الأرض ، أو جعلناك خليفة فيها لمن كان قبلك من الأنبياء والرسل تسوس وترعى عباد الله فيها ، وتبلغهم ما أنزل إليك من ربك وتقوم على شأنهم ، فاقض بينهم بالحق والعدل ولا تمل أو تحد عن ذلك فتتبع هوى نفسك ، فإن اتباع الهوى والميل إلى شهوة النفس يبعدك عن طريق الله السوى وسبيله المستقيم .

وللتنبيه على شناعة الضلال عن سبيل الله وتناهيه فى القبح قال له عقب ذلك : (إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ) .

أى : أن الذين يزلون عن السبيل الحق وصراطه ويعدلون عنه لهم عذاب شديد الإيلام ؛ لأنهم نسوا يوم الجزاء والحساب وهو يوم القيامة ، فعصوا الله وتركوا طاعته فكان لهم هذا العذاب الأليم والعقاب الشديد .

هذا ، وتوجيه الله – تعالى – أنبياءه ورسله بالأمر والنهى والإرشاد والنصح لا يقدح أبدا فى عصمتهم ولا ينال من رسالتهم ، فإن النبوة والرسالة لا تنافى دوام التذكير من الله – تعالى – .

ثم بين – سبحانه – أن الحساب والجزاء حق وعدل ونظام يقوم عليه أمر الدنيا وصلاحها واستقامة حالها فقال :

(وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾)

المفردات :

(بَاطِلاً) : عبثا ولعبا دون حكمة .

(فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ) أى : فعذاب يأتيهم من النار .

(كَالْفُجَّارِ) : جمع فاجر ، وهو من ينبعث وينطلق فى المعاصى .

التفسير

٢٧ – (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَآءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً) أى : ما أنشأنا السماء والأرض وما فيهما من مخلوقات لا يعلمها ولا يحصيها إلا الله – ما خلقنا ذلك – خلقاً باطلا خاليا

من الغرض الصحيح والحكمة البالغة ، ولكن خلقناها جميعاً للحق المبين ، وذلك بأن أنشأنا فيها نفوسا وأودعناها العقل والتمييز ، ومنحناها التمكين ، وأبعدنا عنها العلل ، وعرضناها للمنافع العظيمة بالتكليف بعد أن أرسلنا إليها الرسل حتى لا تكون لهم حجة على الله ، وأعددنا لها عاقبة وجزاء ، حسب أعمالها . (ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا) أى : خلقها باطلا وعبثا هو ما يظنه هؤلاء الكفار . فى حين أنهم يقرون ويعترفون أن الله هو خالق السموات والأرض مصداقاً لقوله ـ تعالى ـ : (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) لأن إنكارهم البعث والثواب والعقاب يؤدى إلى أنها خلقت عبثًا ، وأن هذا الخلق قد خلا من الحكمة ، ومن جحد الحكمة فى خلق العالم فقد سفّه الخالق وظهر منه أنه لا يعرفه ولا يقدره حق قدره ، فكأنه غير مقر بذلك (فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ) أى : فعذاب شديد وهلاك يأتيهم من قبل النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت لهم بسبب كفرهم .

٢٨ ـ (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِى الْأَرْضِ) :

بعد أن قرر ـ جل شأنه ـ أمر البعث والحساب بما مر من نفى خلق العالم عبثاً انتقل ـ سبحانه ـ إلى تقرير ذلك وتحقيقه بإنكار التسوية بين الصالحين والمفسدين ، أى : بل أنجعل المؤمنين المصلحين كالكفرة الذين يعيثون فى الأرض فسادا ؟ أنقصر وجودهم جميعاً على الحياة الدنيا دون بعث أو حساب ؟ إن التسوية بينهما تنافى الحكمة وتخالف العدل . . . . فيتعين إذًا البعث والجزاء لرفع المصلحين إلى الدرجات العلى ورد المفسدين المضلين إلى الدركات السفلى فى جهنم وساءت مصيرا .

ثم جاء قوله ـ تعالى ـ : (أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ) انتقالا إلى ما هو أظهر وأوضح فى استحالة التسوية بين الفريقين المذكورين ؛ أى : بل أنجعل المتقين كأولئك الذين انبعثوا وانطلقوا فى المعاصى لا يردهم وازع من نفوسهم ولا خوف من ربهم ؟ أيسوى الله بينهم دون جزاء حسن لمن اتقى ، وعذاب مقيم لمن كفر وفجر ، إن التسوية بين الفريقين أمر تأباه الحكمة وينافى العدل . (وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ) .

٢٩ ـ (كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ) :

أى : هذا القرآن الكريم كتاب أنزلناه إليك كثير الخير عظيم المنافع الدينية

والدنيوية لا تنفك عنه البركة ولا يزايله الخير ، أنزلناه إليك ليتفكر هؤلاء وغيرهم فى آياته ، وما تشتمل عليه من أمر ونهى ، وإرشاد وهداية ، وقصص حق ، ووعد ووعيد إنهم لو تدبروا لوقفوا على ما فيها من المعانى الفائقة ، والتأويلات اللائقة ، والدلالات الواضحة ، ويتعظ ذوو العقول الزاكية الخالصة من شوائب الزيغ والضلال .

فلو تفكر هؤلاء وتذكروا أو استحضروا ما هو مغروس فى فطرهم لعلموا أن البعث والحساب والجزاء حق ، ولكنهم غفلوا وعموا وصموا .

وفى الآية تعريض بأن هؤلاء الكفرة ليسوا من أهل التدبير ولا من أهل العقول .

(وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾)

المفردات :

(وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ) : أعطيناه ومنحناه إياه .

(نِعْمَ الْعَبْدُ) : كلمة (نِعْمَ) تدل على المدح والثناء .

(أَوَّابٌ) : رجّاع ، أى : كثير الرجوع بالتوبة إلى الله ، أو كثير الرجوع إلى تسبيح الله .

(بِالْعَشِيِّ) العشى : من زوال الشمس عن كبد السماء إلى آخر النهار ، وقيل : إلى آخر الليل .

(الصَّافِنَاتُ): جمع صافن ، وهو الذى يرفع إحدى يديه ويقف على مقدم حافرها ، وقيل : هو الذى يجمع بين يديه ويسويهما .

(الْجِيَادُ) : جمع جواد ، وهو الذى يسرع فى مشيه إسراعا جيدا .

(حُبَّ الْخَيْرِ) أى : حب الخيل ، لقوله ﷺ : « الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة » .

(فَطَفِقَ مَسْحاً) : فجعل يمسح مسحا .

التفسير

٣٠ - (وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ . . .) :

تشير هذه الآية إلى قصة سليمان بن داود - عليه السلام - .

ومعنى الآية : وأعطينا داود ابنه سليمان وورثناه إياه ، وكان سليمان حقيقًا بتلك المنزلة وجديرًا بهذه الوراثة المباركة ، فقد أثنى عليه ربه فقال : (نِعْمَ الْعَبْدُ) ، فوصَفَهُ بِالْعُبُودِيَّةِ ، والْعبودِيَّة من أشرف الصفات وأسمى النعوت ، فقد نعت بها سيد الخلق رسولنا ﷺ قال - تعالى - : (سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ)[1] ، وقال ﷺ : « أفلا أكون عبدًا شكورًا » كما وصف سليمان بأنه - عليه السلام - كان كثير الرجوع إلى ربه يتوب إليه مما عساه أن يكون قد بدر منه من فعل غير الأولى ، أو أنه كان يكثر الرجوع إلى تسبيح الله وتنزيهه .

٣١ - (إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ) :

أى : اذكر يا محمد ما كان من أمر سليمان فى استعراضه الخيل فى منتصف النهار ، تلك الخيل التى وصفت بالصفون والجودة فجمعت بين وصفين محمودين ، فإذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة فى موقفها ، وإذا جرت كانت سراعًا خفافًا فى جريها .

---

(١) سورة الإسراء : من الآية ١

وقد عرضت على سليمان -عليه السلام - ليعلم ويقف على مدى قدرتها وقوتها وحسن تدريبها على خوض المعارك التى يتطلبها صاحب رسالة وملك، فيغزو بها أعداءه ويؤمن حدوده ويبعث الرعب فى قلوب من تحدثهم أنفسهم أن يعتدوا على ملكه .

٣٢- (فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي) أى : فقال : إنى آثرت حب الخير بسبب ما هو مذكور ومسطر فى كتاب ربىّ وهو التوراة من مدح ربط الخيل وإمساكها على الثغور والحدود فى مواجهة الأعداء فذكر - عليه السلام- أنه لا يحبها لأجل زينة الدنيا وزخرفها ونصيب النفس وحظها وشهواتها وإنما أحبها لأمر الله - تعالى - وإعزاز دينه .

(حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ) أى : حتى غابت عن بصره - عليه السلام - .

٣٣- (رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ) :

أمر سليمان - عليه السلام - الرائضين للخيل والقائمين على شأنها أن يردوها ويعيدوها إليه ، فلما عادت جعل يمسح سوقها وأعناقها تشريفًا وإعزازًا لها وشفقة عليها وإظهارًا لمكانتها ، إذ هى من أعظم ما يساعد المجاهد ويعاونه فى دفع عدوه والانتصار عليه ، وقد أبدى - عليه السلام - كمال التواضع فى مباشرة ذلك الأمر بنفسه . وهكذا يضرب الأنبياء الأمثال لأقوامهم وأتباعهم ليتأسوا بهم .

(وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾)

المفردات :

(فَتَنَّا) : ابتلينا وامتحنا .

(جَسَدًا) : جسد إنسان .

(أَنَابَ) : رجع إلى ربه .

التفسـير

٣٤ - (وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ . . .) الآية :

خير ما ورد فى تفسير هـذه القصة ما قاله رسولنا محمد ﷺ حيث قال : « قال سليمان : لأطوفن الليـلة على سبعين امرأة كل واحدة تأتى بفارس يجاهد فى سبيل الله ، ولم يقل : إن شاء الله ، فطاف عليهن فلم يحمل إلا امرأة جاءت بشقِّ رجل ، والذى نفس محمد بيده لو قال : إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرسانا أجمعون » فكانت هذه فتنة سليمان إذ أنه لم يقل : إن شاء الله ، وهذا هو الصحيح الذى جاء به الصادق المصدوق - عليه الصلاة والسلام - : أخرجه البخارى وغيره عن أبى هريرة .

أما ماورد من أنه ولد له ابن فقالت الجن والشياطين : إن عاش له ولد لنلقين منه مالقينا من أبيه من البلاء ، فأشفق سليمان - عليه السلام - منهم ، فجعل ابنه وظئره (حاضنته) فى السحاب من حيث لا يعلمون فلم يشعر إلا وقد ألقى هذا الابن على كرسيه ميتا ، تنبيها إلى أن الحذر لا ينجى من القدر ، وعوقب على ترك التوكل على الله ، فهذا خبر غير موثوق به ولا تطمئن إليه النفس ؛ لأن تسخير الريح كان بعد الفتنة .

(وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ) :

أى : وقدم هذا الشق إلى سليمان وطرح على كرسيه فألقى الله فى روعه وقذف فى قلبه أنه قد فتن وامتحن وابتلى ووقف على سبب ذلك ، فكان أن أناب إلى الله ورجع إلى ربه تائبا مستغفرا عن هذه الزلة التى فرطت منه ، وهى أنه قد نسى أن يتجه إلى ربه فى منحه تلك الذرية التى تعينه على الجهاد فى سبيل الله « بأن يقول : إن شاء الله » .

وجاء العطف (بثم) فى قوله - تعالى - : (ثُمَّ أَنَابَ) التى تدل على التراخى والبعد لأنه لم يقع الاستغفار عقب حدوث الزلة ، فإن سليمان - عليه السلام - لم يعلم الداعى إلى الاستغفار والإنابة عقب ما وقع منه من ترك قوله : إن شاء الله إلا بعد أن وضعت له إحدى نسائه شق رجل ، وكان بين طوافه على نسائه وتركه ذكر المشيئة وبين إلقاء الشق على كرسيه زمن طويل ، فناسب أن يعطف بثم ، وهذا بخلاف قصة داود - عليه السلام -

فقد جاء العطف فيها بالفاء التى تدل على الفورية وسرعة المبادرة ، لأنه علم أن الله قد فتنه وابتلاه ، ومن فور علمه استغفر وأناب لأن اللائق فى هذا المقام المسارعة إلى الإنابة .

(قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾)

المفردات :

(لَّا يَنبَغِي) : لايتيسر .

(مِن بَعْدِي) : من دونى .

التفسـير

بين – سبحانه – إنابة سليمان ورجوعه إلى ربه بقوله : (قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي) دعا سليمان ربه أن يغفر له ويصفح عنه ولا يعاقبه أو يحاسبه على مابدر منه من ترك ماهو أولى به أن يفعله ، وقدم – عليه السلام – الاستغفار – وإن كان مقصوداً لذاته – ليكون وسيلة إلى طلب الملك ، فمن كمال العبودية أن يقدم الإنسان الاعتراف بالذنب والاستغفار منه ليمحى أثره ويكون دعاؤه أرجى للقبول ، ثم طلب – عليه السلام – من ربه أن يمنحه ملكا عظيما لا يدانيه ملك أحد غيره ، ولا يسلب منه ويعطى لسواه ، وقد طلب سليمان ذلك من ربه واستوهبه إياه ، لتكون استجابة الله له أمارة على قبول إنابته وعلامة على غفران الله له ماتركه من النطق بقوله : إن شاء الله عندما أحب أن تأتى نساؤه بفرسان يجاهدون فى سبيل الله كما مر بيانه .

وقيل : إن سليمان – عليه السلام – لم يطلب من ربه هذا الطلب إلا بعد أن أمره الله بطلبه لأنه – سبحانه – علم أنه لايستطيع أن يضطلع بهذا الملك ويقوم على تصريف

أمره وسياسته وتدبير شأنه أحد غير سليمان ،فكان أن امتثل سليمان وطلبه من ربه فاستجاب له ومنحه إياه .

وجاء قوله ـ تعالى ـ : (إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ) اعترافا مؤكدا من سليمان بأن الله ـ جل علاه ـ هو وحده صاحب العطاء الواسع الكثير وليس ذلك لأحد سواه .

(فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾)

المفردات :

(فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ) : فذللناها ويسرناها له .

(رُخَاءً) : لينة طيبة لا تتزعزع ولا تضطرب ، وقيل : طيعة له لاتمتنع عليه .

(حَيْثُ أَصَابَ) : حيث قصد وأراد .

(الْأَصْفَادِ) : جمع صفد ، وهو ما يُوثَق به الأسير من قيد أو غل .

(مُقَرَّنِينَ) : مجموعين فى قيد واحد يضمهم .

(فَامْنُنْ) : فأنعم على من شئت .

(أَمْسِكْ) : احبس وامنع من شئت .

التفسير

٣٦ـ (فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ) :

فى هذه الآية الكريمة دلالة على أنه ـ سبحانه ـ استجاب لسليمان فور الفراغ من

دعائه فجاء قوله ـ تعالى ـ : (فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ) بالفاء التى تدل على الترتيب والتعقيب ، أى أن الله ـ تعالى ـ ذلل ويسر له الريح فور دعائه تطيع أمره ولا تتأبى عليه فتسير وتجرى بأمره حيث يريد ويقصد سيرا لينا لا اضطراب فيه ولا اهتزاز وذلك مع شدة سرعتها ، وعصفها فى جريها ، فقد جمع الله له فيها بين اللين وسرعة الجرى ، وهما لايجتمعان غالبا ؛ لأن السير الشديد يكون معه الاضطراب والتزعزع عادة .

٣٧ ، ٣٨ ـ (وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ) :

وسخـــر الله له الشياطين وهم مردة الجن وعتاتهم سخر له بعضهم فى أعماله ، فبنوا له ماشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ، وسخر له بعضا آخر يغوص فى البحار يجلبون له ما استتر فيها من كريم ما تحتويه من اللؤلؤ والمرجان ، وسلطه الله على من يرى أنه مدمر ومؤذ فقرن وجمع بعضهم ببعض فى أصفاد وقيود ، أو أحكم قيد كل واحد منهم على حدة اتقاء شرهم ومنعا لضررهم .

٣٩ ـ (هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) :

وقال له ربه ـ عقب تسخير الشياطين له تفضلا عليه ـ : هذا عطاؤنا ومنحتنا إليك أطلقنا فيه يديك ، فامنح من شئت وامنع من أردت ، فلا نسألك عن ذلك ولا نحاسبك عليه ؛ أنت فى خيار من أمر هؤلاء الشياطين فأمسك من شئت فى خدمتك ، وقيد من أردت من المردة فى أصفادك ، وأطلق سراح من تحب ، فلا عتاب ولا تثريب عليك ، يقول الله ذلك وهو يعلم حسن تصرفه فيما فوضه إليه .

٤٠ ـ (وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ) :

أى : وإن لسليمان عندنا لقربى ، وكرامة عظيمة مع ما أنعمنا به عليه من الملك العظيم ، وله حسن مرجع ومأوى فى الجنة ، فله عز الدنيا وسعادة الآخرة ؛ لاستحقاقه ذلك عند ربه .

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾

المفردات :

(بِنُصْبٍ) : بمشقة وتعب .

(وَعَذَابٍ) : وضر وألم .

(ارْكُضْ بِرِجْلِكَ) الركض : الدفع القوى ، أى : ادفع واضرب برجلك الأرض ضربا شديدا قويا .

(وَذِكْرَىٰ) : وتنبيها وتذكيرا .

(لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ) : لأصحاب العقول الرشيدة .

(ضِغْثًا) : حزمة من حشيش أو نحوه .

(وَلَا تَحْنَثْ) الحنث : الخلف فى الحلف وعدم الوفاء به .

التفسير

٤١ - (وَاذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِىَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ) :

أى : واذكر - يامحمد - قصة أيوب وابتلاء الله له بالمرض والمشقة والألم ، ليكون - عليه السلام - مثالا كريما يحتذيه ويتأسى به كل من تصيبه مصيبة فى نفسه أو ولده أو ماله لينال جزاء الصابرين الذين وعدهم الله بالجزاء العظيم بقوله - تعالى - : «أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ

صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ »[1] .

أو اذكر قصته – عليه السلام – فى نفسك لتكون عونا لك على الصبر على ماتلاقيه وتكابده من هؤلاء الضالين المعاندين المشركين – اذكر – أن الشيطان قد وسوس له ليثنيه عن يقينه وينال من طمأنينة قلبه بما يلح فى الوسوسة ودعـوة أيوب إلى القنوط واليأس من رحمة ربه ، وكان هذا الأمر قاسيا وشديدا على أيوب مع مرضه وعلته ، فضلا عن تسلط الشيطان على أتباعه حتى فتن بعضهم فى دينه ، ورده إلى الكفر بعد أن غرس فى نفوسهم أن الأنبياء لايبتلون ولا يمرضون ، وأن أيوب مادام قد أصابه المرض ومسه الضر فليس بنبى ولا رسول ، كما تسلط ذلك اللعين على آخرين حتى قالوا : ما ابتلى الله أيوب إلا لذنب أصاب أو جريمة اقترف ، فكان أيوب يعانى من مشقة تسلط الشيطان عليه بالوسوسة بالقنوط من رحمة الله ، كما يعانى ويتألم لفتنة أتباعه وتفرقهم عنه وتشككهم فى رسالته .

وكان أيوب – عليه السلام – فى قمة الأدب مع ربه فجاء هنا حكاية عنه قوله – تعالى – : (أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ) وجاء فى سورة الأنبياء قوله – تعالى – : (أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)[2] فلم يزد – عليه السلام – أن نادى ربه وبسط شكاته فحسب ، وفوض أمره إلى ربه راضيا بما يقضيه فيه ، وما يقدّر عليه ، فلطف به – سبحانه – واستجاب إلى ماتتوق إليه نفسه ويطمئن به قلبه من أن يذهب مرضه الذى أتعبه ونال من جسمه وحط من قوته ، وأن يصرف الشيطان عنه وإن كان لاينال من عقيدة الأنبياء ولا من عباد الله الصالحين .

٤٢ – (ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ) :

أمره – تعالى – أن يضرب الأرض برجله ضربا قويا بقوله : (ارْكُضْ بِرِجْلِكَ) فامتثل وضربها فنبعت عين ، فقال له – سبحانه – : (هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ) فاغتسل – عليه السلام – فذهب سقمه وصح بدنه وشرب فأطفأ ظمأه .

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٥٧

(٢) سورة الأنبياء ، من الآية : ٨٣

٤٣ - (وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) :

وبعد أن اكتملت له العافية من الله عليه وهب له ما كان قد تفرق عنه من ولده ، وبارك له فيهم فضاعفهم له وأعطاه كثير المال وجليل الخير ، وكل ذلك كان من رحمة الله وفضله عليه إذ سلط الله عليه البلاء فصبر ، ثم أزال عنه مانزل به ووصله بالآلاء والنعماء ، وذلك تنبيها لذوى العقول الرشيدة والبصائر النافذة والقلوب السليمة على أن من صبر ظفر ونال الجزاء الحسن .

٤٤ - (وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ) :

أبطأت امرأة أيوب - عليه السلام - وهو فى مسيس الحاجة إليها ، فقد أنهكته العلة وقعد به المرض وألح عليه الشيطان فى نفسه وتابعيه ،فأقسم إن شفاه الله وأبرأه ليضربنها مائة جلدة ، وكان البرء والشفاء والمنة العظيمة بالعافية والرضا من ربه ، فكيف يضربها وهى التى رافقته فى رحلة مرضه وقاست ماقاست من حزنها عليه ، واعتصار قلبها لما كان يكابده من العلة وعانت من تفرق الولد والأهل وذهاب المال ،وأيوب - عليه السلام - يعرف لها ماقامت به نحوه وما عانت من أجله ، ولهذا كان يود ويرجو مخرجا من هذه اليمين التى التزم أمام ربه أن يبر ولايحنث فيها، فكان أن جعل الله له مخرجا منه يرضى ربه ولا يضر زوجه ، فقال له :(وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ) أمره - جل جلاله - أن يتحلل من قسمه بأهون شىء عليه وعليها ، وذلك بأن يعمد إلى حزمة من حشيش أو ريحان أو نحوهما تضم مائة عود فيضربها بها ضربة واحدة ، ويكون بذلك قد وفى بقسمه ولم يؤذ زوجه الوفية له فى مرضه .

(إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ) :

إنا علمنا أيوب صابرا محتسبا حابسا نفسه على إرادة ربه ، لم يستطع الشيطان أن يزعزع ثقته بربه أو يقلل من اعتماده عليه ـ سبحانه .

وقد يقال : كيف يوصف أيوب بالصبر وقد شكا ؟

والجواب : أن أيوب شكا إلى الله ولم يشك لأحد سواه ، وأن أيوب لجأ إلى الحبيب من العدو ، فضلا على أن الشكوى إلى الله ليست منقصة ولا نزولا بالهمة ، فإن الله ـ سبحانه ـ يحب أن يُدعى ويُسأل ، ونبي الله يعقوب خاطب ربه وشكا إليه : « قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى اللهِ »[1] وهذا لايقدح فى الصبر .

(نِعْمَ الْعَبْدُ) : أيوب فقد تناهى فى الكمالات وتسامى فى الدرجات (إِنَّهُ أَوَّابٌ) : أى : إنه رجاع إلى ربه منيب إليه ، لسانه رطب بذكره ، وقلبه عامر بالتفكر فيه والتعظيم له والخوف منه .

(وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾)

المفـردات :

(أُوْلِى الأَيْدِى) : أصحاب الأعمال العظيمة فى طاعة الله .

(وَالأَبْصَارِ) أى : والبصائر النافذة فى معرفته .

(أَخْلَصْنَاهُمْ) : جعلناهم خالصين .

---

(١) سورة يوسف من الآية : ٨٦

(بِخَالِصَةٍ) : بخصلة وصفة خالصة لا شوب فيها ولا كدورة هى :

(ذِكْرَى الدَّارِ) : تذكر الدار الآخرة ، أو التذكير بها ، أو الثناء الجميل عليه فى الدنيا .

(الْمُصْطَفَيْنَ) : جمع مصطفى ، وهو المختار من بنى جنسه .

التفسير

٤٥ - (وَاذْكُرْ عِبَادَنَآ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى الْأَيْدِى وَالْأَبْصَارِ) :

أضافهم إليه - سبحانه - بالعبودية فقال : (وَاذْكُرْ عِبَادَنَا) وذلك تشريف لهم وإعلاء لشأنهم .

واذكر أيها - الرسول - لقومك أو تذكر أنت إبراهيم وإسحاق ويعقوب - اذكر هؤلاء .

(أُوْلِى الْأَيْدِى وَالْأَبْصَارِ) أى : أصحاب الأعمال الطيبة والبصائر النيرة ، فقد استعمل - سبحانه - حواسهم فى طاعته : فألسنتهم رطبة بذكره ، وجوارحهم مشغولة بعبادته ، فكان الله سمعهم الذى يسمعون به ، وبصرهم الذى يبصرون به ، وذلك مع أفئدة بصيرة ، وعقول رشيدة ، وقلوب سليمة يملؤها ويعمرها التفكير فى الله - سبحانه وتعالى - فقد جمع الله لهم كمال العمل له ، مع عظيم معرفته .

وجاء التعبير عن الأعمال الظاهرة بالأيدى ، لأن أكثر الأعمال تباشر بها فيقال : هذا مما عملت أيديهم ، أو هذا ما قدمت يداه ، وإن كان هذا العمل لا يتأتى فيه المباشرة بالأيدى .

٤٦ - (إِنَّآ أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ) :

أى : إن الله قد أخلصهم له ونقاهم من كل شوب وكدورة تنال من مكانتهم ، وجملهم بتلك الخصلة الطيبة والخلة الحسنة ، وهى تذكرهم الدار الآخرة ، يعملون لها ويسعون من أجلها ، وكان نصيبهم من الدنيا هو عمل الخير وخير العمل الذى يقدمون به على ربهم ،

ويقبلون بصحبته إلى مولاهم ، أو أخلصهم وميزهم بتذكرهم الدار الآخرة ، أو أنه - تعالى - أبقى لهم الثناء الحميد فى الدنيا ، وتقبل دعاء إبراهيم - عليه السلام - حيث قال : « وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ »[1] .

أو أنهم يذكِّرون الناس بالآخرة ويحثونهم على التجافى عن الدنيا والبعد عن الإغراق فى طلبها .

٤٧ - (وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ) :

أى : وإن هؤلاء الأنبياء - عليهم السلام - عند الله لمن الذين اجتباهم واختارهم - سبحانه - فكانوا من صفوة وخيار رسله وأفضل أنبيائه .

(وَٱذْكُرْ إِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَـٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾)

المفـردات :

(هَـٰذَا ذِكْرٌ) : شرف عظيم وذكر جميل يذكرون به دائماً .

(جَنَّاتِ عَدْنٍ) : بساتين إقامة دائمة .

(مُتَّكِئِينَ) : مسندين ظهورهم أو جنوبهم إلى شىء معتمدين عليه فى حال قعودهم .

---

(١) سورة الشعراء ، الآية : ٨٤

التفسير

٤٨ - (وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ) :

واذكر - يا محمد - أو تذكر أنت هؤلاء الرسل الذين صبروا وصابروا وأبلوا بلاء حسنا فى أداء رسالة ربهم، وتحملوا سفه قومهم وجهلهم حتى يُهْتدى بهم ويكونوا مُثُلًا صالحة يتأسى بهم سواهم .

وكلهم من الصفوة الكرام البررة الذين انتخبهم ربهم واختارهم .

وقد أفرد - سبحانه - إسماعيل وفصل ذكره عن ذكر أبيه إبراهيم وأخيه إسحٰق للإشعار بعراقته وأصالته فى الصبر الذى هو المراد فقد صبر إسماعيل على الذبح لولا أن الله فداه بِذِبْحٍ عظيم .

والحكمة من ذكر أو تذكر هؤلاء تبدو فيما يأتى :

١ - أما إبراهيم - عليه السلام - فقد صبر وصابر على إيذاء قومه له فلم يداهنهم على كفرهم، أو تلن قناته أوتضعف عزيمته عندما عزموا على تحريقه وإلقائه فى النار ثم ألقوه فيها فكانت عليه بردا وسلامًا .

٢ - وأما إسحاق - عليه السلام - فقد صبر على طمع قومه وجشعهم فكان يحفر الآبار ليسقى دوابه ويروى زرعه، فيأتى هؤلاء العصاة أكلة السحت والحرام فيأخذونها منه فيتركها لهم ويحفر غيرها وهكذا ، ثم ما عاناه من تقدم السن ووهن العظم وفقد البصر .

٣ - وأما يعقوب - عليه السلام - فقد تأسى عن فقد أحب أبنائه إليه وأدناهم إلى قلبه ، فكان منه الصبر الجميل، والاستعانة بالله على ما أصابه قال - تعالى - : (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ)[1] ثم ابتلى بأخذ ابنه الثانى شقيق يوسف بدعوى أنه سرق فاشتعل حزنه وتضاعف ألمه على يوسف، ولكنه كان كبير الرجاء عظيم الأمل فى رحمة

---

(١) سورة يوسف ، من الآية : ١٨

ربه أن يرد الله إليه ابنيه قال ـ تعالى ـ : (عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً)[1] ولم يتسرب اليأس والقنوط إلى قلبه بل كان ينهى أولاده عنه ، قال ـ تعالى ـ : (وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ)[2].

هذه المكابدة أذهبت بصر يعقوب (وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ)[3] إلى أن جمع الله بينه وبين أولاده ورد عليه بصره .

٤ ـ وأما إسماعيل ـ عليه السلام ـ فقد صبر على الذبح وقال لأبيه : (سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ)[4] كما كان مثالا للطاعة والبر بأبيه .

٥ ـ وأما اليسع ـ عليه السلام ـ فقد استخلفه إلياس ـ عليه السلام ـ على بني إسرائيل فصبر على جهلهم وسفاهتهم وظلمهم وكفرهم ، ثم كان جزاء الله له أن اصطفاه رسولا .

٦ ـ وأما ذو الكفل ـ عليه السلام ـ فهو عند الجمهور نبي مرسل وكان من شأنه أنه جابه الظلم وتصدى لهؤلاء الفجرة الذين طاردوا عددًا كبيرًا من أنبياء بني إسرائيل وتعقبوهم ليقتلوهم فكفلهم ذو الكفل وآواهم غير مبال بعسف الظالمين وكيدهم ، كذا قيل ، ولعله اسم له والأسماء لا تعلل .

٤٩ ـ (هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ) :

(هذا) : إشارة إلى ما تقدم من الآيات الناطقة بمحاسن هؤلاء الأنبياء والدالة على مناقبهم العظيمة (ذِكْرٌ) أي : شرف لهم وذكر جميل يذكرون به أبدًا ، أو هو إشارة إلى القرآن لقوله ـ تعالى ـ : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ)[5] وهو مشتمل على أنباء الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ هذا ذكر من مضى من الأنبياء .

(وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ) :

---

(١) سورة يوسف ، من الآية : ٨٣
(٢) سورة يوسف ، من الآية : ٨٧
(٣) سورة يوسف ، من الآية : ٨٤
(٤) سورة الصافات ، من الآية : ١٠٢
(٥) سورة الحجر ، من الآية : ٩

بعد أن بين ـ سبحانه ـ فى الآيات السابقة أن الحكمة تقتضى عدم التسوية بين المتقين والفجار ، جاءت هذه الجملة موضحة نعيم المتقين فى الآخرة ، وسيأتى فى الآية التالية بيان هذا النعيم .

٥٠ ـ (جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ) أى : بساتين إقامة فتحت لهم فيها الأبواب تهيئة وإعدادًا وإكراماً لهم يدخلونها على أعز حال وأجمل هيئة (حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ)(١) .

٥١ ـ (مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ) :

أى : معتمدين فيها على أرائك ، أو وسائد من ديباج وإستبرق والأرائك : السرر المنجدة المزينة ، وهذه هى جلسة المطمئن الآمن والفرح المسرور ، وهم فى هذه الحالة من الحبور يطلبون من ربهم أن يمدهم ويعطيهم من ألوان الفاكهة وأصناف الشراب فيستجيب لهم الله ويعطيهم ما طلبوا (لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ)(٢) .

* (وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾)

المفردات :

(قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ) الطرف : العين ، ولا يجمع كما هنا لأنه فى الأصل مصدر ، ومن استعماله مفردًا مع الجمع قوله ـ تعالى ـ : « لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ » . والقصر : الحبس ، أى : حابسات عيونهن على أزواجهن ، وسيأتى مزيد بيان له فى التفسير .

---

(١) سورة الزمر ، من الآية : ٧٣

(٢) سورة يس ، الآية : ٥٧

(أَتْرَابٌ) أى : لِدَات على سِنٍّ واحدة ، تشبيهًا لهن فى التساوى والتماثل بالترائب التى هى ضلوع الصدر ، وهى جمع ترب ، وسيأتى لذلك مزيد بيان .

(مَالَهُ مِن نَّفَادٍ) أى : ليس له انقطاع أبدا .

التفسير

٥٢ - (وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ) :

لا يزال الكلام متصلًا فى نعيم المتقين ، فهذه الآية تبين أن لهؤلاء المتقين فى الجنة زوجات قاصرات أبصارهن على أزواجهن فلا ينظرن إلى سواهم ، أو قاصرات أبصار أزواجهن عليهن ، فلا ينظرون إلى سواهن لجمالهن الفائق ، وهؤلاء الزوجات أتراب أى : متساويات فى السن ، فكلهن شباب وليس بينهن عجوز ، وذلك يستدعى محبة بعضهن لبعض ، وفى ذلك راحة لأزواجهن ، فإن تباغض الضرائر بسبب الفوارق فى الحسن بينهن ينغص عيش الأزواج ، فلذا تشابهن فى الحسن والطباع ، حتى تصفو الحياة فى الجنة ، وقيل : إن التساوى بينهن وبين أزواجهن ، وذلك أشمل وأكمل ، وأبعث على قصر الزوجات أبصارهن على أزواجهن .

وجاء فى وصفهن فى سورة الصافات قوله -تعالى- : (وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ . كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ)[1] . ومعنى (عِين) : واسعات العيون حسانها ، ومفرده عيناء ، وقد شبهن ببيض النعامة تكنها النعامة بريشها من الريح والغبار ، فلونها أبيض فى صفرة ، وهو أحسن ألوان النساء[2] ، وجاء فى وصفهن أنهن فى سن ثلاث وثلاثين سنة ، والآية فى الزوجات الآدميات كما قال ابن عباس :

---

(١) سورة الصافات ، الآيتان : ٤٨ - ٤٩

(٢) وقال ابن عباس وغيره : شبهن ببطن البيض قبل أن يقشر وتمسه الأيدى .

٥٣ـ (هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ) :

أى : هذا الجزاء الذى وعدتم به ـ أيها المتقون ـ فى يوم الحساب ، فاللام فى قوله : (لِيَوْمِ الْحِسَابِ) بمعنى فى ، ويصح أن تكون للتعليل ، أى : هذا ما وعدتم به لأجل يوم الحساب .

٥٤ـ (إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ) :

إن هذا الذى ذكر من ألوان النعم وأصناف الكرم لرزقنا الذى أعطيناكموه ما له من انقطاع أبدًا ، وفيه دليل على أن نعيم الجنة أبدى لا نهاية له .

(هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾)

المفـردات :

(لِلطَّاغِينَ) : المراد بهم الكفار .

(لَشَرَّ مَآبٍ) : لقبح مرجع .

(الْمِهَادُ) : الفراش وزنا ومعنى .

(حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ) : الحميم : الماء الشديد الحرارة ، والغساق : عصارة أهل النار ، وعن ابن عباس أنه الزمهرير ، أخرجه عنه ابن جرير وابن المنذر .

(وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ) : وعذاب آخر من مثله أصناف .

(فَوْجٌ) : جمع كثير .

(مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ) أى : داخل معكم .

(لَامَرْحَبًا بِهِمْ) : دعاء من المتبوعين على أتباعهم .

(صَالُواْ النَّارِ) أى : داخلون فيها .

(فَبِئْسَ الْقَرَارُ) : فبئس المقر جهنم .

التفسير

٥٥ ، ٥٦ ــ (هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ) :

لما ذكر الله فيما تقدم نعيم المتقين فى الجنة ، عقبه بذكر ما للطاغين من سوء المصير ، ولفظ « هذَا » خبر لمبتدأ محذوف ، أى : الأمر هذا ، أو مبتدأ خبره محذوف أى : هذا كما ذكر . قال ابن الأنبارى : « هذَا » وقف حسن ، ثم تبتدئ : وإن للطاغين ، وهم الذين كذبوا الرسل ، وقال الجبائى ــ من المعتزلة ــ : المراد بهم أصحاب الكبائر ، سواء أكانوا كفارًا أم لا ، وأهل السنة على أن هذه الآيات فى الكفار ، وهو رأى ابن عباس .

ومعنى الآيتين : الأمر هذا الذى ذكر فى جزاء المتقين ، وإن للطغاة الذين كذبوا الرسل لَشَرَّ مرجع يثوبون إليه : جهنم يدخلونها ويقاسون لهيبها ، فبئس الفراش جهنم .

٥٧ ، ٥٨ ــ (هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ * وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ) :

الحميم : الماء الشديد الحرارة ، قال ــ تعالى ــ : (وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ)[1] ، والغساق : صديد أهل النار يسيل من أجسادهم ، وقيل : الغساق : عذاب لايعلمه إلَّا الله ، وقيل : هو البارد المنتن والمقصود من لفظ : « آخَرُ » عذاب الزمهرير كما فسره ابن مسعود . ولكن ابن عباس يفسر الغسَّاق بالزمهرير ، وعليه يكون معنى : « وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ » : وعذاب آخر من شكل الغساق أو من شكل ماذكر أصناف .

(١) سورة محمد : من آية ١٥

والمعنى : العذاب هذا . فليذوقوه ، منه حميم شديد الحرارة ، ومنه غساق صديد أهل النار ، أو الزمهرير ولهم عذاب آخر من شكل هذا العذاب فى الشدة والفظاعة أصناف وأجناس .

٥٩ ، ٦٠ - (هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَامَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ * قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَامَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ) :

الاقتحام : الدخول فى شدة ، والآيتان حكاية لما يقوله أهل النار بعضهم لبعض ، من التلاعن والتكذيب . كما قال -تعالى- : « كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا »[1] .

تقول طائفة الرؤساء التى تدخل قبل طائفة الأتباع - تقول - إذا لحقوا بهم مع الخزنة من الزبانية : هذا فوج داخل معكم لا مرحبًا[2] بهم ، إنهم داخلون النار معنا لأنهم كفروا مثلنا ، فيرد الأتباع قائلين لرؤسائهم : بل أنتم أحق بما قلتم فلا مرحبًا بكم ، لأنكم ضالون مضلون ، فأنتم قدمتم العذاب لنا بإغوائنا وإغرائنا على العقائد الزائغة ، والأعمال القبيحة ، فبئس المقر والمنزل جهنم التى نصلاها سويا .

٦١ - (قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى النَّارِ) :

أى : يقول الأتباع أيضًا : يا ربنا من تسبب فى عذابنا وقدمه إلينا فزده فى النار عذابًا مضاعفًا ، وقد جاء مثل ذلك فى سورة الأعراف ، وذلك فى قوله تعالى : (قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ)[3] .

---

(١) سورة الأعراف : من الآية ٣٨

(٢) لا سعة لهم ولا نريد لقاءهم ، والرحب -بضم الراء وفتحها- : السعة ، كرحبا ، تقول : مرحبا أو رحبا وأهلا ، أى : أتيت سعة وأهلا فاستأنس ولا تستوحش ، بخلاف (لا مرحبا) فإنها على العكس ، وهى تشير إلى أنهم لا يريدون لقاءهم فصدورهم لا تتسع لهم ، لأنهم صالوا النار مثلهم فلا منفعة فى لقائهم تقتضى الترحيب بهم .

(٣) سورة الأعراف ، من الآية : ٣٨

(وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾)

المفردات :

(سِخْرِيًّا) : مسخورًا ومُسْتَهزَأً بهم .

(زَاغَتْ) : مالت .

(تَخَاصُمُ) أى : تنازع .

التفسير

٦٢ - (وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ) :

أى : وقال الطاغون الكافرون بعضهم لبعض على سبيل التعجب والتحسر : ماذا جرى لنا ، حيث لا نرى معنا فى النار رجالًا كنا نعدهم فى الدنيا من الأشرار الأراذل الذين لا خير فيهم ولا منفعة لهم ، يعنون بذلك فقراء المؤمنين ، وكانوا يسترذلونهم ويسخرون منهم لفقرهم ومخالفتهم لهم فى الدين .

واستظهر بعضهم أن الضمير فى « قَالُوا » عائد على أتباع الرؤساء ، فإن الكلام متصل بمقالهم عن الرؤساء ، وكانوا - أيضًا - يسخرون من فقراء المؤمنين تبعًا لرؤسائهم .

وقيل : إن الضمير راجع إلى صناديد قريش : كأبى جهل وأمية بن خلف وغيرهما ، والرجال الذين كانوا يسخرون منهم ، هم عمار بن ياسر ، وصهيب ، وسلمان الفارسى ، وخبَّاب بن الأرت ، وبلال ونحوهم - رضى الله عنهم - على ما روى عن مجاهد من أن الآية نزلت فيهم ، والصواب : أن ذلك التحسر والتندم عام فى جميع الكفار ، السابقين ، واللاحقين ، فهم يتندمون على ماحدث منهم فى فقراء جميع الأديان ، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

٦٣ - (أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ) :

الهمزة فى (أَتَّخَذْنَاهُمْ) للاستفهام الإنكارى المصحوب بالتعجب ، والكلام فى هذه الآية موصول بتعجبهم فى الآية السابقة بقولهم : (مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ) أى : ماذا جرى لنا حيث لا نرى معنا فى النار رجالًا كنا نعدهم من الأشرار لفقرهم ومخالفتهم لنا فى الدين ، أتخذناهم مسخورًا بهم فى دنيانا وهم على حق فلذلك لا نراهم معنا فى النار ؟ أم مالت عنهم أبصارنا وهم فى النار فلا نراهم فيها ؟ .

٦٤ - (إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ[1] أَهْلِ النَّارِ) :

أى : إن ذلك الذى حُكِى عن الكفار - متبوعين وتابعين - لحق تخاصم أهل النار وتنازعهم ، فلابد من حصوله يوم القيامة فى جهنم .

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾)

المفردات :

(الْقَهَّارُ) : الغالب .

(الْعَزِيزُ) : الغالب .

---

(١) تخاصم أهل النار : خبر ثان للفظ (إن) أما الخبر الأول فهو لفظ (لحق) .

(نَبَأٌ عَظِيمٌ) : خبر عظيم .

(الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ) : جماعة الملائكة اختصموا مع إبليس فى شأن آدم ، وسنبين الآراء فى ذلك .

التفسير

٦٥ ، ٦٦ - (قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * رَبُّ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ) :

بعد أن بين الله حظوة المتقين عند ربهم يوم الدين ، وشقاء الكافرين يوم يقوم الناس لرب العالمين ، أمر الله نبيه أن يبين للمشركين أن مهمته فيهم هى الإنذار والبلاغ ، وأنه لا يبتغى مغنمًا منهم ولا أجرًا ، وأنه لا يوجد إلٰه لهم سوى الله الواحد القهَّار ، فلا وجه لعبادتهم سواه ، فالله هو الغالب الذى لا يقهر ، وهو رب السموات السبع والأرض ، وما بينهما من الكواكب التى هى زينة للسماء الدنيا ، ومن الشهب والهواء والقوى الكونية التى بين السماء والأرض ، وهو العزيز الغالب لمن ناوأه فى ألوهيته ، الغفار لمن تاب من كفره ، وأناب إلى ربه ، مع عزته وقهره .

وفى هذه الأوصاف التى وُصِفَ الله بها فى الآيتين تقرير لتوحيده - تعالى - ووعد للمؤمنين ووعيد للمشركين على نحو ما بيناه .

٦٧ - ٦٩ - (قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ * مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ) :

قل - أيها الرسول - للمشركين : ما أخبرتكم به من أننى نذير لكم مِنْ عقوبة مَنْ هذه صفاته مِنْ أنه - تعالى - إلٰه واحِد قَهَّار ، رب السموات والأرض عزيز - قل لهم - : ما أخبرتكم به من ذلك خبر عظيم أنتم عنه معرضون لا يحرك همتكم ، لتمادى غفلتكم وجهالتكم ، فإن اليقظ العاقل لا يعرض عن مثله ، وقد قامت عليه الحجج الواضحة ، أما على توحيد الله فما مَرَّ من صفاته التى لا تمارون فيها وهو وحيد فى الاتصاف بها ، وأما على نبوة محمد ﷺ

فهو ما أخبرهم به من أن الملأ الأعلى اختصموا فى شأن آدم ، وما كان له من علم بذلك إلَّا بطريق الوحى لأنه أمى لا يقرأ ولا يكتب وهو من أمة أمية ، فلولا أنه نبي ما كان له أن يعرف ذلك ، وسيأتى بيان اختصام الملأ الأعلى .

وروى عن ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، أن الضمير فى قوله : « هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ » راجع إلى القرآن ، ويدخل فيه ما ذكر فى الرأى السابق دخولًا أوليًّا ، واختار هذا الرأى بعض الأجلة ، ويرشحه ما جاء فى أول السورة من قوله -تعالى- : (وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ) .

وعلى أى حال فالكلام بجملته تحسير للمشركين ، وتنبيه على مكان الخطأ منهم ، وإظهار لغاية الرأفة والعطف الذى يقتضيه مقام الدعوة .

والمراد بالملأ الأعلى : الملائكة وآدم وإبليس ، لأنهم كانوا فى السماء ، فالعلو حِسّىٌّ ، وكان اختصامهم وتقاولهم فى شأن السجود لآدم ، وسيأتى بيان ذلك قريبًا فى قصة آدم .

٧٠- (إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ) :

إن : نافية بمعنى ما ، أى : ما يوحى إلىَّ حال الملإ الأعلى ، وما يوحى إلىَّ من الأمور الغيبية التى من جملتها حالهم - ما يوحى إلىَّ ذلك - إلَّا لأنى نذير مبين من جهته تعالى .

ويصح أن يعود الضمير فى (يوحى) إلى القرآن الكريم الذى اشتمل على ما تقدم وأعجز البُلغاء ببلاغتِه وغيرها من فنون إعجازه .

(إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾)

المفردات :

(لِلْمَلَآئِكَةِ) : هم أجسام نورانية قادرة على التشكل لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

(بَشَرًا مِّن طِينٍ) : هو آدم - عليه السلام - .

(وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي) : هذا فى البلاغة يسمى تمثيلًا ، فلم يكن هناك نفخ ، ولا منفوخ ، والمقصود : منحته الحياة ببث الروح فيه ، وإضافة الروح إلى الله من إضافة المملوك إلى مالكه ، كقلمى وكتابى ، وليس من إضافة الجزء إلى الكل ، وسيأتى إيضاح أكثر فى التفسير .

(فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ) أى : فاسقطوا له ساجدين تحية له .

التفسير

٧١-٧٤-(إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَآئِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّآ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ) :

شروع فى بيان الاختصام والتقاول الذى جرى بين الملأ الأعلى ، فهو بدل من « إِذْ يَخْتَصِمُونَ » بدل كل من كل ، وصح إسناد الاختصام إلى الملائكة لأنه بمعنى القول الذى قالوه بشأن خلقه آدم ، وهو قولهم : (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ)[1] . وقد قالوا ذلك بعد قوله -تعالى- لهم : (إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً) : راجع القصة فى تفسيرنا لها فى سورة البقرة .

والاختصام وقع بينهم ، وبين إبليس وآدم - عليه السلام - وهم الذين عُبِّر عنهم بالملإ الأعلى فى الآية السابقة ، لأنهم كانوا فى الجنة وقت الاختصام ، فالمقصود من العلو علو المكان لا علو المكانة والمنزلة ، وقد يقال : إن إبليس كانت له منزلة عليا لعبادته قبل أن

---

(١) سورة البقرة ، من الآية : ٣٠

يطرده الله من الجنة لكبريائه وإبائه تنفيذ أمر الله بالسجود لآدم ، فقد كان يعبد الله - تعالى - مع الملائكة قبل غضب الله عليه ، والاختصام الذى وقع من إبليس قوله لله تعالى : « أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا »[1] .

وما ترتب على طرده من الجنة ، من وعيده لآدم وذريته بالإغواء فيما حكاه الله - تعالى - فى سورة الأعراف بقوله : (قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَاتَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧)) إلى غير ذلك من سائر قصته .

والاختصام الذى وقع من آدم هو إنباء الملائكة بأسماء المسميات المختلفة التى علمه الله إياها ، بعد أن عجزت الملائكة عن معرفتها بقولهم : (سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)[2] .

ويلخص ابن كثير قصة آدم مع الملائكة وإبليس تعليقًا على ما جاء فى هذه الآيات بشأنها فيقول ما يلى :

هذه القصة ذكرها الله - تعالى - فى سورة « البقرة » وفى أول « الأعراف » ، وفى سورة « الحجر ، وسبحان ، والكهف » وها هنا ، وهى أن الله - سبحانه - أعلم الملائكة قبل خلق آدم - عليه السلام - بأنه - سبحانه - سيخلق بشرًا من صلصال من حمأ مسنون ، وتقدم إليهم بالأمر متى فرغ من خلقه وتسويته أن يسجدوا له إكراماً له وإعظاماً واحتراماً لأمر الله - عزَّ وجلَّ - فامتثل الملائكة سوى إبليس ، ولم يكن منهم جنسًا ، بل كان من الجن ، فخانه طبعه وجبلته ، فاستنكف عن السجود لآدم ، وخاصم ربه - عزَّ وجلَّ - فيه ، وادعى أنه خير منه ، فإنه مخلوق من نار ، وآدم خلق من طين ، والنار خير من الطين فى زعمه ، وقد أخطأ فى ذلك وخالف أمر الله وكفر بذلك ، فأبعده الله وأرغم أنفه ، وطرده عن باب رحمته ومحلِّ أنسه وحضرةِ قدسه ، وسماه إبليس إعلامًا له بأنه قد أبلس - أى : يئس - من

---

(١) سورة الإسراء ، من الآية : ٦١

(٢) سورة البقرة ، من الآية : ٣٢

الرحمة ، وأنزله من السماء مذمومًا مدحورًا إلى الأرض ، فسأل الله النَّظِرَةَ إلى يوم البعث ، فأنظره الحليم الذى لا يعجل على من عصاه ، فلما أمن الهلاك إلى يوم القيامة تمرد وطغى وقال : (فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ • إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) كما قال : (أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا)[1] وهؤلاء المستثنون فى الآية الأخرى ، وهى قوله -تعالى- : (إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا)[2] . انتهى مع تصرف يسير .

وقال البيضاوى : إن قصة آدم اختصرت فى هذه السورة اكتفاء بما مرَّ فى سورة البقرة ، واقتصارًا على ما هو المقصود منها ، وهـــو إنذار المشركين على استكبارهم على النبى ﷺ بمثل ما حاق بإبليس على استكباره على آدم – عليه السلام- ومن الجائز أن تكون مقاولة الله – تعالى – إياهم بواسطة ملك ، وأن يفسر الملأ الأعلى بما يعم الله والملائكة . انتهى بتصرف يسير .

وإضافة الروح إلى الله - تعالى- فى قوله : « وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى » من إضافة المملوك إلى مالكه ، وليس المقصود أنه جزء من روح الله تعالى ، بل المقصود تشريف الروح التى أفاضها الله على آدم وخلقها له ، وقد كفر النصارى فى تفسير إضافة روح عيسى إلى الله – تعالى – فى كتبهم ، بأنه جزء من روح الله ، فوصفوه بأنه ابن الله لذلك ، ثم تمادوا وتطاولوا فجعلوه هو الله -تعالى -وهم يجادلون المسلمين فيما جاء بالقرآن من نحو قوله -تعالى - : (وَالَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا[3]) . وقد ضلوا بذلك سواء السبيل ، فإن معنى الآية : فنفخنا فيها مبتدئين النفخ من روحنا وهو جبريل -عليه السلام- بدليل قوله-تعالى - : (فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا)[4] ، وهو الذى سماه الله فى القرآن الروح الأمين فى قوله تعالى : (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ • عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ)[5] .

---

(١) سورة الإسراء، من الآية : ٦٢.

(٢) سورة الإسراء : آية : ٦٥

(٣) سورة الأنبياء، من الآية : ٩١

(٤) سورة مريم، من الآية : ١٧

(٥) سورة الشعراء ، الآيتان : ١٩٣ – ١٩٤

ثم يقال لهم : لو كان الأمر كما زعمتم فى الآية لوجب عليكم اعتقاد أن آدم جزء من روح الله ، حيث جاء فيه هنا : (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) . ووجب أن لا تقصروا بنوة الله على عيسى وحده ، تعالى الله عمَّا يقولون علوًّا كبيرًا .

واعلم أن كل شيء فى هذا الكون مضاف إلى الله ، فالسماء سماء الله والأرض أرض الله ، وروح الإنسان روح الله ، أى : مملوكة له ، وداخلة تحت أمره ، فمتى يعقل هؤلاء الكافرون ؟ .

ومعنى هذه الآيات إجمالًا مع ما قبلها : ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون فى شأن آدم ، إذ قال ربك - أيها الرسول - للملائكة : إنى خالق بشرًا من طين ، فإذا عدلت خلقته وصورته ، وأحييته بخلق الروح فيه فخروا له ساجدين تحية وتبجيلًا وامتثالًا لأمر الله - تعالى - .

فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلَّا إبليس تعاظم وصار من الكافرين ، باستنكاره أمْر الله - تعالى - واستكباره على المطاوعة .

قد يقول قائل : إن الأمر بالسجود لآدم كان موجهًا إلى الملائكة ، فكيف يعاقب إبليس على عدم السجود له وهو غير مأمور به ؟ .

والجواب من وجهين :

أحدهما : أنه كان موجودًا بين الملائكة وليس منهم ، فإذا كان أشرف منه قد أمر بالسجود لآدم ، فإن عليه أن يسجد له مثلهم من باب أولى .

وثانيهما : أن من ينزل على قوم فلابد أن يخضع لتكاليفهم وقوانينهم ، وإلَّا فإنه يستحق الطرد ، لأنه مستوطن غير صالح للاستيطان .

(قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾)

المفردات :

(لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ) أى : لمن خلقته بنفسى من غير توسط أب ولا أم .

(أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ) : أتكبرت من غير استحقاق أم كنت ممن علا واستحق التفوق ، وللكلام بقية فى التفسير .

(رَجِيمٌ) : مطرودٌ من الرحمة .

التفسير

٧٥- (قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ) :

معلوم أنه -تعالى- لا يشبهه شيء لقوله -تعالى- : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) فالتعبير باليدين فى خلق آدم ليس مرادًا به الحقيقة عند أهل التأويل من الخلف ، فهو عندهم كما قال الآلوسى : تمثيل لكون آدم - عليه السلام - معتنى بخلقه ، فإن من شأن المعتنى به أن يُعمل باليدين ، والمقصود أنه خلقه بنفسه من غير توسط أب ولا أم ، وجعله جسمًا صغيرًا انطوى فيه العالم الأكبر ، وكونه أهلًا لأن يفاض عليه مالا يفاض على غيره من مزايا الآدمية ، وعند بعض آخر من أهل التأويل : أن اليد مجاز عن القدرة ، والتثنية للتأكيد على مزيد عناية الله بخلقه ، حيث طوى فيه العالم الأكبر . انتهى بتصرف يسير .

وقال القرطبي : أضاف خلقه إلى نفسه تكريماً له ، وإن كان خالق كل شيء ، وهذا كما أضاف إلى نفسه الروح والبيت والناقة والمساجد ، فخاطب الناس بما يعرفونه في تعاملهم ، فإن الرئيس من المخلوقين لا يباشر شيئًا بيده إلَّا على سبيل الإعظام والتكريم ، فذكر اليد هنا بمعنى هذا . قال مجاهد : اليد ها هنا بمعنى التأكيد والصلة أى : لما خلقت أنا[1] ، ثم قال القرطبي : وقيل : أراد باليد القدرة ، يقال : مالى بهذا الأمر يد ، ومالى بالحمل الثقيل يدان ، ويدل عليه أن الخلق لا يقع إلَّا بالقدرة بالإجماع ، وقال الشاعر :

تَحمَّلْت مِن عفراء ما ليس لى به ولَا لِلجبال الراسِيات يِدان

وقيل : (لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ) : لما خلقت بغير واسطة . انتهى كلام القرطبي بتصرف يسير .

ومعنى : (أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ؟) أتكبرت من غير استحقاق ، أم كنت مستحقًّا للعلو فائقًا فيه؟ وقيل معناه : أحدث لك الاستكبار ، أم لم تزل منذ كنت من المستكبرين ، فالتقابل على الأول باعتبار الاستحقاق وعدمه ، وعلى الثانى باعتبار الحدوث والعدم ، ولذا قيل : أم كنت دون أم أنت[2] .

والمعنى الإجمالى للآية : قال الله – تعالى – لإبليس على لسان ملك : أى شيء منعك من أن تسجد لمن خلقته بنفسى بغير توسط أب وأم ، عناية بخلق من طويت فيه العالم الأكبر ، أتكبرت من غير استحقاق؟ أم كنت مستحقًّا للعلو فائقًا فيه؟ .

٧٦ – (قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ) :

هذا جواب الاستفهام الأخير (أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ)[3] يعنى أنه من العالين حقيقة ، وليس متصنعًا للعلو ، فهو مخلوق من نار ، وآدم مخلوق من طين ، والنار – فى نظره – أشرف من الطين وأعلى منه ، فكيف يسجد الأعلى للأدنى .

---

(١) ومثل له بقوله تعالى : (ويبقى وجه ربك) أى ويبقى ربك .

(٢) انظر الآلوسى .

(٣) وهو فى نفس الوقت متضمن للجواب على الاستفهام الأول « ما منعك أن تسجد » .

٧٧ ، ٧٨ ـ (قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ) :

قال الله لإبليس ردًّا على كبريائه على آدم ، وتكبره على تنفيذ أمر خالقه : اخرج من الجنة التى أنت فيها ، أو من صورة المتقين التى كنت فيها إلى صورة العصاة الممقوتين ، فإنك مطرود من كل خير ، فالرجم كناية عن الطرد ، لأن المطرود يرجم بالحجارة ، أو : اخرج منها فإنك شيطان يرجم بالشهب ، أو : الرجم كناية عن الذلة ، وهذا وجه حسن ، ليوافق قوله ـ تعالى ـ فى سورة الأعراف : (فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ)[1] وإن عليك إبعادى عن الرحمة إلى يوم الجزاء والعقوبة حيث تلقى يومئذ عاقبة طردك من رحمتى .

ويرى ابن عباس : أن الجنة التى كان فيها روضة فى عدن وليست جنة الخلد ، وبهذا الرأى أخذ كثير من العلماء [2] ، وعلى هذا يكون المراد من إخراجه منها : إخراجه من صورة المتقين إلى صورة المردة العصاة ، ويدل على ذلك أنه وسوس لآدم فيها حتى حمله على الأكل من الشجرة ، والله أعلم .

(قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾)

المفردات :

(رَبِّ فَأَنظِرْنِي) : رب فأمهلنى .

(يُبْعَثُونَ) : آدم وذريته .

(إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ) : إلى يوم الوقت الذى عينته لفناء الخلق .

---

(١) سورة الأعراف من الآية : ١٣

(٢) حيث قالوا : إنها جنة فى الأرض ، بدليل أن آدم لما خلق من تراب الأرض لم يرد أنه رفع إلى جنة السماء .

التفسير

٧٩ – ٨١ – (قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِى إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ) :

أراد إبليس اللعين أن لا يموت ، بأن يبقى حيًّا إلى يوم البعث ، فلم يجبه الله إلى ذلك ، وأخره إلى الوقت المعلوم لله – تعالى – وحده ، وهو يوم يموت الخلق فيه ، فأخر إليه تهاونا به ، وإمهالًا له .

والمعنى : قال إبليس : رب فأخرنى إلى يوم يبعث فيه الخلائق للحساب والجزاء ، يريد بذلك الحصول على وعد ببقائه دون أن يلحقه الموت الذى قضى به على سواه ، قال الله له : إنك من جملة المؤخرين الذين قضيت أزلا بتأخير موتهم إلى يوم الوقت المعلوم لى وحدى ، لحكمة أردتها ، وهذا اليوم هو يوم النفخة الأولى التى يصعق فيها الخلائق .

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾)

المفردات :

(فَبِعِزَّتِكَ) : فبسلطانك وقهرك (لَأُغْوِيَنَّهُمْ) : لأغرينهم بالمعاصى .

التفسير

٨٢ ، ٨٣ – (قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) :

قال إبليس لما سمع وعيده باللعنة إلى يوم الدين : إذا كان عقابى ما ذكر فبسلطانك وقهرك لأزينن المعاصى لآدم وذريته أجمعين ، إلَّا عبادك منهم الذين أخلصتهم لطاعتك ، وعصمتهم من الغواية ، فلن يتأثروا بغوايتى .

٨٤ ـ ٨٥ (قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ) :

قال الله متوعدًا إبليس : فالأمر الثابت ولا أقول سوى الحق . والله لأملأن جهنم من جنسك وممن تبعك من ذرية آدم أجمعين .

(قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾)

المفـردات :

(مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ) : من المتصنعين .

(ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ) : تذكير ووعظ لهم .

التفسـير

٨٦ ـ ٨٨ ـ (قُلْ مَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَاْ مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ) :

قل أيها الرسول لأمتك : ما أسألكم على تبليغ القرآن والوحى أى أجر حتى تكذبونى من أجله ، فلم أطلب الملك ، ولا الزعامة ، ولا المال حتى تبتعدوا عنى ، وتناوئونى ، وما أنا من المتصنعين مما ليسوا من أهله على ما عرفتم من حالى فأنتحل النبوة وأتقول القرآن ، فما عرفتموه من سيرتى قبل النبوة يشهد لى بالصدق فيما دعوتكم إليه ، ما القرآن إلا تذكير ووعظ للعالمين من الإنس والجن ، والله لتعلمن نبأه من الصدق بعد حين ، حين ينتشر الإسلام ويدخـل الناس فيه أفواجاً ، وعندما تموتون وحين تبعثون ، حيث تندمون ولات ساعة مندم .

سـورة الزمر

مكية وآياتها خمس وسبعون

وتسمى سورة الغرف لقوله تعالى : (لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ) وهى مكية كلها ، أخرج ابن الضريس ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل : عن ابن عباس : أنها نزلت بمكة ولم يستثن .

ووجه اتصال أولها بآخر (صٓ) أنه ــ تعالى ــ قال فى آخر (صٓ) : (إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) وقال هنا : (تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ) قال الآلوسى : وفى ذلك كمال الالتئام بحيث لو أسقطت البسملة لم يتنافر الكلام ، ثم إنه ذكر آخر (صٓ) قصة خلق آدم وذكر فى صدر هذه قصة خلق زوجه منه ، وخلق الناس كلهم منه ، وذكر خلقهم فى بطون أمهاتهم خلقاً من بعد خلق ، ثم ذكر أنهم ميتون ، ثم ذكر ــ سبحانه ــ القيامة والحساب ، والجنة والنار ، وختم بقوله ــ سبحانه ــ : (وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) فذكر ــ جل شأنه ــ أحوال الخلق من المبدأ إلى آخر المعاد ، متصلا بخلق آدم المذكور فى السورة قبلها ، وبين السورتين أوجه أخرى من الربط تظهر بالتأمل : انتهى كلام الآلوسى .

مقاصد السورة

بين الله ــ تعالى ــ فى هذه السورة أنه هو الذى أنزل الكتاب بالحق وطلب إلى عباده أن يخلصوا له العبادة ولا يشركوا به أحدًا ، وبين أنه لو أراد أن يتخذ ولدًا لاصطفى مما يخلق ما يشاء ــ سبحانه ــ هو الله الواحد القهار ، وأتبع ذلك ببيان خلقه للسموات والأرض . . وما فيهما من الآيات الشاهدة بوحدانيته ، وأنه خلق عباده كلهم من نفس واحدة ، وبين أنه لا يرضى لعباده الكفر ، ولكنه يرضى منهم الشكر ، وفرق بين العلماء وغيرهم فقال : (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ) ثم خوف المشركين من سوء المصير بقوله : (لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ) وبشر الذين اجتنبوا عبادة الطاغوت وكانوا يستمعون

القول فيتبعون أحسنه (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ) ثم بين أنه تعالى : (نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ) وأنه ضرب للناس فى هذا القرآن من كل مثل ، وأنه لايوجد أظلم ممن كذب على الله ،وكذب بالصدق إذ جاءه ، ثم بين أنهم يعترفون بخلق الله للسموات والأرض ، فلا وجه لعبادتهم غيره ممن لا يرفع ضراً ولا يجلب نفعاً ، ثم بين أنه – تعالى – هو الذى يتوفى الأنفس حين موتها ،وأنه (إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) ثم فتح الله –تعالى – أبواب الرحمة لجميع التائبين من الكفار والعصاة فقال : (قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً . .) ثم قال : (وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ) ثم بين أن الذين كذبوا على الله تسود وجوههم يوم القيامة ، ومصيرهم جهنم ففيها مثوى المتكبرين ، وأنه – تعالى – ينجى الذين اتقوا بمفازتهم من العذاب (لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) ثم بين أن المشركين ما قدروا الله حق قدره (وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ) ثم قال : (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ) ثم بين أن الأرض يومئذ تشرق بنور ربها (وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) . ثم ذكر أن خزنة النار يوبخون أهلها قائلين : (أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ) وأن الذين اتقوا يساقون إلى الجنة زمرا (حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ) ثم قال : (وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤))

المفردات :

(تَنزِيلُ الْكِتَابِ) : خبر لمبتدأ مقدر ، أى هذا تنزيل الكتاب ، أو مبتدأ خبره « مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ » وهو على الأول متعلق بتنزيل ، والظاهر أن الكتاب على الأول مراد به السورة ، وعلى الثانى القرآن كله .

(زُلْفَى) أى : قربة ومنزلة ، وهى اسم مصدر من أزلفه إزلافاً أى : قربه تقريباً .

(كَفَّارٌ) : مبالغ فى الكفر .

(لَاصْطَفَى) : لاختار .

(الْقَهَّارُ) : الشديد القهر ، يَغْلِب ولا يُغْلَب .

التفسير

١ - (تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) :

هذه الآية نزلت لإحقاق الحق ، والرد على مزاعم قريش من أن القرآن من تأليف محمد وأنه يعلمه بشر .

والمعنى : تنزيل القرآن كائن من الله الغالب الحكيم فيما يقول ، وأثر الغلبة والحكمة واضح فى القرآن العظيم ، فقد أعجز البشر أن يأتوا بمثله ، وغلبت أحكامه وتشريعاته سواه ، لما اشتمل عليه من الدقة والصدق ، ومراعاة مصلحة البشر دنيا وأخرى ، وكل ذلك شاهد بأنه من الله العزيز الحكيم ، وليس فى قدرة البشر أن يأتوا بمثله ، وقد أكد الله نزوله من العزيز الحكيم بقوله :

٢ - (إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ) :

إنا أنزلنا إليك - أيها الرسول - القرآن ملتبسًا بالحق أو بسبب إظهار الحق وتفصيله ، فاعبد الله أنت ومن آمن معك :اعبده مخلصًا له الدين ، فلا تشرك معه فى العبادة أحدًا ، فإنه لارب سواه .

وقد دلّ الأمر بإخلاص الدين لله على وجوب تجريد العبادة من كل شرك ، فنى الحديث القدسى : « من عمل عملًا أشرك فيه معى غيرى تركته وشريكه » .

وروى الحسن :عن أبى هريرة أن رجلًا قال : يارسول الله ، إنى أتصدق بالشىء وأصنع الشىء أريد به وجه الله وثناء الناس ، فقال رسول الله ﷺ : « والذى نفس محمد بيده لايقبل الله شيئًا شورك فيه » ، ثم تلا رسول الله ﷺ : (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ) .

ونقل القرطبى عن ابن العربى : أن هذه الآية دليل على وجوب النية فى كل عمل ، وأعظمه الوضوء الذى هو شطر الإيمان ، خلافًا لأبى حنيفة ، والوليد بن مسلم ، فإنهما يقولان : إن الوضوء يكفى من غير نية . قال ابن العربى : وما كان ليكون من الإيمان شطرًا ، ولا ليخرج الخطايا من بين الأظافر والشعر بغير نية .

٣ - (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ) :

قال قتادة : كانوا إذا قيل لهم : من ربكم وخالقكم ، ومن خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء ؟ قالوا : الله ، فيقال لهم : ما معنى عبادتكم الأصنام ؟ قالوا : ليقربونا إلى الله زلفى ، قال الكلبي : جوابه فى سورة الأحقاف : (فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً) [1].

وجملة (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ) مقول لقول مقدر ، أى : قالوا : ما نعبدهم وبه قرأ ابن مسعود ، وابن عباس ، ومجاهد .

ومعنى الآية : ألا لله الطاعة الخالصة من شوائب الشرك ، فإنه المنفرد بصفات الألوهية والاطلاع على الأسرار والضمائر ، والذين اتخذوا من دون الله أربابًا ونصراء ، قالوا فى تبرير عبادتهم لهم : ما نعبدهم إلَّا ليقربونا إلى الله تقريبًا ، يقولون ذلك مع أن الله أقرب إليهم من حبل الوريد ، إن الله يحكم بينهم وحده يوم القيامة فيما هم فيه مختلفون مع أهل الحق ، فيقضى بإدخال أهل الحق الجنة ، وأهل الباطل النار .

وقيل المعنى : يحكم بينهم وبين معبوديهم ، فإنهم يرجون شفاعتهم وهم يلعنونهم ؛ إن الله لا يوفق من هو كاذب كفار إلى الاهتداء للحق ، لإصراره على الكذب ، ومبالغته فى الكفر .

٤ - (لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) :

هذه الآية للرد على من زعم أن الملائكة بنات الله ، وأن عيسى ابن الله .

وحاصل معنى الآية : لو أراد الله أن يتخذ ولدًا ويسميه بهذا الاسم ما جعل هذه التسمية لهم ، وكان يصطفى مما يخلق ما يشاءُ ويسميه بهذا الاسم ، لكنه لا يصطفى من المخلوق الحادث ولدًا لاستحالة الولدية عليه - تعالى - ولأن الحادث لا يصلح ولدا للقديم ، وحيث بطلت الولدية للحادث ، فيستحيل على الله أن يريد اتخاذ الولد ، وهذا معنى ما يقوله علماء المنطق : إذا بطل التالى بطل المقدم .

---

(١) سورة الأحقاف من الآية : ٢٨

ونحو هذا المعنى قال الآلوسى : وجوز أن يكون المعنى فى الآية : لو أراد الله أن يتخذ ولدًا لجعل المخلوق ولدًا ، إذ لاموجود سواه إلا وهو مخلوق له ـ تعالى ـ والتالى محال للمباينة التامة بين المخلوق والخالق ، والولدية تأبى هذه المباينة[1] فالمقدم مثله ، ويكون معنى (لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ) لاتخذه ابناً على سبيل تقدير المستحيل . . . انتهى بتصرف .

ثم ختم الله الآية بقوله : (سُبْحَانَهُ هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) تنزيهاً له ـ تعالى ـ عن أن يتخذ ولدًا أو شريكاً فى الألوهية ، هو الواحد القهار الذى لا يشركه فى الألوهية شريك ، فلا يصلح ما سواه أن يكون له ولدًا ، فإنه مخلوق لله ، والمخلوق لا يسمى ولدًا لخالقه ، ولايصلح لذلك ، فضلا عن أن يكون له شريكاً ، والقهارية المطلقة تنافى قبول الزوال المحوج إلى الولد أو الشريك .

(خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾)

(١) لأن الولد صنو أبيه وشريكه فى صفاته .

المفـردات :

(بِالْحَقِّ) : بالحكمة والصواب .

(يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ) أى : يلفُّه فيخفيه ، من : كَار العِمامةَ وكَوَّرها على رأسه إِذَا لَفَّها [1] .

(وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) : وذلَّلَهُما لمراده .

(كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى) : كل يسير لمنتهى دوره ، أو لمنقطع حركته .

(ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا) : حواء ، وسيأْتِى الكلام فى هذا الجعل .

(وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ) الأَنعام : الإبل والبقر والغنم والمعز ، وكانت ثمانية أَصناف ، لأَن كُلاًّ منها ذكر وأُنثى ، وإنْزَالها قضاؤُها .

(فِى ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ) : ظُلُمات البطن ، والرحم ، والمشيمة .

التفسير

٥ - (خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ) :

هذه الآية مسوقة لإثبات وحدانية الله وقهره لما سواه ، والمراد من تكويره الليل على النهار وعكسه : أن يُذْهِب أَحدهما ويأْتِى بالآخر ليحل محله ، وقد عبر عن ذلك بالصورة البلاغية الموجودة فى الآية على سبيل الاستعارة ، فاطلب شرح ذلك من المطولات إن أَردت .

ومعنى الآية : خلق الله هذا العالم المشاهد وغير المشاهد ، ملتبساً بالحق والحكمة والصواب ، يغشى الليل مكان النهار ، فتحل به الظلمة ، فيسكن الناس وينامون ويستريحون من كَدِّ النهار ، ويغشى النهار مكان الليل ، فيحل به النور ، فينشط الخلائق ويعملون لما خلقوا من أَجله ، وسخر الشمس والقمر حيث جعلهما يجريان فى مداريهما ، فيترتب على تذليلهما وجود النهار تارة ، والليل تارة أُخرى ، والفصول الأَربعة : الربيع ،

(١) أو من كور المتاع : ألقى بعضه على بعض .

فالصيف ، فالخريف ، فالشتاء ، لمصلحة الإنسان والحيوان والنبات ، وهذا الجريان لأجل سماه الله ـ تعالى ـ لانتهاء دورة كل منهما فى مداره ، أو لانقطاع حركته عند فناء العالم ، ألا هو العزيز القادر على عقاب المصرين على الكفر والمعاصى ، الغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً .

٦ ـ (خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ) :

وهذا دليل آخر على وحدانية الله وقهره لسواه ، وَتَرْكُ عطفه على خلق السموات والأرض ، للإيذان باستقلاله فى الدلالة على وجود الله وسائر كمالاته .

والمراد بالنفس الواحدة التى خلقنا منها : نفس آدم ـ عليه السلام ـ فقد خلقت منه زوجه ، ثم حدث التوالد بعد ذلك على النحو المعلوم ، وبدأ بخلق الإنسان ، لأنه أقرب وأعجب بالنسبة إلى غيره ، باعتبار مافيه من العقل وقبول الأمانة الإلٰهية وغير ذلك حتى قيل فيه :

وتزعم أنك جسم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

واختلف فى معنى خلق حواء من آدم ، فمعظم العلماء على أنها خلقت من قصيرى ضلعه اليسرى وهى أسفل الأضلاع ، وقيل : إنه بمعنى أنها خلقت من جنسه ليسكن إليها ، وقيل : إنها خلقت من بقية طينته ، والله أعلم .

وأما قوله تعالى : (وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ) فهو استدلال بنوع آخر من العالم السفلى ، والأنعام هى : الإبل ، والبقر ، والضأن ، والمعز ، وكانت ثمانية أزواج أى : أصناف ، باعتبار الذكر والأنثى فى كل منها ، وفى ذلك يقول الله فى سورة الأنعام : « ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ » ثم قال : « وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ »[1] ، ومعنى إنزال هذه الأنعام الثمانية قضاؤها ، وإنزال الملائكة لتنفيذه ، فالكلام على سبيل المجاز .

(١) سورة الأنعام، من الآيتين : ١٤٣ – ١٤٤

وأما قوله -تعالى- : (يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِّن بَعْدِ خَلْقٍ ..) فهو بيان لخلق مَنْ ذكر من بنى آدم والأنعام .

والمعنى الإجمالى للآية : خلقكم من نفس واحدة هى نفس آدم ، خلقها أولا ثم جعل من جنسها زوجها ليسكن إليها ، وقضى لكم من الأنعام ثمانية أصناف : الإبل ، والبقر ، والغنم ، والمعز ، ذكورها وإناثها ، يخلقكم ، ويخلق الأنعام خلقاً مدرجاً ، خلقاً من بعد خلق ، حيواناً سويًّا مِنْ بعْدِ عظام مكسوة باللحم مصورة داخل الرحم ، مِنْ بعْدِ مُضَغٍ ، من بعد علق ، من بعد نُطَف ، ويتم كل ذلك فى ظلمات ثلاث ، ظلمة البطن ، وظلمة الرحم وظلمة المشيمة ، أو الصلب ، والرحم ، والبطن ، ذلكم الذى أبدع هذه العظائم هو الله ربكم المستحق وحده لعبادتكم ، له الملك على الإطلاق فى الدنيا والآخرة ، ليس لغيره شريك فى ذلك كله ، لا إله إلَّا هو ، فكيف تصرفون عن عبادته مع وفور موجباتها ودواعيها ، وانتفاء الصارف عنها - كيف تصرفون - إلى عبادة غيره مع كثرة الصوارف عن هذا الغير .

(إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾)

المفردات :

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ) : ولا تحمل نفس حاملة إثمها ذنب نفس أخرى ، وقال الأخفش :

لا تأثم نفس آثمة بإثم نفس أخرى : اهـ . وفى معناه قوله -تعالى- : (كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ)[1] :

---

(١) سورة الطور من الآية : ٢١

التفسير

٧ - (إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) :

يخاطب الله عباده المصرين على الكفر بقوله : إن تظلوا على كفركم ، فإن الله غنى عنكم وعن إيمانكم ، وقد جاء فى الحديث القدسى أنه - تعالى - قال : « يا عِبادِى لَوْ أَنَّ أولكُم وآخِرَكُم وإنسَكُمْ وجِنَّكُمْ كانُوا علَى أَفْجرِ قَلْبِ رَجُلٍ مِنْكُم ما نَقَصَ ذَلكَ مِنْ مُلْكِى شَيئا » أخرجه الإمام مسلم .

ومع كونه - تعالى - غنيّاً عن إيمان عباده ، وغير محتاج إليه ، ولا إليهم ، فإنه لا يرضى لعباده الكفر ولا يحبه لهم لسوء عاقبته ، وما قدره عليهم إلا لسوء اختيارهم وإصرارهم عليه ، وإن تشكروا نعمه عليكم بالإيمان والعمل الصالح فإنه - تعالى - يرضاه ويحبه لكم لحسن عاقبته .

ولا تحمل نفس آثمة بعملها إثم نفس أخرى ، فكل امرىء بما كسب رهين ، مالم يتسبب فى إثم النفس الأخرىٰ ، كالآباء الذين يسيئون تربية أولادهم ، فينشئون على المعاصى مثل آبائهم ، فإنهم يتحملون إثم إضلالهم منضما إلى إثم ضلالهم ، من غير أن ينقص ذلك من إثم الأولاد المكلفين شيئاً ، فكلٌّ مسئول عن ضلاله ، وفى وجوب وقاية الأولاد من المعاصى التى تدخلهم النار ، يقول الله تعالى : « يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ »[1] .

ويختم الله الآية منذرًا ومتوعدًا بقوله : (ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) أى : ثم إلى الله - تعالى - رجوعكم بالبعث والنشور ، فيخبركم بما كنتم تعملون فى دنياكم من خير فيثيبكم عليه ، أو شر فيعاقبكم عليه إنه عليمٌ بما انطوت عليه الصدور من النوايا والأسرار من طاعة أو معصية فلا تخفى عليه خافية .

---

(١) سورة التحريم الآية : ٦

* (وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾)

المفردات :

(وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ) أى : شدة من البلاء والفقر .

(مُنِيبًا إِلَيْهِ) أى : راجعا إلى الله منصرفا عما كان يدعوه من دون الله – عز وجل –

(ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ) أى : أعطاه وملكه نعمة عظيمة من لدنه يقال : خولك الله الشيء ، أى : أعطاك إياه . والأصل أعطاك خَوَلًا – بفتحتين – أى : عبيدا وخدما . أو أعطاك ما تحتاج إلى تعهده والقيام عليه . ثم عُمِّم لمطلق العطاء .

(أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ) القانت : المطيع ، قاله ابن مسعود . وفى القاموس : أقنت : دعا على عدوه ، أو أطال القيام فى صلاته .

(ءَانَآءَ اللَّيْلِ) : ساعاته أوله ووسطه وآخره ، وعن ابن عباس : آناء الليل : جوفه .

التفسير

٨ – (وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ) :

الآية وصف للجنس بحال بعض أفراده كقوله تعالى : « إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ »[1] .

واستظهر أبو حيان أن المراد بالإنسان جنس الكافر . وقيل : المراد به معين وهو عتبة ابن ربيعة ،وأبو جهل ، أي : وإذا مس الكافر بلاء ونزلت به شدة دعا ربه راجعا إليه ،منصرفا عما كان يدعوه من دون الله فى حال الرخاء لعلمه أنه بمعزل عن القدرة على كشف ضره .

« ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ) أى : إذا أعطاه نعمة عظيمة من لدنه أذهبت عنه شدته ، وأعادت إليه رخاءه ، نسى الضر الذى كان يدعو الله إلى إزالته وكشفه . أو نسى الدعاء الذى كان يتضرع به من قبل التخويل والإعطاء . (فما) واقعة على الضر أو على الدعاء الذى كان يتضرع به . ويجوز أن يراد من لفظ (ما) فى قوله : (نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ) أن يراد بها الله – تعالى – كما فى قوله – سبحانه وتعالى – : « وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ » وقوله : « وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ » أى : نسى ربه الذى كان يدعوه متضرعا إلى كشفه .

(وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ) : وجعل لله أمثالا وشركاء فى العبادة فى حال العافية .

(قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا) أى : قل يا محمد تهديدا لذلك الذى جعل لله أندادا : تمتع بكفرك تمتعاً قليلا أو زمانا قليلا فى الدنيا (إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ النَّارِ) أى : ملازميها والمعذبين فيها على الدوام . والجملة تعليل لقلة التمتع . وفيه من الإقناط من النجاة وذم الكفر ما لا يخفى . كأنه قيل : قد أبيت ما أمرت به من الإيمان والطاعة . فاستمتع بهذا الكفر الذى أنت فيه تمتعاً قليلا لا ينجيك من عذاب الآخرة فمتاع الدنيا قليل .

٩ –(أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ الَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الْأَلْبَٰبِ) :

---

(١) سورة إبراهيم من الآية : ٣٤

بين -سبحانه- بهذه الآية أن المؤمن ليس كالكافر الذى مضى ذكره فلا يستويان عند الله «وأم» المدغمة إما متصلة قد حذف قبلها ما يقابل ما بعدها ثقة بدلالة مساق الكلام عليه . كأنه قيل له تأكيدا للتهديد وتهكما به : أأنت أيها الكافر الذى تدعو ربك فى الضراء وتنساه فى السراء أحسن حالا ومآبا ، أم الذى هو قانت يقوم بمواجب الطاعات ، ويداوم على وظائف العبادات فى ساعات الليل التى فيها العبادات أقرب إلى القبول ، وأبعد عن الرياء ، ويدعو فى حالتى السراء والضراء (سَاجِدًا وَقَآئِماً) أى : جامعا بين الوصفين المحمودين . وتقديم السجود على القيام لأنه أدخل فى العبادة لحديث : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » .

(يَحْذَرُ الْآخِرَةَ) : استئناف وقع جواباً عما نشأ من حكاية حاله ، فكأنه قيل : ما باله يفعل هذا ؟ فقيل : يحذر الآخرة . أى : عذاب الآخرة (وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِ) فينجو بذلك مما يحذر ، ويفوز بما يرجوه وهو الجنة كما ينبئ عنه التعرض لعنوان الربوبية . مع الإضافة إلى ضمير الراجى . وجواب هذا الاستفهام أن المطيع هو الأحسن حالا ومآلا .

وإما أن تكون (أم) منقطعة وما فيها من الإضراب الانتقالى من التهديد بقوله تعالى : (تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ النَّارِ) إلى التبكيت بتكليف الجواب الملجىء إلى الاعتراف بما بينهما من التباين البين كأنه قيل : بل الذى هو قانت من أصحاب الجنة .

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ) أى : قل لهم يا محمد - بيانا للحق وتنبيها على شرف العلم والعمل - : هل يستوى الذين يعلمون حقائق الأحوال فيعملون بمقتضى علمهم كالقانت المذكور ، والذين لا يعلمون ما ذكر فلا يعملون ؟ كلاً لا يستوون والاستفهام للتنبيه على كون الأولين فى أعلى مدارج الكمال . وكون الآخرين فى أقصى مدارج الشر .

قال الزجاج : كما لا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، كذلك لا يستوى المطيع والعاصى فهو وارد على سبيل التشبيه ، أى : كما لايستوى العالمون والجاهلون لا يستوى القانتون والعاصون (إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ)كلام مستقل غير داخل فى الكلام المأمور به ، وارد من جهته - تعالى - بعد الأمر بما ذكر من القوارع الزاجرة عن الكفر والمعاصى لبيان عدم تأثيرها فى قلوب الكفرة لاختلال عقولهم ولا يتعظ بوعظ الله وبياناته الواضحة إلا أصحاب العقول الخالصة من شوائب الخلل من المؤمنين . وهؤلاء بمعزل عن ذلك .

(قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾)

(اتَّقُواْ رَبَّكُمْ) : احذروا معاصيه وامتثلوا أوامره .

(وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ) : فهاجروا فيها ولا تقيموا مع من يعمل المعاصى .

(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ) قال الأوزاعى : لا يوزن لهم ولا يكال وإنما يغرف لهم غرفاً لصبرهم على كل بلاء . ويشمل الصبر على الهجرة شمولا أوليا .

التفسير

١٠ - (قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ...) الآية :

أمر الله رسوله ﷺ أن يذكر المؤمنين ويحملهم على التقوى والطاعة إثر تخصيص التذكر بأولى الألباب . أى : قل لهم هذا بعينه وهو (اتَّقُواْ رَبَّكُمْ) وفيه تشريف لهم بإضافتهم إلى ضمير الجلالة ، ومزيد اعتناء بشأن المأمور به وهو التقوى فإنَّ نَقْلَ عبارة أمر الله - تعالى - أدخل فى إيجاب الامتثال به .

«لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ» تعليل للأمر بالتقوى ، أو لوجوب الامتثال به أى : قل للمحسنين فى هذه الدنيا على وجه الإخلاص ، وهو الذى عبر عنه رسول الله ﷺ حين سئل عن الإحسان بقوله – عليه السلام – : « أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كأَنكَ تَرَاهُ فإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنهُ يَرَاكَ » .

لهؤلاء المحسنين حسنة فى الآخرة عظيمة لا يدرك كنهها وهى الجنة ، وقيل المعنى : للذين أحسنوا فى الدنيا . حسنة فى الدنيا زيادة على ثواب الآخرة ، والحسنة الزائدة فى الدنيا الصحة والعافية والظفر والغنيمة ، قال القشيرى : والأول أصح لأن الكافر قد نال نعم الدنيا .

ويقول القرطبى تعليقاً على ذلك : وينالها معه المؤمن ويزاد الجنة إذا شكر تلك النعم وقد تكون الحسنة فى الدنيا الثناء الحسن ، وفى الآخرة الجزاء الحسن .

(وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ) أى : فهاجروا فيها ولا تقيموا مع من يعمل المعاصى . وقيل المراد : أرض الجنة رغبهم فى سعتها ، وسعة نعيمها ، والجنة قد تسمى أرضاً ، قال تعالى : «الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ» (١) والأول أظهر فهو أمر بالهجرة (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ) ترغيب فى التقوى المأمور بها ، أى : إنما يوفى الذين صبروا على دينهم ، وحافظوا على حدوده ، ولم يفرطوا فى مراعاة حقوقه حين امتحنوا بالآلام والبلايا التى من جملتها مهاجرة الأهل ، ومفارقة الأوطان . هؤلاء يوفون أجرهم بمقابلة ما كابدوا من الصبر ، يوفونه بغير حساب ، والمراد المبالغة فى الكثرة وهو المقصود بقول ابن عباس : « لا يهتدى إليه حساب الحساب ولا يُعرف » أى : بغير تقدير .

ولأهل البلايا نصيب أوفر فنى الحديث أنه « تنصب الموازين لأهل الصلاة والصدقة والحج فيؤتون بها أجورهم ولا تنصب لأهل البلايا ، بل يصب عليهم الأجر صبا حتى يتمنى أهل العافية فى الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل » .

---

(١) سورة الزمر من الآية : ٧٤

وإيثار الصابرين على المتقين للإيذان بأنهم حائزون لفضيلة الصبر كحيازتهم لفضيلة التقوى مع ما فيه من زيادة حث على المصابرة والمجاهدة فى تحمل مشاق المهاجرة ومتاعبها واحتمال البلايا فى طاعة الله .

(قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾)

المفردات :

(مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ) أى : من كل ما ينافيه من الشرك والرياء وغير ذلك .

(أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ) أى : أول من خالف دين آبائه وخلع الأصنام وأسلم لله ، وآمن به .

(مُخْلِصاً لَّهُ دِينِى) أى : طاعتى وعبادتى .

(فَاعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ) : أمر تهديد وتوبيخ ، أى : ستلقون حتما جزاء كفركم

(قُلْ إِنَّ الخَٰسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ) عن ابن عباس : ليس من أحد إلا خلق الله له زوجة فى الجنة ، فإذا دخل النار خسر نفسه وأهله .

(أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ) أى : الواضح الظاهر .

(لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ)أى : لأولئك الخاسرين طبقات كثيرة من النار فوقهم كهيئة الظلل : جمع ظلة ، وأصلها : السحابة تظل ماتحتها .

(وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ) : وسمى ما تحتهم ظللا لأنها تظل من تحتهم[1] والمراد أن النار محيطة بهم إحاطة تامة من جميع الجوانب .

التفسير

١١ - (قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ) :

أمر رسول الله ﷺ ببيان ما أمر به من الإخلاص فى عبادة الله -عز وجل- الذى هو عبارة عما أمر به المؤمنون من التقوى مبالغة فى حثهم على الإتيان بما كلفوه وتمهيدا لما يعقبه مما خوطب به المشركون .

وعدم التصريح بالآمر لتعين أنه الله - تعالى - .

١٢ - (وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ) :

أى : وأمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له لأجل أن أكون مقدم المسلمين فى الدنيا والآخرة . وكذلك كان ﷺ فإنه كان أول من خالف دين آبائه ، وخلع الأصنام وحطمها وأسلم لله وآمن به ، ودعا إلى عبادته ، وكان له إحراز السبق فى الدين بالإخلاص فيه ، وإخلاصه - عليه الصلاة والسلام - أتم من إخلاص كل مخلص ، فلم تكن له صفة الملوك الذين يأمرون بما لا يفعلون .

١٣ - (قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) :

أى : قل يا محمد لمن دعاك بالرجوع إلى دين آبائك ، وذلك أن كفار قريش قالوا له -عليه الصلاة والسلام - : ألا تنظر إلى أبيك وجدك ، وسادات قومك يعبدون اللات والعزى فنزلت

---

(١) أو هو من قبيل المشاكلة .

ردا عليهم . أى : قل إنى أخاف ترك الإخلاص والميل إلى ما أنتم عليه من الشرك ، أوالميل إلى أى شىء من المعاصى ؛ لأنى أخاف (عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) وهو يوم القيامة ، ووصفه بالعظمة لعظمة ما فيه من الدواهى والأهوال . والمقصود تهديدهم والتعريض لهم بأنه ــ عليه الصلاة والسلام ــ مع عظمته لو عصى الله ــ تعالى ــ ما أمن العذاب فكيف بهم .

١٤ ــ (قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِى) :

أى قل لهم : أعبد الله لا غيره ــ سبحانه ــ لا استقلالا ولا اشتراكا ، مخلصاً له دينى عن الشرك الظاهر والخفى ، أو مخلصا له دينى بعبادته ــ سبحانه ــ لذاته من غير طلب شىء منه ــ تعالى ــ كقول رابعة : سبحانك ما عبدتك خوفاً من عقابك ولا رجاء ثوابك .

أمر ــ عليه الصلاة والسلام ــ أولا ببيان كونه مأمورا بعبادة الله ــ تعالى ــ بإخلاص الدين له ، ثم الإخبار بخوفه من العذاب على تقدير عصيانه . ثم الإخبار بامتثاله الأمر على أبلغ وجه وآكده إظهارا لتصلبه ﷺ فى الدين . وحسما لأطماعهم الفارغة فى الرجوع إلى دينهم ، وتمهيدا لتهديدهم بقوله ــ عز وجل ــ :

١٥ ــ (فَاعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ) :

بدأت الآية بأمر تهديد ووعيد وتوبيخ : (اعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ) أى : فاعبدوا ما شئتم أن تعبدوه من دون الله ، وفيه من الدلالة على شدة الغضب عليهم ما لا يخفى كأنهم لما لم ينتهوا عما نهوا عنه أمروا به كى يحل بهم العقاب .

ولكونه أمر تهديد عقبه بقوله : (قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ) : أى : قل لهم أيها الرسول : إن الخاسرين الكاملين فى الخسران الجامعين لوجوهه وأسبابه الذى هو عبارة عن إضاعة ما يهمهم ، وإتلاف مالا بد منه هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم باختيارهم الكفر لهما فأضاعوهما وأتلفوهما يوم القيامة حين يدخلون النار ، حيث عرضوهما للعذاب السرمدى ، وأوقعوهما فى هلكة ما بعدها هلكة ، والمراد بالأهل الأتباع الذين أضلوهم وقد خسروهم كما خسروا أنفسهم ، وقيل المراد بالأهل : من أعده الله ــ تعالى ــ لمن

يدخل الجنة من الحور العين أى : خسروا أهليهم الذين يكونون لهم فى الجنة لو آمنوا فبعدم إيمانهم ذهبوا عنهم ذهاباً لا إياب بعده .

أخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد : عن قتادة قال : ليس أحد إلا قد أعد الله - تعالى - له أهلا فى الجنة إن أطاعه .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن عباس أنه قال فى الآية : خسروا أهليهم من أهل الجنة وكانوا قد أعدوا لهم لو عملوا بطاعة الله .

(أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ) : جملة مستأنفة . وتصديرها بحرف التنبيه والإشارة تنبيه إلى بعد منزلة المشار إليه فى الشر ، وأنه لعظمه بمنزلة المحسوس ، وفى توسيط ضمير الفصل وتعريف الخسران ووصفه بالمبين من الدلالة على كمال هوله وفظاعته ، وأنه لا خسران وراءه ما لا يخفى . حيث استبدلوا بالجنة نارا وبالدرجات دركات .

١٦ - (لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ) :

الآية : بيان لخسرانهم بعد تهويله بطريق الإبهام ، أى : لهم من فوقهم أطباق بعضها فوق بعض من النار ، ومن تحتهم أطباق كثيرة بعضها تحت بعض وتسميتها ظللا للمشاركة والمراد : أن النار محيطة بهم إحاطة تامة من جميع الجهات ، والتعبير جار بظلل مجرى التهكم ، ولذلك قيل لهم : من فوقهم ظلل ... إلخ .

(ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ) أى : ذلك العذاب الفظيع الذى يخوف الله به عباده ويحذرهم إياه بآيات الوعيد ليبتعدوا عما يكون سببا فى إيقاعهم فيه . ثم وعظهم - تعالى - عظة بالغة منطوية على غاية اللطف والرحمة فقال مناديا لهم : (يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ) ولا تتعرضوا لما يوجب سخطى عليكم ، وغضبى منكم حتى تتحقق عبوديتكم لى التى هى عنوان الرضا عنكم ، والتشريف لكم ، والمراد فى الآية المؤمنون لأنهم المنتفعون بالتخويف ، وعممه آخرون فى المؤمن والكافر . وقيل : هو خاص بالكفار .

(وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٨))

المفردات :

(اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ) الطاغوت : هو البالغ أقصى غاية الطغيان ، ويطلق على الواحد والجمع ، والمراد به : الشيطان . وقال الضحاك والسدى : هو الأوثان ، ويجمع الطاغوت على طواغيت وطواغ .

(وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ) أى : رجعوا إليه وتابوا .

(لَهُمُ الْبُشْرَىٰ) : الثواب على ألسنة الرسل أو الملائكة عند حضور الموت ،وحين يحشرون والبشرى : اسم لما يعطاه المبشَّر .

(الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ) : هم الذين يسمعون الحسن والقبيح فيتحدثون بالحسن ، ويكفون عن القبيح فلا يتحدثون به .

(وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ) : أصحاب العقول السليمة .

التفسير

١٧ـ (وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ) :

قال ابن إسحاق : نزلت فى عثمان ، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص وطلحة ، والزبير ـ رضى الله عنهم ـ سألوا أبا بكر ـ رضى الله عنه ـ فأخبرهم بإيمانه وذكرهم بالله فآمنوا . وقيل : نزلت فى زيد بن عمرو بن نفيل ، وأبى ذر ، وغيرهما ممن وحدوا الله ـتعالى ـ قبل مبعث النبى ﷺ. والمراد بالطاغوت هنا :ما يعبد من دون الله . وقال الزمخشرى : لا يطلق لفظ الطاغوت فى هذه السورة على غير الشيطان ، وكل

من عبد غير الله – تعالى – فهو يعبد الطاغوت ، أى :الشيطان ؛ لأن عبادة غير الله عبادة له فهو الآمر بها ، والداعى إليها .

والمعنى : والذين باعدوا أنفسهم ،ونزهوها عن عبادة الطاغوت البالغ الغاية فى الطغيان .

(وَ أَنَابُوٓاْ إِلَى اللهِ) أى : أقبلوا إليه إقبالا كليا معرضين عما سواه (لَهُمُ الْبُشْرَىٰ) بالثواب ، وحسن العاقبة عند حضور الموت ،وحين يحشرون (فَبَشِّرْ عِبَادِ) أى : فبشر – أيها الرسول – عبادى الذين هم أهل للبشرى بالثواب ، وهم المعنيون بقوله – سبحانه – :

١٨ – (الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وأُولَـٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ) :

أى : هم الموصوفون باجتناب الطاغوت والإنابة إلى الله بأعيانهم . على أن مدار اتصافهم بالوصفين الجليلين كونهم نُقَّاداً فى الدين يميزون بين الحسن والأحسن ، والفاضل والأفضل ، فإذا اعترضهم أمران حرصوا على ماهو أقرب عند الله وأكثر ثوابا .

وقيل : هم الذين يستمعون أوامر الله فيتبعون أحسنها نحو القصاص والعفو والانتصار والإغضاء . والإبداء والإخفاء لقوله تعالى : (وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ)[1] (وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ)[2].

وقيل : يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن ، إلى غير ذلك مما قيل فى : القرطبى وغيره .

(أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ) لدينه ولما يرضاه ، والإشارة إليهم باعتبار اتصافهم بما ذكر من النعوت الجليلة (وَأُولَـٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ) أى : وهؤلاء هم أصحاب العقول السليمة عن منازعة الهوى ،ومعارضة الوهم لاغيرهم . وفيه دلالة على أن الهداية تحصل بفعل الله ، وقبول النفس لها .

---

(١) سورة البقرة من الآية : ٢٣٧

(٢) سورة البقرة من الآية : ٢٧١

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾

المفردات :

(كَلِمَةُ الْعَذَابِ) : إشارة إلى نحو قوله - تعالى - : (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ)[1] وقوله تعالى : (لَهُمْ غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ) أى : طبقات قد أعد بناؤها قبل يوم القيامة .

(تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ) أى : مبنية على صورة يتأتى معها جرى الأنهار من تحتها لتكمل المتعة بها .

التفسير

١٩ - (أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى النَّارِ) :

بيان لأحوال أضداد السابقين على طريق الإجمال . وهؤلاء هم عبدة الطاغوت ومتبعو كهنتها . والآية كما قيل : نزلت فى أبى جهل وأضرابه وكان النبى ﷺ يحرص كل الحرص على إيمانهم ، وأعلمه الله أن من سبقت له الشقاوة ، وحق عليه القضاء بأنه من أهل النار ، لايستطيع ﷺ أن ينقذه منها ويجعله مؤمنا .

والمعنى : أأنت مالك أمر الناس فمن حق عليه كلمة العذاب فأنت تنقذه ؟أى : لايستطيع أحد أن ينقذ من أضله الله ،وسبق فى علمه أنه من أهل النار ، لسوء اختياره ؛لأنه لايقدر على الإنقاذ إلا المالك القادر ، والهمزة للإنكار . أى : النفى .

---

(١) سورة ص الآية : ٨٥

والهمزة الثانية فى الآية هى الأولى كررت مع الجزاء لتوكيد معنى الإنكار . ثم وضع من فى النار موضع ضميرهم لمزيد تشديد الإنكار والاستبعاد ، والتنبيه على أن المحكوم عليه بالعذاب بمنزلة الواقع فى النار ، وقد جعل اجتهاده ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى دعائهم إلى الإيمان وحرصه على إيمانهم ـ جعل ـ سعيا فى إنقاذهم من النار ، والآية تسلية للنبى ﷺ عن حزنه على كفرهم وإصرارهم عليه .

٢٠ ـ (لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ) :

لما بيّن ـ سبحانه ـ أن للكفار ظللا من النار فوقهم ، ومن تحتهم ، بيّن أن للمتقين غرفا فوقها غرف ، لأن الجنة درجات يعلو بعضها بعضا . ولفظ (لكن) للانتقال من قصة إلى قصة أخرى مخالفة للأولى وليست للاستدراك : ذكر ذلك القرطبى .

والمعنى : أن الذين اتقوا ربهم بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، وهم الذين خوطبوا بقوله تعالى : (يَٰعِبَادِ فَاتَّقُونِ) ووصفوا بما عدد من الصفات الفاضلة ، وبأن لهم درجات عالية فى جنات النعيم ، بمقابلة ما للكفرة من دركات سافلة فى الجحيم ، أى : لهم علالى بعضها فوق بعض مبنيات محكمات عاليات . وحسبك إشارة إلى رفعة شأنها أن الله ـ جل شأنه ـ بانيها ، وماذا يقال فى بناءٍ هو من صنع مبدع السموات والأرض دون غيره ، تلك الغرف تجرى من تحتها الأنهار فتزيدها رونقا وبهاءً من غير تفاوت فى العلو والسفل . وهى مهيأة ومعدة لهم ،قد فرغ من أمرها كما هو ظاهر الوصف لا أنها تبنى يوم القيامة . وفى ذلك من تعظيم المتقين وعلو شأنهم مافيه .

روى الإمام أحمد بسنده : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ فِى الجَنَّةِ غُرَفاً يُرَى ظاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا ، وبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا أَعَدَّهَا اللهُ لِمَنْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ وأَلانَ الكَلَامَ ، وصَلَّى والناسُ نِيَام » .

(وَعْدَ اللَّهِ) مصدر مؤكد لقوله تعالى : (لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ . . . إلخ) فإنه وعد وأى وعد (لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ) مع الفريقين لاستحالته عليه ـ سبحانه ـ لما فى خلفه من النقص المستحيل عليه ـ عز وجل ـ .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(اللهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ) المراد بها : السحاب .

(فَسَلَكَهُ يَنَٰبِيعَ) أى : فأدخله فى عيون وأنهار من الأرض . يقال : سلكت الشىء فى الشىء أنفذته . والينبوع : عين الأرض ومجرى الماء، جمعه ينابيع ،وفعله من باب قعد أو نفع . والمراد : أن الماء بعد هبوطه فى الأرض يخرج من العيون والأنهار .

(ثُمَّ يَهِيجُ) أى : يَصْفَرُّ . يقال : هاج البقل يهيج : اصفرَّ . ا هـ : مصباح .

(ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا) أى : متكسرا ، يقال : حطم حطما من باب تعب فهو حَطِم إذا تكسر . ا هـ : مصباح .

(أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ) الشرح فى الأصل : البسط والمد للحم ونحوه ، ويكنى به عن التوسيع . قال ابن عباس: وسَّع صدره للإسلام حتى ثبت فيه . (فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ) أى : فهو على هدى منه — سبحانه — .

(فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُمْ) قال المبرد : يقال : قسا القلب إذا صلب . وقلب قاس . أى : صلب لايرق ولا يلين .

(مِن ذِكْرِ اللهِ) أى : من أجل ذكره — سبحانه — الذى حقه أن تلين منه القلوب .

التفسير

٢١ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) :

الآية استئناف وارد : إما لتمثيل الحياة الدنيا فى سرعة زوالها ، وقرب اضمحلالها بما ذكر من أحوال الزرع تحذيرا من الاغترار بها ، وتنفيرا من التشبث بأذيالها ، بعد أن وصفت الجنة بما يرغب فيها ، ويشوق إليها ، وإما للاستشهاد على تحقق الموعود من الأنهار الجارية تحت الغرف بما يشاهد من إنزال الماء من السماء ، وما يترتب عليه من آثار قدرته - سبحانه - وآيات حكمته ورحمته .

والمعنى : ألم تر أيها المخاطب أن الله أنزل بعظيم قدرته من السحاب ماء المطر أنزله بأسباب أرادها الله. فإن تصعيد الأبخرة من البحار بسبب حرارة الشمس وتكوين الغيوم ونحو ذلك من الأسباب الجوية التى أنشأها الله - جل وعلا - لإنزال المطر على الجبال والسهول والأودية ، وسائر الأنحاء؛ أنزله - سبحانه - فأدخله فى مسارب وينابيع فى الأرض كالعروق فى الأجساد (ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ) ثم يخرج الله بالمطر (زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ) أى : أنواعه وأصنافه من بر وشعير وغيرهما ، أو مختلفا ألوانه المُدرَكَةُ بالبصر من خضرة وحمرة وغيرهما ، ويشمل الزرع المقتات للبشر وغيره (ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا) أى : يتم جفافه بعد أن انتقل فى أطواره نموا ونضارة فتراه بعد خضرته مصفرا (ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا) أى : فتاتا متكسرا .

(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) إن فيما ذكر تفصيلا من إنزال الماء ، وإخراج الزرع لتذكيرا عظيما لأصحاب العقول الخالصة من شوائب الخلل ، وتنبيها لهم على حقيقة الحال ، يتذكرون بذلك أن حال الحياة الدنيا فى سرعة التقضى والانصرام ، كما يشاهدونه من حال الحطام كل عام ، فلا يغترون ببهجتها ولايفتنون

بفتنتها ، أو يجزمون بأن من قدر على إنزال الماء من السماء وإجرائه فى ينابيع الأرض قادر على إجراء الأنهار من تحت الغرف فى الجنة .

٢٢ - (أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللهِ أُولَٰئِكَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ) :

استئناف جار مجرى التعليل لما قبله من تخصيص الذكرى بأولى الألباب .

فالصدر محل للقلب الذى هو منبع الروح ، وانشراحه مستدع لاتساع القلب واستضاءته بنور الله .

والمعنى : أَكُلٌّ الناس سواء ؟ فمن شرح الله صدره واهتدى . أى : خلقه متسع الصدر مستعدا للإسلام فبقى على الفطرة الأصلية ،ولم يتغير بالعوارض السيئة المكتسبة (فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ) أى : فهو بموجب ذلك مستقر على نور عظيم من ربه ، وهو اللطف الإلهى الفائض عليه عند مشاهدة الآيات الكونية والتنزيلية والتوفيق بها إلى الاهتداء إلى الحق . وسئل رسول الله عن الشرح فقال : (إذا دخلَ النورُ القلبَ انشرحَ وانفتحَ . فقيل : هل لذلك من علامة ؟ قال : نعم ، الإنابةُ إِلَى دارِ الخُلودِ ، والتجافِى عن دارِ الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزول الموت) .

أفمن شرح الله صدره للإسلام كمن قسا قلبه وحرج صدره بسبب تبديل فطرة الله بسوء اختياره ، وقد استولت عليه ظلمات الغى والضلالة فأعرض عن الآيات .بالكلية حتى لايتذكر بها ولا يغتنمها .

(فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللهِ) أى : من أجل ذكر الله الذى حقه أن تلين منه القلوب بمعنى : أنهم إذا ذكر الله عندهم أو آياته - عز وجل - اشمأزوا من ذلك وزادت قلوبهم قساوة كقوله : (فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ) وكانوا أهلا للويل وسوء المصير .

وأسند الشرح إلى الله - تعالى - إيذانا بأنه على أتم الوجوه ؛ لأنه فعل قادر حكيم ، قابله بالقساوة مع أن مقتضى المقابلة أن يقابل بالضيق ؛ لأن القساوة كما فى الصخرة الصماء تقتضى عدم قبول شىء بخلاف الضيق فإنه يشعر بقبول شىء قليل ،وذلك غير مقصود .

وإسناد القساوة إلى القلوب دون الصدور للتنصيص على فساد هذا العضو الذى إذا فسد فسد الجسد كله .

(أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ) أى: أولئك البعداء الموصوفون بماذكر من قساوة القلوب فى بعد عن الحق ظاهر لايخفى كونه ضلالا على أحد .

والآية قيل : نزلت فى على وحمزة – رضى الله عنهما – وأبى لهب وابنه . وقيل: نزلت فى عمار بن ياسر ، وأبى جهل وذويه ، والمراد منها العموم فى كل من شرح الله صدره بخلق الإيمان فيه ، وكل من زادته الآيات رجسا وقساوة ؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب .

(ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾)

المفردات :

(أَحْسَنَ الْحَدِيثِ) المراد به : القرآن الكريم .

(مُّتَشَٰبِهًا) : يشبه بعضه بعضا فى الصدق والبيان والوعظ والحكمة وغير ذلك .

(مَّثَانِىَ) : جمع مُثَنَّى[1] بمعنى مُردَّد ومكرَّر من التكرير والإعادة لما كرر من قصصه وأنبائه وأحكامه ويثنى للتلاوة فلا يمل .

(تَقْشَعِرُّ)أى : تضطرب وتتحرك بالخوف مما فيه من الوعيد (ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ) المراد بذكر الله : الإسلام وآية الرحمة ونحو ذلك .

---

(١) بضم الميم وتشديد النون مفتوحا ، وهو جمع له على غير قياس ، وقياسه مثنيات .

التفسير

٢٣ - (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) :

عن ابن عباس أن قوما من الصحابة قالوا : يارسول الله ، حدثنا بأحاديث حِسَان ، وبأخبار الدهر فنزلت ، وعن ابن مسعود : أن الصحابة ملُّوا ملَّة فقالوا له- عليه الصلاة والسلام- : حدثنا فنزلت إرشادا لهم إلى مايزيل ملَلَهُم وهو تلاوة القرآن الكريم واستماعه منه ﷺ غضا نضيرا .

والمعنى : أن الله نَزَّل أحسن الحديث ، وهو القرآن العظيم - نزله كتابًا متشابهاً - ، يشبه بعضه بعضا فى الصدق والحق والوعظ والحكمة والإعجاز واستتباع منافع العباد فى المعاش والمعاد وجعله مثانى [1] أى : مرددًا ومكرَّرا وكرر من قصصه وأنبائه وأحكامه ، وأوامره ونواهيه ، ووعده ووعيده ، ومواعظه .

وقيل : هو مثانى لأنه يثنى فى التلاوة فلا يمل ، ووقوع مثانى وهو جمع صفة لكتاب وهو مفرد باعتبار تفاصيله ، وتفاصيل الشىء هى جملته ألا تراك تقــول : إن القرآن سور وآيات ، وأسباع وأخماس . فكذلك تقول : هو أحكام ومواعظ وأقاصيص (تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ)استئناف مسوق لبيان آثاره الظاهرة فى سامعيه بعد بيان أوصافه فى نفسه ، ولتقرير كونه أحسن الحديث ، ومن هيبته تقشعر منه جلود الذين يخشون الله حقَّ خشيته ، بمعنى تتقبض تقبضا شديدا . والمراد : إما بيان خشيتهم بطريق التمثيل والتصوير ، أو بيان حصول تلك الحالة وعروضها بطريق التحقيق .

والمعنى : أنهم إذا سمعوا القرآن وقوارع آيات وعيده أصابتهم رهبة وخشية تقشعر منها جلودهم ، وإذا ذكروا رحمة الله - تعالى - تبدلت خشيتهم رجاءً ، ورهبتهم رغبة

---

(١) جمع مثنى بالفتح مخففا من التثنية بمعنى التكرير والإعادة كما فى قوله تعالى: «فارجع البصر كرتين» . بمعنى كرة بعد كرة . وهذا رأى آخر غير الذى سبق .

وذلك قوله تعالى : (ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ) أى : تلين ساكنة مطمئنة إلى ذكر رحمته ـ تعالى ـ وإنما لم يصرح بها لأنها أول مايخطر بالبال عند ذكره ـ تعالى ـ لأصالته كما يرشد إليه خبر (سبقت رحمتى غضبى) وليس فى الآية أكثر من نعت أوليائه باقشعرار الجلود من القرآن ثم سكونهم إلى ذكر رحمته ـ عز وجل ـ ولم ينعتهم الله بذهاب عقولهم والغشيان عليهم إنما هذا فى أهل البدع وهو من الشيطان .

عن أسماء بنت أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنهما ـ قالت : (كان أصحاب النبى ﷺ إذا قرئ عليهم القرآن كما نعتهم الله تدمع أعينهم ، وتقشعر جلودهم ، قيل لها : فإن أناسا اليوم إذا قرئ القرآن عليهم خرَّ أحدهم مغشيا عليه ، فقالت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) .

وقال سعيد بن عبد الرحمن الجمحى : مر ابن عمر برجل من أهل القرآن ساقط ، فقال : مابال هذا ؟ قالوا : إنه إذا قرئ عليه القرآن وسمع ذكر الله سقط . فقال ابن عمر : إنا لنخشى الله وما نسقط . ثم قال : إن الشيطان يدخل فى جوف أحدهم .وقال ابن سيرين : بيننا وبين هؤلاء الذين يصرعون عند قراءة القرآن أن يجعل أحدهم على حائط باسطا رجليه ثم يقرأ عليه القرآن كله فإن رمى بنفسه فهو صادق .

فهذه أخبار ناعية على بعض المتصوفة صعقتهم وضرب رءوسهم بالأرض عند سماع القرآن .

(ذَٰلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَآءُ) أى : ذلك الكتاب الذى شرحت أحواله هو هدى الله الذى يهدى به من يشاء من عباده ، الذين علم منهم اختيار الاهتداء بتأمله ، والاتعاظ بما فى تضاعيفه من شواهد الحقية ، ودلائل كونه من عند الله ـ تعالى ـ .

(وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) أى : ومن يخلق ـ سبحانه ـ فيه الضلال لإعراضه عما يرشده إلى الحق بسوء اختياره ، فليس له من أحد يهديه إلى الحق ليخلصه من ورطة الضلال .

وقيل : الإشارة فى قوله : (ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ) إلى المذكور من الاقشعرار واللين أى : ذلك الذى ذكر من الخشية والرجاء أثر هداه - تعالى - يهدى بذلك الأثر من يشاء من عباده ، ومن لم يؤثر فيه الهدى لقسوة قلبه ، وإصراره على فجوره ، فما له من هاد يؤثر فيه حتى يهتدى .

(أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾)

المفردات :

(يَتَّقِى بِوَجْهِهِ سُوٓءَ الْعَذَابِ) : وهو الذى يرمى به مكتوفًا فى النار ، فيتقى بوجهه العذاب الشديد ؛ لأنه أول شىء تمسه النار .

(وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ) أى : وتقول الخزنة للكفار : ذوقوا جزاء كسبكم من المعاصى وهو العذاب والنكال .

(فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ) أى : فأصابهم العذاب الدنيوى .

(مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ) أى : من الجهة التى لايخطر ببالهم إتيان الشر منها .

(فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْىَ) يقال لكل مانال الجارحة : قد ذاقته. أى : وصل إليها كما تصل الحلاوة والمرارة إلى الذائق لهما . قال المبرد : والخِزْى من المكروه والخَزَاية من الاستحياء .

(لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) أى : لو كان من شأنهم أن يعلموا شيئًا اعلموا ذلك .

التفسير

٢٤ – (أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوٓءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ) :

استئناف جارٍ مجرى التعليل لما قبله من تباين حال المهتدى والضال. وقد نزلت – كما قيل – فى أبى جهل .

والمعنى : أكُلُّ الناس سواء ؟ فمن شأنه أن يتقى بوجهه الذى هو أشرف أعضائه – يتقى – به – العذاب السيء الشديد . كمن هو آمِن لا يعتريه مكروه ولا يحتاج إلى اتقائه بوجهه ، فالوجه على حقيقته .

ويشير هذا إلى أن الإنسان إذا لقى مكروهًا من المخاوف استقبله بيده وطلب أن يقى بها وجهه ، لأنه أعز أعضائه عليه ، والذى يلقى فى النار يلقى مغلولة يداه إلى عنقه ، فلا يتهيأ له أن يتقى النار إلَّا بوجهه الذى كان يتقى المخاوف بغيره وقاية له ومحاماة عليه. قال عطاء ، وابن زيد : يرمى به مكتوفًا فى النار ، فأول شيء تمس منه النار وجهه ، وقال مجاهد : يجر على وجهه فى النار ، وجوز أن يراد من الوجه الجسم كله .

ويقال للظالمين من جهة الخزنة : ذوقوا وبال ما كنتم تكسبونه فى الدنيا من الكفر والمعاصى ، ووضع المظهر فى مكان المضمر – فقيل للظالمين ، ولم يقل لهم – لتسجيل الظلم عليهم والإشعار بعلية الأمر فى قوله تعالى : (ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ) وصيغة الماضى مع أن قول الخزنة مستقبل للدلالة على تحقق الوقوع .

٢٥ – (كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ) :

استئناف مسوق لبيان ما أصاب بعض الكفرة من العذاب الدنيوى إثر بيان ما يصيب الجميع من العذاب الأُخروى .

والمعنى : كذب الذين من قبل قريش من الأُمم السابقة عليهم ، فأتاهم العذاب المقدر لكل أمة منهم من الجهة التى لا يحتسبون ولا يدور بخلدهم إتيان الشر منها ؛ لأن ذلك أقسى على النفس وأشد إيلامًا لها .

٢٦ - (فَأَذَاقَهُمُ اللهُ الْخِزْىَ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) :

أى : فأذاقهم الله الذل والصغار بمعنى أنهما وصلا إليهم كما تصل الحلاوة والمرارة إلى الذائق لهما ، ولعذاب الآخرة المعد لهم أكبر وأنكى مما أصابهم فى الدنيا لشدته وسرمديته.

(لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) أى : لو كان من شأنهم أن يعلموا شيئًا لعلموا ذلك واعتبروا به.

(وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾)

المفردات :

(مِن كُلِّ مَثَلٍ) : يحتاج إليه الناظر فى أمور دينه .

(غَيْرَ ذِى عِوَجٍ)أى : غير مختلف وهو قول ابن عباس . والعوج -بكسر العين وفتحها- مصدر عوج كتعب . قال ابن الأثير : إن مكسور العين مختص بما ليس مرئيًّا كالرأى ، والقول . والمفتوح مختص بما هو مرئى كالأجساد . وعن ابن السكيت : أن المكسور أعم من المفتوح ، واختار المرزوقى أنه لا فرق بينهما .

التفسير

٢٧ - (وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُم يَتَذَكَّرُونَ) :

أى : ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن الرفيع الشأن من كل مثل يحتاجون إليه ، للنظر فى شئون دينهم ، بمعنى بينا لهم ذلك بضرب الأمثال كى يتذكروا بها ويتعظوا .

٢٨ - (قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) :

أى : وأنزلناه قرآنًا عربيًّا سلم مبناه ومعناه لا اختلال فيه بوجه من الوجوه ولا انحراف.

ونفى مصاحبة العوج عنه يقتضى نفى اتصافه به بالطريق الأولى فهو أبلغ من (غَيْرِ عِوَجٍ)

ولما كان العوج (بالكسر) يقال فيما يدرك بالعقل والبصيرة والعوج (بالفتح) يقال فيما يدرك بالحس، عبر بالأول ليدل على أنه أبلغ إلى حد لا يدرك العقل فيه عوجًا فضلا عن الحس .

(لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) : الكفر والكذب بترك الاختلاق عليه والشك فيه .

(ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩))

المفردات :

(مُتَشَاكِسُونَ) أى : شرسو الطباع .

(وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ) أى : خالصًا لسيد واحد .

(بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) : الحق فيتبعونه .

التفسير

٢٩ ــ (ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) :

هذا مثَلٌ من الأمثلة القرآنية بعد بيان أن الحكمة فى ضرب الأمثال هو التذكر والاتعاظ بها، وتحصيل التقوى . والمراد هنا بضرب المثل تشبيه حالة عجيبة بأُخرى مثلها.

والمعنى : ضرب الله للمشرك الذى يعبد آلهة كثيرة ــ ضَرَبَ لَهُ ــ مثلًا عبدًا مملوكًا لجماعة

متشاحنين يتجاذبونه ويتعاورونه لا يلقاه رجل منهم إلّا جرّه واستخدمه ، فهو يلقى منهم العناء والنصب والتعب العظيم ، وهو مع ذلك كله لا يُرضى واحدًا منهم بخدمته ، ولا يدرى على أيهم يعتمد فى حاجاته ولا أيهم يرضى بخدمته ، فهمُّه شعاع ، وقلبه أوزاع .

وضرب لمن يعبد الله وحده مثلا رجلًا خالصًا لفرد واحد ، وليس لغيره سبيل عليه ، وذلك الفرد يَعُولُهُ ويعرف له صدق بلائه ، فهو فى راحة من الحيرة وتوزع القلب .

(هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا) أى : هل تستوى صفتاهما وحالاهما ، وهو إنكار واستبعاد لاستوائهما ، ونفى له على أبعد وجه وآكده . وإيذان بأن ذلك من الجلاء والظهور بحيث لا يقدر أحد أن يتفوه باستوائهما ، أو يتلعثم فى الحكم بتباينهما ، كذلك لا يستوى المشرك الذى يعبد مع الله آلهة ، والمؤمن الذى لا يعبد إلّا الله وحده لا شريك له .

والسر فى إبهام الفاضل والمفضول الإشارة إلى كمال الظهور عند من له أدنى شعور .

(الْحَمْدُ لِلَّهِ) : تقرير لما قبله من نفى الاستواء بين المثلين ، وتنبيه للموحدين على أن مَالَهُم من المزية بتوفيق الله — تعالى — وأنها نعمة جليلة تقتضى الدوام على حمده وعبادته أو الحمد لله على إقامة الحجة عليهم .

(بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) : إضراب وانتقال من بيان عدم الاستواء على الوجه المذكور إلى بيان أن أكثر الناس وهم المشركون لا يعلمون ذلك مع كمال ظهوره فيقعون فى ورطة الشرك والضلال .

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾)

المفردات :

(إِنَّكَ مَيِّتٌ) مع التشديد : من لم يمت وسيموت ، ومع التسكين : مَن فارقته الروح .

(تَخْتَصِمُونَ) أى : يتخاصم فيه الكافر والمؤمن ، والظالم والمظلوم ، قاله ابن عباس وغيره .

يقال : اختصم القوم : خاصم بعضهم بعضًا . اهـ : مصباح .

التفسير

٣٠ - (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ) :

تمهيد لما يعقبه من الاختصام يوم القيامة ، وهو خطاب للنبى - صلَّى الله عليه وسلم - أخبره فيه - سبحانه - بموته . ويدخل معه مؤمنو أمته . والمقصود من الضمير فى «إنهم ميتون» الكفار . وقد احتمل خطابه كما قال القرطبى خمسة أوجه :

أحدها : أن يكون ذلك تحذيرًا من الآخرة .

الثانى : أنه ذكره حثًّا على العمل .

الثالث : أنه توطئة للموت .

الرابع : لئلا يختلفوا فى موته كما اختلفت الأُمم فى غيره حتى أن عمر - رضى الله عنه - لما أنكر موته احتج أبو بكر - رضى الله عنه - بهذه الآية مع قوله : (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ) . . . الآية .

الخامس : ليعلمه أن الله – تعالى – سوى فيه بين خلقه مع تفاضلهم فى غيره لتكثر فيه السلوة وتقل فيه الحسرة .

وفى البحر : لما لم يلتفتوا إلى الحق ولم ينتفعوا بضرب المثل أخبر – سبحانه – بأن مصير الجميع بالموت إلى الله – تعالى – وأنهم يختصمون يوم القيامة بين يديه وهو – عز وجل – الحكم العدل فيميز هناك المحق من المبطل .

وقيل : كانوا يتربصون موت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فأخبروا بأنهم جميعًا سواء بصدد الموت ، فلا معنى للتربص وشماتة الفانى بالفانى .

وتأكيد الجملة فى (إِنَّهُم مَّيِّتُونَ) للإشعار بأنهم فى غفلة عظيمة عن الموت ، وتأكيد الأولى دفعًا لاستبعاد موته – صلى الله عليه وسلم – .

٣١ – (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ) :

يعنى تخاصم الكافر والمؤمن ، والظالم والمظلوم قاله : ابن عباس وغيره .

وقيل :إن الخصومة تبلغ يوم القيامة إلى أن يحاج الروح الجسد ، . أى : ثم إنك وإياهم (يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ) أى : عند مالك أمركم (تَخْتَصِمُونَ) فتحتج عليهم بأنك بلغت ما أرسلت به من الأحكام والمواعظ التى من جملتها ما فى تضاعيف هذه الآيات فكذبوا ولجوا فى المكابرة والعناد معتذرين بما لا طائل تحته ، تقول الأتباع : أطعنا سادتنا وكبراءنا ، ويقول السادة : أغوتنا الشياطين وآباؤنا الأقدمون وغلبت علينا شقوتنا .

وقال جَمْعٌ : المــراد بذلك الاختصام العام فيما جرى فى الدنيا بين الأنام لا خصوص الاختصام بينه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وبين الكفرة الطغام .

أخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن عساكر : عن إبراهيم النخعى قال : نزلت هذه الآية (إِنَّكَ مَيِّتٌ . . .) إلخ ، فقالوا : وماخصومتنا ونحن إخوان ؟ فلما قتل عثمان بن عفان قالوا : هذه خصومة ما بيننا .

وقال الزبير : لما نزلت هذه الآية قلنا : يارسول الله أيكرر علينا ماكان بيننا فى الدنيا مع خواص الذنوب ؟ قال : نعم ، ليكررن عليكم حتى يؤدى إلى كل ذى حق حقه . فقال الزبير : والله إن الأمر لشديد ، وقال ابن عمر : لقد عشنا برهة من دهرنا ونحن نرى هذه الآية نزلت فينا وفى أهل الكتابين (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ) وكيف نختصم ونبينا واحد وديننا واحد حتى رأيت بعضا يضرب وجوه بعض بالسيف فعرفت أنها فينا نزلت .

وقال أبوسعيد الخدرى : كنا نقول : ربنا واحد ، وديننا واحد ، ونبينا واحد ،فما هذه الخصومة ؟ فلما كان يوم « صفين » وشد بعضنا على بعض بالسيوف . قلنا : نعم هو هذا .

وفى البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « من كانت له مظلمة من عرضه أو شىء فليتحلله منه اليوم قبل ألَّا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فَحُمِل عليه ثم طرح فى النار » .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة
رمزى السيد شعبان

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٦/١٦٧٩

الهيئة العامة لشئون المطابع الاميرية
٦٤٨٨ — ١٩٨٦ — ٢٥٠٠٤



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث

الحزب السابع والأربعون

الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٨

* (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾)

المفردات :

(بِالصِّدْقِ) : الذى هو عين الحق ، وهو ما جاء به النبى ﷺ ، وفى ذروته القرآن الكريم

(مَثْوًى) : مقام ومسكن ، من : ثوى بالمكان يثوى ثواء وثُويًّا إذا أقام به .

التفسير

٣٢ - (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللهِ ، وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ) :

ذكرت الآية السابقة تخاصم المشركين عند الله يوم القيامة ، إذ يقول النبى ﷺ لهم : إنى بلَّغت فكذبتم ، واجتهدت فى الدعوة فلججتم فى الخصومة والعناد ، فيعتذرون بما لا طائل تحته ، وجاءت هذه الآية بعدها بيانًا لحكم الله عليهم وعلى غيرهم من سائر المكذبين للرسل .

والمعنى : لا أحد أشد ظلمًا ، ولا أقبح افتراء واختلاقًا ممن اجترأ على مقام الألوهية ، وكذَب على الله فادَّعى معه الشريك أو نسب له الولد ، أو غير ذلك من أنواع الشرك ، وَغَلَا فى هذا وتجاوز مفاجئًا من غير رويَّة ولا تأمُّل فكذَّب بالأمر الذى هو عين الحق ،

وذات الصدق واليقين ، مما جاء به رسول الله ﷺ من الدعوة إلى توحيد الله ، والقرآن الكريم الذى هو أقوى برهان ، وأصدق بيان ، والذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

وقوله تعالى : (أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ) بأسلوب الاستفهام الداخل على النفى لينفيه تقرير وتأكيد للجزاء الذى ينتظر هؤلاء المكذبين ، أى : أن فى جهنم مثوى لهم أى : مقامًا متسعًا ومسكنًا دائمًا خالدًا جزاء ما افتروا على الله - سبحانه - وما سارعوا إليه من تكذيب رسوله ﷺ .

ووضع الظاهر فى قوله : (لِلْكَافِرِينَ) موضع الضمير أى : (لهم) لتسجيل الكفر عليهم وتأكيد استحقاقهم للخلود فيها لا ينفكون عنها ولا تنفك عنهم .

٣٣ - (وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) :

الذى جاء بالصدق وصدق به هو محمد - صلى الله عليه وسلم - كما أخرجه ابن جرير وغيره عن ابن عباس ، والمؤمنون داخلون بحكم التبعية له فهو إمامهم ، ولذلك أخبر عنه بقوله : (أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) . ومثل ذلك مثل دخول الجند فى الأمير بالتبعية فى قولك : نزل الأمير بموضع كذا ، أى : نزل وتبعه جنوده ، وقيل : هو على تقدير : والفريق الذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون ، وحمل بعضهم الموصول على الجنس ، والمراد به حينئذ الرسول والمؤمنون ، وأيد هذا الرأى بقراءة ابن مسعود (وَالَّذِينَ جَآءُواْ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقُواْ بِهِ) :

والمعنى : ومحمد الذى جاء بالقرآن الحق ، وصدق به هو ومن آمن معه - أولئك الموصوفون بما ذُكِرَ - هُمُ المتقون أى : الذين وقوا أنفسهم من الشرك ومن مثوى المشركين .

٣٤ـ (لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ، ذَٰلِكَ جَزَآءُ الْمُحْسِنِينَ) :

هذه الآية بيان لما يستحقه المصدقون المتقون من الكرامة والمنزلة ، أى : لهؤلاء المتقين المصدِّقين لما جاء به الرسول ﷺ – لهم مايشاءون عند ربهم – من تكفير السيئات ، والأمن من الفزع الأكبر وسائر أهوال يوم القيامة ، ومن خيرات الجنَّة ونعيمها ، وطيب المقام فيها بعد دخولها ، إلى جانب ما نالوه فى الدنيا من مختلف أنواع النعم .

(ذَٰلِكَ جَزَآءُ الْمُحْسِنِينَ) أى : ذلك الذى ذكر من حصول مايشاءون فى الدنيا والآخرة جزاءُ المحسنين الذين أخلصوا إيمانهم وأحسنوا أعمالهم .

ووضع المحسنين موضع ضميرهم للإشادة بحسن أعمالهم ، وإبراز فضلهم .

٣٥ـ (لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى عَمِلُواْ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ) :

قول الله تعالى : (لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ ... الآية) متعلق بمضمون ما قبله .

والمعنى : وعدهم الله مايشاءونه من دفع المضار ، ونيل المسارِّ ، وحسن العاقبة ، ليكفِّر عنهم بموجب ذلك الوعد أسوأ الأعمال التى عملوها وخافوا عقابها[1] وليجزيهم أكرم جزاء ، ويثيبهم أوفى ثواب بأحسن ما كانوا يعملون من الطاعات ، حيث يرفع درجة الحسن من أعمالهم إلى درجة أحسنها ، ويثيبهم عليه ثواب أحسنها .

(أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾)

المفردات :

(بِكَافٍ عَبْدَهُ) : بحافظ ومانع رسوله ممَّا يخوِّفونه به .

(١) وإذا كفر الله عنهم أسوأ الذى عملوه ، فإنه – تعالى – يكفر عنهم ما دونه من باب أولى .

(وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ) : يحذرونك ويهددونك بضرر الأصنام .

(عَزِيزٍ) : غالب لا يغالَب ، منيع لا يمانَع ولا ينازَع .

(انتِقَامٍ) : عقوبة .

التفسير

٣٦ - (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) :

دخول همزة الاستفهام على النفى يقتضى التقرير والإثبات ، وقد جاءت هذه الآية لتؤكد مضمون الآيات السابقة من توعُّد الظالمين الكذَّابين والمكذِّبين ، وصدق الوعد للصادقين والمصدِّقين .

والمعنى : الله - تعالى - بقوته وقدرته حافظ رسوله ، ومانعه من كل أذى يصيبه ، ومن كل مؤذٍ يريده بسوءٍ .

وقوله تعالى : (وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ) تسفيه لما كانَ المشركون يُهدِّدُون به الرسول ﷺ من ضرر أصنامهم . ويتوعدونه به .

روى أنَّهم كانوا يقولون له : إنَّا نخاف أن تخبلك آلهتنا ، وتصيبك مضرتها لعيبك إيَّاها ، فنزلت الآية . وفى رواية أُخرى قالوا : « لتكُفَّنَّ عن شتم آلهتنا أو ليصيبنك منها خبل أو جنون كما قال قوم هود له : (إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ) .

وقال قتادة : مضى خالد بن الوليد إلى العُزّى ليكسرها بالفأس ، فقال له سادنها : أُحذركها يا خالد فإن لها شدة لا يقوم لها شىء ، فعمد خالد إليها فهشم رأسها بالفأس » . وتخويفهم لخالد تخويف لرسول الله ﷺ لأنه الذى وجهه إليها .

ولما كان اتخاذهم الأصنام آلهة ، وتخويفهم بها وهى أحجار لا تدفع ضرًّا ولا تجلب نفعًا لنفسها فضلًا عن أن تنفع أو تضرُّ غيرها - لما كان هذا - ضلالًا منهم وإضلالًا من الله لهم لإصرارهم على الباطل ، جاء قول الله - تعالى - : (وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

أى : ومن يصرفه الله عن الهداية ، ويعمى قلبه عن اتباع الحق لسوء اختياره ، فهو ضال وما له من هادٍ أبدًا يهديه إلى الخير ، أو يوجهه إلى الحق ونور الإيمان .

٣٧ـ (وَمَن يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِى انتِقَامٍ) أى : ومن يوفِّقه الله إلى الهداية ويرشده إلى الحق ونور الإيمان فليس له من مضل يصرفه عن مقصده السَّوىّ ، ويدفعه إلى الغواية ومسالك السوء ، إذ لا راد لقضائه ـ تعالى ـ ولا معارض لإرادته . كما ينطق بذلك قوله ـ تعالى ـ : (أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِى انتِقَامٍ) أى : أليس الله بغالب لا يغالب ، منيع لا يمانع ولا ينازع ، ذى انتقام وعقوبة بالغة لمن يتمرد على أمره ونهيه .

وفى هذا تسلية للرسول ، وتثبيت للمؤمنين ، وتأمين لهم على مسالكهم فى الطاعة ، ومسيرتهم فى الاهتداء .

(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾)

المفردات :

(كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ) : دافعات ضره ورافعاته .

(مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ) : مانعات رحمته وحابسات لها .

(حَسْبِىَ اللهُ) : كافينى فى جميع أمورى .

(مَكَانَتِكُمْ) : حالتكم التى أنتم عليها من العداوة التى تمكنتم فيها .

(يُخْزِيهِ) : يُذِلُّه ويُهينه . (مُقِيمٌ) : دائم لا ينقطع .

التفسير

٣٨-(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ) :

كان المشركون مع إشراكهم ، وعبادتهم الأصنام ، وادعائهم قدرتها وتأثيرها يعترفون أن خالق السموات والأرض هو الله لا يمارون فى ذلك ، ولا يجادلون فيه ، وجاءت هذه الآية توجِّه الرسول ﷺ إلى سؤالهم عن ذلك لينتزع هذا الاعتراف فيكون حجة عليهم تبهتهم وتسفِّه أحلامهم .

والمعنى : ولئن سألت هؤلاء المشركين المعاندين مَنْ خلق السموات والأرض ، وأبدع صنعتهما وأحكم نظامهما ، وسخر فى السماء كواكبها ، وأجرى فى الأرض أنهارها ، وأرسى جبالها ، وأنبت أشجارها ، وبثَّ فيها من كل دابَّة ليقولن : خلقهن الله لوضوح الدليل ، وسنوح السبيل ، وما وجدوا سوى ذلك ردًّا ولا حاروا جوابًا .

قل لهم يا محمد بعد هذا الاعتراف منهم تسفيهًا وتبكيتًا : أفكَّرتم بعد هذا الاعتراف والإقرار فرأيتم أن آلهتكم التى تدعونها من دون الله ، وتزعمون لها التسلُّط والتأْثير - إن أرادنى الله بضرٍّ وأذى هل هنَّ قادرات على أن تدفعه عنِّى ، وتحول بينه وبينى ، أو أرادنى برحمة ونعمة هل هنَّ قادرات أن تمنعها منى أو تحبسها عنِّى ، وعبر عن آلهتهم بصيغ المؤنث فى (كَاشِفَاتُ ، وَمُمْسِكَاتُ) لأنَّها مؤنثات الأسماء وهى اللَّات والعزى ومناة .

روى أنه ﷺ لمَّا سألهم سكتوا فنزل قوله - تعالى - : (قُلْ حَسْبِيَ اللهُ) أى : قل لهم أيها الصادق الأمين : حسبى الله وكافينى فى جميع أُمورى من إصابة الخير ، ودفع الشر ، عليه وحده لا على أحد غيره يتوكل المتوكلون فى كل أُمورهم ، ويعتمدون على حوله وقوته فى جميع شئونهم ، لعلمهم أن كل ما سواه تحت ملكوته - تعالى -

٣٩ ، ٤٠ - (قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ . مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ) :

أى : قل لهم أيها الصادق الأمين بعد أن سجَّلوا على أنفسهم باعترافهم بقدرة الله - تعالى - السَّفه والعناد - قل لهم - : اعملوا على مكانتكم وحالتكم التى أنتم عليها من العداوة التى تمكنت منكم ، إنى عامل على منهجى وطريقى التى لا تزال تزداد قوة تروع أمنكم ، بنصر الله لى وتأْييده إياى ، إحقاقًا للحق وإعلاءً لكلمته ، وإذا كنتم الآن من هذا فى شك فسوف تعلمون فى مستقبل الأيام وعلى امتداد الزمن ، وتتابع الأحداث من يأْتيه عذاب يخزيه ويذلُّه فى الدنيا ويهينه ، ويحلُّ عليه فى الآخرة عذابٌ مقيم دائم لا ينقطع ، وقد صدق فيهم عذاب الدنيا بالقتل والأَسر يوم بدر ، والذُّل والهوان يوم فتح مكَّة ، وينتظرهم فى الآخرة عذابٌ أفظع ، ونكال أبشع لمن بقى منهم على كفره .

(إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾)

المفردات :

(بِالْحَقِّ) : متلبسًا بالصدق .

(بِوَكِيلٍ) : مسلَّط تجبرهم على الهداية .

التفسير

٤١ - (إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ، فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ، وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ) :

تتجه هذه الآية إلى تقرير أمر الرسالة ، وإنزال القرآن الكريم ، وما يحتويه من

إرشادات وعظات ، يُسَلِّي بها نبيه ﷺ ويهوِّن عليه عناد قومه ومعارضتهم فيقول - الله تعالى مخاطبًا نبيَّه ﷺ : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾ أى : إنا أنزلنا عليك أيها الرسول العظيم القرآن الكريم بالحق والصدق لأجل الناس فإنه مناط مصالحهم فى المعاش وفى المعاد، وإن مهمتك فيه إبلاغه للناس بأمانة وصدق، كما أنزلناه إليك ليهتدى به من يريد الله له الهداية ومجانبة الشرك والضلال ، فمن أجابك إليه واهتدى به ، وعمل بما فيه فلنفسه ؛ لأن نفعه عائد عليها ، وحسن عاقبته لها ، ومن أعرض ، وضل عن الانتفاع بهديه ، ولم يعمل بما فيه، فإنما ضلاله على نفسه ؛ لأن وبال ذلك ، وسوء عاقبته حائق بها ، وما أنت على الناس بوكيل ولا مسلَّط تجبرهم على الإيمان والتصديق ، وتلجئهم إلى الهداية والتوفيق ، فإنك لا تهدى من أحببتَ ولكن الله يهدى من يشاء .

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

المفردات :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ ﴾ أى : يستوفيها ويسيطر عليها .

﴿ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ ﴾ : يحفظها ولا يردُّها إلى البدن .

﴿ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ ﴾ : يرد النفس النائمة إلى البدن عند اليقظة .

(أَجَلٍ مُّسَمًّى) أى : وقت سمّاه الله ينتهى به عمرها .

(لَآيَاتٍ) : لعظات بالغات .

التفسير

٤٢ - (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) :

روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : « إن فى ابن آدم نفسا وروحًا ، بينهما مثل شعاع الشمس ، فالنفس هى التى بها العقل والتمييز ، والروح هى التى بها التَّنَفُّس ، والتَّحرك ، فيتوفَّيان معًا عند الموت ، وتتوفى النفس وحدها عند النوم » .

هكذا روى عن ابن عباس ، ولكن الظاهر أنَّ هذه الآية الكريمة تمثل صورتين عجيبتين من صور قدرة الله - تعالى - على الخلائق ، صورة تحدث لكل حى مرَّة واحدة ولا تتكرر ، وهى الموت عند انتهاء الأَجل ، وصورة تتكرر مع الحياة وتلازمها ، وهى النوم فى جميع حالاته وأوقاته : فهذا هو مضمون قوله - تعالى - : (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ... الآية) .

والمعنى : الله يستوفى الأَرواح ويسيطر عليها حين موتها وحين نومها ، فيمسك التى قضى عليها الموت ويقطع صلتها بالبدن ، ويرد النفس الأُخرى النائمة التى منعها عن التصرف وقت نومها ولم يحن أجلها - يَرُدُّ تصرفها إلى بدنها فتحصل اليقظة بسبب ذلك ، ويجرى ذلك عليها إلى أَجل مسمى هو انتهاء عمرها .

(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) أى : إن فى ذلك التصرف العجيب ، والنمط الغريب الذى يجرى على نفوس الخلائق ، ويتكرر فى حاليه بينهم ، وتحت أبصارهم ، وأَسماعهم ، لآيات بالغات ، وشواهد بيِّنات دالَّات على بليغ قدرة الله - تعالى - ودقة حكمه ، لقوم يتفكرون فى كيفية تعلق النفس بالأَبدان ، وتوفِّيها عنها تارة بالكلية عند الموت ، واستبقائها عند الله بين السعادة والشقاوة ، وتوفِّيها تارة أُخرى توفيًا ظاهرًا عند النوم ، وإرسالها إلى البدن ليعود إلى نشاطه ، حتى يحين أجلها .

٤٣ ، ٤٤ - (أَمِ اتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ * قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ، لَّهُ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) :

أى : بل أتخذوا : فأَمْ هنا منقطعة تتضمن معنى بل وهمزة الاستفهام .

والمعنى : بل أتَّخذ المشركون آلهة من دون الله ، ومن غير إذن منه شفعاء تشفع عنده - تعالى - لهم فى أمورهم الدنيوية والأُخروية .

قل لهم أيها الرسول (أولًا) تسفيهًا وتبكيتًا : أيستقيم فى تفكيركم ، ويصح فى عقولكم أن تتخذوا أصنامكم شفعاء يشفعون لكم عند الله ، وترجون عندهم ذلك ، ولو كانوا لا يملكون شيئًا أصلًا ، فضلًا عن أن يملكوا الشفاعة التى هى المنزلة العليا ، والغاية القصوى ، التى لا يرقى إليها إلَّا الأنبياء والمرتضون . وكذلك لا يعقلون أمرًا من الأُمور ، ولا يرجو أحد منهم الشفاعة إلَّا المغرقون فى الجهل والضلال .

وقل لهم (ثانيًا) إثباتًا للحق وتأْكيدًا : لله وحده الشفاعة جميعًا بكل صورها ، وكافة أغراضها هو الذى يملكها ويملك الإذن بها إذا كان الشفيع مرتضى مأْذونًا له ، وأصنامكم تفقد أساسًا كل مقوماتها فضلًا عن الارتضاء لها والإذن لها .

وقوله - تعالى - : (لَّهُ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) تأْكيد لمضمون ما قبله وتقرير له .

والمعنى : لله وحده ملك السموات والأَرض وملك ما بث فيهما من دابة ، ومن حق المالك ألَّا يتكلم أحد فى أمر من أُمور ملكه إلَّا بإذنه ، ثم إليه وحده وليس لغيره استقلالًا أو اشتراكًا ترجعون يوم القيامة ، فتعلمون الأُمور على حقيقتها ، وتتبينون ضلالكم وجهلكم باتخاذكم هذه الأَصنام آلهة ، ورجائكم فى نفعها وشفاعتها فتندمون ، ولات ساعة مندم .

(وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾)

المفردات :

(وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ) : دون ذكر الأصنام .

(اشْمَأَزَّتْ) : انقبضت ونفرت .

(مِن دُونِهِ) : من دون الله .

(يَسْتَبْشِرُونَ) : يفرحون ويسرون .

(فَاطِرَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) : خالقهما ومبدعهما على غير مثال سابق .

(عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) : عالم السر والعلن .

(لَافْتَدَوْا بِهِ) : لقدموه فداءً لهم من العذاب .

(بَدَا) : ظهر .

(يَحْتَسِبُونَ) : يدخل فى تقديرهم وحسابهم .

التفسير

٤٥ - (وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) :

تصور هذه الآية تصرفًا من تصرفات هؤلاء المشركين ناشئًا عن تماديهم فى الشرك ، وإيغالهم فى تأليه أصنامهم ، وتمثل حالين من أحوالهم القبيحة تنعكسان على وجوههم انقباضًا وعبوسًا إذا سمعوا ذكر الله ، وبشْرًا وفرحًا إذا سمعوا ذكر آلهتهم ، وذلك من إيغالهم فى الجهل وانحطاطهم فى سفاهة العقل وسوء التفكير .

والمعنى : قد كان من حالهم فى الدنيا أنه إذا ذكر الله وحده دون ذكر الأصنام انقبضت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة من المشركين ، وظهر ذلك على وجوههم إنكارًا واشمئزازا ، وإذا ذكر الذين من دونه من أصنامهم وآلهتهم فرادى أو مع ذكر الله - تعالى - أسرع الفرح والسرور إليهم ، وظهر البشر على وجوههم ، لفرط افتتانهم بآلهتهم ، وتعصبهم لها ، ونسيان حق الله - تعالى - .

٤٦ - (قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) :

هذا أمر وتوجيه من الله لرسوله بالدعاء والالتجاء إلى الله - تعالى - لما قاساه فى أمر دعوة هؤلاء المشركين ، ولما ناله من شدة شكيمتهم فى المكابرة والعناد ، فإنه - تعالى - هو المبدع للسموات والأرض بجملتها ، والعالم بالأحوال برمتها ، والفاصل بين المحقين والمبطلين ، وفيه تعليم للعباد أن يلجئوا إلى الله عند الشدائد .

والمعنى : قل أيها الرسول : اللهم يا فاطر السموات والأرض ومبدع صنعتهما على غير مثال سبق ، يا عالم كل سر وعلانية ، وكل غائب وشاهد ، لا يخفى عليك شأن من الشئون أنت وحدك تحكم بين عبادك ، وتقضى بينهم فيما كانوا يختلفون فيه فى الدنيا قضاء يحسم كل خلاف ، ويخضع له كل مكابر ، ويستسلم له كل عات متجبر ، فيبهت بذلك كل ظالم ، وينتصف كل مظلوم .

هذا ، وأصل الفطر : ابتداء الخلق وابتداعه ، قال ابن عباس – رضى الله عنهما – : « كنت لا أدرى ما فاطر السموات والأرض حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر ، فقال أحدهما : أنا (فطرتها) أى : ابتدأتها » .

٤٧ – (وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ) :

ولو كان للذين ظلموا أنفسهم بالشرك ، والإسراف فى العناد والمعارضة – لو كان لهم – ما فى الأرض جميعًا من الخيرات ، والكنوز والأموال ومثله معه ، لهان عليهم أن يبذلوه افتداءً لهم وخلاصًا من سوء العذاب يوم القيامة ، لهول ما يشاهدون ، وفظاعة – ما يلاقون – وهيهات – وفى هذا قمة الوعيد ، وغاية الإقناط لهم من الخلاص والنجاة ما داموا به كافرين .

وفى قوله – تعالى – : (وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ) : ارتفاع بالوعيد إلى أقصى ما يتمثله متمثل ، أو يدخل تحت حذر وتقدير . أى : وظهر لهم من الله من ضروب العذاب ، وصور العقاب والانتقام ، ما لم يخطر على بالهم ، ولم يدخل فى تقديرهم وحسابهم .

وهذا الوعيد غاية فى التخويف والتحذير يقابلها فى الترغيب والتبشير قول الله – تعالى – : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ »[1] .

٤٨ – (وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ) :

تمضى الآيات فى ترديد الوعيد وتُبْدِئُ فيه وتعيد ، لتقطع الحجة على كل مكابر ، وتعقد لسان كل عنيد ، فيقول الله – تعالى – : (وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟) أى : وظهر – للمشركين يوم القيامة حين عرضت عليهم صحائف أعمالهم ، وأخذوا كتبهم بشمائلهم ، وقالوا وفى عيونهم عَبرة ، وقلوبهم فى غمرة : « مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ... الآية »[2] – بَدَا لهم يومئذ – سيئات ما عملوا فى دنياهم

---

(١) سورة السجدة – الآية : ١٧

(٢) سورة الكهف من الآية : ٤٩

وما اكتسبوا من فرطات وآثام ، (وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) أى : نزل وأحاط بهم من صنوف العذاب وضروب العقاب ما كانوا به يستهزئون ويسخرون عند توعدهم به فى الدنيا ، ويستعجلون نزوله سخرية وإنكارًا ، وعتوًّا واستكبارًا ، « وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ »[1] .

(فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ۚ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾)

المفردات :

(مَسَّ) : أصاب وتمكّن .

(خَوَّلْنَاهُ) : أعطيناه وملكناه تفضلًا .

(عَلَىٰ عِلْمٍ) : على معرفة بوجوه الكسب ، أو على استحقاق وجدارة بما عندى من العلم.

(فِتْنَةٌ) : محنة وابتلاء .

(بِمُعْجِزِينَ) : بغائبين من العذاب ناجين منه .

---

(١) سورة النحل من الآية : ٣٣

(يَبْسُطُ) : يوسع ويزيد .

(يَقْدِرُ) : يضيق وينقص .

التفسير

٤٩ ـ (فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) :

تحكى هذه الآية لونًا من سلوك الإنسان الذى لم يتمكن من قلبه دين يهديه ، ولم يتوفر فيه عقل يرشده ، ولا تحكمه قيم أو تقيده ، فتضطرب أحواله ، وتختلف نزعاته ، وينعكس ذلك على سلوكه .

ويتمثل سلوكه تارة فى عقيدته ، وتارة فى أحواله وتصرفاته ، فإذا أصابته ضراء أو نزل به مكروب عرف الله ولجأ إليه بالدعاء ، ثم إذا كشف الله ضره ، ورفع كربه نسى ما كان يدعو إليه ، وعاد لما كان عليه من الزعم بأنه أوتيه على علم .

وهذه الآية التى بين أيدينا تحكى كفر الإنسان بالنعمة طغيانًا واستعلاءً .

والمعنى : (فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا) أى : إذا أصاب الإنسان ضر فى مال أو أهل أو عافية أو غير ذلك من الكوارث ـ إذا أصابه شىءٌ من ذلك ـ دعانا وحدنا ولجأ إلينا ولم يدعُ لِكَشْفِ ضره ، ودفع شره سوانا ، ملحًا فى الدعاء ، مستمرًا فى الرجاء ، ثم إذا تجلَّينا عليه بالإجابة ، وأعطيناه سؤله ، وملكناه وخوَّلناه منَّا نعمة تعاظم وتعالى ، وادعى لنفسه القدرة والجدارة وقال : إنما أُوتيت ما أُوتيته على علم عندى بوجوه الكسب ومهارة فى التصرف واستحقاق للنعمة ، ناسيًا فضل الله عليه ، وتضرعه إليه ، ولم تكن مقالته هذه عن حق أو عقل (بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ) وابتلاءٌ ومحنة ، وكفر بالنعمة ، ولكن هؤلاء المذكورين لا يعلمون أن ما يجرى عليهم من النعم اختبار من الله يتمحص به الشاكر والكافر ، والحامد والجاحد ، أو لا يعلمون سبل الإخلاص ، ووسائل النجاة .

وفى قوله تعالى : (لَا يَعْلَمُونَ) بصيغة الجمع ، مع الإفراد قبله ـ فيه ـ دلالة على أن المراد بالإنسان الجنس ، وأن أكثره يسلك هذا السبيل .

وصدرت هذه الآية بالفاء دون الواو لترتبها على حال سابقة من مناقضتهم ، وتعكيسهم فى التسبب حيث يشمئزون إذا ذكر الله وحده ، ويستبشرون بذكر آلهتهم مع الله أو فرادى فإذا مسهم ضر دعوا من اشمأزوا من ذكره وضاقوا باسمه دون من استبشروا بذكره وهشوا له .

٥٠ - (قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ) :

أى : قد قال هذه المقالة وهى : (إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ) الذين تقدموهم ، وسبقوا أيامهم وأزمانهم ، فلم تكن مقالتهم بدعًا ، ولا كفرهم حدثًا - قال هذه المقالة : قارون موسى الذى آتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوءُ بالعصبة أُولى القوة ، فلما طلب منه أن يبتغى الدار الآخرة مع دنياه اعترافًا للمنعم ، وشكرًا للنعمة « قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ »[1]

وقالها فرعون تألُّهًا وتجبُّرًا : « أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ »[2] وتطاول على مقام النبوَّة فقال فى شأن موسى - عليه السلام - : « أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ »[3] .

وقال النمرود فى محاجة إبراهيم - عليه السلام - : « أَنَا۠ أُحْيِى وَأُمِيتُ »[4] . وهكذا كانت النعم على طول الزمن سبيلًا للإنسان إلى التجبر والطغيان . وصدق الله العظيم إذ يقول : « كَلَّآ إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰٓ »[5] ، وقوله تعالى : (فَمَآ أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ) معناه : فما دفع عنهم ولا أفادهم ما كانوا يجمعونه فى الدنيا ، ويحرصون على كسبه ، ما أغنى عنهم ذلك ولا دفع ما نزل بهم من العذاب ، مما ينبىء عنه قوله تعالى :

٥١ - (فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ وَالَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ) :

والمعنى : فأصاب هؤلاء جزاء سيئات ما كسبوه ، فأغرق الله فرعون وجنوده ، وخسف بقارون وبداره الأرض ، والذين أفرطوا فى الظلم من هؤلاء المشركين ، وأسرفوا فى العناد

---

(١) سورة القصص من الآية : ٧٨ — (٣،٢) سورة الزخرف الآيتان : ٥١ ، ٥٢

(٤) سورة البقرة من الآية : ٢٥٨ — (٥) سورة العلق الآيتان : ٦ ، ٧

سيصيبهم فى الآخرة جزاء سيئاتهم ، وعقاب ظلمهم وإشراكهم ، فوق ما أصابهم أشد إصابة فى الدنيا من القحط والقتل والذل والهوان ، فقد قحطوا عدة سنين ، ولقوا ما لقوا من القتل والأسر يوم بدر ، ومن الذُّل والهوان يوم فتح مكة ، حيث دانوا للإسلام ، وتحطمت كبرياؤهم .

(وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ) أى : بفائتين ولا ناجين من العذاب فى الآخرة كما وقع بهم فى الدنيا .

٥٢ - (أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) :

المعنى : أغفل هؤلاء وأولئك من المشركين والذين سبقوهم ممن أبطرتهم النعم ، وأفسدهم الترف والغنى ، فراحوا يتطاولون ، ويتكاثرون - أغفلوا - ولم يعلموا أن المنعم على جميع خلقه مؤمنهم وكافرهم ، صالحهم وطالحهم هو الله - تعالى - وأنه يبسط الرِّزق لمن يشاءُ من عباده ويقدر ، ويضيِّق الرِّزق على من يشاءُ منهم ، لحكمة لا يعلمها إلَّا هو - سبحانه وتعالى - .

(إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) أى : إن فى ذلك الذى ذكر لآيات بينات وشواهد واضحات لقوم يستعدون للإيمان بالتفكر فى حكمته وبديع صنعته ، وكمال قدرته ، فيهتدون بهديها ، ويسلكون سبيل الخلاص والنجاة ، وما أروع معنى ، ولا أبدع نسقًا أن ينزل بعد هذه الآيات قول الله تعالى :

(قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ . . . الآية) .

* (قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾)

المفردات :

(أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ) : تجاوزوا الحد فى المعاصى فجنوا عليها .

(لَا تَقْنَطُوا۟) : لاتيئسوا .

(وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ) : ارجعوا إليه بالتوبة والطاعة .

(وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ) : أخلصوا له العمل والعبادة .

(أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم) : القرآن .

(بَغْتَةً) : فجأة .

(يَٰحَسْرَتَىٰ) : يا ندامتى ويا حُزْنى .

(فَرَّطتُ) : ضيعت وقصرت .

(جَنبِ اللهِ) : حقه .

(السَّاخِرِينَ) : المستهزئين بدين الله .

(كَرَّةً) : رجعة إلى الدنيا .

التفسير

٥٣ - (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) :

ذكر القرآن فى الآيات السابقة ما أعد الله للظالمين والمشركين من العذاب الأليم ، وجاءت هذه الآية للمؤمنين المفرطين فى المعاصى لبعث الأمل فى نفوسهم حتى لا يقنطوا من رحمة الله .

والمراد بمغفرة الذنوب : التجاوز عنها وعدم المؤاخذة بها ، وهو المراد بسترها ، وقيل : المراد بها محوها من الصحائف ، كأن لم تكن فضلًا منه - تعالى - وكرمًا .

واستظهر بعض المفسرين إطلاق المغفرة للتائبين وغيرهم ، بدليل قوله -تعالى- : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ »[1] فهو ظاهر فى الإطلاق فيما عدا الشرك ، ويشهد للإطلاق أمور :

الأول : نداؤهم بعنوان العبودية فإنها تقتضى المذلة وهى أنسب بحال العاصى إذا لم يتب ، واقتضاؤها للرحمة ظاهر .

---

(١) سورة النساء من الآية : ٤٨

الثانى : الاختصاص الذى تُشعر به الإضافة إلى ضميره - تعالى - فإن السيد من شأنه أن يرحم عبده ويشفق عليه .

الثالث : إضافة الرحمة إلى الاسم الجليل المحتوى على جميع معانى الأسماء على طريق الالتفات فإن ذلك ظاهر فى سعتها ، وهو ظاهر فى شمولها التائب وغيره .

الرابع : وضع الاسم الجليل فى موضع الضمير لإشعاره بأن المغفرة من مقتضيات ذاته لاشىء آخر من توبة وغيرها .

الخامس : تعريف الذنوب فإنه فى مقام التمدح ظاهر فى الاستغراق فشمل الذنب الذى تعقبه التوبة والذى لاتعقبه التوبة .

السادس : التأكيد بلفظ (جميعًا) .

السابع : التعبير بالغفور فإنه صيغة مبالغة وهى إن كانت باعتبار الكم شملت المغفرة جميع الذنوب ، أو باعتبار الكيف شملت الكبائر بدون توبة .

الثامن : حذف معمول الغفور فإن حذف المعمول يفيد العموم ، إلى غير ذلك مما قالوه .

وقال آخرون : إنها وردت فى غير موضع من القرآن الكريم مُقَيَّدَة بالتوبة ، فإطلاقها هنا يحمل على التقييد بها ، لأن المطلق يحمل على المقيد ما لم ينسخ ، ولا نسخ فى عقاب المؤمن المذنب ، وأيدوا ذلك بقوله تعالى : (وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ) فإنه عطف على (لَا تَقْنَطُواْ) كأنه قيل : لاتقنطوا من رحمة الله فتظنوا أنه لايقبل توبتكم وأنيبوا إليه - تعالى - وأخلصوا له - عز وجل - .

وقال بعض أجلة المحققين : إن قوله : (يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُواْ) خطاب للكافرين والعاصين وإن كان المقصود الأول : الكفار لمكان القرب وسبب النزول .

فقد أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال : إن أهل مكة قالوا : يزعم محمد أنه مَن عَبَد الأوثانَ ، ودعا مع الله إلهًا آخر ، وقتل النَّفس التى حرم الله ، لم يُغْفَرْ له ، فكيف نُهَاجر ونُسْلِم ؟ وقد عبدنا الآلهة وقتلنا النفس ونحن أهل شرك ؟ فأنزل الله - تعالى - (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ . . . الآية) .

وأخرج ابن جرير عن ابن عمر – رضى الله عنهما – قال : نزلت الآيات فى عياش ابن أبى ربيعة ، والوليد بن الوليد ، ونفر من المسلمين كانوا أسلموا ثم فتنوا وعذبوا ، فافتتنوا[1] فكنا نقول : لا يقبل الله – تعالى – من هؤلاء صرفًا ولا عدلًا أبدًا : أقوام أسلموا ثم تركوا دينهم بعذاب عذبوه ! ! فنزلت هذه الآيات ، وكان عمر – وضى الله عنه – كاتبًا فكتبها بيده ، ثم كتب بها إلى عياش ، وإلى الوليد ، وإلى أولئك النفر فأسلموا وهاجروا .

وأخرج ابن جرير عن عطاء بن يسار قال : نزلت هذه الآيات الثلاث : (قُلْ يَا عِبَادِىَ) إلى (وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) بالمدينة فى وحشىٍّ قاتل حمزة ؛ لأنه ظن أن الله لا يقبل إسلامه .

وقد فرح النبى ﷺ بنزول هذه الآية ، أخرج الإمام أحمد فى مسنده وابن جرير وابن مردويه والبيهقى فى شعب الإيمان وغيرهم عن ثوبان قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما أحب أن لى الدنيا وما فيها بهذه الآية (يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ) إلى آخر الآية » .

وأصل الإسراف : الإفراط فى صرف المال ، ثم استعمل فيما ذكر مجازًا ، وقال الراغب : هو تجاوز الحد فى كل فعل يفعله الإنسان وإن كان ذلك فى الإنفاق أشهر ، وهو ظاهر فى أنه حقيقة فيما ذكرنا .

٥٤ – (وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ) :

حث الله – تبارك وتعالى – عباده على المسارعة إلى التوبة فقال : (وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ) إلى آخر الآية – أى : وارجعوا أيها المسرفون على أنفسهم إلى ربكم ومالك أمركم بالإعراض عن معاصيه ، والندم عليها ، وأسلموا له بالإخلاص فى طاعته ، والامتثال لأمره ، والخضوع له بالعبادة ، والإقرار بوحدانيته ، قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا ينصركم أحد من الله ويدفع عنكم عذابه .

ولقد فرق بعض العلماء بين الإنابة والتوبة : بأن التائب قد يرجع من خوف العقوبة ، والمنيب يرجع استحياء لكرمه – تعالى – وذكر الإخلاص بعد الإنابة ليعلم العبد أن نجاته بفضل الإخلاص لله فى توبته .

---

(١) أى : رجعوا عن الإسلام .

٥٥ - (وَاتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) :

أى : واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم وهو القرآن ، أو العزائم دون الرخص ، وقال ابن زيد : يعنى المحكمات وكِلُوا المتشابه إلى علمه .

ولعل الأحسن ما هو أنجى وأسلم كالإنابة والمواظبة على الطاعة من قبل أن يجيئكم العذاب فجأة وعلى غير استعداد ، وأنتم لا تشعرون ، أى : لا تعلمون أصلا بمجيئه فتتداركون ما يدفعه عنكم .

٥٦ - (أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ) :

أى : أنيبوا إلى ربكم وأسلموا له ، واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم كراهة أن تقول نفس آثمة مذنبة : يا ندامتى ويا حسرتى وأسفى على ما ضيعت وقصرت فى جنب الله أى : فى حق الله - تعالى - حال أن كنت من المستهزئين بكتابه ودينه ورسله .

قال الراغب : أصل الجَنْب الجارحة ، ثم استعير للناحية والجهة - والمراد هنا : الجهة مجازًا ، والكلام على تقدير مضاف أى : فى جنب طاعة الله أو فى حقه - تعالى - أى : ما يحق له - سبحانه - ويلزم وهو طاعته - عز وجل - والتفريط فى جهة الطاعة كناية عن التفريط فى الطاعة نفسها ؛ لأن من ضيع جهة ضيع ما فيها بطريق الأولى .

وتنكير (نفس) فى قوله تعالى : (أَن تَقُولَ نَفْسٌ) للتكثير بقرينة المقام ، ويجوز أن يكون تنكيرها للتبعيض ؛ لأن القائل بعض الأنفس ، واستظهره أبو حيان .

٥٧ - (أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِى لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) :

أو تقول تلك النفس المذنبة : لو أن الله هدانى بالإرشاد والدلائل الموصلة ، لكنت من الذين وقوا أنفسهم من عذاب الله وعقابه بالإيمان والعمل الصالح ، وفسر أبو حيان الهداية بخلق الاهتداء .

٥٨ - (أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) :

أو تقول تلك النفس المذنبة حين تشاهد العذاب وتعاين أهواله وشدائده : ليت لى رجعة إلى الحياة الدنيا فأكون من المحسنين فى العقيدة والعمل ، المؤمنين العاملين بما نزل ، وهكذا

يتمنون فى الآخرة الرجوع إلى الدنيا مرةً ثانية ليحسنوا ، ولقد كانوا فيها فما أحسنوا ، بل أساءوا إلى خالقهم بعبادة غيره وعدم طاعته . ولذا جاء قوله – تعالى – :

٥٩ – (بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ آيَاتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ) :

جوابًا من الله – عز وجل – لما تضمنه قول القائل : (لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِى) من نفى أن يكون الله قد هداه – أى : بلى أيها النادم على ما كان منه فى الحياة الدنيا المتمنى الرجوع إليها لتكون من المحسنين فيها – بلى – قد جاءتك آياتى وتعاليمى على لسان رسلى ، وقامت حججى عليك ، فكذبت بها واستكبرت عن اتباعها ، وكنت من الكافرين بها والجاحدين لها ، وآثرت الكفر على الإيمان والضلالة على الهدى .

(وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾)

المفردات :

(كَذَبُوا۟ عَلَى اللهِ) : وصفوه بما لا يليق به .

(وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ) : حقيقة أو لما يعلوها من الكآبة .

(مَثْوًى) : مأوى ومقامًا .

(بِمَفَازَتِهِمْ) : بفوزهم وظفرهم ببغيتهم .

التفسير

٦٠ – (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى اللهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ) :

المراد بالذين كذبوا على الله : كل من افترى على الله ووصفه بما لا يليق به – سبحانه –

نفيًا أو إثباتًا ، بأن نزهه – سبحانه – عمَّا يجب أن يضاف إليه ، أو نسب إليه ما يجب تنزيهه – سبحانه وتعالى – عنه (وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ) بما ينالهم من الشدة التى تغبر ألوانهم حقيقة ، ويجوز أن يكون ذلك من باب المجاز لمـا يعلو وجوههم من الكآبة ، ويلحقها من الهم والحزن ، ويظهر عليها من آثار الجهل بالله – عز وجل – فى هذا اليوم العصيب .

والظاهر أن الرؤية بصرية ؛ لأن ذلك أبلغ فى التشهير بهم وبيان قبح حالهم ، والخطاب للرسول ، أو لكل من تتأتى منه الرؤية (أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ) أى : أن فى جهنم مقرًا ومقامًا للمتكبرين الذين جاءتهم آيات الله فكذبوا بها واستكبروا عن قبولها ، والانقياد لها .

٦١ – (وَيُنَجِّى اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) :

أى : وينجى الله الذين جعلوا لهم وقاية من عذاب الله بالتوحيد وفعل الطاعات – ينجيهم – بمفازتهم من العذاب لاختيارهم الهدى على الضلال (لَا يَمَسُّهُمُ السُّوٓءُ) أى : لا ينالهم من أذى جهنم شىء ، وهذا وما بعده بيان للمفازة (وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) أى : ولا يحزنهم الفزع الأكبر ، بل هم آمنون من كل فزع ، ناجون من كل شر ، نائلون كل خير ، أو المعنى : ولا هم يحزنون على ما فاتهم من متاع الدنيا أو ذهاب نعيم كانوا يؤملونه فى الآخرة .

والمفازة مَفْعَلَةٌ من الفوز مصدر ميمى ، أو اسم مكان من فاز به : ظفر ، أو من فاز منه : نجا .

وعن النبى ﷺ فى تفسير هذه الآية من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يحشر الله مع كل امرئ عمله فيكون عمل المؤمن معه فى أحسن صورة وأطيب ريح ، فكلما كان رعب أو خوف قال له : لَا تُرَعْ فما أنت بالمراد به ، ولا أنت بالمعنى به ، فإذا كثر ذلك عليه قال : فما أحسنك فمن أنت ؟ فيقول : أما تعرفنى ؟ أنا عملك الصالح حملتنى على ثقلى فوالله لأحملنك ولأدفعنَّ عنك فهى التى قال الله : (وَيُنَجِّى اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) » ذكره القرطبى .

(ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾)

المفردات :

(مَقَالِيدُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) : مفاتيحها ، وهو كناية عن ملكه لهما وتصرفه فيهما .

(وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللهِ) : القرآن أو حجج الله وبراهينه .

(لَئِنْ أَشْرَكْتَ) أى : على سبيل الفرض .

(لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ) : ليبطلن وليفسدن .

التفسير

٦٢ - (اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) :

الله خالق كل شىء من خير وشر وإيمان وكفر ، لكن لا بالجبر ، بل بمباشرة المتصف بهما لأسبابهما . فالآية رادة على المعتزلة[1] ردًّا ظاهرًا (وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) يتولى التصرف

---

(١) فإنهم يقولون : إن العبد يخلق أفعاله الاختيارية بقوة أودعها الله فيه ، مستندين إلى نحو قوله تعالى : (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) ، وقوله: (ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتى وعد الله) وقوله : (كل امرىء بما كسب رهين) ولذا يكون الثواب والعقاب على عمل العبد الذى كسبه باختياره ، وخلقه بإرادته مستعملا القوة الربانية التى أودعها الله فيه صالحة للخير والشر ، فأحسن استعمالها فى الخير وأساء استعمالها فى الشر .

فيهما كيفما يشاء حسبما تقتضيه الحكمة ، ولك أن تقول : إنه - تعالى - يتولى حفظ كل شيء خلقه ، فيكون ذلك إشارة إلى احتياج الأشياء إليه - تعالى - فى بقائها ، كما أنها محتاجة إليه - عز وجل - فى وجودها ؛ فهو ربها ومليكها والمتصرف فيها ، وكل تحت تدبيره ، وقهره وكلاءته .

٦٣ - (لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بِـآيَاتِ اللهِ أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) :

(لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) أى : مفاتيحها كما قال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة وغيرهم و (مَقَالِيدُ) قيل : جمع لا واحد له من لفظه ، وقيل : جمع مقليد أو مقلاد ، أى : مفتاح .

ومقاليد السموات والأرض مجاز عن كونه مالك أمرهما ومتصرفًا فيهما لعلاقة اللزوم ، أو كناية عن القدرة والحفظ ، قال البيضاوى : كناية عن قدرته - تعالى - وحفظه لها ، وفيه مزيد دلالة على الاستقلال والقهر لمكان اللام والتقديم ، ولم يقل : ويهلك الذين كفروا بخسرانهم كما قال سبحانه : (وَيُنَجِّى اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ ...) الآية للإشعار بـأن العمدة فى فوز المؤمنين فضله - تعالى - فلذا جعل نجاتهم مسندة إليه - تعالى - حادثة له يوم القيامة غير ثابتة قبل ذلك بالاستحقاق والأعمال ، بخلاف هلاك الكفرة فإنهم قدموه لأنفسهم بما اتصفوا به من الكفر والضلال . ولذا لم يسند له - تعالى - على طريقة القرآن من إسناد الخير لله ؛ لأنه أصل كل خير ، ومنبع كل فضل ، وإسناد الشر للناس بما كسبت أيديهم .

٦٤ - (قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَـأْمُرُونِّى أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ) :

أى : أبعد هذه الآيات الواضحات القاضية بعبادته - تعالى - وحده ، تـأمرونى أن أعبد غير الله - تعالى - فقد قالوا له ﷺ : استلم بعض آلهتنا ونؤمن بإلهك ، وذلك لفرط جهالتهم ، ولذا نودوا بعنوان الجهل .

٦٥ـ (وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) :

ولقد أُوحِيَ إليك وإلى الذين من قبْلك من الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لئن أشركت بالله شيئًا على سبيل الفرض ليحبطن عملك ويبطلن ويفسدن ولتكونن من الخاسرين.

وقال : (لَئِنْ أَشْرَكْتَ) على التوحيد مع أن الموحى إليهم جماعة ؛ لأنه على تأويل أوحى إليك وإلى كل واحد من الرسل قبلك (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ . . .) الآية .

وقوله تعالى : (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ) عبر بهذا الكلام مع علمه ـ تعالى ـ بأن رسله لا يشركون ولا تحبط أعمالهم ؛ لأنه كلام على سبيل الفرض لبيان شناعة الشرك بحيث ينهى عنه من لا يكاد يباشره فكيف بمن عداه .

ومذهب الشافعي : أن الردة لا تحبط العمل السابق عليها ما لم يستمر المرتد على الكفر إلى الموت ، وترك التقييد هنا اعتمادًا على التصريح به فى قوله تعالى : « وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ »[1] . ويكون ذلك من حمل المطلق على المقيد (وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) بسبب حبوط العمل .

٦٦ـ (بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ) :

رد لما أمروه به من استلام بعض آلهتهم كأنه قال : لا تعبد ما أمروك بعبادته ، بل إن كنت فاعلًا فاعبد الله وأخلص له العبادة وحده لا شريك له ، وكن من الشاكرين إنعام الله عليك الذى يضيق عنه نطاق الحصر ، ومنه أن جعلك سيد ولد آدم ، وبما أن النبى ﷺ إمام أمته ، فأمره بعبادة الله وشكره ـ تعالى ـ وحده أمر لأمته تبعًا له .

(١) سورة البقرة من الآية رقم : ٢١٧

(وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾)

المفردات :

(وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ) : وَمَا عَرَفُوهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ حِين أَشْرَكُوا بِهِ غَيْرَهُ .

(قَبْضَتُهُ) القَبضَةُ : المرَّةُ من القبض ، وتطلق على المقدار المقبوض ، كالقُبْضَةِ بضم القاف أى : أنها ملكه وفى مقدوره .

(مَطْوِيَّاتٌ) : مجموعات .

(بِيَمِينِهِ) : بقدرته .

التفسير

٦٧ - (وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) :

(وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ) أى : ما قدر المشركون الله حق قدره حين عبدوا معه غيره ، وهو العظيم الذى لا أعظم منه والقادر على كل شىء ، والمـــالك لكل شىء ، وكل شىء تحت قبضته وقدرته .

ويقول الزمخشرى فى كتابه (الكشاف) فى معنى هذه الآية وهو يمثل رأى الخلف : « لمـــا كان العظيم إذا عرفه الإنسان حق معرفته ، وقدره فى نفسه حق قدره ، وعظمه حق تعظيمه ، قيل : (وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ) على معنى وما عظموه حق تعظيمه ، ثم نبههم على عظمتـــه وجلالة شأنه على طريقـــة التخييل والتمثيل فقال : (وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ) والغرض من هـــذا الكلام إذا

أخذته كما هو بجملته وموضوعه تصوير عظمته لا غير ، وكذلك حكم ما يروى مثل ذلك من الأحاديث . . ثم قال : والخلاصة هى الدلالة على القوة الباهرة ؛ وأن الأفعال العظام التى تتحير فيها الأفهام والأذهان ولا تكنهها الأوهام هينة عليه هوانًا لا يوصل السامع إلى الوقوف عليه إلا إجراء العبادة فى مثل هذه الطريقة من التخييل والتمثيل ، ولا ترى بابًا فى علم البيان أدق ولا أرق ولا ألطف من هذا الباب ولا أنفع وأعون على تعاطى تأويل المشتبهات من كلام الله – تعالى – فى القرآن وسائر الكتب السماوية وكلام الأنبياء : (وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ) المراد بالأرض : الأرضون السبع يشهد لذلك شاهدان قوله : (جميعًا) ، وقوله : (والسموات) ، ولأن الموضع موضع تفخيم وتعظيم فهو مقتض للمبالغة .

(قَبْضَتُهُ) القبضة : المرة من القبض ، والقبضة – بالضم – المقدار المقبوض بالكف ، ويقال – أيضًا – : أعطنى قَبْضَةً من كذا ، يريد معنى (القُبْضَة) تسمية بالمصدر ، وكلا المعنيين محتمل ، والمعنى : أن الأرضين مع عظمهن وبسطتهن لا يبلغن إلا قَبْضَةً واحدة من قَبَضَاته كأنه يقبضها قَبْضَةً بكف واحدة [1] ، وإذا أريد معنى القُبْضة – بضم القاف – فظاهر ؛ لأن المعنى أن الأرضين بجملتها مقدار ما يقبضه بكف واحدة ، (وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ) من الطى الذى هو ضد النشر ، أى : مجموعات . كما قال تعالى : « يَوْمَ نَطْوِى السَّمَآءَ كَطَىِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ » وَعَادَة طاوى السجل أن يطوى بيمينه ، والمراد من قبضته ملكه بلا ممانع ولا منازع ، وبيمينه بقدرته (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) أى : ما أبرأ مَنْ هذه قدرتُه وعظمتُه وما أعلاه عما يضاف إليه من الشركاء ، فسبحان للتعجب . اهـ كشاف بتصرف (ج ٣ ص ٣٥٥ ، ٣٥٦) .

وقال الآلوسى فى قوله تعالى : (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ) أصل القدر : اختصاص الشىء بعِظَمٍ أو صِغَرٍ أو مساواة ، قيل المعنى : وما وصفوه تعالى حق صفاته ، بل وصفوه بأنه خلق الخلق عبثًا ، وأنه لا يبعث الخلق ؛ لأنه لا يقدر على ذلك ، وعليه يكون للتمهيد لأمر النفخ فى الصُّور الآتى ، وضمير الجمع فى (وَمَا قَدَرُوا) لكفار قريش كما روى عن ابن عباس ، وقيل : الضمير لليهود فقد تكلموا فى صفات الله وجلاله فألحدوا وجسّموا وجاءوا بكل تخليط فنزلت الآية ردًا عليهم .

---

(١) هذا إذا أريد بلفظ قبضة – بفتح القاف – المعنى المصدرى .

(وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾)

المفردات :

(الصُّور) لغة : البوق ، والمراد به القَرْن الذى ينفخ فيه إسرافيل ، وهو من عالم الغيب لايعلم كنهه إلَّا الله .

(فَصَعِقَ) : مات .

(أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ) : أضاءت .

(بِنُورِ رَبِّهَا) : نوره سبحانه حين يتجلى لفصل القضاء ، وقيل : بما يقيمه فى الأَرض من الحق والعدل .

(الْكِتَابُ) : صحائف الأَعمال .

(بِالْحَقِّ) : بالعدل .

(وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ) أى : أُعطيت جزاءَ ذلك كاملًا .

التفسير

٦٨- (وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَن فِى الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ) :

يقول الله - تبارك وتعالى - مخبرًا عن شدائد يوم القيامة ومايكون فيه من الآيات

العظيمة والأهوال الجسيمة (وَنُفِخَ فِى الصُّورِ)وهى نفخة الصعق ، والمشهور أن النافخ فيه ملك واحد ، وأنه إسرافيل ، بل حكى القرطبى الإجماع على ذلك ، وهذه النفخة هى التى يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض إلَّا من شاء الله ، قال الإمام الآلوسى : لم يرد فى تعيين المستثنى - إلَّا من شاء الله - خبر صحيح . انتهى .

ثم يقبض الله أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت ، وينفرد الحى القيوم الذى كان أولًا وهو الباقى آخرًا بالديمومة والبقاء ، ويقول : (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ) ؟ [١] ثم يجيب نفسه فيقول : (لِلّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) [٢] أنا الذى كنت وحدى وقد قهرت كل شىء وحكمت بالفناء على كل شىء ، ثم يحيى أول من يحيى إسرافيل ويأمره أن ينفخ فى الصور نفخة أخرى ، وهى نفخة البعث ، قال تعالى :(ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ) أى : فإذا هم قائمون من قبورهم أحياء بعد أن كانوا عظامًا ورفاتًا ينظرون إلى أهوال يوم القيامة ، وقيل : ينظرون ، أى : ينتظرون ما يؤمرون به أو ينظرون ماذا يفعل بهم . قال - جل شأنه - : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ » [٣] .

٦٩ - (وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) :

(وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا) أى : أضاءت الأرض بنور خالقها ومالكها ، والمراد بالأرض : أرض المحشر وهى الأرض المبدلة من الأرض المعروفة ، وذلك يوم القيامة إذا تجلى الحق - جل جلاله - لفصل القضاء ، وعن الحسن والسدى : تفسير نور الرب بالعدل وهو من باب الاستعارة ، وقد استعير لذلك بالقرآن فى مواضع متعددة منه ، أى : وأشرقت الأرض بما يقيمه ربها فيها من الحق والعدل ويبسطه - سبحانه - من القسطاس فى الحساب ، ووزن الحسنات والسيئات ، واختار الزمخشرى هذا الرأى وحقق « أولًا » تلك الاستعارة بتكررها فى القرآن العظيم ، « وحققها ثانيًا » بإضافة النور إلى اسمه - تعالى - لأنه - سبحانه -

---

(١ ، ٢) سورة غافر من الآية : ١٦

(٣) سورة الروم الآية : ٢٥

الحق العدل ، « وعيَّنها ثالثًا » بإضافة اسمه – تعالى – (رَبِّ) إلى الأَرض « ربها » لأن العدل هو الذى تزين به الأَرض ، « ورابعاً » بما عطف على إشراق الأَرض من وضع الكتاب والمجىء بالنبيين والشهداء والقضاء بالحق ؛ لأَنه كله تفصيل الحق ، « وأَيدها خامسًا » بالعرف العام فإن الناس يقولون للملك العادل : أشرقت الآفاق بعدلك وأضاءت الدنيا بقسطك ، « وسادسًا » بقوله ﷺ : « الظلم ظلمات يوم القيامة » فإنه يقتضى أن يكون العدل نورًا ، « وسابعًا » بأَنه ختم الآية بنفى الظلم .

وقال الآلوسى : ولعل الأَوفق مايشعر به كثير من الأَخبار أَن قوله – سبحانه وتعالى – : (وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا) إشارة إلى تجليه – عز وجل – على خلقه يوم القيامة لفصل القضاء ، وقد يعبر عنه بالإتيان ، وقد صرح به فى قوله تعالى : « هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَآئِكَةُ »[1] . ولا يبعد أن يكون هذا النور الوارد فى الحديث الصحيح : « إن الله لا ينام ولا ينبغى أن ينام يخفض قِسْطَه ويرفعه ،ويُرْفَعُ إليه عمل اللّيل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابُه النور » . (وَوُضِعَ الْكِتَابُ) أى : وضعت صحائف الأَعمال بأَيدى الملائكة للحساب ، (وَجِىٓءَ بِالنَّبِيِّينَ) لِيُسأَلوا هل بلغوا أُممهم ، وقيل : ليحضروا حسابهم ، (وَالشُّهَدَآءِ) أى : جميع الشهداء من الملائكة ،وأُمة محمد والجوارح والمكان .

وأَيًّا ما كان فالشهداء جمع شاهد (وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ) أى : وقضى بين العباد بالعدل (وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) بنقص ثواب أو زيادة عقاب . على ماجرى به وعده – تعالى– لعباده ، على أن الظلم لا يتصور فى حقه تعالى ، فإن الأَمر كله له – عز وجل– وهو أَحكم الحاكمين قال تعالى : « وَنَضَعُ ٱلْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا[2] . . . » الآية .

٧٠– (وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ) :

أَى : وأُعطيت كل نفس جزاء عملها من خير أَو شر كاملًا غير منقوص ،وهو– سبحانه – أَعلم بفعلهم فلا يفوته شىءٌ من أَعمالهم .

---

(١) سورة البقرة من الآية : ٢١٠

(٢) سورة الأنبياء من الآية : ٤٧

(وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾)

المفردات :

(زُمَرًا) : جماعات متفرقة متتابعة .

(حَقَّتْ) : وجبت وثبتت .

(مَثْوَى) : مأوى ومسكن .

التفسير

٧١ - (وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُواْ بَلَى وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ) :

بدأت الآية الكريمة تفصيل توفية كل نفس ما عملت بيانًا لكيفيتها ، ويخبر الله فيها عن حال الكفار وكيف يساقون إلى النار ، والسَّوق يقتضى الحث على المسير بعنف وإزعاج ، وهو الغالب ، ويشعر بالإهانة وهو المراد هنا ، أى : سيقوا إليها بالعنف والإهانة أفواجًا متفرقة متتابعة بعضها فى أثر بعض مرتبة حسب ترتيب طبقاتهم فى الضلال والكفر والفساد : (حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا) ليدخلوها ، وكانت قبل مجيئهم غير مفتوحة ، فهى كسائر أبواب السجون ، لا تزال مغلقة حتى يأتى أصحاب الجرائم الذين يسجنون فيها ،

فتفتح ليدخلوها ، فإذا دخلوها أغلقت عليهم (وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ) أى : وقال لهم حراسها وزبانيتها الغلاظ الشداد على سبيل التقريع والتوبيخ والتنكيل : (أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ) ؟ سفراء عن الله من نوعكم تفهمون ماينبئونكم به ، ويسهل عليكم مراجعتهم والأخذ عنهم (يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ) أى : يقرءون عليكم آيات ربكم المنزلة لمصلحتكم فى القرآن وغيره ، ويقيمون عليكم الحجج والبراهين الدالة على صحة ما دعوكم إليه وأمروكم به ونهوكم عنه (وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا) ويخوفونكم ويحذرونكم لقاء عذاب يومكم هذا ، وهو وقت دخولكم النار ؛ لأن المنذر به فى الحقيقة العذاب ووقته .

وقد شاع استعمال اليوم والأيام فى أوقات الشدة والمحنة ، وقيل : المراد به يوم القيامة لاشتماله على هذا الوقت .

واستدل بالآية على أنه لا تكليف قبل الشرع ؛ لأنهم وبخوهم بكفرهم بعد تبليغ الرسل للشرائع وإنذارهم ، ولو كان قبح الكفر معلومًا بالعقل دون الشرع لقيل: ألم تعلموا بما أودع الله فيكم من العقل قبح كفركم ، ولا وجه لتفسير الرسل بالعقول لإباء الأفعال المسندة إليها عن ذلك .

ولمن قال بوجوب الإيمان عقلًا أن يقول : إنما وبخوهم بالكفر بعد التبليغ ؛ لأنه أبعد عن الاعتذار وأحق بالتوبيخ والإنكار ، ولأن معرفة الله تجب أولًا بالعقل ، ثم يتلوها الإيمان برسله (قَالُوا بَلَىٰ) أى : قال الكافرون مقرين معترفين : قد أتانا رسل ربنا ، وتلوا علينا آيات ربنا وأنذرونا لقاء يومنا هذا (وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ) أى : وجبت وثبتت كلمة الله – تعالى – المقتضية للعذاب على الكافرين . وهذا الكلام منهم اعتراف لا اعتذار ، والمراد بكلمة العذاب : كلام الله الذى حكم عليهم بالشقاوة ، وأنهم من أهل النار لسوء اختيارهم ، أو قوله تعالى لإبليس : « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ »(١) . ووضع الكافرين موضع ضميرهم للإيماء إلى عِلِّيَّة استحقاقهم العذاب ، والزُّمَر جمع زُمْرَة وهى الجماعة كما تقدم فى المفردات .

٧٢ – (قِيلَ ادْخُلُوٓا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ) :

أى : قيل لهم يوم القيامة : ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ، أى : ماكثين فيها لا خروج

(١) سورة ص من الآية : ٨٥

لكم منها ولا زوال لكم عنها، والقائل يحتمل أن يكون الخزنة ، وترك ذكرهم للعلم بهم مما قيل ، ويحتمل أن يكون غيرهم ،ولم يذكر ؛ لأن المقصود ذكر هذا القول الذى يبعث فى النفوس الخوف والرعب من غير نظر إلى قائله ، وقال بعض الأجلة : أبهم القائل لتهويل المقول (فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ) أى :قَبُحَ وساء مكان الكافرين جهنم لتكبرهم ، وفى التعبير بالمتكبرين إيماء إلى أن دخولهم النار لتكبرهم عن قبول الحق والانقياد للرسل المنذرين لهم - عليهم الصلاة والسلام - وهو فى معنى التعليل بالكفر ؛لأنه سبب كفرهم ، ولا ينافى التعليل قبل ذلك بثبوت كلمة العذاب عليهم ؛لأن حكمه وقضاءه عليهم بدخول النار بسبب تكبرهم وكفرهم لسوء اختيارهم المعلوم له - سبحانه - فى الأزل ، وكذا قوله - عز وجل - : « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ ... الآية » . فهناك سببان قريب وبعيد والتعليل بأحدهما لا ينافى التعليل بآخر .

(وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾)

المفردات :

(سَلَامٌ عَلَيْكُمْ) : أمان عظيم عليكم .

(طِبْتُمْ) : طهرتم من دنس المعاصى وطاب مثواكم .

(الْحَمْدُ لِلَّهِ) : كلُّ الثناء لله وحده .

(صَدَقَنَا وَعْدَهُ) : حققه بالبعث والجنة .

(وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ) : ملَّكنا أرض الجنة .

التفسير

٧٣ - ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ :

هذا إخبار من الله عن حال السعداء المؤمنين حين يساقون بلطف وتكريم إلى الجنة زمرًا ، أى : جماعة بعد جماعة متتابعة ، المقربون ، ثم الأبرار ، ثم الذين يلونهم ، كل طائفة مع من يناسبهم ، الأنبياء مع الأنبياء ، والصديقون مع أمثالهم ، والشهداء مع أضرابهم ، والعلماء مع أقرانهم ، وكل صنف مع صنف يناسبه .

والمراد بالسوق هنا : الحث على السير بالإسراع إلى الإكرام ، بخلافه فيما تقدم فإنه لإهانة الكفرة وتعجيلهم إلى العقاب والآلام ، كما أنه للمشاكلة أيضًا .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إِلَى الْجَنَّةِ ﴾ يدفع إيهام الإهانة ، على أنه قد يقال : إنهم لما أحبوا لقاء الله أحب الله لقاءهم ، فلذا حثوا على دخول دار الكرامة .

واختار الزمخشرى أن المراد بسوقهم سوق مراكبهم ؛ لأنهم لا يُذْهَبُ بهم إلا راكبين ، وتُعُقِّب بأن كون جميع المتقين لا يذهب بهم إلا راكبين يحتاج إلى دليل ، بل ورد العكس ، ففى صحيح مسلم عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « آخر من يدخل الجنة رجل ، فهو يمشى مرة ويركب أخرى وتَسْفَعُهُ النار مرة[1] فإذا ما جاوزها التفت إليها فقال : تبارك الذى نجانى منك ، لقد أعطانى الله - تعالى - شيئًا ما أعطاه أحدًا من الأولين والآخرين ، فترفع له شجرة فيقول : أى رب أَدْنِنِى من هذه الشجرة فلأستظل بظلها ، فأشرب من مائها ، فيقول الله تعالى : يا بن آدم لعلى إن أعطيتكها سألتنى غيرها ، فيقول : لا يارب ويعاهده ألا يسأله غيرها ، وربه يعذره ؛ لأنه يرى ما لا صبر له عليه فيدنيه) . اهـ : آلوسى .

(حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا) حتى إذا بلغوها وقد فتحت لهم أبوابها كما قال تعالى : « جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ »[2] . ويدل ذلك على تقديم الفتح ، كأن

---

(١) أى : تلفحه وتصيبه إصابة يسيرة إذا مر بها .

(٢) سورة ص الآية : ٥٠

حراس الجنة فتحوا أبوابها ووقفوا منتظرين لهم ، كما تفتح الخدم باب المنزل للمدعو للضيافة قبل قدومه وتقف منتظرة له ، وفى ذلك من الاحترام والإكرام ما فيه (وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ) أى : قال لهم حفظتها وحراسها : أمان عظيم عليكم طهرتم فى الدنيا من فعل المعاصى وكرمتم فى الآخرة بما نلتم من النعيم والكرامة ، وقوله تعالى : (وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا) عطف على فتحت أبوابها وجواب إذا مقدر أى : حتى إذا جاءوها وكانت هذه الأمور من فتح الأبواب وتلقى الملائكة لهم بالسلام - حتى إذا كان هذا - سَعِدُوا وفرحوا بقدر ما يلقون من نعيم وإكرام ، وإذا حذف الجواب فى مقام التكريم والإنعام ذهب الذهن كل مذهب فى الرجاء والأمل .

واستدل المعتزلة بقوله تعالى : (طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا) حيث رتب فيه الأمر بالدخول على الطيب والطهارة من دنس المعاصى ،على أن أحدًا لا يدخل الجنة إلَّا وهو طيب طاهر من المعاصى ، إما لأنه لم يفعل شيئًا منها أو لأنه تاب عما فعل توبة مقبولة فى الدنيا ، أما من لم يتب عن معاصيه فلا حظ له فى دخولها .

ورد بأنه وإن دل على أن أحدًا لا يدخلها إلَّا وهو طيب لكن قد يحصل ذلك بالتوبة المقبولة ، وقد يكون بالعفو عنه أو الشفاعة له أو بعد تمحيصه بالعذاب فلا متمسك فيها للمعتزلة .

٧٤ - (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ) :

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ) عطف على : « قَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا » أو على الجواب المقدر أى : دخلوها ، (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ) .

والمعنى : يقول المؤمنون إذا عاينوا فى الجنة ذلك الثواب الوافر ، والعطاء العظيم ، والنعيم المقيم ، والملك الكبير ، يقولون عند ذلك : الثناء لله وحده الذى حقق لنا ما سبق أن وعدنا به على ألسنة رسله الكرام ، (وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ) أرض الجنة التى أقاموا فيها واتخذوها مقرًا ومتبوأ ، وإيراثها تمليكها وتمكينهم من التمتع فيها تمكين الوارث فيما يرثه ، وقيل : ورثوها من أهل النار ، فإن لكل منهم مكانًا فى الجنة كتب له بشرط الإيمان ، (نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ)

أى : ينزل ويسكن كلٌّ منا فى أى مكان أراده من جنته الواسعة (فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ) من كلام الداخلين عند الأكثر ، والمخصوص بالمدح مقدر ، أى : فنعم أجر العاملين هذا الأجر أو الجنة ، ولم يقولوا : فنعم أجرنا ، بل قالوا : فنعم أجر العاملين للتعريض بأهل النار أنهم غير عاملين ، وقال مقاتل : هو من كلام الله ، أى : قال الله : فنعم أجر العاملين هذا الأجر العظيم الذى نلتموه .

(وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾)

المفردات :

(حَآفِّينَ) : محيطين محدقين .

(وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ) : فصل بين الخلائق بالعدل .

التفسير

٧٥ - (وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) :

لما ذكر الله حكمه فى أهل الجنة والنار ، وأنه أنزل كلا فى المحل الذى يليق به ويصلح له وهو العادل فى ذلك الذى لا يجور ، أخبر عن ملائكته أنهم محدقون من حول العرش المجيد محيطون به من كل جانب ، يسبحون بحمد ربهم ويمجدونه ويعظمونه ، ويقدسونه وينزهونه عن النقائص والجور ، وقد فصل فى قضايا الخلق وقضى الأمر وحكم بالعدل ، ولهذا قال - عز وجل - : (وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ) أى : حكم بين الخلائق بالعدل ، ثم قال : (وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) أى : نطق الكون جميعه : الحمد لله رب العالمين الذى عدل فى

حكمه ، قال قتادة: افتتح الخلق بالحمد فى قوله : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ »[1] واختتم بالحمد فى قوله تعالى : (وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

قيل: إنهم يحمدونه إظهاراً للرضا والتسليم ، وقال ابن عطية : هذا الحمد خَتْمٌ للأمر يقال عند انتهاء فصل القضاء ، أى : إن هذا الحاكم العدل ينبغى أن يحمد الله عند تمام حكمه وكمال قضائه ،ومن هذه الآية جعلت (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) خاتمة المجالس فى العلم .

(١) سورة الأنعام الآية : ١

سورة غافر

مكية وآياتها خمس وثمانون

تسمى هذه السورة أيضًا سورة المؤمن ؛ لأن الله -تعالى- ذكر فيها قصة رجل مؤمن من آل فرعون، وتسمى سورة الطَّوْل لقوله تعالى : « ذِى الطَّوْل » .

وهى أُولى الحواميم السبع التى قال فيها ابن عباس - رضى الله عنهما - : « إن لكل شىء لبابًا ولباب القرآن آل حم أو قال : الحواميم » .

وكان يقال لهن : (العرائس) كما قال مِسْعَر بن كِدَام ، رواه القاسم بن سلام فى كتاب فضائل القرآن .

وروى عن عبيد الله قال : « إن مثل القرآن كمثل رجل انطلق يرتاد لأهله منزلًا فمر بأثر غيث ، فبينما هو يسير ويتعجب منه ، إذ هبط على روضات دَمِثَاتٍ[1] فقال : عجبت من الغيث الأول ، فهذا أعجب وأعجب ، إن مثل الغيث الأول مثل عُظْمِ[2] القرآن . وإن مثل هؤلاء الروضات الدَّمِثَات ، مثل آل حم فى القرآن » أورده البغوى[3]

مقاصد السورة

بدأت هذه السورة بوصف القرآن العظيم بأنه منزل من عند الله العزيز العليم ، وأنه لايجادل فى آيات الله إلّا الذين كفروا .

ثم بينت أن تكذيب نبينا محمد ﷺ ليس أمرًا خاصًّا به ، بل هو أمر عام لكل الأنبياء والمرسلين ، وأن الله عاقب كل أولئك المكذبين .

ثم بينت أن الملائكة الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون للمؤمنين ، وأنه -تعالى- يُرى عباده آياته ، ويرزقهم من السماء ، وأنه رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده ، لينذرهم يوم التلاق والحساب .

---

(١) جمع دمثة بفتح فكسر ، وهى الأرض السهلة الرخوة (٢) بوزن قفل ، أى : أكثره (٣) انظر ابن كثير .

وبينت أنه-تعالى-أمر رسوله أن ينذر قومه : « يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِن حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ » وأنه -تعالى -يقضى بين عباده بالحق .

ثم بينت أن الله-تعالى-أهلك من قبل قريش من القرون المكذبة من هم أشد منهم قوة وآثارًا فى الأرض ، وأن عليهم أن يمروا بأرضهم ليتعظوا بما أصابهم ، ثم حكى قصة فرعون مع موسى – عليه السلام – وتكذيبه له ، وقصة مؤمن آل فرعون ووعظه لقومه ، وطلب فرعون من هامان أن يبنى له صرحًا ، لعله يبلغ أسباب السموات فيطلع إلى إله موسى : « وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ » حيث وقى الله – تعالى – موسى سيئات ما مكر فرعون وقومه ، وحاق بآل فرعون سوءُ العذاب .

ثم ذكرت أن الله -تعالى- أمر نبيه ﷺ بالصبر ووعده النصر فقال : « فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ » .

وبينت أنه لا يستوى الكافر والمؤمن ، كما لا يستوى الأعمى والبصير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله تعالى قال : « ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ » وذكرت بعض آيات الله فى كونه ، حيث جعل الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرًا ، وجعل الأرض قرارًا والسماء بناءً ، وصوَّركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ، وأنه خلق عباده من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم أطفالًا ثم ليبلغوا أشدهم ، ثم ليكونوا شيوخًا ، ومنهم من يتوفى – من قبل .

ثم توعدت المكذبين والمجادلين فى آيات الله بالأغلال فى أعناقهم ، والسلاسل يسحبون فى الحميم ، ثم فى النار يسجرون .

ثم ذكرت أن الله أرسل رسلًا من قَبْل نبينا محمد ﷺ منهم من قصه الله عليه ومنهم من لم يقصصه عليه ، وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله .

ثم بينت فى ختامها أن الله عاقب مكذبى الرسل من قبل نبينا ﷺ وأنهم لما رأوا بأس الله آمنوا بالله وحده ، وكفروا بما كانوا به مشركين : « فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾)

المفـردات :

(قَابِلِ التَّوْبِ) : قابل التوبة والرجوع عن المعاصى إلى الطاعة .

(ذِى الطَّوْلِ) : صاحب الغنى والسعة – كما قال مجاهد – .

التفسـير

١ ، ٢ – (حمٓ * تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) :

تقدم الكلام على مثل (حمٓ) من الحروف المقطعة التى بدئ بها بعض السور كالبقرة، وآل عمران ، فارجع إليه إن شئت .

ووجه مناسبة أولها لآخر الزُّمر ، أنه – تعالى – لمَّا ذكر هناك مايؤول إليه حال الكافرين وحال المؤمنين ، ذكر جل جلاله هنا أنه غافر الذنب وقابل التوب ، ليكون ذلك استدعاءً للكافرين إلى الإيمان وترك ما هم فيه .

وَبَيْنَ السورتين أَوجهٌ عديدة من المناسبة ، وحسبك فى ذلك أنه ذُكِرَ فى كلتيهما أهوالُ يوم القيامة ، وأحوال الكفرة فيه وهم فى المحشر وفى النار ، وقد فُصِّل فى هذه ما لم يفصل فى تلك .

وفى تناسق الدرر : وجه إيلاء الحواميم السبع لسورة الزمر ، تآخى المطالع فى الافتتاح بتنزيل الكتاب – انظر الآلوسى .

٣ـ (غَافِرِ ٱلذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِى الطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ) :
هذه كلها صفات للفظ الجلالة فى الآية التى قبلها .

ومعنى الآيتين : تنزيل القرآن كائن من الله الغالب فلا يقهر ، العليم بكل شىء فلا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، غافر الذنب الذى سلف ، وقابل التوبة فى الحاضر والمستقبل ، من كل من تاب عن معاصيه من عباده ، شديد العقاب لمن طغى وآثر الحياة الدنيا على مرضاة ربه ، صاحب الخير الكثير ، فلا يليق بعاقل أن ينصرف عن مرضاته ، لا إله إلا هو إليه المرجع والمآب ، فيحاسب كل امرئ على ما قدمت يداه .

وهذه الآية تفتح باب المتاب للتائبين مهما كانت ذنوبهم ، وفى سعة رحمة الله يقول ـ سبحانه ـ : « قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ »(١) فليبادر كل عبد بالتوبة من ذنبه قبل أن يلتحق بربه بمعاصيه وآثامه ؛ ليفوز بغفرانه ويتقى سوء عذابه .

وينبغى أن ينصح المؤمن التقى غيره حتى ينصلح حاله ، أخرج ابن أبى حاتم عن يزيد ابن الأصم قال : كان رجل من أهل الشام ذا بأس ، وكان يَفِد إلى عمر بن الخطاب ، ففقده عمر فقال : ما فعل فلان بن فلان ، فقالوا : يا أمير المؤمنين يتابع فى الشراب ـ قال : فدعا عمر كاتبه فقال : اكتب من عمر بن الخطاب إلى فلان بن فلان ، سلام عليك : فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو (غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِى الطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ) ثم قال لأصحابه : ادعوا الله لأخيكم أن يُقْبِل بقلبه ، وأن يتوب الله عليه ..

فلما بلغ الرجل كتاب عمر جعل يقرؤه ويردده ويقول : « غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ » قد حذرنى الله عقوبته ، ووعدنى أن يغفر لى .

ورواه الحافظ أبو نعيم من حديث جعفر بن برقان ، وزاد : « فلم يزل يرددها على نفسه ثم بكى ، ثم نَزَع فأحسن النَّزْع(٢) ، فلما بلغ عمر خبره قال : هكذا فاصنعوا ، إذا رأيتم أخاكم زلّ زلّة فسددوه ووفقوه ، وادعوا الله له أن يتوب عليه ، ولا تكونوا أعوانًا للشيطان عليه » .

(١) سورة الزمر الآية : ٥٣

(٢) أى : ثم تاب فأحسن التوبة .

(مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾)

المفردات :

(مَا يُجَادِلُ) : ما يخاصم .

(فَلَا يَغْرُرْكَ) : فلا يخدعك .

(تَقَلُّبُهُمْ فِى الْبِلَادِ) : تنقلهم فيها للتجارة .

(وَالْأَحْزَابُ) : الذين تحزبوا على الرسل فى كل أمة .

(لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ) أى : ليبطلوه ويزيلوه به .

التفسير

٤ - (مَا يُجَادِلُ فِى آيَاتِ اللهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى الْبِلَادِ) :

الجدال : الخصام والنقاش ، وهو نوعان : جدال بالباطل ، وجدال بالحق ، وقد سجل الله فى هذه الآية الكفر على الذين يجادلون فى آيات الله بالباطل ، بالطعن فيها ، يريدون إدحاضها وإبطالها ، وفى ذلك يقول الله تعالى : (وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ) .

أما الجدال فيها لإيضاح ملتبسها وحَلِّ مشكلها ، واستنباط معانيها وأحكامها ، ورد أهل الزيغ عنها فهو جهاد عظيم فى سبيل الله .

وعندما نجادل أهل الكتاب فى عقائدهم ونصوص كتبهم ، نجاذلهم بدون اعتداء ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « وَلَا تُجَادِلُوٓاْ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ »[١] .

وقد كانت قريش تجادل فى القرآن غرورًا بما هم فيه من السعة والتجارة ، من مكة إلى الشام وإلى اليمن وبالعكس ، فأوصى الله نبيه ﷺ أن لا يغره ولا يخدعه تقلبهم فى تجارتهم فى البلاد ، وسلامتهم من العقاب مع كفرهم ، فإنه متاع فى الدنيا قليل ، عاقبته الهلاك فى الدنيا ، ثم العذاب يوم القيامة عقوبةً لهم إن بقوا على كفرهم ، « إنَّ اللهَ لَيُمْلِى لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يفلته » .

والمعنى الإجمالى للآية : ما يجادل فى آياتنا الواضحة البيان ، المؤيدة بالبرهان ، إلَّا الذين كفروا بالحق مع وضوحه ، فلا يغررك أيها الرسول. ولا يخدعك تقلبهم فى التجارة من بلد إلى بلد ، وما هم فيه من الغنى والسعة ، فإن ذلك متاع قليل بعده الهلاك وسوء العقاب ، كما قال تعالى فى سورة آل عمران : « لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِى الْبِلَادِ ٭ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ »[٢] .

وكما قال فى سورة لقمان : « نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ »[٣] .

ثم سلى الله نبيه بما حدث للرسل قبله من أقوامهم فقال :

٥ ـ (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُواْ بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ) :

القوم قد يؤنث بتأويل الجماعة ، وهو هنا كذلك ، ولذا أُنث له الفعل فى كذبت والأخذ يستعمل بمعنى الحبس والمنع تارة ، وبمعنى الإهلاك تارة أُخرى .

والمعنى : كذبت قبل قريش قوم نوح والأحزاب من بعدهم ـ كذب هؤلاء جميعًا ـ رسلهم الذين دَعَوْهم إلى نبذ الأوثان ، وعبادة الواحد الديان ، وحاولت كل منهم حبس رسولهم ليقتلوه ، وهموا بذلك ، ومنهم من قتلوه ، وخاصموا بالباطل من القول ليقضوا

---

(١) سورة العنكبوت من الآية : ٤٦ (٣) الآية : ٢٤

(٢) الآيتان : ١٩٦ ـ ١٩٧

به على الحق ، فأهلكتهم واستأصلتهم ، فكيف كان عقابى لهولاء؟ كان عقابًا مستأصلًا رادعًا لسواهم ، وإذا كان الأمر كذلك فلا يَغْرُرْكَ تقلب قومك فى البلاد وما هم فيه من الحرية والسعة ، فهم أهْوَن على الله من أولئك .

٦ - (وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ) :

أى : ومثل قضائه على الذين تحزبوا على رسلهم من قبلك يا محمد - مثل قضائه ذلك - حقت كلمة ربك وقضاؤه بالإهلاك للمشركين من قومك - إن بقوا على كفرهم وشركهم ، لأنهم أصحاب النار مثل سابقيهم ، فالعلة واحدة ، وهى أنهم أصحاب النار وأهلها مثلهم ، لكونهم كفارًا معاندين ، مهتمين بقتل نبيهم اهتمام أولئك بقتل أنبيائهم .

(ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾)

المفردات :

(الْعَرْشَ) العرش فى اللغة : بمعنى سرير الملك ، وسيأتى الكلام عليه فى التفسير .

(جَنَّاتُ عَدْنٍ) : بساتين إقامة ، من عَدَن بالمكان أقام به .

التفسير

٧ـ (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ... الآية) :

يقول القرطبي : وأقاويل أهل التفسير على أن العرش هو السرير ، وأنه جسم مجسم خلقه الله وأمر ملائكته بحمله ، وتعبدهم بتعظيمه والطواف به ، كما خلق فى الأرض بيْتًا وأمر بنى آدم بالطواف به واستقباله فى الصلاة .

ويقول الآلوسى : هو جسم عظيم له قوائم الكرسى ، وماتحته بالنسبة له كحلقة ملقاة فى فلاة : اهـ .

وقد جاء فى وصفه ووصف أجسام حملة العرش آثار متعارضة ، لا نرى داعيا لذكرها فى تفسيرنا هذا .

والذى ينبغى أن نؤمن به هو أن لله عرشا عظيما هو مصدر أوامره للائكته ، ليقوموا بما يكلفون به فى كون الله ـ تعالى ـ .

وإذا كان العرش هو الكرسى فإنه أكبر من السموات والأرض ، كما قال تعالى فى سورة البقرة : « وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ » . ولابد أن يكون تكوينه أعجب وأعظم من السموات والأرض ، وأن تكون فيه الهيمنة عليها والارتباط بها ، وهو حادث أوجده الله بعد أن لم يكن ، فقد جاء فى الحديث الصحيح : « كان الله ولا شىء معه ، وكان عرشه على المـــاء » .

ويجب الإيمان بأن العرش ليس موضعا لجلوس الله ـ تعالى ـ فإنه ـ تعالى ـ ليس كالأجسام حتى يحتاج إلى مكان « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ »[1] .

ولم أر حديثا صحيحا فى كون العرش له قوائم ، فإذا كان العرش يسع السموات ، والأرض فما حاجته إلى القوائم ، وعلى أى شىء يرتكز والسموات دونه كحلقة ملقاة فى فلاة ، إنه حينئذ يكون شأنه كشأن السموات فى أنها بغير عمد ترونها ، فهو مرفوع مثلها

(١) سورة الشورى من الآية : ١١

فى الفضاء الكونى بقدرة الله التى ربطت بين الكون برابطة الجاذبية ، وبما هو فوق مستوى العقول ، فسبحان العزيز الحكيم القدير العليم .

ومن العلماء من قال : إنه غير الكرسى وإنه أعظم منه ، استنادا إلى حديث أخرجه ابن مردويه بسنده عن أبى ذر قال : قال ﷺ : « والذى نفسى بيده ما السموات السبع عند الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وإن فضل العرش على الكرسى ، كفضل الفلاة على تلك الحلقة » .

وظاهر الآية أن الملائكة يحملون العرش حقيقة ، ونحن نقول : ما المانع من أن يكون المراد من حملهم إياه كونهم الرؤساء الذين يحملون مسئولية تبليغ أوامر الله لسائر ملائكته فى كونه . والله تعالى أعلم .

والملائكة الذين حول العرش كثيرون لا يحصى عددهم سوى الله ــ تعالى ــ وقيل : هم سبعون ألف صف يطوفون مهللين مكبرين ، ومن ورائهم سبعون ألف صَفٍّ قيام قد وضعوا أيديهم على عواتقهم ، رافعين أصواتهم بالتكبير والتهليل ، ومن ورائهم مائة ألف صَفٍّ قد وضعوا الأيمان على الشمائل ، ما منهم واحد إلا وهو يسبح بما لا يسبح به الآخر ، وقيل غير ذلك .

ولكننا نقول : إن محاولة ضبط أعدادهم من الرجم بالغيب ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ »[1] .

والمعنى الإجمالى للآية : الملائكة الذين يحملون عرش الرحمٰن ويبلغون أوامر ربهم منه ، والملائكة المنبثون حول العرش ، ينزهون الله ــ تعالى ــ عن كل ما لا يليق به ، قائمين بحمد ربهم على نعمه التى لا غاية لها ، ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا قائلين فى استغفارهم : (رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا) فرحمتك تتسع لذنوبهم وعلمك محيط بجميع أعمالهم ، فاصفح عن المسيئين إذا تابوا وأنابوا وأقلعوا عن معاصيهم وآثامهم ، واتبعوا ما أمرتهم به من الطاعات ، واحفظهم من عذاب الجحيم .

---

(١) سورة المدثر من الآية : ٣١

٨، ٩ - (رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) :

ومِنْ دعاء حملة العرش ومن حوله من الملائكة قولهم : ربنا وأدخل الذين رجعوا عن ذنوبهم واتبعوا سبيلك ، جنات عَدْن يقيمون بها هم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم وتجاوز عن تقصير بعضهم حتى يلحقوا فى الدرجة من هم أعلى منهم من آل بيتهم ، لتقر أعينهم وتستريح نفوسهم ، إنك أنت العزيز الذى تنفذ مشيئته ولا ترد كلمته ، الحكيم فى أقواله وأفعاله ، وحكمه وقضائه ، وجَنِّبهم جزاء السيئات ووبالها ، ومن تُجنبه جزاءها يوم القيامة فقد رحمته ، حيث لطفت به فنجيته من عقوبتها وذلك هو الفوز العظيم الذى لا غاية وراءه .

قال سعيد بن جبير : إن المؤمن إذا دخل الجنة سأل عن أبيه وابنه وأخيه أين هم ؟ فيقال : إنهم لم يبلغوا طبقتك فى العمل ، فيقول : إنى إنما عملت لى ولهم ، فيلحقون به فى الدرجة ، ثم تلا سعيد بن جبير هذه الآية : (رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾)

شروع فى بيان أحوال الكفرة أهل النار ، إثر بيان أحوال المؤمنين أهل الجنة ، فالأمور تتميز بضدها فضل تميز .

وقد دلت الآية على أن الكافرين يمقتون أنفسهم ويبغضونها ، وذلك حينما يعلمون أنهم أصحاب النار .

وقيل : إنهم يمقتونها حين يقول لهم الشيطان : « فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم »[1] ، وقيل : حين دخولهم النار .

ونحن نقول : إنه لا مانع من أن يمقتوا أنفسهم فى ذلك كله . والذين ينادونهم هم خزنة النار ، وقيل : هم المؤمنون ليضاعفوا حسرتهم .

ومعنى الآية : إن الذين كفروا بالله ورسله ، ينادَوْن حين يمقتون أنفسهم لتسببها فى عذابهم – ينادون – حينئذ من الملائكة أو من المؤمنين : لَبُغْضُ الله لكم أشد من بغضكم لأنفسكم ، حين تُدْعَوْن من أنبيائكم إلى الإيمان فتكفرون ، مع وضوح الحجة وسطوع البرهان ، فحق عقابكم لبغض الله لكم بسبب كفركم .

(قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾)

أفادت هذه الآية أن الكفار يسترحمون ويطلبون من الله الرجوع إلى الدنيا ، ليعملوا من الصالحات ما فاتهم ، ويتوسلون إلى ذلك ، بأنه قادر على تحقيق ما يطلبون فقد أماتهم مرتين ، وأحياهم مرتين ، فهم يرجون الإحياء مرة ثالثة .

والمقصود من إماتة المرة الأولى : أنه جعلهم تراباً لا حياة فيه قبل خلق آدم منه ، قال ابن مسعود : هذه الآية كقوله تعالى : « كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ »[2] . وبهذا قال ابن عباس والضحاك وغيرهما .

وقال السدى : أميتوا فى الدنيا ثم أُحْيُوا فى قبورهم ، ثم أميتوا ثم أُحيوا يوم القيامة وقيل غير ذلك .

---

(١) سورة إبراهيم من الآية : ٢٢

(٢) سورة البقرة الآية : ٢٨

ويرجح ابن كثير الرأى الأول ثم يقول : بل هو الصواب الذى لا شك فيه .

واستعمال الإماتة فى ذلك على سبيل التجوز ، والمراد : جعل الشىء لاحياة فيه ، وليس على معنى صرف الحياة عنه بعد أن كانت موجودة فيه ، كما تقول : ضَيِّقْ فَمَ القِربة ، أى جعله ضيقًا ، وليس على معنى أنه كان واسعًا فضيقه .

ويلخص ابن كثير مواقف الكفار فى يوم القيامة فيقول : والمقصود من هذا كله أن الكفار يسألون الرجعة وهم وقوف بين يدى الله فى عَرَصات القيامة كما قال : « وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ »[1] . فلا يجابون ثم إذا رأوا النار وعاينوها ووقفوا عليها ، ونظروا إلى ما فيها من العذاب والنكال ، سألوا الرجعة أشدَّ مما سألوا أول مرة فلا يجابون ، قال الله تعالى : «وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ »[2] فإذا دخلوا النار وذاقوا مسها وحسيسها ومقامعها وأغلالها ، كان سؤالهم للرجعة أشد وأعظم : « وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ »[3] ، « رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ * قَالَ اخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ »[4] وفى هذه الآية الكريمة تلطفوا فى السؤال ، وقدموا بين يدى كلامهم مقدمة ، وهى قولهم : (رَبَّنَآ أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ) أى : قدرتك عظيمة ، فأنت قادر على ما تشاء ، وقد اعترفنا بذنوبنا ، وأننا كنا ظالمين لأنفسنا فى الدار الدنيا : (فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ) فهل أنت مجيبنا إلى أن تعيدنا للدار الدنيا ، فإنك قادر على ذلك ، لنعمل غير الذى كنا نعمل ، فإن عدنا إلى ما كنا فيه فإنا ظالمون ، فأُجيبوا : أن لا سبيل إلى رجوعكم إلى الدنيا ، وهذا الجواب ملحوظ غير ملفوظ ، وقد دلت عليه الإشارة فى قوله تعالى :

---

(١) سورة السجدة الآية : ١٢

(٢) سورة الأنعام الآيتان : ٢٧ ، ٢٨

(٣) سورة فاطر الآية : ٣٧

(٤) سورة المؤمنون الآيتان : ١٠٧ — ١٠٨

(ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾)

فهذه الآية تعليل للمنع من إجابتهم ، المطوى بين الآيتين ، أى : ذلكم المنع بسبب أن سجاياكم لا تقبل الحق ولا تقتضيه ، بل تجحده وتنفيه ، فأنتم هكذا تكونون وإن رددتم إلى الدنيا ، كما قال تعالى : « وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ » . انتهى بتصرف .

« فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ » : فهو الحكم العدل فى خلقه ، ولا حُكم يوم القيامة لسواه ، وقد حكم للمؤمنين بالجنة هم فيها خالدون ، وحكم على الكافرين بالنار هم فيها لا يخرجون .

(هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾)

الخطاب هنا لجميع البشر ، فآيات الله مرئية لعباده جميعا ، وحجته قائمة عليهم .

والمعنى : الله هو الذى يريكم آياته الدالة عليه فى السموات والأرض ، من الذرة إلى المجرة ، وهو الذى يطعمكم ويسقيكم ، حيث ينزل لكم من السماء أمطارا هى السبب الأول فى أرزاقكم ، فمنها تشربون ، وبها ترون زروعكم وبساتينكم ، فيخرج لكم بفضله أنواعًا مختلفة من الطعام والفاكهة العجيبة الشأن ، الكثيرة الألوان ـ صيفًا وشتاءً ـ وكلها تسقى بماءٍ واحد ، ويفضل الله بعضها على بعض فى المذاق والغذاء والدواء ، وما يتذكر ويتعظ إلا من يرجع إلى الله عن طاعة نفسه الأمارة بالسوء ، والشيطان الذى يفسد على الناس عقولهم ، وأفكارهم ، ويرجع عن تقليد الآباء فى عقائدهم ، فهذا هو المنيب إلى الله ، الراجع إليه من الصوارف عن الهدى .

(فَٱدْعُوا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾)

الخطاب هنا للمؤمنين ، والمراد من دعاء الله : عبادته .

والمعنى : فاعبدوا الله وحده مخلصين له الدين ، فهو الذى يستحق العبادة وحده ، ولو كره الكافرون .

أخرج الإمام أحمد بسنده إلى أبى الزبير محمد بن مسلم بن مِدْرسى المكى قال : « كان عبد الله بن الزبير يقول فى دبر كل صلاة حين يسلم : لا إلَٰهَ إلَّا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىءٍ قدير ، لاحول ولاقوة إلَّا بالله ، لا إلَٰهَ إلَّا الله ولا نعبد إلَّا إياه ، له النعمة وله الفضل ، وله الثناء الحسن ، لا إلَٰهَ إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » . قال : « وكان رسول الله ﷺ يهلل بهن دُبُرَ كل صلاة » أى : يرفع صوته بهن عقب كل صلاة .

(رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾)

المفردات :

(رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ) : عَلِىّ القدر جليل الشأن فى ذاته وفى صفاته .

(ذُو الْعَرْشِ) : صاحبه وخالقه لا عن حاجة إليه .

(يُلْقِي الرُّوحَ) : ينزل الوحى .

(يَوْمَ التَّلَاقِ) : يوم يلتقى الخلق بالخالق ، والمخلوقون بعضهم ببعض فى زحام القيامة .

(يَوْمَ هُم بَارِزُونَ) : ظاهرون لا يخفى على الله منهم شيء .

التفسير

١٥ - (رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ) :

أمر الله فى الآية السابقة أن يدعو المؤمنون ربهم مخلصين له الدين ، وجاءت هذه الآية لتبين رفْعَةَ قدر الله تعالى فى ذاته وفى صفاته وفى سماواته وفى عرشه ، وأنه تعالى هو صاحب الشأن فى الوحى ، يلقيه على من يشاء من عباده الخيرة .

وإطلاق اسم الروح على الوحى ، لأنه للأرواح بمنزلة الروح للأبدان ، فكما تحيى الأبدان بالروح ، تحيى الأرواح بالوحى ، فهى بدونه فى حكم الميتة .

ومن العلماء من فسر الروح بالقرآن ، لقوله تعالى : « وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا »[1] . ومنهم من فسره بجبريل ، لقوله تعالى : « نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ »[2] وكلها معان متقاربة ، بل متلازمة .

ويوم التلاق هو يوم القيامة ، حيث يلتقى المخلوق بخالقه للحساب والجزاء ، ويلتقى جميع البشر بعضهم ببعض فى موقف الحساب والقضاء ، وهو يوم عصيب على العصاة والكافرين ، فلهذا كان من أهم أغراض الوحى لجميع الأنبياء إنذار أممهم أهوال هذا اليوم ليجتنبوها بالإيمان والطاعة .

والمعنى الإجمالى للآية : هو الله رفيع القدر فى ذاته ، وفى صفاته ، وفى أفعاله ، وفى سماواته ، وجميع كائناته ، صاحب العَرْش المحيط بهذا الكون ، ينزل الوحى من أمره على

(١) سورة الشورى من الآية : ٥٢ .

(٢) سورة الشعراء الآية : ١٩٣ ومن الآية : ١٩٤

من يختاره من عباده الأكرمين ، ليخوف الناس من يوم قيام الناس لرب العالمين ، وتلاقيهم معه للحساب والجزاء ، حتى يجتنبوا الموبقات ، ويفعلوا المنجيات من الطاعات .

١٦ - (يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) :

هذه الآية لزيادة توضيح المخاوف فى يوم « التَّلَاقِ » ولفظ « يَوْمَ » هنا بدل من « يَوْمَ التَّلَاقِ » فى الآية السابقة ، وقد بينت هذه الاية أن الخلائق يومئذ ظاهرون لله ، فلا يخفى على الله منهم شىءٌ مما عملوه فى الدنيا ، فقد أحاط بكل شىءٍ علمًا ، كما أنهم ظاهرون بعضهم لبعض ، حيث زالت الجبال والتلال ، واستوت الأرض فلا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا ، ولا يوجد ملجأ يختفى فيه أحد عن الله أو عن غيره .

وقد كان فى الدنيا ملوك ملكهم الله على عباده ، وجعل لهم الحكم فى رعاياهم ، وقد زال سلطانهم فى الآخرة ، وأصبحوا مسئولين كسائر رعاياهم ، بل أشد منهم ، فإن الملك يومئذ لله الواحد القهار .

وفى هذا اليوم العصيب يُسْأَلُ من قِبَل الله : (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ) فيجاب من جهة الخلائق : (لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) .

قال القرطبى نقلًا عن النحاس : وأصح ما قيل فيه ، ما رواه أبو وائل عن ابن مسعود قال : يحشر الناس على أرض بيضاء مثل الفضة ، لم يعص الله - عز وجل - عليها ، فيؤمَرُ مُنَادٍ ينادى : (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ) ؟ فيقول العباد مؤمنهم وكافرهم : (لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) فيقول المؤمنون هذا الجواب سرورًا وتلذذًا ، ويقوله الكافرون غمًّا وانقيادًا ، وخضوعًا » ، ثم قال : والقول صحيح عن ابن مسعود ، وليس هو مما يؤخذ بالقياس ولا بالتأويل .

والمعنى الإجمالى للآية مَعَ ما قبلها مما يرتبط بها : يلقى الله الوحى من أمره على من يختاره من عباده لتبليغ رسالته ، لينذر يوم التلاقى ، يوم جميع الناس ظاهرون لعلم الله ، لا يغيب عنه شىء من أفعالهم وذواتهم وصفاتهم ، ظاهرون بعضهم لبعض ، أولهم وآخرهم لا يحجب بعضهم عن بعض حجاب ، فقد سويت الأرض ، وأزيل منها الجبال والهضاب ، فلا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا ، وحينئذ يسأل الملائكة فى هذا اليوم العصيب والمحشر الرهيب : (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ) فيجيب الخلائق مؤمنهم وكافرهم : (لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) .

١٧ - ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ :

بعد ما يقر الخلائق بأن الملك يوم القيامة لله الواحد القهار ، يجابون من قبل الله على ألسنة الملائكة : اليوم تجزى كل نفس بما كسبته فى دنياها ، الحسنة بعشر أمثالها إلى ما شاء الله ، والسيئة بمثلها ، لا ظلم اليوم فى محكمة العدل الإلٰهى ، ولا بطء فى صدور الأحكام ، إن الله سريع الحساب ، لا يشغله حساب أحد عن حساب آخر ، ولا حساب أمة عن حساب أخرى ، فإنه - تعالى - ليس محتاجًا إلى تذكر أعمال العباد أو الاطلاع عليها فى كتب أعمالهم ، فإنه يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وكما يرزقهم فى ساعة واحدة يحاسبهم فى ساعة واحدة ، فكل واحد منهم يتلقى كتاب عمله ، ويرى فيه حسناته وسيئاته والحكم الذى صدر له أو عليه ، قال تعالى : « وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِى عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا »[1] كما أنه تعالى ليس محتاجًا إلى شهود « يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »[2] . نسأل الله الأمان فى ذلك اليوم الرهيب .

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ۖ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ﴾

المفردات :

(يَوْمَ الْآزِفَةِ) : يوم القيامة ، سمى بالآزفة لقربه ، من أَزِفَ الشىءُ يأزَفُ أَزَفًا إذا قرب ، فهو من باب تعب .

(كَاظِمِينَ) : كاتمين مع الضيق .

(١) سورة الإسراء الآيتان : ١٣ ، ١٤

(٢) سورة النور الآية : ٢٤

(حَمِيمٍ) : قريب يهتم لأمرهم .

(خَآئِنَةَ الْأَعْيُنِ) : هى النظرة الخفية إلى ما يعاب فى العلانية .

التفسير

١٨ - (وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ) :

يأمر الله نبيه فى هذه الآية بأن ينذر قومه المشركين ويخوفهم من يوم القيامة المسمى : بالآزفة لقربه ، فإن ما بقى من عمر الدنيا بالنسبة إلى ما مضى منه قليل جدا ، وقد ظهرت أشراطها وعلاماتها فضلا عن أن كل آت قريب .

ونظير هذه الآية : « أَزِفَتِ الْآزِفَةُ »[1] أى : قربت الساعة ، وقد وصف الله يوم الآزفة بأن القلوب تصل فيه إلى الحناجر ، وهذا على سبيل المجاز ، مثل قوله تعالى : « وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا »[2] .

وتراهم فى هذه الشدة كاظمين كاتمين لغمهم وكربهم ، لا يتكلمون إلا بإذن الله ، وليس لهم شفيع يطاع ، فقد منع الله الشفاعة للكفار ، قال تعالى : « وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ »[3] فلا شفيع لهم فى هذا اليوم حتى يطاع .

والمعنى الإجمالى للآية : وخوف المشركين - أيها الرسول - من يوم الساعة القريبة ، حيث يشتد فيه الأمر حتى كأن القلوب تبلغ الحناجر كاظمين كاتمين لهمومهم وأحزانهم وكروبهم ، ليس للظالمين فى ذلك اليوم صديق يشفق عليهم ، ولا شفيع مأذون له حتى يطاع وتقبل شفاعته .

---

(١) سورة النجم الآية : ٥٧

(٢) سورة الأحزاب من الآية : ١٠

(٣) سورة الأنبياء من الآية : ٢٨

١٩ - (يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ) :

أى : يعلم الأعين الخائنة ، قال ابن عباس : هو الرجل ينظر إلى المرأة ، فإذا نظر إليه أصحابه غضّ بصره ، فإذا رأى منهم غفلة تدسّس بالنظر ، فإذا نظر إليه أصحابه غضّ بصره ، وقد علم الله - عز وجل - منه أنه يود لو نظر إلى عورتها .

وقال مجاهد : « هى مسارقة الأعين إلى ما نهى الله عنه » وهذا أشمل ، وكما يعلم الله خائنة الأعين ، يعلم ما تخفيه صدور الناظرين : هل يزنون لو خلوا بها أو لا .

٢٠ - (وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) :

والله يُجازى من نظر إلى المحارم ومن لم يَنظُر إليها ، ومن عزم على مواقعة الفواحش ومن عزف قلبه عنها .

والأوثانُ التى يعبدونها من دون الله لا تقضى بشىء ؛ لأنها لا تعلم شيئًا ولا تملك ، إن الله هو السميع لأقوال خلقه البصير بأعمالهم ، فيجازيهم حسب أعمالهم .

* (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ) أى : آخر أمرهم ، وعاقبة كل شىء آخره .

(وَءَاثَارًا فِى الْأَرْضِ) أى : ما يبقى بعدهم كالقلاع والحصون . والمفرد : أثر مثل : سبب وأسباب .

(مِن وَاقٍ) : من مانع يمنع عنهم عذاب الله .

(بِالْبَيِّنَاتِ) أى : المعجزات الواضحات .

التفسير

٢١ - (أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللهِ مِن وَاقٍ) :

المعنى : أقعد الكفرة المكذبون برسالتك ولم يسيروا فى الأرض فينظروا ما آل إليه حال من قبلهم من الأمم المكذبة لرسلهم كعاد وثمود وأمثالهم . كانوا هم أشد منهم قوة وتمكنا فى التصرفات ، وأقوى آثارًا فى الأرض مثل : القلاع الحصينة ، والمدائن القوية ، وقد حكى الله عن قوم منهم : أنهم كانوا ينحتون من الجبال بيوتًا مما لا يقدر عليه هؤلاء كما قال تعالى : « وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ »[1] ومع هذه القوة العظيمة ، والبأس الشديد لم يتركوا يمرحون ، بل حقت عليهم كلمة الله ، فأخذهم أخذًا وبيلًا . تركهم أثرًا بعد عين ، وما كان لهم واق من الله يمنع عنهم العذاب الذى حل بهم ، ويقيهم منه ، وأريد بذلك التنبيه على عجز شركائهم عن إنقاذهم من الهلاك .

٢٢ - (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ اللهُ إِنَّهُ قَوِىٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ) :

أى : سبب ذلك الأخذ البالغ الغاية فى الشدة أنهم كانت تأتيهم رسلهم بالمعجزات البينة ، والأحكام الواضحة التى تنير لهم طريق الحق . فقابلوهم ريثما أتوهم بالإعراض والكفر . فأهلكهم الله ، ودمّر عليهم بسبب ما صنعوا ؛ لأنه – سبحانه – متمكن مما يريده غاية التمكن قادر عليه .

(شَدِيدُ الْعِقَابِ) : لمن كذب برسله وآياته .

---

(١) سورة الأحقاف ، جزء من الآية ٢٦

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾)

المفردات :

(بِآيَاتِنَا) : جمع آية وهى المعجزة .

(وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) المراد بالسلطان هنا : الحجة الواضحة والبرهان البيِّن .

(وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ) أى : وما مكرهم إلَّا فى خسران .

(أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ) أى : أن يغير عبادتكم لى بعبادتكم لغيرى .

(إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم) أى : جعلته معاذًا لى ولكم ، بمعنى : اعتصمت به ، يقال : استعذت بالله وعذت به معاذًا وعياذًا : اعتصمت .

التفسير

٢٣ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) :

فى ذكر قصة الإرسال إلى فرعون ومن معه وتفصيل ما جرى . تسلية لنبيه ﷺ عن تكذيب من كذبه من قومه . وبشارة له بأن العاقبة والنصرة له فى الدنيا والآخرة ، كما جرى

لموسى بن عمران . فإن الله أرسله بالمعجزات البينة والدلائل الواضحة ، والحجج القاهرة فكذبوه فأغرقهم الله .

والمراد بالسلطان المبين : ما أريد بالآيات ، ونُزِّل تغاير الوصفين منزلة تغاير الذاتين . وحكى الطبرسى أن المراد بالآيات : حجج التوحيد . وبالسلطان المبين : المعجزات الدالة على نبوته – عليه السلام – التى أرسل بها .

٢٤ – (إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا۟ سَاحِرٌ كَذَّابٌ) :

فرعون ملك القبط بالديار المصرية وهامان وزيره فى مملكته ، وقارون قيل : هو الذى كان من قوم موسى . وقيل : غيره ، وكان مقدم جيوش فرعون . وذِكْرهما من بين أتباع فرعون لمكانهما فى الكفر وكونهما أشهر الأتباع .

(فَقَالُوا۟ سَاحِرٌ كَذَّابٌ) : يعنون أن موسى – عليه السلام – ساحر فيما أظهره من المعجزات التى حملوها على السحر . كذاب فى دعواه أن الله أرسله ، قالوا ذلك لما عجزوا عن معارضته .

٢٥ – (فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ) :

لم يكترث موسى – عليه السلام – بقولهم عنه : ساحر كذاب ، ومضى فى تبليغ رسالة ربه بالبرهان القاطع الدال على أن الله – تعالى – أرسله إليهم ، وحينما عجزوا عن معارضته دفعهم العجز عن المعارضة والغيظ الذى تمتلئ به قلوبهم إلى الانتقام ممن آمن به ، حيث قالوا : (ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ) أى : اصنعوا بهم ما كنتم تفعلونه من قتل أبنائهم وترك نسائهم أحياء كى تصدوهم عن مظاهرة موسى – عليه السلام – وتأييده ، فالأمر بالقتل والاستحياء حدث من فرعون مرتين ، المرة الأولى كانت قبل ميلاد موسى – عليه السلام – لأجل الاحتراز من وجود من يقتل فرعون بعد أن أخبره الكهنة والمنجمون بأن أحد بنى إسرائيل سوف يسلبه ملكه ، أو كان غرضه إذلال هذا الشعب وتقليل عددهم أو لمجموع الأمرين ، والمرة الثانية كانت بعد إرسال موسى – عليه السلام – إليه وإيمان من آمن معه كما يقول

قتادة ؛ لأن فرعون كان قد أمسك عن قتل الولدان بعد ولادة موسى - عليه السلام - فلما بعث الله موسى أعاد القتل على بنى إسرائيل غيظًا وحنقًا ، وزعمًا منه أنه يصدهم بذلك عن مظاهرته ظنًّا منه أنه المولود الذى حكم المنجمون والكهنة بذهاب ملكه على يده ، وقد شغلهم الله عن ذلك بما أنزل عليهم من أنواع العذاب كالضفادع والقمل والدم والطوفان إلى أن خرج بنو إسرائيل من مصر ، فأغرق الله فرعون وجنوده وهذا معنى قوله تعالى : (وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ) أى : إلّا فى خسران وهلاك لا يغنى عنهم شيئًا ، وهذه الجملة جىء بها فى تضاعيف ما حكى عنهم من الأباطيل للمسارعة إلى بطلان ما أظهروه من الوعيد ، واضمحلاله بالمرة ، والإظهار فى موضع الإضمار حيث لم يقل وما كيدهم لذمهم بالكفر ، والإشعار بعلة الحكم .

٢٦ - (وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ) :

وقال فرعون لقومه : اتركونى أقتل موسى ، وكان فرعون إذا هَمّ بقتل موسى - عليه السلام - كفّوه بقولهم : ليس هذا ممّا تخافه فهو أقل من ذلك وأضعف ، وما هو إلّا ساحر يقاومه ساحر مثله . وإنك لو قتلته أدخلت على الناس الشبهة ، واعتقدوا أنك عجزت عن مظاهرته بالحجة ، وعدلت إلى المقارعة بالسيف ، ولكنه كان قتالًا سفاكًا للدماء فى أهون شىء . فكيف لا يقتل من أحسَّ أنه هو الذى يثل عرشه ويهدم ملكه . ولكنه مع ذلك كان يخشى إذا هَمَّ بقتله أن يعاجل بالهلاك ، فقوله : (ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ . . . الآية) كان تمويهاً على قومه ، وإيهاماً بأنهم هم الذين يكفونه - وما كان يكفه فى واقع الأمر إلّا ما تمتلىء به نفسه من هول وفزع وقوله : (وَلْيَدْعُ رَبَّهُ) تجلد منه وإظهار لعدم المبالاة بدعائه أى : لا يهولنكم ما يذكر عن ربه فإنه لا حقيقة له ، وأنا ربكم الأعلى .. قال ذلك استهانة بموسى حسب ظاهره . كما يقال : ادع ناصرك فإنى منتقم منك . أما بحسب باطنه فكانت ترتعد فرائصه . ويضيق صدره . وتتلاحق أنفاسه خوفًا من دعاء موسى لربه ، ثم يقول تبريرًا لما زعم أنه يريد قتله ، للتمويه على أتباعه :

(إِنِّيٓ أَخَافُ) إن لم أقتله (أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ) أى : أن يغير ما أنتم عليه – وكانوا يعبدونه ويعبدون الأصنام التى أمرهم بنحتها وعبادتها لتكون لهم شفعاء عنده كما كان كفار مكة يقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله .

(أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ) كما أنى أخاف أن يظهر فى أرضكم الفساد إن لم يقدر على تبديل دينكم بالكلية ، بأن يُحيل أمنكم إلى اضطراب وتناحر ، فتتعطل المزارع والمكاسب ، ويهلك الناس قتلًا وضياعًا ، وقال قتادة : عنى بالفساد طاعة الله – تعالى – فأراد أن الفساد فى الأرض بظهور طاعة الله .

٢٧ – (وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ) :

أى : وقال موسى – عليه السلام – لقومه بعد ما تردد على لسان فرعون من حديث قتله : (إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم) . والخطاب فى قوله : (وَرَبِّكُم) لمن آمن بموسى أى : اعتصمت بالله ربى وربكم واستعذت به ويؤيده قوله تعالى فى سورة الأعراف : « قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا »(1) وليس الخطاب لفرعون وقومه ، فإن فرعون ومن معه لا يعترفون بربوبيته – تعالى – وفى قوله : (رَبِّي وَرَبِّكُمْ) بعث لهم على أن يقتدوا به فيعوذوا بالله عياذه . ويعتصموا به اعتصامه ، فإن فى تظاهر النفوس تأثيرًا قويا فى استجلاب الإجابة وصدَّر – عليه السلام – كلامه بإنَّ تأكيدًا ، وتنبيهًا على أن السبب المؤكد فى دفع الشدة هو العياذ بالله – تعالى – ولم يُسَمِّ موسى فرعون حين استعاذ بالله ، بل ذكره بوصف يعمه وغيره من الجبابرة بقوله : (مِن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ) لتعميم الاستعاذة والإشعار بعلة الجرأة على الله – تعالى – ، وأراد بالتكبر الاستكبار عن الإذعان للحق وهو أقبح استكبار وأدله على دناءة ومهانة صاحبه ، وضم إليه عدم الإيمان بيوم الجزاء ، ليكون أدل وأدل على أنه بلغ الغاية فى الطغيان ، فمن اجتمع فيه التكبر والتكذيب بالجزاء وقلة المبالاة بالعاقبة . فقد استكمل القسوة والجرأة على الله – تعالى – ولم يترك عظيمة إلَّا ارتكبها .

(1) سورة الأعراف من الآية : ١٢٨

(وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾)

المفردات :

(مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ) أى : من أهله وأقاربه .

(يَكْتُمُ إِيمَانَهُ) أى : يخفيه ويستره عن فرعون وقومه .

(جَآءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ) أى : بالآيات التسع الدالة على صدقه .

(يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ) أى : إن لم ينزل بكم كل الذى يعدكم به ، بل بعضه هلكتم .

وَوَعَدَ يستعمل فى الخير والشر وهو فى الخير أكثر ، ويتعدى بنفسه وبالباء . وقالوا : أوعده خيرًا وشرًّا بالألف أيضًا وهو فى الشر أكثر .

(مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ) : وهو الذى جاوز القصد وجانب الاعتدال فى أموره .

التفسير

٢٨ - (وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ اللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ) :

ذكر بعض المفسرين أن اسم هذا الرجل حبيب ، وقيل : شمعان قاله السهيلى ، وهو أصح ما قيل فيه ، وهو قبطى من أهل فرعون وأقاربه آمن بموسى سرًّا . قال السُّدى : وهو

الذى نجا مع موسى – عليه السلام – وهذا الرجل هو المراد بقوله : « وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَامُوسَىٰٓ . . . الآية »[1] وهو قول مقاتل ، وقال ابن عباس : لم يكن مؤمن من آل فرعون غيره وغير امرأة فرعون ، ولم يتعرض له فرعون بسوء ؛ لأنه كان ابن عمه وصاحب شرطته كما قال الآلوسى ،أو لأنه كان يكتم إيمانه عن فرعون وملئه دون موسى – عليه السلام – ومن اتبعه – قال هذا الرجل المؤمن لقومه : (أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ) أى : أتقصدون قتله كراهة أن يقول : ربى الله وحده من غير رَوِيَّة منكم فى أمره ، وقد جاءكم بالمعجزات الظاهرة الشاهدة على صدقه ، والأدلة الكثيرة ، وهذا استنكار من ذلك الرجل عظيم ، وتبكيت لهم شديد ، كأنه قال : أترتكبون الفعلة الشنعاء التى هى قتل نفس محرمة . ومالكم من شىء تأخذونه عليه إلَّا كلمة الحق التى نطق بها وهى قوله : (رَبِّيَ اللَّهُ) والحال أنه قد جاءكم بالبينات التى عاينتموها وشاهدتموها لا ببينة واحدة،جاءكم بها من عند ربكم الإله الحق. وهذا استدراج لهم إلى الاعتراف واستنزال لهم عن رتبة المكابرة . ثم أخذهم بالاحتجاج فقال :

(وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ) ولم يكن ذلك لشك فى رسالته وصدقه ، ولكن تلطفًا فى كفهم أى : لا يتخطاه وبال كذبه فيحتاج فى دفعه إلى قتله :

(وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ) أى : وإن يكن موسى رسولًا صادقًا ، يصبكم بعض العذاب الذى يتوعدكم به إن لم يصبكم كله إذا تعرضتم له بسوء وفيه مبالغة فى التحذير فإنه إذا حذرهم من إصابة بعض ما يتوعدهم به أفاد أنه مهلك مخوف،فما بالهم إذا أصابهم كله ، وهذا كلام صادر عن غاية الإنصاف وعدم التعصب ، ولهذا قدَّم احتمال كونه كاذبًا ، وقيل : المراد يصبكم ما يعدكم من عذاب الدنيا . وهو بعض ما يعدهم ، كأنه خوفهم بما هو أظهر احتمالًا عندهم .

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ) : استئناف قصد به احتجاج آخر ذو وجهين :

أحدهما : أنه لو كان مسرفًا كذابًا لما هداه الله إلى البينات ، ولما أيده بتلك المعجزات .

وثانيها : أنه إذا كان كذلك خذله الله وأهلكه فلا حاجة لكم إلى قتله ، ولعله أراد به

---

(١) سورة القصص ، من الآية : ٢٠

المعنى الأول ، وأوهمهم أنه أراد الثانى لِتَلِين شَكِيمَتهم . وفيه تعريض بفرعون بأنه مسرف فى القتل والفساد ، كذاب فى ادعائه الربوبية لا يهديه الله سبيل الصواب ومنهاج النجاة .

(يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾)

المفردات :

(ظَاهِرِينَ فِى الْأَرْضِ) أى : غالبين فيها .

(مِن بَأْسِ اللهِ) أى : من عذابه .

(مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ) أى : ما أشير عليكم إلا بما أرى لنفسى .

(إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ) أى: طريق الصلاح والصواب ، وهو خلاف سبيل الغى والضلال .

(يَا قَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ) : يطلق القوم على الرجال ليس فيهم امرأة . والواحد : رجل أو امرؤ من غير لفظه .

(مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ) : يعنى أيام العذاب التى عذب فيها المتحزبون على الأنبياء .

(مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ) أي : مثل جزاء ما دأبوا عليه واعتادوه من الكفر وإيذاء الرسل .

(يَوْمَ التَّنَادِ) أي : يوم القيامة وسمي بذلك؛ لأنه ينادِى فيه بعضهم بعضًا للاستغاثة ، أو يتصايحون فيه بالويل والثبور .

التفسير

٢٩ - (يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ) :

هذا من قول مؤمن آل فرعون ،وفى قوله :(يا قوم) دليل على أنه قبطى ، ولذلك أضافهم إلى نفسه ليكون أقرب إلى قبول وَعْظِهِ حيث قال : (يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ) أي : غالبين على بنى إسرائيل فى أرض مصر لا يستطيع أحد أن يقاومكم فيها فى هذا الوقت . فاشكروا الله على ذلك وآمنوا .

وكون المراد بالأرض : أرض مصر قول السُّدى وغيره .

(فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا) قال ذلك تحذيرًا لهم من نقم الله إن كان موسى صادقًا ، أى : فلا تفسدوا أمركم ، ولا تتعرضوا لعذاب الله بقتله ، فإن العذاب إن جاءنا لم يمنعنا منه أحد ، والاستفهام إنكارى . وإنما نسب ما يسرهم من الملك والظهور فى الأرض إليهم خاصة ونظم نفسه معهم فيما يسوءهم من مجىء بأس الله - تعالى - تطييبًا لنفوسهم ، وإيذانًا بأنه مُناصح لهم ساع فى تحصيل ما يُجْدِيهم ، ودفع ما يرديهم سعيه فى حق نفسه ليتأثروا بنصحه ، وعندما سمع فرعون ذلك الذى نصحهم به قال : (مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ) أى : ما أشير عليكم إلّا بالذى أراه وأستصوبه لنفسى من قتله ، (وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ) أى : وما أهديكم بهذا الرأى من قتل موسى والإيمان بى إلا سبيل الصلاح والصواب . وما أعلمكم إلا ما أعلم . ولا أُسر عنكم خلاف ما أظهر . يعنى أن لسانه وقلبه متواطئان على ما يقول .

ولقد كذب حيث كان مستشعرًا للخوف الشديد من جهة موسى ، ولكنه كان يتجلد ، ولولاه ما استشار أحدا أبدا .

٣٠ـ (وَقَالَ الَّذِيٓ ءَامَنَ يَاقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ) :

زادهم من الوعظ والتخويف وقد قوى الله ـ تعالى ـ نفسه ، وثبت قلبه ، فلم يرهب فرعون ، ولم يعبأ به ، وأتى بنوع آخر من التهديد والتحذير فقال : (يَاقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم . .) الآية . أى : إنى أخاف عليكم من تكذيب موسى والتعرض له بالسوء أن يحل بكم مثل ما حلّ بالذين تحزبوا على أنبيائهم من الأمم الماضية فى أيامهم بمعنى وقائعهم التى أذيقوا فيها وبال أمرهم ، والظاهر جمع اليوم ؛ لأن لكل حزب يومًا ولكنه أغنى عنه إضافته إلى الأحزاب مع التفسير بما بعده فى قوله تعـــالى :

٣١ـ (مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ) :

أى : إنى أخاف أن يحل بكم مثل جزاء دأب قوم نوح وعاد وثمود ، أى : عادتهم الدائمة من الكفر وتكذيب الرسل وسائر المعاصى .

(وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ) المراد بهم قوم لوط (وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ) فلا يعاقب بغير ذنب ولا يخلى الظالم منهم بغير انتقام ، يعنى أن عذابهم وتدميرهم كان عـــدلًا ؛ لأنهم استحقوا ذلك بأعمالهم ، وهو أسلوب بلغ الغاية فى البلاغة لنفى الظلم عنه ـ تعالى ـ حيث جعل المنفى فيه إرادة الظلم ، ومن كان بعيدًا عن إرادة الظلم لعباده كان عن الظلم أبعد وأبعد .

٣٢ـ (وَيَاقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ) :

خوفهم العَذاب الأخروى بعد تخويفهم بالعَذاب الدنيوى . وأفصح عن إيمانه إما مستسلمًا موطنًا نفسه على القتل ، أو واثقًا بأنهم لايقصدونه بسوء ، وقد وقاه الله شرهم بقوله الحق ، ويومُ التناد هو : يوم القيامة . سمى بذلك ؛ لأنه ينادى فيه بعضهم بعضًا للاستغاثة ، أو يتصايحون فيه بالويل والثبور ، أو لتنادى أهل الجنة وأهل النار فينادى أصحابُ النار أصحابَ الجنة ، وأصحابُ الجنة أصحابَ النار ، كما جاء فى سورة الأعراف ، وقال ابن عطية : يحتمل أن يراد التذكير بكل نداء فى القيامة فيه مشقة على الكفار والعصاة .

وقرئ : (يَوْمَ التَّنَادّ) بتشديد الدال ، من ندَّ البعير : إذا هرب ، أى : يوم الهرب والفرار لقوله تعالى : « يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . . . الآيات »[1] ، وفى الحديث : « إن للناس جولة يوم القيامة يندّون[2] يظنون أنهم يجدون مهربًا » وعن الضحاك : إذا سمعوا زفير النار ندّوا هربًا فلا يأتون قطرًا من الأقطار إلّا وجدوا ملائكة صفوفًا فبينما هم يموج بعضهم فى بعض إذْ سمعوا مناديًا : أقبلوا إلى الحساب .

٣٣- (يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَالَكُم مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) :

أى : أن يوم التناد هو اليوم الذى تولون فيه عن الموقف منصرفين عنه إلى النار ، أو فارين منها إذا سمعوا زفيرها ولا ينفعهم الهرب - كما روى عن الضحاك آنفًا - ورُجح هذا القول بأنه أتم فائدة وأظهر ارتباطًا بقوله تعالى : (مَالَكُم مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ) أى : من دافع ومانع يعصمكم فى فراركم من عذاب الله . وقال قتادة : مالكم فى الانطلاق إلى النار من مانع يمنعكم منها .

(وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) أى : ومن خلق الله فى قلبه الضلالة وفق اختياره فما له أحد يهديه طريق النجاة أصلًا ، وكأن الرجلَ المؤمن يئس من قبولهم نصحه فقال ذلك ، ووبخهم على تكذيب الرسل السابقين فقال :

(وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾)

(١) سورة عبس الآيات : ٣٤ ، ٣٥

(٢) أى : يهربون .

المفردات :

(حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ) أى : مات ، يقال : هلك الشىء هلكًا وهلاكًا وهلوكًا ومهلكًا بفتح الميم ، وأما لامها فمثلثة ، والاسم : الهُلْكُ مثل قُفْل .

(مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ) أى : مشرك مرتاب بمعنى : شاك فى وحدانيته - تعالى - .

(بِغَيْرِ سُلْطَانٍ) : أى : بغير حجة وبرهان .

(كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ) أى : عَظُمَ جدالُهم بُغْضًا عند الله .

(كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ) أى : كما طبع الله وختم على قلوب هؤلاء المجادلين فكذلك يختم على كل قلب متكبر جبار حَتَّىٰ لا يعقل الرشاد ولا يقبل الحق .

التفسير

٣٤ - (وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَازِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ) :

قيل : إن هذا من قول موسى - عليه السلام - وقيل : هو من تمام ونمط مؤمن آل فرعون . ذكَّرهم قديم عتوهم على نبيهم : يوسف بن يعقوب [1] بعثه الله رسولًا إلى القبط من قبل موسى . وأيده بالآيات الظاهرة الدالة على صدقه ، وقال ابن جريج : أيده بالبينات وهى : الرؤيا ، كذلك قال ، والله أعلم بهذه البينات التى أيده الله بها .

(فَمَازِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِ) من الدين أى : أسلافكم كانوا فى شك ، فنسب ما للآباء إليهم ، لاشتراكهم فى الضلال والتكذيب ، وقد دعاهم إلى عبادة الله وحده فقال : « أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ » [2] . واستمر يدعوهم إلى دين التوحيد حتى (إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا) ضموا إلى الشك فى رسالته تكذيب رسالة من بعده .

(كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ) أى : مثل هذا الإضلال الشديد يضل الله من هو مسرف فى العصيان شاك فيما تشهد به البينات ، لتعصبهم لدينهم ، والإمعان فى التقليد .

---

(١) وقيل : غيره .

(٢) سورة يوسف من الآية : ٣٩

٣٥ـ (الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِيٓ آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ آتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُواْ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ) :

قال الزجاج : المراد بالذين يجادلون : كل مسرف مرتاب وهم يجادلون فى الله بغير حجة صالحة للتمسك بها لانقلية أتتهم من جهته ـ تعالى ـ على أيدى الرسل ـ عليهم السلام ـ ولا عقلية استنبطوها من الكون .

(كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُواْ) هذا من كلام مؤمن آل فرعون ، وقيل : ابتداءُ خطاب من الله ـ تعالى ـ وهو تقرير لما أشعر به الكلام السابق من ذمهم ، وفيه ضرب من التعجب والاستعظام ، أى : كبر بُغْضًا جدالُهم فى آيات الله بغير حجة ـ كَبُر بُغْضًا ـ عند الله وعند المؤمنين .

(كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ) أى : كما طبع الله على قلوب هؤلاء المجادلين ، فكذلك يطبع على قلب كل متكبر جبار ، فيصدر عنه أمثال ما ذكر من الإسراف والارتياب والمجادلة بغير حق ، وقرئ بتنوين قلب ، فمَا بَعْدَه صِفَتُه ، ووصف القلب بالتكبر والتجبر ؛ لأنه منبعهما .

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾)

المفردات :

(ابْنِ لِى صَرْحًا) أى : بناءً عاليًا كالقصر ، من صَرَحَ الشىءُ : إذا ظَهَر .

(أَسْبَابَ السَّمَٰوَاتِ) أى : طرقها وأبوابها جمع سبب وهو كل مايتوصل به إلى الشىء .

(وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ) أى : وما مكره واحتياله فى إبطال آيات الله لموسى إلَّا فى خسران وهلاك ، يقال : تَبَّ الله فلانًا أى : أهلكه ، وتبَّت يداه أى : هلكت أو خسرت .

التفسير

٣٦ - (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ) :

لما قال مؤمن آل فرعون ما قال ، وخاف فرعون أن يتمكن كلام هذا المؤمن فى قلوب القوم ، أوهم أنه يمتحن ما جاء به موسى من التوحيد ، فإن بان له صوابه لم يُخْفه عنهم ، وإن لم يصح ثبَّتهم على دينهم ، لذلك أمر وزيره هامان ببناء الصرح فقال : (يَا هَامَانُ ابْنِ لِى صَرْحًا) أى : قصرًا عاليًا مكشوفًا لا يخفى على الناظر وإن بَعُد (لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ) رجاء أنْ أبلغ الأسباب أى : الطرق، كما روى عن السدى ، وقال قتادة : هى الأبواب وهى : جمع سبب ويطلق على ما يتوصل به ، والمراد بها كما قال - سبحانه - :

٣٧ - (أَسْبَابَ السَّمَٰوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ) :

أى : لعلى أبلغ طرقها وأبوابها . وفى إبهام الأسباب ثم بيانها تفخيم لشأنها ، وتشويق للسامع إلى معرفتها .

(فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ) أى : فأنظر إليه . وأراد بذلك أن يعلم الناس بفساد رأى موسى وقوله : إنِّى رسول من رب السموات - أن يعلم الناس - أنه إذا كان رسولا منه فهو ممن يصل إليه . وذلك بالصعود إلى السماء وهو محال لا يقوى عليه الإنسان ، ومنشأ ذلك جهله بالله -تعالى- وكيفية استنبائه ، وزعمه أنه - سبحانه - مستقر فى السماء ، وأن رسله كرسل الملوك يلاقونه ويصلون إلى مقره وهو - عز وجل - منزه عن صفات المحدثين والأجسام ولا يحتاج رسله الكرام إلى ما يحتاج إليه رسل الملوك ، وهذا منه نفى لرسالة موسى من الله - تعالى - ولا تَعرُّض فيه لنفى الصانع المرسِل لَهُ : (وَإِنِّى لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا) يحتمل أن يكون عنى به أن موسى كاذب فى دعوى الرسالة أو أن يكون عنى به أنه كاذب فى ادعاء أن له إلهًا غيرهُ كما قال : (مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى) وهذا يوجب شك فرعون فى أمر الله .

(وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِ) أى : ومثل ذلك التزيين البليغ زين لفرعون عمله السيء فانهمك فيه انهماكًا قويًا لا يرعوى عنه بأى حال ، (وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ) أى : عن سبيل الهدى والرشاد ، والفاعل فى الحقيقة هو الله - تعالى - ولم يفعل - سبحانه - كلاًّ من التزيين والصد إلَّا لأن فرعون طلبه بلسان استعداده ، واقتضى ذلك سوء اختياره : وقرأ

الحجازيان ، والشامى ، وأبو عمرو صَدَّ : بالبناء للفاعل وهو : ضمير فرعون . على أن المعنى ، وصَدَّ فرعونُ الناس عن سبيل الرشاد بأمثال هذه التمويهات ويؤيده :

(وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ) أى : وما مكره فى إبطال آيات موسى إلَّا فى خسارة وهلاك .

(وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾)

المفردات :

(أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ) أى : أدلكم على طريق الهدى وهى الجنة .

(إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ) أى : يُمتع فيها قليلًا ثم تنقطع وتزول .

(وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ) أى : دار الاستقرار والخلود .

(مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا) أى : من عمل خطيئة فى الدنيا فلا يجزى فى الآخرة إلَّا بما يعادلها .

(يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ) أى : بغير تقدير وموازنة ، بل أضعافا مضاعفة .

التفسير

٣٨ - (وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ) :

هذا من تمام ما قاله مؤمن أهل فرعون أى : اقتدوا بى فى الدين أهدكم سبيلًا يبلغكم المقصود وهو دخول الجنة ، وفيه تعريض بأن ما عليه فرعون وقومه هو سبيل الغى والضلال .

٣٩ـ (يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ) :

أى : إن هذه الحياة الدنيا تَمتُّعٌ أو مُتَمَتَّعٌ به يسيرٌ لسرعة زوالها ، أجْمل لهم القول أولًا حيث قال : (اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ) ثم فصل فافتتح بذم الدنيا ، وتصغير شأْنها ؛ لأن الإخلاد إليها رأس كل شر ، ومنه تتشعب فنون ما يؤدى إلى سخط الله - تعالى - ثم ثنى بتعظيم الآخرة فقال : (وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ) لأنها الحياة الباقية وهى دار الاستقرار والخلود ودوام ما فيها .

٤٠ـ (مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ) :

ذكر الله فى الآية الأعمالَ سيئَها وحسنَها وعاقبةَ كل منهما ليُثبِّط عمَّا يتلف ويُنَشِّطَ لما يُزْلِفُ فقال - سبحانه - :

(مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا) أى : من عمل خطيئة فى الدنيا تعدى بها حدود الله فلا يجزى فى الآخرة إلا بما يماثلها عدلًا من الله - جل شأْنه - .

(وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ) أى : ومن عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن مصدق بالله - جل شأْنه - بقلبه ، ومؤمن بالأنبياء - عليهم السلام - فأُولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير تقدير وموازنة بالعمل ، بل أضعافًا مضاعفة . تفضلًا منه - تعالى - ورحمة ؛ وفى تقسيم العمال إلى ذكر وأُنثى للاهتمام والإشعار بالشمول ، والآية تفيد أن الإيمان شرط فى اعتبار العمل والاعتداد به والثواب عليه .

وبعد أن قدم هذا المؤمن حديثه لقومه ناصحًا وموجهًا بذكر الدنيا وبيان أنها دار متاع وأنها لا تغنى عن المرء شيئًا يوم الجزاء ، لما تدعو إليه من شر وفساد ، ثم بين أن التعلق بالآخرة ، والتفانى فى الإقبال عليها سبب السعادة والنعيم ، لأنها دار الخلود والدوام - بعد هذا الحديث - كرر نداء قومه إيقاظًا لهم من سنة الغفلة واعتناء بالمنادى إليه ومبالغة فى توبيخهم على تثاقلهم عن الاستماع لنصحه ، كما تبين ذلك الآيات القادمة .



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث

الحزب الثامن والأربعون

الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٨

* (وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾)

المفردات :

(أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ) : أدعوكم إلى السلامة من العذاب بإيمانكم .

(النَّـــارِ) : العذاب بالنار ، والمراد أسبابه من الشرك والغيّ والمعاصى .

(الْعَزِيزِ) : الغالب القاهر .

(الْغَفَّارِ) : واسع المغفرة .

(لَاجَرَمَ) : لَارد وإبطال لدعوتهم الرسول إلى عبادة الأوثان ، وجَرَمَ فعل ماض بمعنى حَقّ وثبت ، كما فى قول الشاعر :

وَلَقَــدْ طَعَنْتُ أَبَا عُبَيْدَةَ طَعْنَةً جَرَمتْ فزارةُ بَعدَها أنْ يغضبوا

أى : حَقّ لفزارة أن يغضبوا بعد هذه الطعنة .

وفاعل جرم فى الآية مصدر مؤول من أن وما دخلت عليه ، أى : حقّ وثبت كون ماتدعوننى إلى عبادته لَايصح أن يدعى لَا فى الدنيا ولَا فى الآخرة .

وقال الفراء : معنى (لَاجَرَمَ) فى الآية : لابد ولامحالة ، وعلى هذا تكون « بُدّ » اسم لا النافية للجنس ، وخبرها مصدر مؤول مما بعدها ، وهذا هو معناها الأصلى ، فلمّا كثر

استعمالها صارت بمنزلة « حقًّا » فلذلك يجاب عنها باللام كما يجاب عن القسم ، ألا ترى أنهم يقولون : لَاجَرَم لآتينك . انتهى كلام الفراء بتصرف .

(مَرَدَّنَآ إِلَى اللهِ) : مرجعنا إلى الله بالموت .

(الْمُسْرِفِينَ) : المشركين ، وكل من غلب شرُّه خيره فهو مسرف .

التفسير

٤١ ـ (وَيَا قَوْمِ مَالِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِيَ إِلَى النَّارِ) :

هذه الآية الكريمة من كتاب الله نداء من جملة النداءات التى تكررت فى هذه السورة ، وهيمنت على جوها ، وتنوعت بها أساليب التنبيه ، وألوان التحذير والتخويف ، تذكر بالنعم وتحذر من وقوع النقم . كما فى قوله ـ تعالى ـ : (يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللهِ إِن جَآءَنَا) .

كما تحذر من الفتن المهلكة والعقوبات المدمرة التى وقعت بالأمم السابقة فأبادتها كما فى قوله : (وَقَالَ الَّذِيٓ آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ) .

أو تذكر بيوم القيامة وما يحتويه من أهوال وشدائد ، كما فى قوله : (وَيَا قَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ) أو تنبه إلى أن الدنيا متاع سريع الزوال ، وأن الآخرة هى دار الدوام والاستقرار . كما فى قوله : (يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ) .

كما تَنْعَى على الكافرين والمشركين انتكاس الطبع ، وسوء السلوك . إيقاظًا لهم من سِنة الغفلة ، واهتمامًا بالمنادى ، ومبالغة فى توبيخهم على ما قابلوا به دعوته .

واقترن النداء فى الآية بالعطف لأنه للموازنة بين الدعوتين : دعوته لهم إلى دين الله الذى ثمرته النجاة ، ودعوتهم له إلى اتخاذ الأنداد الذى عاقبته النار ، وذلك لتحقيق أنه هاد وأنهم مضلون ، وأن ما عليه هو الهدى ، وما هم عليه هو الضلال .

والمعنى : ويا قوم إنِّى لأَعجب من أمركم ، فأَخبرونى كيف هذه الحال التى أنتم معى عليها ؟ أدعوكم إلى الخير ، ومسالك النجاة ونعيم الجنة ، وتدعوننى إلى الهلاك ، ومهاوى الجحيم .

وفى ندائهم بيا قوم وتكرار ذلك مع كل نداء مزيد من التلطف معهم . والإشفاق عليهم ، والتحنن فى دعوتهم إلى ما فيه خيرهم ونجاتهم ، لانتزاع شفقتهم وطاعتهم حتى ينزلوا على نصحه ، ويستجيبوا لدعوته ، ولا يتهموه كما فعل إبراهيم – عليه السلام – فى نصح أبيه ، حيث ناداه متلطِّفًا بقوله : « يَآ أَبَتِ » .

٤٢ – (تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ) :

هذه الآية تفسير وبيان للآية السابقة ، أى : تدعوننى لأُنكر وحدانية ربى ، وأُشرك به آلهة أُخرى باطلة زائفة لم يقم دليل على أُلوهيتها .

(وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ) معناه : وأنا أدعوكم إلى عبادة الإله القادر الغالب على أمره ، الغفار لذنوب التائبين .

وخص هذان الوصفان : (الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ) لاقتضائهما جميع الصفات، لما فيهما من الدلالة على الخوف والرجاء من الله ، فإنهما مناسبان لحالهم .

٤٣ – (لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى اللهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ) :

لفظ (لَا) فى قوله : (لَا جَرَمَ) رد لما دعاه إليه قومه ، وجرم بمعنى حق ، وتقدم باقى الكلام عليها فى المفردات .

والمعنى : حقٌّ وثبت بطلان ما تدعوننى إلى عبادته من الأَصنام ، فليس لها دعوة ترجى فى الدنيا ولا فى الآخرة ، فهى لا تضر ولا تنفع ، وأن مرجعنا إلى الله الذى أدعوكم إلى عبادته وأن المسرفين بعبادة غيره هم أصحاب النار لا ينفكون عنها ، ولا يخفف عنهم من عذابها .

(فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾)

المفردات :

(أُفَوِّضُ أَمْرِى) : أَرُدّ أمرى وأسلمه إلى الله ليعصمنى .

(فَوَقَاهُ) : حفظه ونجاه .

(حَاقَ) : نزل ولزم وأحاط .

(سُوٓءُ الْعَذَابِ) : العذاب السَّيِّئ من الغرق والنار ، فهو من إضافة الصفة إلى الموصوف .

(السَّاعَةُ) : القيامة .

التفسير

٤٤ - (فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ) :

هذا آخر مايقوله الناصح بعد أن يستكمل كل أساليب النصح ، ويستجمع جميع عبارات التحذير والتخويف ، يقول ذلك إعذارًا لنفسه ، وتهديدًا مُغَلَّفًا بأُسلوب النصح والإشفاق .

والمعنى : فسيذكر بعضكم لبعض عند مواجهة العذاب ومجابهة الحساب يوم القيامة ما دعوتكم إليه ونصحتكم به ، وحذرتكم مخالفته ، فلم يكن منكم إلَّا الإسراف فى العناد ، والإصرار على الكفر ، والإفحاش فى التهديد ، ولم يكن لى بعد هذا إلَّا أن أردّ أمرى إلى الله ،

وأسلم نفسى إليه ، يحفظنى من كيدكم ، ويقينى من سيئاتكم ، إنه بصيرٌ بالعباد مطلع على أحوالهم التى من جملتها حالى وحالكم ، لايغيب عنه شأن ، ولاتخفى عليه خافية .

٤٥ ـ (فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ) :

الضمير فى قوله ـ تعالى ـ : (فَوَقَاهُ) لموسى ـ عليه السلام ـ .

والمعنى : فَوَقَى الله موسى ومن معه ، وحفظه من فرعون وبطشه ، وردّ كيده ومكره إلى نحره ، وأنزل به وبقومه العذاب البالغ أقصى درجات السوء فى الدنيا بالموت غرقًا ، وفى الآخرة بالنار إحراقًا ، وتلك عقبى الظالمين ، ومثوى المتكبرين المتجبرين ، ولم يصرح باسم فرعون امتهانًا له ، وإشعارًا بأصالته فى المسئولية .

٤٦ ـ (النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ) :

هذا كلام مستأنف مرتب على سؤال تقديره : كيف حال آل فرعون بعد غرقهم؟ فقيل : (النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا . . .) الآية .

وفى هذه العبارة غاية التهكم بهم وامتهانهم ، حيث بَدَّلَهُم الله باسترواحهم بأنفاس الصباح الندية ، وأنسام العِشاء الرخية ـ بَدلهم بذلك ـ العَرْض على النار غدوًّا وعشيًّا فى قبورهم ما دامت الدنيا حتى إذا قامت القيامة قال الله لخزنة جهنم : أدخلوا فرعون وآله المتجبرين أشد العذاب فى جهنم فى مقابل شدة جبروتهم .

وتحديد الوقتين لأنهما الوقتان المعتادان للاسترواح والراحة عند أهل الترف ، فيكون ذلك أنكى فى التهكم والسخرية ، وأجلى فى تصوير العذاب والامتهان ، ويكون ما بين الوقتين متروكًا لأمر الله ـ تعالى ـ يجرى عليهم عذابًا آخر أو ينفس عنهم ، ويجوز أن يراد بذكر الوقتين التأبيد ما دامت الدنيا جريًا على الأسلوب العربى فى التعبير أحيانًا عن جميع الوقت بذكر الطرفين كما فى قول الخنساء :

يُذَكِّرُنِى طُـلُوعُ الشَّمسِ صَخْرًا وَأَذْكُرُهُ بِكُلِّ مَغِيبِ شَمْسِ

ومثل هذا فى القرآن الكريم كقوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ أى : دائما فى كل وقت .

والظاهر هو المعنى الأول ، وهو عرضهم على النار فى وقتى الصباح والمساء ، فهو المناسب لحديث الصحيحين البخارى ومسلم عن ابن عمر عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشىّ ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة » . ومن أجل ذلك قيل بعذاب البرزخ .

﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَٰؤُاْ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ ﴾

المفـردات :

(يَتَحَاجُّونَ) : يحاجّ بعضهم بعضًا ويتخاصمون .

(الضُّعَفَاءُ) : الأتباع .

(لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ) : للمتبوعين والسادة .

(تَبَعًا) : جمع تابع كخدم وخادم – أو على تقدير : ذوى تبع .

(مُّغْنُونَ) : حاملون أو دافعون .

(حَكَمَ) : قضى وفصل .

التفسير

٤٧ ـ (وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَـٰٓؤُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ) :

المعنى : واذكر يـأيُّها الرسول لقومك فيما تذكر لهم من أحوال هؤلاء المشركين ، وما يجرى عليهم من أجل شركهم وعنادهم ـ اذكر ـ إذ يتخاصمون فى النار ويحاجّ بعضهم بعضًا بعد دخولها واصطلاء جحيمها ، فيقول الأتباع الضعفاء المغلوبون للسادة القادة الذين استكبروا عليهم وسخروهم لمصالحهم وفتنوهم فى دينهم ـ يقولون لهم ـ متهكمين شامتين : إنكم كنتم تستعلون علينا فى الدنيا وتزعمون لأنفسكم السلطان ، والغلبة والقهر ، وإنا كنا لكم تبعًا فيما تدعوننا إليه ، وتأمروننا به ، فهل أنتم حاملون عنَّا الآن أودافعون بعض ما نعانيه من هول النار وعذابها بسبب طاعتنا لكم واتباع أمركم ؟

٤٨ ـ (قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ) :

أى : قال السادة الذين استكبروا جوابًا للضعفاء الأتباع الذين سألوهم تهكمًا أن يحملوا عنهم أو يدفعوا بعضًا من العذاب الذى هم فيه ـ قال الذين استكبروا :

(إِنَّا كُلٌّ فِيهَا) أى. نحن وأنتم فى النار سواء ، فكيف نغنى عنكم ونحن لا نقدر أن ندفع عن أنفسنا شيئًا من العذاب .

(إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ) أى : إن الله القادر على الحكم المالك لكل شىء قد قضى وفصل بين العباد ، فأدخل أهل الجنَّة الجنة ، وأهل النار النار ، وقدَّر لكل منَّا ومنكم عذابًا لا يدفع عنه ، ولا يتحمله عنه غيره .

(وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾)

المفردات :

(خَزَنَةُ جَهَنَّمَ) : القُوام على تعذيب أهلها .

(بِالْبَيِّنَاتِ) : بالمعجزات والآيات .

(بَلَىٰ) : نعم جاءونا .

(ضَلَالٍ) : بطلان وضياع .

(الْأَشْهَادُ) : جمع شاهد ، كصاحب وأصحاب ، والمراد : الأنبياء والحفظة .

(اللَّعْنَةُ) : الإبعاد والطرد من رحمة الله .

التفسير

٤٩ - (وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ) :

المعنى : وقال الذين انتهى أمرهم بدخول النار من الضعفاء والمستكبرين جميعًا حين استقروا في الجحيم ، ولفَّهم اليأس ، وضاقت بهم الحيل ، وأعيتهم العلل - قالوا - لخزنة

جهنم القُوّام بتعذيب أهل النار : ادعوا ربكم يخفف عنّا شيئًا من هذا العذاب الذى نعانيه ، أو يدفع عنّا يومًا من أيام العذاب لعلّنا نسترد به قوتنا ، ونجمع فيه طاقتنا ، فيقوى احتمالنا له ، وصبرنا عليه .

وهو قول يمثل أقصى درجات المهانة والذل ، فإنه ليس أذل على النفس ، ولا أشد وقعًا من أن تبتغى الرحمة من القائم على تعذيبها ، أو ترجو الإشفاق من جلادها ، ولهذا اقتصروا فى طلبهم على تخفيف قدر يسير ، أو وقت قصير .

٥٠ ـ (قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَادْعُواْ وَمَا دُعَآءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَالٍ) :

المعنى : قال خزنة جهنم لأهل النار الذين طلبوا منهم الدعاء بتخفيف العذاب عنهم ـ قالوا لهم ـ إلزامًا وتوبيخًا على إضاعة أوقات الدعاء ، وتعطيل أسباب الإجابة : ألم تُنَبَّهوا إلى هذا ولم تك تأتيكم رسلكم فى الدنيا بالحجج الواضحة ، والآيات البينة الدالة على سوء مغبة ما كنتم عليه من الكفر والمعاصى كما ينطق بذلك ـ قوله تعالى ـ : « أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا . قَالُوا بَلَىٰ »[1] أى : قال أهل النار لخزنة جهنم : نعم جاءونا ودعونا ونصحونا وأعذروا بالحجج والبراهين فعارضناهم وكذبناهم .

(قَالُواْ فَادْعُواْ وَمَا دُعَآءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَالٍ) أى : قال خزنة جهنم لهم إمعانًا فى التوبيخ والتيئيس : إذ كان هذا شأنكم فادعوا أنتم ؛ فإن الدعاء مِنّا مستحيل لمن يفعل فعلكم وما دعاؤكم مهما تضرعتم وطال دعاؤكم إلّا فى بطلان وضياع .

ووضع الكافرين موضع ضميرهم بيانًا لمقتضيات البطلان، وقصد التوبيخ والامتهان ، وقوله ـ تعالى ـ :

(وَمَا دُعَآءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَالٍ) : يحتمل أن يكون من جملة الكلام المقول على لسان الخزنة، وأن يكون من كلام الله ـ تعالى ـ إخبارًا منه لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

---

(١) سورة الزمر من الآية : ٧١ .

٥١ – (إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) :

هذه الآية استئناف كلام مسوق من جهة الله – تعالى – لبيان ما أصاب الكفرة من العذاب المحكى، وهو فرع من فروع حكم كلى تقتضيه الحكمة هو أن شأننا المستمر أننا ننصر رسلنا وأتباعهم الذين يؤمنون بهم ، ويصدقون دعوتهم فى الحياة الدنيا وننتقم لهم من الكفرة بالاستئصال والقتل والسبى .

(وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) : ويوم القيامة عند جمع الأولين والآخرين ، وشهادة الأشهاد للرسل بالتبليغ ، وأداء الأمانة على وجهها ، وعلى الكفرة بالتكذيب والجحود والعناد .

ونصرهم فى الدنيا واقع لا شك فيه ولا سبيل إلى تخلفه ، وقد يتأخر حدوثه بعض الوقت لحكمة يعلمها الله – تعالى – .

٥٢ – (يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ) :

المعنى : أنَّ يوم يقوم الأشهاد هو يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ، أى : يوم لا يكون للظالمين معذرة أصلًا يعتذرون بها لانقطاع حجتهم ، ونفاد حيلتهم ، أو يوم يعتذر الظالمون فلا تقبل منهم معذرة ولا تدفع عنهم من العذاب قليلًا أو كثيرًا ، وتكون لهم اللّعنة ، والطرد من رحمة الله ، ولهم الدار التى يسوؤهم عذابها ويشقيهم المقام فيها . وهى جهنم .

(وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾)

المفردات :

(الْهُدَى) : ما يهتدى به من المعجزات والصحف والشرائع .

(الْكِتَابَ) : التوراة .

(الْأَلْبَابِ) : العقول ، جمع لُبّ .

(يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ) : يخاصمون فيها بالباطل ويجحدون .

(سُلْطَانٍ) : برهان وحجة .

التفسير

٥٣ ـ ٥٤ : (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ . هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ) :

جاءت هذه الآية بعد الآية السابقة بمثابة تمثيل لنصرة الله -تعالى- لأنبيائه ، لأن تأييدهم بالمعجزات وإنزال الكتب عليهم نوع من نصر الله لهم ، بجانب كونه هدى وذكرى لأقوامهم .

والمعنى : ولقد كان من جملة نصرنا لرسلنا وصدق وعدنا لهم أن آتينا موسى ما يهتدى به من المعجزات الهادية إلى الحق ، وأورثنا قومه بنى إسرائيل التوراة هداية وتذكرة أو هاديًا ومذكرًا لذوى العقول السليمة والأفهام الخالصة من شوائب الوهم ، والصافية من غيوم الشكوك والأهواء .

٥٥ ـ (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ) :

المراد من ذنبه - صلى الله عليه وسلم- ما خالف به الأولى بالنسبة لمقامه ، وإن لم يكن ذنبًا فى حقه وحق غيره فى الواقع [1] .

والمعنى : إذا علمت ذلك -أيها الرسول- وسمعت ما قصصناه عليك من أن نصرة الرسل تكفل بها الله ووعد بها ، فَأَخْلِدْ إلى الصبر على أذى قومك فإن العاقبة لك ، وما سبق به

(١) وقيل : أمره - صلى الله عليه وسلم- بالاستغفار تعبدى لرفع درجاته وهضم نفسه، وليصير الاستغفار سنة أمته .

الوعد من نصرتك ، وإعلاء كلمتك حق وصدق فانتظره ولا تستعجله ، وأقبل على التقوى ، واستدرك ما حدث منك مما يخالف الأولى بالنسبة لك - استدركه - بالاستغفار ودم على عبادة ربك تسبيحًا وتحميدًا وثناء عليه بالعشى « آخر النهار » ، والإبكار « الدخول فى الصباح » بخاصة ، أو فى جميع الأوقات ، والمراد من التسبيح والتحميد معناهما المعروف ، وقيل : المراد بهما الصلاة ، فعن قتادة : ركعتان بكرة - صُبْحًا - وركعتان عشيًّا - عصرًا - لأن الواجب بمكة كان ذلك . وبنحوه قال الحسن : ركعتان بكرة وركعتان عشيًّا ، وحكى فى البحر عن ابن عباس أن المراد الصلوات الخمس .

٥٦ - (إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِيٓ آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) :

المعنى : إن الذين من شأنهم أن يخاصموا فى آيات الله البينات ، وبراهينه الواضحات ويجحدونها من غير أن يقوم جدلهم فيها على علم ، أو يستند إلى برهان ودليل ، لا يفعلون ذلك عن رأى سديد ، وليس فى صدورهم من ذلك إلا كبرٌ على الحق ، وتعظُّم عن التعلُّم ، ما هُم ببَالِغِى هذا الْكِبْرِ الذى يُدْفَعُ به الحق ، أو ما هُم ببالغى ما أرادوه من جدلهم من إبطال آيات الله ، لأن الله - تعالى - أذلَّهم ، وجعل لك الغلبة عليهم فاستسلموا ودخلوا فى دين الله أفواجًا .

وقوله - تعالى - : (فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) توجيه للرسول - صلى الله عليه وسلم - وأمر له أن يلتجئ إلى الله من كيد من يحسده ، ودفع من يبغى عليه .

(إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) أى : إن الله - تعالى - هو عظيم السمع لأقوالهم وجدالهم ، واسع العلم بأحوالهم وأفعالهم .

(لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾)

المفردات :

(الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ) : الغافل والمستبصر .

(السَّاعَةَ) : القيامة .

(لَا رَيْبَ فِيهَا) : لا شك فى وقوعها وحدوثها .

(دَاخِرِينَ) : صاغرين أذلاء .

التفسير

٥٧ ــ (لَخَلْقُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) :

لما كان البعث من مواضع جدلهم الواسع ، ومكابرتهم الزائفة ناسب أن تأتى هذه الآية بعد آية الجدل تحقيقًا للحق ، وتبيينًا لأشهر ما يجادلون فيه جهلًا وعنادًا من غير اعتماد على علم أو استناد إلى برهان، على منهاج قوله ــ تعالى ــ : « أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم[1] » .

(١) سورة يس من الآية ٨١ .

والمعنى : لخلق السموات والأرض على اتساعهما ، وامتداد طولهما وعرضهما ، وحكمة نظامهما ومايحتويان من كائنات عظيمة ، ومايختلف عليهما من تغاير أطوار ، وتباين أحوال ، ومايقع فيهما أو عنهما من أحداث - لخلق هذا كله - أكبر وأعظم من خلقه - تعالى - الناس ، لأن الناس بالنسبة إلى تلك الأجرام العظيمة والأحداث الهائلة كلا شيء ، والمراد : أن من قدر على خلق ذلك فهو - سبحانه - على خلق ما لا يعدُّ شيئًا بالنسبة إليه بَدْءًا وإعادة أقدر وأقدر ، وقوله - تعالى - : (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) ولكن أكثر الناس من الكفرة والمشركين لا يعلمون شيئًا من هذا ، ولا يتدبرونه تدبرًا يهديهم إلى الحق ، ويردهم إلى الإيمان والتصديق ، فهو الذى تقتضيه الحكمة اقتضاءً ظاهرًا ولكنهم لا يفقهون .

٥٨ - (وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِىءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ) :

نفت الآية السابقة العلم عمّن عطل عقله ، وجمد فكره فلم ينظر فى آيات الله نظرة تأمُّل ، ولم يعمق التفكير فى قدرته الظاهرة فى مخلوقاته ، وجاءت هذه الآية تبرز هذا المعنى بالقياس بين الأعمى والبصير ، وبين المحسن والمسئ ، ليستبين الحق من الباطل .

والمعنى : وما يستوى الأعمى الذى لا يبصر مباهج الحياة ووشيها وجمالها ، ولا يعرف عدوه من صديقه ، ما يستوى هذا الأعمى مع البصير الذى له عينان تجولان فى أرجاء الكون ، وتنطبع على ناظريهما آياته ، ويشاهد بهما البساتين وزهورها وثمارها ، ويتمتع بصفحات الجمال فى كل الكائنات علويها وسفليها ، ويرى صديقه فيلاقيه ، ويبصر عدوه فيتقيه ، وإذا كان هذان لا يستويان فى الاستفادة من آيات الحياة الدنيا والشعور بجمالها وجلالها ، والاستمتاع بها ، فالأعمى محروم والبصير يتقلب فى النعيم ، وإذا كان هذان لا يستويان فمثلهما المؤمن الذى يعمل الصالحات فى دنياه ، فينعم فى الدنيا بحياته ويخلد فى الجنة بعد مماته ، فلا يستوى مطلقاً مع الكافر المسيء إلى نفسه وإلى ربه فى حياته ، الخالد فى النار بعد مماته (قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ) فلا تدركون الحقائق على وجهها .

وفى الآية لمحات :

١ – عدل عن التقابل الظاهر فى قوله – تعالى – : (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلاَ الْمُسِيءُ) فلم يقل : والمحسن والمسيء كما فى قوله : الأعمى والبصير ، إشارة إلى أن المؤمن أصل فى الإحسان وعَلَمٌ له .

٢ – قدم الأعمى لمناسبة العمى ماقبله من نفى العلم ، وقدم الذين آمنوا بعد عكس ما قبله لمجاورة البصير وشرفه ، على أن الافتنان فى الأسلوب قد يقتضى طرقاً أخرى ، فيقدم ما يناسب الأول ويؤخر ما يقابل الآخر كقوله – تعالى – : « وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ، وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ ، وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ[1] » أو يؤخر المتقابلان كما فى قوله – تعالى – :

« مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ[2] » .

٣ – وأعيدت (لا) مع المسيء تذكيرا للنفى ، لما بينهما من الفصل بطول الصلة ، ولإظهار المقصود بالنفى من الفرق بين المحسن والمسيء .

٥٩ – (إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّارَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايُؤْمِنُونَ) :

أى : إن القيامة آتية واقعة لا شك فى حدوثها ، ولا ريب فى وقوعها البتة ، لوضوح ظواهرها ، وإجماع الرسل على الوعد بوقوعها ولكن أكثر الناس من الكفار والمعاندين لايؤمنون بحدوثها ، ولا يصدقون بوقوعها لقصور أنظارهم ، واستيلاء الأوهام على عقولهم .

٦٠ – (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) :

هذه الآية الكريمة توجيه من الله – عز وجل – لخلقه أن يضرعوا إليه بالدعاء ، ويجأروا له بالرجاء ، تعظيما لقدرته واعترافا بعجزهم وحاجتهم إلى عطائه وفضله .

---

(١) سورة فاطر الآيات : ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ .

(٢) سورة هود من الآية : ٢٤ .

والمعنى : وقال ربكم ادعونى ، أى : اعبدونى ، والدعاء بمعنى العبادة كثير فى القرآن الكريم ، ويدل عليه قوله - تعالى - : (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي) والاستجابة : الإثابة ، وفى تفسير مجاهد : « اعبدونى أثبكم » وعن الحسن وقد سئل عنها : « اعملوا وأبشروا فإنه حقٌّ على الله أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله » وعن الثورى أنه قيل له : ادع الله - تعالى - فقال : « ترك الذنوب هو الدعاء » وفى الحديث : « إذا شَغَل عبدى طاعتى عن الدعاء أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » .

وروى النعمان بن بشير - رضى الله عنه - عن رسول الله ﷺ : « الدعاء هو العبادة » وقرأ هذه الآية . ويجوز أن يراد الدعاء والاستجابة على ظاهرهما ، ويراد بعبادتى دعائى لأن الدعاء باب من أبواب العبادة ، ومن أفضل أبوابها ، يصدق ذلك قول ابن عباس - رضى الله عنه - : « أفضل العبادة الدعاء » .

وعن كعب : أعطى الله هذه الأُمة ثلاث خلال لم يعطهن إلاَّ نبياً مرسلا ، كان يقول لكل نبى : « أنت شاهدى على خلقى » وقال لهذه الأُمة : « لِتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ[1] » وكان يقول : « ما عليك من حرج » وقال لنا : « مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ[2] » وكان يقول : « ادعنى أستجب لك » وقال لنا : (ادْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ[3]) .

وعن ابن عباس : « وحدونى أغفر لكم » وهذا تفسير للدعاء بالعبادة ، ثم للعبادة بالتوحيد .

وقوله - تعالى - : (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي . . .) الآية ، معناه : إن الذين يستعلون عن عبادتى ويتعاظمون على توحيدى وطاعتى أو على دعائى والتضرع إلىَّ سيدخلون جهنم أذلاء صاغرين لا يغنى عنهم تكبرهم من دخولها ولا يدفع عنهم من عذابها .

(١) سورة البقرة من الآية : ١٤٣ .
(٢) سورة المائدة من الآية : ٦ .
(٣) سورة غافر من الآية : ٦٠ .

(ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾)

المفردات :

(لِتَسْكُنُوا فِيهِ) : لِتُخلِدوا فيه إلى السكون والراحة .

(مُبْصِراً) : مضيئاً صالحا للحركة والعمل .

(تُؤْفَكُونَ) : تصرفون عن عبادة الله .

(يَجْحَدُونَ) : ينكرون ويُكَذِّبون .

التفسير

٦١ - (اللهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ) :

تنتقل الآيات إلى بيان فضل الله على عباده بتنظيم أوقاتهم بين الراحة والسكون ، وبين العمل والحركة .

والمعنى : الله - سبحانه - هو الذى جعل لكم الليل مظلما لتخلدوا فيه إلى الراحة والسكون استجماما من مشاق العمل والسعى ، وجعل النهار مبصرا مضيئاً ، ليعين على السعى والعمل فى تحصيل الأرزاق وإنجاز الأعمال ، وتوفير أسباب الحياة والعيش ، إن الله لذو فضل على الناس جميعاً : مؤمنهم وكافرهم ، برهم وفاجرهم ، بتدبير أحوالهم ، وتنظيم أوقاتهم ، ولكن أكثر الناس لا يؤدون حق الشكر لهذه النعم لجهلهم بالمنعم وإغفالهم النظر فى نعمه .

٦٢ـ (ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ) :

أي : ذلكم المتصف بالصفات المذكورة : هو الله وهو ربكم وهو خالق كل شيء لا إله إلا هو ، فهذه جملة من الأخبار مترادفة تُعزِّز اللاحقة منها السابقة عليها وتقررها ، وتؤكد اتصافه ـ تعالى ـ بها واستحقاقه لها ، ليحسن بعدها موقع (فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ) أي : فكيف تصرفون عن عبادة من هذا شأنه ، وتلك صفاته ، وهذه أياديه وفضائله .

٦٣ـ (كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ) :

أي : مثل ذلك الإفك العجيب والصرف الغريب عن الحق يصرف كل من جحد بآيات الله وأنكرها مع آثارها الظاهرة وشواهدها الباهرة .

(ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ج ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ج فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ج ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾)

المفردات :

(قَرَارًا) : مَسْكَنًا ومستقرا تستقرون فيه . (بِنَآءً) : سقفا وقبة مضروبة عليكم .

(الطَّيِّبَاتِ) : الحلائل أو المستلذات من المطعم والمشرب والملبس وغيرها.

التفسير

٦٤ـ (اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) :

تمضي هذه الآية في تعداد آيات الله ـ تعالى ـ وبيان فضله المتعلق بالمكان بعد بيان فضله المتعلق بالزمان في الآيات السابقة .

والمعنى : الله – سبحانه وتعالى – الخالق البارىء الذى لا يعجزه نظام . ولا يشغله شأن عن شأن : واسع القدرة ، بديع الصنعة ، ومن مظاهر قدرته : وبدائع صنعته أن جعل لكم الأرض مستقرا تستقرون فيها ، وتعيشون عليها ، وتسعون فى مناكبها ، وجعل السماء لكم سقفا محفوظاً وقبّة مضروبة تدفئكم شمسها ، وتهديكم نجومها ، ويمطركم سحابها ، وصوركم فأحسن صوركم حيث خلق كل واحد منكم منتصب القامة متناسب الأعضاء مهيأً لمزاولة الصنائع ، واكتساب المعارف والكمالات ، وزاد فضله فيكم وتضاعفت نعمه عليكم فرزقكم من الحلال الطيب ما تستلذون به مطعما ومشربا فاستحق بهذا كله التنزيه والتأليه ، فتنزه الله – تعالى – رب العالمين ، ومالك جميع الخلائق والمخلوقين ، فالكل فى ملكوته مفتقر إليه فى وجوده وسائر أحواله .

٦٥ – (هُوَ الْحَيُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) :

أى : هو المتفرد بالحياة الذاتية لا إله إلا هو ، إذ لا موجود يدانيه فى ذاته وصفاته – عزّ وجل – فادعوه واعبدوه وحده لاختصاصه بما يوجب ذلك – ادعوه – مخلصين له الدين من الشرك الخفى والجلى ، حامدين له معترفين بربوبيته الكاملة المستأهلة لدوام الحمد والثناء .

وقوله : (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) من الكلام المقول على لسان المأمورين بالعبادة .

أخرج ابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس قال : « من قال لا إله إلا الله فليقل على أثرها : الحمد لله رب العالمين » وذلك قوله – تعالى – : (فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ . . . .) .

* ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ﴾

المفـردات :

(ٱلْبَيِّنَٰتُ) : البراهين والآيات الواضحات التى تدل على التوحيد .

(أُسْلِمَ) : أنقاد وأخلص . (خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ) : خلق أباكم آدم منه .

(نُطْفَةٍ) : مَنِىٌّ .

(عَلَقَةٍ) : دم غليظ .

(أَشُدَّكُمْ) : كمال عقلكم وقوتكم .

(أَجَلًا مُّسَمًّى) : يوم القيامة ، أو يوم الموت .

(قَضَىٰٓ أَمْرًا) : أراد إبراز أمر إلى الوجود .

(فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ) : يوجد عقب الأمر بالتكوين .

التفسـير

٦٦- (قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) :

هذه الآية مرتبطة بما قبلها ، فقد ذكر القرآن فى الآيات السابقة أن الله خالق كل شيء ، ثم بين بعض آلائه ونِعَمِه على خلقه حيث جعل لهم الأرض قرارا ، والسماء بناء ، وصورهم فأحسن صورهم ، ورزقهم من الطيبات ، ثم ذكر بعض صفاته الجليلة وأنه حى لا إله إلا هو ، فتوجهوا إليه وحده بالعبادة والحمد ، فالحمد كله حق ثابت ومقرر لله رب العالمين .

وجاءت هذه الآية لتبين أن الله المتصف بهذه الكمالات أمر رسوله أن يبلِّغ الناس أنه نُهِى عن عبادة غير الله الذى سبقت صفاته وأمرَ أن ينقادوا ويخلصوا لله رب العالمين فقال :

(قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ . .) إلخ :

أى : قل يامحمد لهؤلاء المشركين وكانوا قد دعوه إلى دين آبائه – قل لهم يامحمد – : نهانى الله الحى القيوم الذى لا إله غيره عن أن أعبُدَ غير الله ، وأُمرت أن أذل وأخضع وأنقاد له – تعالى – وأُخلص له – عز وجل – دينى لأنه رب العوالم كلها المستحق وحده للعبادة دون سواه .

٦٧ – (هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) :

الله وحده الذى خلقكم من تراب ، ثم من مَنِىٍّ ، ثم من قطعة عالقة بجدار الرحم فيها الخطوط الأُولى للتخليق ، ثم يخرجكم من بطون أُمهاتكم أطفالا ، ثم ينسأ أعماركم ويؤخرها لتبلغوا أشدكم من الكمال والقوة ، ثم يمد فى آجالكم لتكونوا شيوخا ، هو وحده الذى يقلبكم فى هذه الأطوار ، وعن أمره وتدبيره يكون ذلك كله .

(وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ) أى : من قبل الشيخوخة بعد بلوغ الأشد أو قبله . جعلكم الله على هذا النظام وخلقكم على هذا النمط لتبلغوا وقتا مسمى عنده وهو يوم البعث ، وقيل : يوم الموت ولكى تعقلوا مافى هذا التنقل فى الأطوار المختلفة من فنون الحِكَم والعِبر والدلالة على أنه – تعالى – قادر على بعثكم ، وقال القرطبى :

(وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) ذلك فتعلموا أنه لا إلٰه غيره .

٦٨ - (هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ) :

هو الذى يحيى الأموات ويميت الأحياء ، أو الذى يفعل الإحياء والإماتة المتفرد بذلك لايقدر على ذلك أحد سواه ، فإذا أراد إبراز أمر من الأمور إلى الوجود فإنما يقول له : كن فيكون ، من غير توقف على شىء من الأشياء أصلا ، فهو - سبحانه - لايُخالَف ولا يُمانَع ولايعجزه شىءٌ ، ماشاء كان لامحالة من غير كلفة ولا معاناة .

ويقول الزمخشرى - فى موقع جملة : (إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ) مما قبلها - يقول : جعل هذا نتيجة لقدرته على الإحياء والإماتة وسائر ماذكر من أفعاله الدالة على أن مقدورا لا يمتنع عليه كأنه قال : فلذلك الاقتدار إذا قضى أمرا كان أهون شىء عليه وأيسره .

وقال العلامة الآلوسى : وهذا عند الخَلَف تمثيل لتأثير قدرته - تعالى - فى المقدورات عند تعلق إرادته - سبحانه - بها وتصوير لسرعة ترتب المكونات على تكوينه من غير أن يكون هناك آمر ومأمور [الآلوسى ص ٨٤] .

(أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾)

المفـردات :

(أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ) : كيف تصرف عقولهم عن النظر فى الآيات .

(بِالْكِتَابِ) : بالقرآن . (وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا) : من الكتب أو الشرائع .

(فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) : عقوبة تكذيبهم . وهذا وعيد لهم .

(الْأَغْلَالُ) : القيود تجمع الأَيدى إلى الأَعناق .

(يُسْحَبُونَ) : يجرون .

(الْحَمِيمِ) : الماء الذى بلغ الغاية فى الحرارة .

(يُسْجَرُونَ) : توقد بهم النار أو تُملأُ .

(ضَلُّواْ عَنَّا) : غابوا عن عيوننا فلا نراهم ولا ننتفع بهم .

(تَفْرَحُونَ فِى الْأَرْضِ) : تبطرون ودون تفكير فى الآخرة .

(تَمْرَحُونَ) : تتوسعون فى الفرح والبطر ، وقيل المرح : الفخر والخيلاء .

(فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ) : فَقَبُح مقر المتكبرين جهنم .

التفسـير

٦٩ـ (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ اللهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ) :

تعجيبٌ من أحوالهم القبيحة وآرائهم الفاسدة ، وتمهيد لما يعقبه من بيان تكذيبهم بالقرآن وبسائر الكتب والشرائع ، وترتيب الوعيد على ذلك .

والمعنى : انظر يامحمد إلى هؤلاءالمجادلين فى آيات الله الواضحة الموجبة للإيمان بها الزاجرة عن الجدال فيها كيف يصرفون عنها إلى الضلال مع صدقها ووضوحها مما يدعو إلى الإقبال عليها ، والإعراض عما سواها .

٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ - (الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * إِذِ الْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَالسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ * فِى الْحَمِيمِ ثُمَّ فِى النَّارِ يُسْجَرُونَ * ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَاكُنتُمْ تُشْرِكُونَ * مِن دُونِ اللهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللهُ الْكَٰفِرِينَ *) :

الذين كذبوا بالقرآن وبما أرسلنا به رسلنا من الكتب والشرائع وجادلوا فيها فسوف يعلمون عاقبة ما ارتكبوا من الجدال ، ووبال ما اجترحوا من التكذيب عند مشاهدة عقوبة ذلك ، وجزاءه حيث تكون الأغلال والسلاسل فى أعناقهم والزبانية يجرونهم بها فى الماء الشديد الحرارة ، ثم بعد ذلك فى النار يسجرون ، أى : يطرحون فيها فيكونون وقودا لها .

قال مجاهد : يقال : سجرت التنور أى : أوقدته ، وسجرته : ملأته .

والمراد بهذا وماقبله ردع المجادلين فى آيات الله ، والمكذبين برسله وكتبه وتخويفهم ، برسم هذه الصورة الرهيبة المفزعة التى تقشعر من سماع وصفها الأبدان ، وتذوب لفائف القلوب .

(ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَاكُنتُمْ تُشْرِكُونَ مِن دُونِ اللهِ) أى : ثم يقال لهم تقريعا وتوبيخا : أين معبوداتكم التى كنتم تعبدونها من دون الله ؟ !

(قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا) أى : قال الكافرون : غابوا عنا ، من ضلّت دابته : إذا لم يعرف مكانها .

وهذا لاينافى مايشعر بأن آلهتهم مقرونون بهم فى النار كما ورد فى مواضع أخرى من القرآن ، لأن للنار طبقات ولهم فيها مواقف ، فيجوز غيبتهم عنهم فى بعضها واقترانهم بهم فى بعض آخر ، ويجوز أن يكون ضلالهم استعارة لعدم النفع فحضورهم كالعدم .

(بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئًا) قال الكافرون : بل تبين لنا اليوم أنا لم نكن نعبد فى الدنيا شيئا يعتد به ، وهو إضراب منهم عن كون الآلهة الباطلة ليست بموجودة عندهم ، أو ليست بنافعة ، إلى أنها ليست شيئا يعتد به ، وفى ذلك اعتراف بخطئهم

وندم على قبح فعلهم حيث لاينفع ذلك ، قال الآلوسى : وجعل الجلبى هذه الآية كقوله تعالى : « وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » :[١] يفزعون إلى الكذب لحيرتهم واضطرابهم .

وهكذا لايكتنى بهذا العذاب الجسدى الذى سبقت صورته البشعة ، بل يضم إليه عذاب نفسى وهو سؤالهم على سبيل التقريع والتأنيب : أين ماكنتم تعبدون من دون الله هل نفعكم هؤلاء الشركاء ؟ فأجابوا : (ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئًا) .

(كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللهُ الْكَافِرِينَ) أى : مثل ذلك الإضلال يضل الله – تعالى – فى الدنيا الكافرين حتى إنهم يدعون فيها ما يتبين لهم فى الآخرة أنهم ليسوا بشىء .

٧٥ – (ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ) :

تقول الملائكة للكافرين : ذلكم العذاب الذى أنتم فيه – المذكور فيما سبق من سحبهم بالسلاسل والأغلال وتسجيرهم فى النار ، وتوبيخهم بالسؤال – ذلكم جزاء ما كنتم تفرحون فى الأرض بغير ما يستحق الفرح ، وتظهرون فى الدنيا من السرور بالمعصية وكثرة المال والأتباع والصحة وتنكرون البعث والتوحيد ، وبما كنتم تبطرون وتأشرون[٢] حتى نسيتم لذلك الآخرة ، واشتغلتم بالنعمة عن المنعم ، وفى الحديث : « الله تعالى يبغض البَذِخِينَ الفَرِحين ، ويحب كل قلب حزين » ذكره الآلوسى والقرطبى .

والعدول فى الآية إلى الخطاب للمبالغة فى التوبيخ ؛ لأن ذم المرء فى وجهه أبلغ فى التوبيخ .

٧٦ – (ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ) :

أى : ادخلوا أبواب جهنم مُقدَّرا لكم الخلود فيها ، فبئس المنزل والمأوى الذى فيه الهوان والعذاب الشديد لمن استكبر عن آيات الله واتباع دلائله وحججه .

وكان مقتضى النظم الجليل حيث صُدِّر بلفظ (ادخلوا) أن يقال : فبئس مدخَلُ المتكبرين ، ليتجاوب الصدر والعجز كما تقول : زرت بيت الله فنعم المزار ، وصلِّ

---

(١) سورة الأنعام من الآية : ٢٣ .

(٢) البطر والأشر : قلة احتمال النعمة وعدم الشكر عليها .

فى المسجد الحرام فنعم المصلى ، وأجاب عن ذلك الآلوسى فقال : لما كان الدخول المقيد بالخلود سبب الثواء عبر بالمثوى وصح التجاوب معنى .

وأجاب عن ذلك الزمخشرى فى كشافه فقال : الدخول المؤقت بالخلود فى معنى الثواء .

(فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِىَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾)

المفردات :

(حَقٌّ) : كائن لا محالة .

(بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ) أى : بعض الذى نعدهم من العذاب بالقتل أو الأسر لهم فى حياتك ، وجواب الشرط فى (فَإِمَّا) تقديره : فذاك .

(أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ) أى : نميتنك قبل ذلك ، أى : قبل تعذيبهم .

(فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ) : فإلينا وحدنا يرجعون يوم القيامة فنجازيهم بأعمالهم .

(بِآيَةٍ) : بمعجزة .

(أَمْرُ اللهِ) قال الطبرى : قضاؤه ، وقال الزمخشرى : أمْر الله القيامة ، وهما متقاربان .

(بِالْحَقِّ) : بالعدل . (الْمُبْطِلُونَ) : أهل الباطل .

التفسير

٧٧ - (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ) :

يأمر الله - تعالى - نبيه ﷺ فى هذه الآية بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه : فإن الله سينجز له ماوعده به من النصر والظفر على قومه ، وجعل العاقبة له ولمن اتبعه فى الدنيا والآخرة .

(فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ) به من العذاب فى الدنيا فذاك ، وذلك وقع ، فإن الله قد أقر عينه من كبرائهم وعظمائهم ، أبيد بعضهم يوم بدر ، وأسر بعض آخر ثم فتح الله عليه مكة وسائر جزيرة العرب فى حياته .

(أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ[1]) أى : أو نميتنك قبل ذلك ، أى : قبل أن ننتصر عليهم وننتقم منهم .

(فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ) أى : فإلينا لا إلى غيرنا يرجعون يوم القيامة فنجازيهم على أعمالهم ونعذبهم أشد العذاب .

فإن قيل : إن الله - تعالى - يعلم أنه سينصره فى حياته ، فلماذا لم يصرح بنصره على القطع؟

فالجواب : أن أهل مكة كانوا يتمنون موت النبى ﷺ ويسعون فيه ، فالله رد عليهم بذلك مجاراة لهم ليفهمهم أن موت محمد لا يعفيهم من العذاب الموعود .

٧٨ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ قُضِىَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ) :

فى هذه الآية رد على قريش فى طلبهم من الرسول آيات غير التى أتاهم بها ، فبينت أن مجئ الآيات فى عهد جميع الرسل لله وحده ، وخسر المعاندون .

والمعنى : ولقد أرسلنا رسلا كثيرين ، ذوى شأن عظيم من قبل إرسالك ، منهم من جئناك بأخبارهم وأوحينا إليك قصصهم مع قومهم كيف كذبوهم ، ثم كانت للرسل العاقبة والنصرة وذلك كنوح وإبراهيم وموسى - عليهم السلام - .

---

(١) معطوف على نرينك داخل معه فى حيز الشرط ، ومؤكد مثله بنون التوكيد ، وهو شبيه بالواجب ، لوقوعه بعد إن الشرطية المدغمة فى (ما) الزائدة ، لتقوية التأكيد ، وليست نافية .

ومنهم من لم نقصصهم عليك وهم كثيرون ،أخرج الإمام أحمد عن أبي ذر قال : قلت : يارسول الله ، كم عدة الأنبياء؟ قال : « مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً ، الرسل من ذلك ثلثمائة وخمسة عشر ، جما غفيرا » .

(وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ) أى : وما صح وما استقام لرسول من أولئك الرسل أن يأتى بمعجزة إلا أن يأذن الله ، فالمعجزات : وهى الآيات الدالات على صدق الرسل : على تشعب فنونها واختلاف أنواعها عطايا من الله - تعالى - قسمها بينهم حسبما اقتضته مشيئته المبنية على الحكم البالغة كسائر القسم ، ليس لهم اختيار فى الإتيان بها ، أو تحقيق المقترح منها ، لأن الرسل عباد مربوبون له - تعالى - لا يأتون بشىء من تلقاء أنفسهم ، أو خضوعاً لاقتراح قومهم .

(فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ) : وهو قضاؤه بالعذاب فى الدنيا أو الآخرة يوم القيامة (قُضِيَ بِالْحَقِّ) أى : فصل بينهم بالعدل بإنجاء المحق وإثابته وإهلاك المبطل .

(وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ) أى : خسر المبطلون فى هذا الوقت - وهو وقت مجىء أمر الله - والمراد بالمبطلين : أهل الباطل على الإطلاق المتمسكون به ، فيدخل فيهم المفترون على الله والمعاندون والمقترحون للآيات دخولا أوليا .

(ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾)

المفردات :

(الْأَنْعَامَ) : الإبل خاصة ، وقيل : الإبل والبقر والغنم والمعز .

(حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ) : أمرًا ذا بال تهتمون به .

(آيَاتِهِ) : دلائل قدرته ووحدانيته فى الآفاق وفى أنفسكم .

(فَأَىَّ آيَاتِ اللهِ تُنكِرُونَ) : لا تقدرون على إنكار شيء منها إلا أن تعاندوا وتكابروا .

التفسير

٧٩ - (ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ) :

المراد بالأنعام الإبل خاصة ، وعممها بعضهم لتشمل الإبل والبقر ، والغنم ، والمعز .

يقول الله - سبحانه - مُمتنًّا على عباده بما خلق لهم : (ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَامَ) أى : خلقها (لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ) : تفصيل لما دل عليه الكلام السابق إجمالا ، وتعليل لجعلها وخلقها ، أى : خلق لكم - سبحانه - الإبل وسائر الأنعام لتركبوا بعضها وتأكلوا بعضها .

٨٠ - (وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ) :

ولكم فيها منافع كثيرة غير الركوب والأكل كالألبان والأوبار والأشعار والجلود .

(وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ) أى : ولتبلغوا عليها أمرا ذا بال تهتمون به ، وذلك كجر الأثقال وحملها من بلد إلى بلد ، وعلى الإبل التى هى نوع من الأنعام فى البر ، وعلى السفن فى البحر تُحْمَلُون أنتم وأمتعتكم ، والمراد من ركوبها والأكل منها والحمل عليها والمنافع الأخرى تعلقها بالمجموع لا بالجميع ، فليس كل واحد من الأنعام يجتمع فيه الركوب والأكل والحمل وغيرها ، لأن المراد أن هذه المنافع موزعة بينها ، فمنها ما يجتمع فيه المنافع كلها كالإبل ومنها ما يكون فيه بعضها كالغنم .

٨١ - (وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَأَىَّ ءَايَاتِ اللهِ تُنكِرُونَ) :

ويريكم الله حججه وبراهينه فى الآفاق وفى أنفسكم ، ودلائله على كمال شئونه وقدرته ووحدانيته ، فأى آية من هذه الآيات الباهرات تنكرون حتى أشركتم به ؟ فإن كلا منها من الظهور بحيث لا يكاد يجترىء على إنكاره من له عقل ، وأنتم لا تنكرون أن ذلك من فضل الله على عباده ، ولكنكم مع ذلك تعبدون غيره ، وهو لا يقدر على خلق ذبابة . (فَأَىَّ) للاستفهام

التوبيخى ، وإضافة الآيات إلى الاسم الجليل بدل ضميره فى قوله-تعالى- : (آيات الله) لتربية المهابة ، وتهويل إنكار آياته فى صورة عبادتكم لغيره .

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾)

المفردات :

(آثاراً فِى الأَرْضِ) : قصورهم ومصانعهم فيها .

(البَيِّنَاتِ) : المعجزات والشرائع الواضحات .

(فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ العِلْمِ) : فرح الكفار بما عندهم من علم الدنيا .

(حَاقَ) : أحاط أو نزل .

(فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا) : فلما عاينوا شدة عذابنا .

(وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ) يعنون (بما كنا به مشركين) : الأصنام وسائر آلهتهم الباطلة .

(وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ) : وهلك فى مكان نزول العذاب الكافرون .

التفسير

٨٢- (أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَاراً فِى الْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّاكَانُواْ يَكْسِبُونَ) :

أى : أقعدوا فلم يسيروا فى الأرض ، فيروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ممن سبقهم من الأمم المكذبة للرسل منذ الأزمنة الماضية ، وماذا حلَّ بهم من العذاب الشديد والهلاك والتدمير ، ولقد كانوا أكثر منهم عددا ومالا وأشد منهم قوة وبأسًا وآثارًا فى الأرض من قصور ومصانع فما أغنى عنهم ذلك شيئا ، ولا رد عنهم من بأسه وعذابه ماكسبوه من قوة وسلطان وما جمعوه من أموال .

٨٣- (فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّاكَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ) :

فحين جاءت هذه الأممَ رسلُهم بالشرائع والمعجزات والآيات الواضحات لم يلتفتوا إليهم ولم يقبلوا عليهم ، بل فرحت هذه الأمم بما عندهم من علوم الدنيا واستهزأوا بعلم الله الذى جاء به الأنبياءُ ،كما قال-تعالى-: «يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ »[1] فنزل بهم من بأس الله مالا قبل لهم به ، وأحاط بهم العذاب الذى أخبرهم به المرسلون وكانوا يستهزئون ويسخرون منه ويستبعدون وقوعه .

وقيل : المراد بما عندهم من العلم :علم الفلاسفة الذى فرحوا به وأقبلوا عليه ، وتركوا من أجله هدى السماء الذى جاء به الأنبياءُ ، والزمان متشابه ،فقد رأينا فى هذا الزمان من ترك وحى الله وشريعته فرحا بما أصاب من فضلات هؤلاء الفلاسفة .

٨٤- (فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ) :

فلما رأت تلك الأُمم عقابنا الذى أوعدتهم به الرسل ، وعاينوا عذابنا الشديد الذى نزل بهم قالوا : صدقنا بالله وحده ، وأنكرنا الأصنام ، وجحدنا الآلهة الباطلة التى كنا

(١) سورة الروم ، الآية : ٧

مشركين بسبب عبادتنا لها ، وهكذا وحدوا الله - عز وجل - وأفردوه بالعبادة وكفروا بالطاغوت ولكن حيث لاتُقال العثرات ولاتنفع المعذرة .

٨٥- (فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ) :

أى : فلم يصح ولم يستقم أن ينفعهم إيمانهم عند رؤية عذابنا الشديد ، وخسر الكافرون وهلكوا وقت وقوع العذاب ، والحكمة الإلهية قضت ألَّا يقبل ذلك الإيمان ، لأن الله سن سنة قد سبقت فى عباده ، ألا يقبل الإيمان حين نزول العذاب ، ومثل هذا ماحدث لفرعون ، فلقد حكى القرآن عنه أنه قال - حين أدركه الغرق - : « آمَنتُ أَنَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا الَّذِىٓ آمَنَتْ بِهِ بَنُوٓا۟ إِسْرَآءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ الْمُسْلِمِينَ »[1] فرد الله عليه فقال : « آلْـَٔانَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً »[2] ولم يقبل الله من فرعون هذا الإيمان الذى اضطر إليه حين أدركه الغرق ، وتلك التوبة التى كانت حين حضره الموت . ومات كافرا مهانا ، وأمضى الله فيه سنته ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

---

(١) سورة يونس ، من الآية ٩٠ .

(٢) سورة يونس الآية ، ٩١ وبعض الآية ٩٢ .

« سورة فصّلت »

مكية ، وآياتها أربع وخمسون ، نزلت بعد غافر ، وتسمى سورة السجدة ، وسورة حم السجدة ، وسورة الأقوات .

مناسبتها لما قبلها : ذكر -سبحانه وتعالى- فى سورة (غافر) : « أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ . . . » الآية ٨٢ وكان ذلك متضمناً تهديداً وتقريعاً لقريش . وذكر -جل شأنه- هنا فى سورة فصلت تهديداً وتقريعاً لهم ، وخصهم بالخطاب فى قوله -تعالى- : « فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ . . . » الآية ١٣ ثم بين -سبحانه كيفية إهلاكهم وفيه نوع بيان لما فى قوله -تعالى- : « أَفَلَمْ يَسِيرُواْ . . . » إلخ الآية .

وبينهما أوجه من المناسبة غير ما ذكر كذكر قصص بعض الأنبياء ، والدعوة إلى التوحيد ، وبيان عاقبة المخالفين .

مقاصد السورة :

بدئت السورة الكريمة ببعض حروف المعجم كما فى بعض سور القرآن الكريم ، ولقد أشادت السورة فى أكثر من موضع بسمو القرآن ، ورفعة شأنه ، وما جاء به من تبشير وإنذار ، ثم ذكرت موقف المشركين من الرسول ﷺ ، وما أظهروه من تعنت معه . وشدة إعراضهم عنه ، واستهزائهم به ، ومحاربة دعوته ، ومجابهته بالزور والأباطيل ، وموقف الرسول منهم ، وثقته بالله ، وثباته على دعوتهم إلى التوحيد والاستقامة ، ثم تمضى السورة فى تذكير المشركين بآيات الله فى خلق السموات والأرض ، وتنذرهم بما حدث لأقرب الأمم إلى منازلهم وهم عاد وثمود ، وما نزل بهم من عذاب ، وتخوفهم بذكر بعض مشاهد يوم القيامة ، يوم تشهد عليهم أعضاؤهم بما اقترفوا من سيئات ، وما يكون بينهم وبين هذه الأعضاء من مجادلة ومحاجة ، وما يدعو به الأتباع ربهم فى هذا اليوم العظيم :

(رَبَّنَآ أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ)[1]

ثم تتحدث عن المؤمنين الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا وما أعد لهم ، وتعقد الموازنة بين الخير والشر . وتبين أثر الكلمة الطيبة والأخلاق الحسنة فى النفوس : (وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ)[2] .

ثم تمضى السورة الكريمة تلفت الأنظار إلى قدرة الله على البعث وإحياء الموتى ، وتنذر الملحدين فى آيات الله وهم لا يخفون عليه فقد وسع علمه كل شىء ، وتبين أن الذين كفروا بالقرآن من غير تدبر لآياته سيكون لهم العذاب الشديد والعقاب الأليم .

والسورة تذكر الرسول بأن ما يقال له من أعدائه قد قيل للرسل من قبله من أعدائهم ، فصبروا وصمدوا ، وبلغوا الرسالة ، وأدوا الأمانة ، وتبين أن ربك لذو مغفرة لمن يجيب داعى الله ، وذو عقاب شديد لمن تمرد ولم يلب النداء ، ثم يبين الحق — جل جلاله — أنه لو جعل القرآن أعجميا ، كما اقترح ذلك بعض المتعنتين والمكابرين ، لقالوا معترضين منكرين : هلا نزل بلغة نفهمها ولسان نعرفه ؟ ويأمر الرسول بأن يقول ردا عليهم : (هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى) .

ثم تذكر السورة صورا من طبائع الإنسان وأسلوب سلوكه . (وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ) وتختم السورة بمثل ما بدئت به من التنويه بالقرآن الكريم ، وأن الله سَيُظْهِر بحججه وآياته فى الآفاق وفى أنفس الناس — سيظهر — أنه الحق الذى لاريب فيه . (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) وتوضح أن ما حدث من الكافرين من إنكارهم للرسالات سببه أنهم فى شك من لقاء ربهم . (أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌ) .

---

(١) سورة فصلت ، من الآية : ٢٩ .

(٢) سورة فصلت ، الآية ٣٤ .

بسم الله الرحمن الرحيم

(حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾)

المفردات :

(فُصِّلَتْ آيَاتُهُ) : بُيِّنت ومُيِّزت وجعلت تفاصيل فى معان مختلفة .

(قُرْآناً عَرَبِيًّا) : مقروءًا باللسان العربى .

(لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) : يعلمون ما فيه ، لكونه بلسانهم .

(فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ) : انصرف واستكبر أكثرهم على الإصغاء إليه وهم كفار قريش .

(فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ) : سماع قبول .

(أَكِنَّة) : أغطية متكاثفة ، جمع كِنَان كَغطاء وزْناً ومعْنىً .

(وَقْرٌ) : صمم ، وأصله : الثقل .

(حِجَابٌ) : ساتر مانع عن الإجابة .

التفسير

١ - (حمٓ) :

قال السلف : فى مثل هذه الحروف : الله أعلم بمراده ، وقيل : اسم للسورة أو للقرآن ، وقيل : حرفان مسرودان من حروف المعجم بُدِئَت بهما السورة كنهج القرآن وطريقته فى

افتتاح بعض سوره بذلك ، لبثِّ الانتباه ، وللتدليل على إعجاز القرآن بأنه مؤلف من كلمات ذات حروف مما تنظمون منه كلامكم ، وقد عجزتم عن الإتيان بمثله ، ومحمد مثلكم ، وذلك دليل على أنه من عند الله . وقد تقدم الكلام على مثل هذه الحروف موسعاً فى أول سورتى البقرة وآل عمران . فارجع إليه إن شئت .

٢ - (تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ) :

أى : هذا القرآن الكريم منزل من الله الرحمن الرحيم ، وإضافة التنزيل إلى الرحمن الرحيم من بين أسمائه - تعالى - الإيذان بأن ما فيه من تشريع وخير للبشرية ومصالح دينية ودنيوية واقع بمقتضى الرحمة الربانية .

٣ - (كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) :

أى : القرآن كتاب ميزت آياته ، لفظاً بفواصلها ومقاطعها ، وأوائل السور وخواتمها ، ومُيِّزتْ مَعْنًى بما فيها من وعد ووعيد ، وشرائع وعقائد ، وقصص وأخلاق وعلوم . ومن أنصف عَلِمَ أنه ليس فى الكتب كتاب اجتمع فيه من العلوم والمعارف المتنوعة مثل ما فى القرآن وقال سفيان : فصلت بالثواب والعقاب ، وما ذكرنا أولا أعم ، ولعل ما ذكره من باب التمثيل لا الحصر ، وقيل : (فُصِّلَتْ آيَاتُهُ) فى التنزيل ، أى : لم ينزل جملة واحدة ، وقرىء (فَصَلَتْ) بفتح الفاء والصاد مخففة ، أى : فرقت بين الحق والباطل . . وقال ابن زيد : فصلت بين النبى ﷺ وبين من خالفه .

(قُرْءَاناً عَرَبِيًّا) أى : مقروءًا باللسان العربى ، وفيه امتنان بسهولة قراءته وفهمه لنزوله بلسان من نزل بين أظهرهم .

(لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) أى : لقوم عرب يعلمون ما نزل عليهم من الآيات المفصلة المبينة بلسانهم العربى المبين ، لا يلتبس عليهم شىء منه ، ولو كان غير عربى لما علموه .

٤ - (بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ) :

(بَشِيرًا وَنَذِيرًا) صفتان لقوله : (قُرْآناً) أى : تارة يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرًا حسناً ، وتارة ينذر الكافرين والمخالفين بما أعد لهم من عذاب أليم وعقاب شديد ،

(فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُم) أى : انصرفوا عن تدبره وقبوله ، والإصغاء إليه واتباعه ، فلم ينتفعوا به (فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ) القرآن سماع تدبر وإمعان ، وقد جُعلوا لإعراضهم عنه غير سامعين له على سبيل المجاز .

٥ - (وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ) :

وقال الكافرون لرسول الله : (قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّة مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ) أى : قلوبنا فى أغطية متكاثفة لا ينفذ إليها شىء مما تدعوننا إليه من الإيمان بالله وحده وترك ما ألفينا عليه آباءنا من عبادة الأوثان (وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ) أى : وفى آذاننا صمم فلا نسمع ماتعرضه علينا . (ومِن بَيْنِنَا وبَيْنِكَ حِجَابٌ) أى : ومن بيننا وبينك حجاب منيع وساتر غليظ ، يمنعنا من قبول ما جئتنا به ، ومن التواصل بيننا وبينك ، وهو الخلاف فى الدين ، لأنهم يعبدون الأصنام ، وهو يعبد الله - عز وجل - .

و (مِنْ) فى قوله - تعالى - : (وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ) للدلالة على أن الحجاب مبتدىء من الجانبين بحيث استوعب ما بينهما من المسافة المتوسطة ، ولم يبق فراغ أصلا .

قال الآلوسى : وما حكاه الله عنهم فى الجمل الثلاث : (قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ، وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ) تمثيلات لنبوّ قلوبهم عن إدراك الحق وقبوله ، وطرد أسماعهم له ، وامتناع مواصلتهم وموافقتهم للرسول ﷺ .

وذكر أبو حيان : أنه لما كان القلب محل المعرفة ، والسمع والبصر معينين على تحصيل المعارف ، ذكروا أن هذه الثلاثة محجوبة عن أن يصل إليها شىء مما يدعو إليه الرسول (فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ) أى : فاعمل على دينك ، أو فى إبطال أمرنا ، إننا عاملون على ديننا ، أو عاملون فى إبطال أمرك ، والكلام على الأول متاركة وتقنيط عن اتباعه ، وعلى الثانى مبارزة بالخلاف والتحدّى .

(قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾)

المفردات :

(فَاسْتَقِيمُوٓا إِلَيْهِ) : فاسلكوا إليه الطريق المستقيم بالتوحيد .

(الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ) : لايؤدون الزكاة المفروضة إلى مستحقيها ، وقيل : المراد بالزكاة : المعنى اللغوى ، أى : لايفعلون ما يزكى أنفسهم ويطهرها وهو الإيمان والطاعة .

(غَيْرُ مَمْنُونٍ) : غير مقطوع ولا منقوص .

التفسير

٦ - (قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوٓا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ) :

أى : قل - يا محمد - لهؤلاء المشركين المكذبين : ما أنا إلا بشر مثلكم ، لست ملكاً ولا جنيا لايمكن التلقى منه ، والفهم عنه ، ومعرفة ما يدعو إليه ، ولا أدعوكم إلى ما تنبو عنه العقول السليمة ، وترفضه النفوس القويمة ، وإنما أدعوكم إلى التوحيد الذى جاءت به كل الأديان ، ودعت إليه كل رسالات السماء ، ودلت عليه دلائل العقل ، فاستقيموا إليه بالتوحيد وإخلاص العبادة ، ولا تتمسكوا بعُرَى الشرك وتقولوا لمن يدعوكم إلى التوحيد : (قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ) بل اسلكوا فى الوصول إليه الطريق القويم ، واطلبوا منه المغفرة لما سلف

منكم من القول والعمل ، كالشرك بالله – عز وجل – (وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ) أى : وعذاب أليم وهلاك شديد للمشركين لشركهم وعدم استقامتهم وتوبتهم .

٧ – (الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) :

قال ابن كثير : قال على بن أبى طلحة : عن ابن عباس : يعنى الذين لايشهدون أن لا إله إلَّا الله ، وكذا قال عكرمة ، وهذا كقوله–تعالى– : « قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا »[1] وكقوله – سبحانه – : « قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى »[2] والمراد بالزكاة هنا : طهارة النفس من الشرك والأخلاق الذميمة .

وقال السدى : (الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ) أى : لا يؤدون الزكاة المعروفة ، وهذا هو الظاهر عند كثير من المفسرين واختاره ابن جرير ، وإن اعترض على هذا الرأى بأن إيجاب الزكاة كان فى السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة –كما ذكره غير واحد – وهذه الآية مكية ، فقد أجيب عن ذلك بأن إطلاق اسم الزكاة على طائفة مُخْرَجَةٍ من المال على وجه مخصوص كان شائعاً ومأمورًا به فى ابتداء البعثة ؛ قال–تعالى– : «وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ »[3] فأما الزكاة المعروفة ذات النصاب والمقادير المخصوصة فإنما بُيِّن أمرها بالمدينة .إ هـ : ابن كثير بتصرف . (وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) الجملة حال مشعرة بأن امتناعهم عن الزكاة وبخلهم بها ، لإنكارهم للآخرة واستغراقهم فى الدنيا ؛ وإنما خُص منع الزكاة مقروناً بالكفر بالآخرة من بين أوصاف المشركين ، لأن أحب شئ إلى الإنسان ماله ، وهو شقيق روحه ، فإذا بذله فى سبيل الله فذلك أقوى دليل على ثباته واستقامته ، وصدق نيته وصفاء طويته ، ألا ترى إلى قوله–تعالى– : « وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ »[4]

أى : يثبتون ويدللون على ثباتها على الإيمان بإنفاق الأموال ، وفى هذا حث للمسلمين على إخراج الزكاة ، وتخويف شديد من منعها ، حيث جعل المنع من أوصاف المشركين ، وقرن بالكفر بالآخرة .

---

(١) سورة الشمس ، الآيتان : ٩ ، ١٠

(٢) سورة الأعلى ، الآيتان : ١٤ ، ١٥

(٣) سورة الأنعام – وهى مكية – من الآية : ١٤١

(٤) سورة البقرة ، من الآية : ٢٦٥ .

٨ - (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ) :

لما ذكر ما ينال المشركين بقوله - تعالى - : (وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ .) إلخ. ذكر ما ينال المؤمنين المخلصين ومعناه : إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جزاء حسن ، وأجر غير مقطوع ولا منقوص ، قال ابن عباس : (غَيْرُ مَمْنُونٍ) غير مقطوع ، مأخوذ من : مَنَنْتُ الحبل : إذا قطعته ، وعنه أيضاً وعن مقاتل : (غَيْرُ مَمْنُونٍ) غير منقوص وهذان الرأيان متقاربان فى المعنى المراد . ولذا اخترناهما فى تفسير قوله - تعالى - (غَيْرُ مَمْنُونٍ) .

والآية الكريمة - كما روى عن السدى - نزلت فى المرضى والزمنى إذا عجزوا عن كمال الطاعات كتب لهم من الأجر - فى المرض والهرم - مثل الذى يكتب لهم وهم أصحاء شبان ولا تنتقص أجورهم ، وذلك من عظم كرم الله ورحمته ، نسأله - سبحانه - أن يتغمدنا برحمته إنه نعم المولى ونعم النصير .

(قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾

المفردات :

(فِى يَوْمَيْنِ) : من أيام الله ، لا من أيامنا .

(أَندَادًا) : جمع نِدّ ، وهو الكفء والنظير .

(وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ) : وجعل فيها جبالا ثوابت .

(وَبَارَكَ فِيهَا) : أكثر خيرها وزاده .

(وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا) : قسم فيها أرزاق أهلها ومعايشهم وما يصلحهم ، وقيل غير ذلك ، وسيأتى لذلك مزيد بيان فى الشرح .

(فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً) : فى أربعة أيام كاملة لانقصان فيها ولا زيادة .

التفسير

تمهيد :

بين الله – سبحانه – فى الآيات السابقة أن رسوله محمدًا ﷺ لم يكن إلا بشرًا كسائر البشر . أُوحِى إليهِ من ربه : أن إلههم إله واحد ، وأمرهم أن يستقيموا فى عبادته ويستغفروه عما فرط منهم من المعاصى والسيئات . وهدد بالويل والثبور أولئك المشركين الضالين الذين لا يزكون أنفسهم ، ولا يطهرونها بالإيمان بشريعة الله ، وهم يكفرون بالآخرة ومافيها من جنة ونار وثواب وعقاب ، كما بين – جل شأنه – أن للمؤمنين الصالحين أجرًا دائماً ، وثواباً عظيماً غير مقطوع ، وبعد أن بين ذلك قال – سبحانه – فى تخطئة من كفر به :

٩ – (قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا . .) :

قد يتبادر إلى بعض الأذهان أن المراد من اليوم فى الآية ما تعارف عليه الناس ، من أنه من الفجر إلى غروب الشمس ، أو من شروقها إلى غروبها ، أو مجموع النهار والليل .

ولكن هذا الذى يتبادر إلى بعض الأذهان غير صحيح ، فقبل خلق الأرض لم يكن الليل والنهار موجودين ، فإنهما نشآ بعد وجود الأرض ودورانها حول محورها وحول الشمس ، على أن النهار والليل بنظامهما فى أرضنا ليس موجودا فى كوكب آخر ، فلو أنك ذهبت إلى القمر أو إلى أى كوكب غيره لوجدت الليل والنهار يختلفان عن نظامهما فى أرضنا هذه .

إذا عرفت هذا فاعلم أن اليومين اللذين خلق الله فيهما ذات الأرض وجسمها من أيام الله – تعالى – وأيامه – جل وعلا – تختلف فى شئونه ، فمرة يكون اليوم ألف سنة ، قال – تعالى – : « يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَآءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ

سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ »[١] وكقوله -تعالى- : « وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ »[٢] ومرة يكون مقداره خمسين ألف سنة ، كقوله -تعالى- : « تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ »[٣] وقد يكون أكثر من ذلك .

وحيث كان الأمر كذلك فالأيام التى خلق الله فيها الأرض والسموات لا نستطيع تقدير اليوم فيها بألف سنة ، أو بخمسين ألف سنة ، أو بأكثر من ذلك حسب سنة التطوير التى أرادها الله فى تكوينها ، وحيث أمسك القرآن والسنة عن بيان مقدار اليوم فى خلقهما ، فعلينا أن نمسك عن الحدس والتخمين فيه .

ولفظ (إنَّ) فى (أَئِنَّكُمْ) لتأكيد الإنكار ، وقدمت عليها همزة الاستفهام الإنكارى لأن لها الصدارة ، أو الإشعار بأن كفرهم المؤكد من البعد بحيث ينكر العقلاء وقوعه مع وجود هذه الآيات المقتضية لعميق الإيمان .

والمعنى : قل أيها الرسول منكرا على المشركين أشد الإنكار ، ومشعرا بأن كفرهم مع هذه الآيات لا يعقل ، قل لهم : لماذا تكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين ، وتلحدون فى ذاته وصفاته ، حيث جعلتم له أندادا وشركاء عبدتموهم معه -تعالى- مع أنهم لا شأن لهم فى خلقها ؟ !

واعلم أن المراد بالأرض الأرضون السبع ، كما جاء فى قوله - تعالى - : « اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ »[٤] (ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ) أى : ذلك العظيم الذى فعل ما ذكر هو رب العالمين ، وخالق ما كان وما يكون ، إنه هو الذى يَمُدُّ كل مخلوق بأسباب حياته وبقائه ، ويمنحه مقومات وجوده بيسر وسهولة : « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ »[٥] .

---

(١) سورة السجدة ، الآية : ٥ .

(٢) سورة الحج ، من الآية : ٤٧ .

(٣) سورة المعارج ، الآية : ٤ .

(٤) سورة الطلاق ، من الآية : ١٢ .

(٥) سورة يس الآية : ٨٢ . وكان ابن عباس يرى أن الأرضين الست الأخرى فيها مكلفون مثلنا فى أرضنا هذه .

١٠ - (وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا ...) الآية :

أى : أنه - جل شأنه - أوجد فى الأرض جبالا ثوابت حتى لا تضطرب ولا تميد ، ليمشى الناس فيها ويترددوا فى أمر معاشهم ، ويحصلوا أرزاقهم ، ويعمروا تلك الأرض تحقيقاً لقوله - تعالى -: « وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا »[1] (وَبَارَكَ فِيهَا) أى : وكثّر فى الأرض خيرها ، فأجرى فيها عذب الماء ، فتنبت الزرع والأشجار ، قال - تعالى -: « يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ »[2]. ويسّر الله منه أنعاماً وأناسىّ كثيرا ، وأوجد فيها - سبحانه - البحار نأكل منها لحما طريا : السمك بأنواعه وأشكاله وطعومه ، ونستخرج منها حلية نلبسها ونتزين بها : كاللآلىء والمرجان ، وتمخر عبابها بالسفن الجوارى التى تنقل الناس من بلد إلى آخر يبتغون من فضل الله رزقاً حلالا طيبا ، فيتبادل الناس المنافع والخيرات (وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا) أى :قدر- سبحانه - أن يوجد من الأنواع المختلفة ما يناسب كل إقليم وبلد ، وخص أماكن بأنواع من النبات والثمرات والمعادن التى تدخل فى الصناعات ، وجعل بعضا آخر من تلك النعم فى بقاع أخرى ليكون كلٌّ فى حاجة إلى غيره فتعمر الأرض ، ويتعارف الناس ، ولله در القائل :

النّاسُ للناس من بَدْوٍ وحاضرة ... بعضٌ لبعض وإن لم يَشْعُرُوا خَدَمُ

(فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّائِلِينَ) قد يخطر على الذهن أنه - تعالى - جعل فى الأرض رواسى وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى زمن مقداره أربعة أيام ، وهذا خطأٌ لأنه يترتب عليه أن الله خلق الأرض وما عليها فى ستة أيام : يومين لخلق ذات الأرض وأربعة أيام لخلق ما عليها .

ووجه الخطأ فى ذلك أن الله-تعالى-خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ،[3] فوجب تأويل الآية ليبقى يومان من السِّتَّة لخلق السموات ، وذلك بتقدير مضاف ، أى :

---

(١) سورة هود من الآية : ٦١ .

(٢) سورة النحل من الآية : ١١ .

(٣) قال -تعالى- فى سورة السجدة : « الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام... » الخ الآية الرابعة.

فى تتمة أربعة أيام ، بأن جعلها فى يومين آخرين غير اليومين الأولين ، فتم أربعة أيام ، وأولها الزمخشرى تأويلا جميلا ، فجعل (فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ) خبرا لمبتدأ مقدر ، أى : كل ذلك من خلق الأرض وما بعده كائن فى أربعة أيام .

وجاء قوله ـ تعالى ـ : (سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ) بعد ما تقدم ليفيد أن الأيام الأربعة متساوية وكاملة لانقص فيها ، وأن هذا جواب للسائلين عن الأيام التى خلقت فيها الأرض ، وجعلت صالحة للمعاش ، وقوله : (لِّلسَّآئِلِينَ) خبر لمبتدأ تقديره : هذا الحصر فى الأيام الأربعة كائن للسائلين .

(ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾)

المفردات :

(ثُمَّ اسْتَوَى) : ثم قصد .

(فَقَضَاهُنَّ) : فخلقهن وأتقن أمرهن .

(وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا) : وخلق فى كل منها ما أعد لها .

التفسير

١١ ـ (ثُمَّ اسْتَوَىٰٓ إِلَى السَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ) :

أي : ثم اقتضت حكمته أن يخلق السماء بعد خلق الأرض وهو – سبحانه – لا يشغله شأن عن شأن فعمد إلى خلقها وقصد تسويتها ونقلها من الدخان إلى الكثافة . وهذا الدخان هو الذى يعبر عنه العلمانيون بالغاز ، وكان الله قد خلقه ليكون أساسا لخلقها .

(فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً) أى : جيئا بعد أن خلقتكما بما خلقت فيكما من النافع والصالح وأظهراه وأخرجاه لخلق كى ينتفعوا به .

وقال ابن عباس – رضى الله عنهما – : قال الله – تعالى – للسماء : أطلعى شمسك وقمرك وكواكبك ، وأجرى رياحك وسحابك ، وقال للأرض : شقى أنهارك وأخرجى شجرك وثمارك طائعتين أو كارهتين .

(قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) أى : امتثلنا أمرك طائعين .

وجمهور المفسرين يرى أن أمر الله صدر للسماء والأرض بعد خلقهما ، وفى قوله – تعالى – : (ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً) وجهان ، أحدهما : أنه قول تكلم به الله – سبحانه وتعالى – والثانى : أنه تمثيل لتحتم تأثير قدرته – تعالى – فيهما ، واستحالة امتناعهما عن ذلك ، لا إثبات الطوع والكره لهما .

وقيل فى قوله – تعالى – حكاية عن إجابة الأرض والسماء : (أَتَيْنَا طَائِعِينَ) إن الله – تعالى – خلق الكلام فى الأرض والسماء فتكلمتا كما أراد الله ، وقيل : لم يحدث منهما كلام ، وإنما هذا كناية عن الطاعة والإذعان والامتثال وهو الظاهر .

وقال – سبحانه – : (طَائِعِينَ) بجمع المذكر العاقل ، ولم يقل : طائعتين على اللفظ ولا طائعات على المعنى باعتبار أنها سموات وأرضون ، لأن الله أخبر عنهما وعمن فيهما من الذكور العقلاء فغلّب جانبهم ، وقيل : لما وصفهن بالقول والإجابة ، وذلك من صفات من يعقل أجراهما مجرى العقلاء فى التعبير عنهما ، ومثله قوله – تعالى – حكاية عن رؤيا يوسف – عليه السلام – لسجود الشمس والقمر والكواكب الأحد عشر له « رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (١) »

مع أن الضمير فى (رَأَيْتُهُمْ) ضمير جماعة العقلاء ، وقد عاد إلى الشمس والقمر والكواكب وهى غير عاقلة .

---

(١) سورة يوسف من الآية : ٤

وقيل :معنى الأمر فى قوله-تعالى- : (ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهًا) هو الإيجاد ،أو كونا كما أردنا وقدرنا فكانتا ، وعلى هذا الرأى يكون الأمر للسموات والأرض قبل خلقهما .

١٢- (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ) :

أى : خلقهن خلقا إبداعيا وأتقن أمرهن حسبما تقتضيه الحكمة فى يومين من أيام الله « وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا » أى : خلق- سبحانه - فى كل منها ما اقتضت حكمته أن يكون فيها من الملائكة والنيرات وغير ذلك مما يعرفه البشر وما لا يعرفونه ، وقال قتادة والسدى : خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها وأفلاكها وخلق فى كل سماء خَلْقها من الملائكة والخلق الذى فيها . . (وَزَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ) أى :جمَّل السماء الأولى القريبة منا وحسنها بكواكب تضىء وهى النيرات التى خلقها الله زينة لها ، وخص كل واحد منها بضوء معين وسر مصون وطبيعة خاصة لا يعرفها ولا يعلمها إلا الله . (وَحِفْظاً) : أى وحفظنا السماء حفظا من أن ينالها تلف أو يصيبها ضعف (ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) أى : ما تقدم من خلق الأرض وما فيها فى الأيام الأربعة ، وخلق السماء وما حوت وضمت فى يومين هو صنع العظيم القدرة الكامل العلم .

وما أحسن هذه الخاتمة وهذا التذييل لتلك الآيات فهذه الأعمال العظيمة لا تحصل ولا تتم إلا بقدرة كاملة وعلم محيط .

وللآثار التى ظاهرها التعارض اختلف فى أمر التقدم والتأخر فى خلق كل من السموات وما فيها والأرض وما فيها -أيهما أسبق خلقا- فذهب بعض العلماء إلى تقدم خلق السموات وما فيها على خلق الأرض وما فيها مستدلين بظاهر قوله-تعالى- : «أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَآءُ بَنَاهَا ، رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ، وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ، وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَآ ، أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَاهَا ، وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ، مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ »[1] أى : دحا الأرض بعد أن سمك السماء ورفعها وسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . وذهب فريق آخر :

(١) سورة النازعات الآيات : من ٢٧ إلى ٣٣

إلى أن الأرض وما فيها خلقت قبل السماء وما فيها مستدلا بهذه الآيات التى نحن بصددها وبقوله ـ تعالى ـ : « هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَىٰٓ إِلَى السَّمَآءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ »[1] :

والظاهر ـ والله أعلم ـ أن الله ـ جلت قدرته ـ خلق ذات الأرض أولا قبل خلق السماء ، ثم خلق السموات بعد ذلك ، ثم أوجد الأشياء التى على الأرض من جبال وغيرها ، إذ لا يتصور حدوث العمران والحياة بصورها وأشكالها قبل خلق السموات وهذا واضح من قوله ـ تعالى ـ : (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ، أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَاهَا) إلخ ،وهذا هو الجواب الذى أجاب به ابن عباس ، فقد روى الحاكم والبيهقى بإسناد صحيح عن سعيد بن جبير قال : « جاء رجل إلى ابن عباس ـ رضى الله تعالى عنهما ـ فقال : رأيت أشياء تختلف علىَّ فى القرآن ، قال : هات ما اختلف عليك من ذلك ، فقال : الله ـ تعالى ـ يقول : (أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ) حتى بلغ (طائعين) فبدأ بخلق الأرض فى هذه الآية قبل خلق السماء ، ثم قال ـ سبحانه ـ فى الآية الأخرى : (أَمِ السَّمَآءُ بَنَاهَا) ثم قال : (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا) فبدأ ـ جل شأنه ـ بخلق السماء قبل خلق الأرض ، فقال ابن عباس ـ رضى الله تعالى عنهما ـ : أما خلق الأرض فى يومين ، فإن الأرض خلقت قبل السماء ، وكانت السماء دخانا ، فسواهن سبع سماوات فى يومين بعد خلق الأرض ، وأما قوله ـ تعالى ـ : (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا) فيقول : جعل فيها جبالا وجعل فيها أنهارا وجعل فيها شجرا وجعل فيها بحـــورا ، قال الخفاجى تعليقاً على ذلك : يعنى أن قوله ـ تعالى ـ : (أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا) بدل أو عطف بيان لدحاها بمعنى بسطها مبين للمراد منه ، فيكون تأخرها فى هذه الآية ليس بمعنى تأخر ذاتها ، بل بمعنى تأخر خلق ما فيها وتكميله وترتيبه لينتفع به أهلها . . إ هـ : بتصرف يسير .

والواقع أن السماوات والأرض كانتا دخانا « وهو ما يعبر عنه العلم الحديث بالغاز » وأن الله ـ تعالى ـ خلق الأرض والسماء من هذا الدخان بالكيفية الحكيمة التى أتقنها تدبيره وفى ذلك يقول الله ـ تعالى ـ : « أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا أَنَّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا »[2] .

---

(١) سورة البقرة من الآية : ٢٩ . (٢) سورة الأنبياء من الآية : ٣٠ .

(فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾)

المفـردات :

(أَعْرَضُوا) : ولَّوْا وانصرفوا .

(صَاعِقَةً) : كتلة نارية محرقة .

التفسـير

١٣ - (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ)[١] :

أى : فإن تولوا وانصرفوا عن الإيمان بوحدانية الله ، وبما جئت به بعد ماتلوت وقرأت عليهم من الأدلة والحجج الناطقة بوحدانية الله وقدرته ، - إن أعرضوا بعد ذلك - فحذرهم وخوفهم صاعقة تصعقهم وتهلكهم كصاعقة عاد قوم هود ، وثمود قوم صالح ، وخص هؤلاء بالذكر لأن قريشا كانت تعلم أحوالهم ، وتعرف بلادهم فى اليمن والحِجْر ، مصداق ذلك قوله - تعالى - : « وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ »[٢] .

١٤ - (إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ) :

أى : أخذتهم الصاعقة والعذاب الشديد وقت مجىء الرسل لهم وتكذيبهم إياهم ، والرسل - عليهم السلام - لم يألوا جهدا ويقصروا فى هدايتهم وإرشادهم ، بل بذلوا غاية الوسع

---

(١) أى : أنذركم ، وصيغة الماضى للدلالة على تحقق وقوع المنذر به .

(٢) سورة العنكبوت من الآية : ٣٨ .

وأتوهم (مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ) أى : من كل جانب واتخذوا فيهم كل حيلة ليثنوهم عن غيهم وضلالهم ، ويدلوهم على الصراط المستقيم ، ويدعوهم (أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا اللَّهَ) أى يفردوه بالعبادة والطاعة ، ولا يشركوا به أحدا ، ومع ذلك لم ير الرسل منهم إلا العتو والإعراض .

وعن الحسن : أنذروهم من وقائع الله فيمن قبلهم من الأمم وعذاب الآخرة ، لأنهم إذا حذروهم ذلك فقد جاءوهم بالوعظ من جهة الزمن الماضى ، وما جرى فيه على الكفار ، ومن جهة المستقبل وما سيجرى فيه عليهم .

(قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً) أى : قال الكفار : لو أراد ربنا إرسال الرسل لأنزل ملائكة تدعونا إلى عبادته ، لذا (فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَٰفِرُونَ) أى : فإذا كنتم بشرا مثلنا ولستم ملائكة فإنا لا نؤمن بكم ولا بما جئتم به ، ونسى هؤلاء الكفار أن الله لو أنزل ملائكة لجعلهم على صورة البشر حتى يألفهم الناس ، إذ لا يطيقون رؤية الملائكة فى صورهم الحقيقية ، وحينئذ يلتبس الأمر عليهم ، قال -تعالى- : « وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ »[1] .

وقولهم : (فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ كَٰفِرُونَ) ليس إقرارا ولا اعترافاً منهم بإرسال الرسل وإنما هو من قبيل السخرية والتهكم ، نظيره ما قاله فرعون فى شأن موسى -عليه السلام- : « قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ »[2] .

أخرج البيهقى فى الدلائل عن جابر بن عبد الله قال : قال أبو جهل والملأ من قريش : قد التبس علينا أمر محمد فلولا التمستم رجلا عالما بالسحر والكهانة والشعر فَكَلَّمهُ ثم أتانا ببيان عن أمره ؟ قال عتبة بن ربيعة : والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر وعلمت من ذلك علما ، ولا يخفى علىّ إن كان كذلك ، فأتاه فقال له يا محمد : أأنت خير أم هاشم ؟ أأنت خير أم عبد المطلب ؟ فلم يجب رسول الله ﷺ قال : فيم تشتم آلهتنا

---

(١) سورة الأنعام الآية : ٩ .

(٢) سورة الشعراء الآية : ٢٧ .

وتضلل آباءنا ؟ فإن كنت إنما بك الرياسة عقدنا ألويتنا لك ، وإن كان بك المال جمعنا لك من أموالنا ما تستغنى به أنت وعقبك من بعدك ، وإن كان بك الباءة[1] زوجناك عشر نسوة تختارهن من أى بنات قريش ، ورسول الله ﷺ ساكت لا يتكلم فلما فرغ قال ﷺ (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ – حم تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) فقرأ حتى بلغ (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ) فأمسك عقبة على فيه ﷺ فأنشده الرحم أن يكف عنه ، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش ، فلما احتبس عنهم قال أبوجهل : يامعشر قريش ، ما أرى عتبة إلا قد صبأ إلى محمد وأعجبه طعامه ، وما ذلك إلا من حاجة أصابته ، انتقلوا بنا إليه ، فأتوه فقال أبو جهل : ما حسبنا إلا أنك صبوت إلى محمد وأعجبك أمره ، فإن كنت فى حاجة جمعنا لك ما يغنيك عن محمد ، فغضب وأقسم بالله – تعالى – لايكلم محمدا أبدا وقال : لقد علمتم أنى أكثر قريش مالا ، ولكنى أتيته وقص عليهم القصة : فأصابنى بشىء والله ما هو بسحر ولا بشعر ولا كهانة قرأ (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ – حم تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) حتى (أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ) فأمسكت بفيه وناشدته الرحم فكف ، وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئاً لم يكذب فخفت أن ينزل بكم العذاب .

(فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾)

(١) الرغبة فى النكاح والتزوج .

المفردات :

(فَاسْتَكْبَرُواْ) : فتعظموا وتعالوا .

(يَجْحَدُونَ) : ينكرون مع علمهم أنه الحق . (رِيحاً صَرْصَراً) :شديدة الحرارة من الصَّر- بفتح الصاد- بمعنى الحر ، وقيل غير ذلك : وسيأتى مزيد بيان فى التفسير .

(فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ) : فى أيام مشئومات عليهم ؛ لأنهم عذبوا فيها .

التفسير

١٥ - (فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُواْ فِى الْأَرْضِ بغَيْرِ الْحَقِّ . . . .) الآية :

شروع فى تفصيل ما أعده الله -تعالى- لكل واحدة من الطائفتين من النكال والعذاب بعد أن أجمله - سبحانه - فى قوله تعالى : (فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ) وبدأ الله - جل شأنه- بقصة عاد لأنهم أقدم زمانا ، أى : فأما عاد فتعالوا على من سواهم وتعظموا فى الأرض التى لاينبغى لأحد أن يتعظم فيها « فكلكم لآدم وآدم من تراب » كما أن نِعم الدنيا لاتدوم ولا تثبت على حال (وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ »[1] بالإضافة إلى أن مالدى الناس من صحة ومال وقوة إنما هو منحة الله وعطاؤه يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء ، فتعظُّمهم واستكبارُهم حقيق أن يقول الله عنه : (بِغَيْرِ الْحَقِّ) وقيل : تعظموا عن امتثال أمر الله - جل شأنه- وعن قبول ماجاءتهم به الرسل ولم يقفوا عند هذا الحد ، بل دفعهم غرورهم بقوتهم وزَهْوهم بها إلى مايوحى وينبئ بتماديهم فى صلفهم (وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً) استنكروا بقولهم هذا ، ورأوا أن ماهم عليه من شدة جدير أن يجعلهم يتعظمون على من سواهم .

(أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللهَ الَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُم قُوَّةً ، وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ) :

أى : أغفل هؤلاء ولم يعلموا أن الله الذى خلقهم وبرأهم من العدم هو - سبحانه - أشد منهم قوة ، إذ ليس لديهم قدرة ذاتية من أنفسهم ، وأَمَّا مالديهم من قدرة فإنما هو بإقدار الله لهم يمنحهم إياها أو يمنعهم ، فالله أقدر منهم ومن كل من عداهم ، وانتهى

---

(١) سورة آل عمران من الآية : ١٤٠

الأمر بهؤلاء أنهم أنكروا دلائل قدرة الله ومعجزاته فى كونه ، والتى أظهرها — سبحانه — على أيدى رسله .

١٦ — (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً) :

أى : سلطنا عليهم ريحا شديدة الحرارة ، من الصَّر — بفتح الصاد — بمعنى الحر ، وقال ابن عباس وغيره : باردة تهلك بشدة بردها ، من الصِّرِّ — بكسرها — وهو البرد الذى يَصِرُّ أى : يجمع ظاهر الجلد ويقبضه ، وقال السدى وغيره : مُصَوِّتَةً ، من صر يصِر إذا صوَّت .

وروى أنها كانت تحمل العير بأثقالها وأحمالها فترميهم بالبحر .

(فِى أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ) وهى التى جاء ذكرها وبيانها فى قوله — تعالى — : « وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ »[1] أى : فى أيام مشئومات لأنهم عذبوا فيها ، فاليوم الواحد يوصف بالنحس والسعد بالنسبة إلى شخصه ، فيقال له : يوم سعد بالنسبة لمن تناله النعماء، ويقال له : يوم نحس بالنظر لمن تصيبه الضراء . وقال ابن عباس — رضى الله عنهما — : الأيام كلها لله — تعالى — خلق بعضها نحوسا وبعضها سعودا (لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْىِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) ليجرعهم فيها غصص هذا العذاب الذى يصيبهم بالخزى والذل والندم والهلاك ، فيجمع الله عليهم عذاب البدن مع آلام النفس وتحسرها وندمها ، ولات ساعة مندم (وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ) أى : وللعذاب الذى ينالونه ويحيق بهم فى الآخرة أشد خِزْيا وذلاً ، إذ يكون على رءوس الأشهاد ، مع كونه شديد الإيلام .

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾)

(١) سورة الحاقة الآيتان : ٦ ، ٧ .

المفردات :

(فَهَدَيْنَاهُمْ) : فدللناهم وبينا لهم طريقى الضلالة والرشد .

(فَاسْتَحَبُّواْ الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ) : فآثروا ومالوا إلى الضلال وتركوا الطريق المستقيم .

(صَاعِقَةُ) : نار تنزل من السحاب فى رعد شديد ولاتصيب شيئا إلا أحرقته .

(الْهُونِ) : الهوان المخزى المذل المهين .

التفسير

بعد أن فصل عذاب عاد قوم هود أتى ببيان عذاب بعض الذين شاركوهم فى العصيان وتكذيب الرسل ، وهم ثمود قوم صالح فقال :

١٧ ـ (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ...) الآية :

أى : وأمّا ثمود فقد أوضحنا لهم على لسان رسولهم طريق الرشاد ودعوناهم إليه ، وأظهرنا لهم الآيات الكونية ، وأزلنا عن طريقهم كل ما يمنعهم من التبصر والإدراك ، (فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ) أى : فآثروا واختاروا الضلالة على الهداية بمحض إرادتهم دون إكراه منه ـ سبحانه ـ على فعل ما يفعلون ، (فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ) فأخذتهم واستأصلتهم داهية العذاب الذى يضيف إلى إيلامه الخزى والذل والمهانة لهم ، وقد عاقبهم الله بهذا العذاب جزاء ما اقترفوه من عقر الناقة التى أمروا بتركها تأكل فى أرض الله ونهوا عن أن يمسوها بسوء ، فضلا عما اكتسبوه من قبيح الذنب وفاحش الاعتقاد .

١٨ ـ (وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ) :

أى : أنقذنا الذين آمنوا بربهم وبما جاء به رسولهم صالح ـ عليه السلام ـ ، واتقوا الله فأطاعوه ، وابتعدوا عن المعاصى فلم يقترفوها ، نَجَّاهم وميزهم عن الكفار ،فلم يُنزِل بهم ما أنزله بهؤلاء الذين أجرموا من عذاب وعقاب ، بل جعلهم ربهم فى نجوة ومكانة رفيعة لاينالهم فيها هوان .

وهذه الآية تسلية لرسول الله ﷺ ووعد له بأن الله سيفعل بمؤمنى قومه وكافريهم مافعله بهؤلاء ، فينجى مؤمنيهم ويهلك كافريهم إن ظلوا على كفرهم .

(وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾

المفردات :

(يُوزَعُونَ) : يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا ، وقيل : يساقون ويدفعون إلى جهنم .

التفسير

١٩ - (وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ اللهِ إِلَى النَّارِ . . . .) الآية :

هذا شروع فى بيان عقوبة عاد وثمود فى الدار الآخرة بعد أن بين - سبحانه - عقوبتهم فى الدنيا ، أى : واذكر يا محمد - يوم يجمع الله من القبور أعداءه الذين جحدوا به ، وأشركوا معه سواه ، وكذبوا رسله ، وآذوهم واضطهدوا من آمن بهم ، ونالوهم بألوان العذاب ، اذكر لقومك أيها الرسول - يوم يجمع الله أعداءه هؤلاء للجزاء .

(فَهُمْ يُوزَعُونَ) أى : يحبس ويمنع أولهم عن السير والمشى ، فيبقى فى مكانه لايغادره حتى يأتى آخرهم ، فيجتمعوا فى صعيد واحد ، ليدخلوا جهنم مجتمعين ، أو معناه : أنه - سبحانه - يسوقهم ويدفعهم إلى النار فى إذلال وإهانة لهم بعد حسابهم .

والقائمون بذلك هم الملائكة بأمر الله كما يظهر من قوله ـ تعالى ـ : «احْشُرُواْ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ • مِن دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ»[1] .

٢٠ ـ (حَتَّىٰٓ إِذَا مَاجَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) :

أى : حتى إذا ماقربوا منها فى ساحة الحساب وسئلوا عن آثامهم وذنوبهم فأنكروا حصول ذلك منهم ، عندئذ تشهد عليهم أسماعهم وأبصارهم وجلودهم بالذى كانوا يعملونه ويحدثونه من الجرائم والآثام فى الدنيا ، والمراد من الجلود هنا هو ظاهر البشرة ،ولفظ (مَا) فى قوله ـ تعالى ـ : (إِذَا مَاجَآءُوهَا) لتوكيد مجيئهم[2] وأنه لابد أن تحصل تلك بشهادة من الأسماع والأبصار والجلود عليهم .

٢١ ـ (وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا . . . .) الآية :

وسألوا جلودهم سؤال إنكار وتقريع وتوبيخ : ماحملكم على أن تشهدوا علينا ؟ وعنكم كنا نناضل (قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا اللهُ الَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) :

أى قالوا : أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء لاينطق ولايتكلم ـ أنطقنا ـ لنشهد عليكم بالحق ، فهو قادر على ذلك ، فقد خلقكم أول مرة من تراب ثم من نطف ، وإليه ترجعون ، فهذه الشهادة حق الله .

وفى صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال : « كنا عندَ رسولِ الله ﷺ فَضحكَ ، فقال : «هل تَدرونَ مِمَّ أضحكُ ؟» قلْنا : اللهُ ورسولُه أَعلمُ ، قال : «من مخاطبةِ العبد ربَّهُ ، يقول : أَلم تُجِرْنِي من الظلمِ ؟ قال : يقولُ : بلَى ، قال فيقولُ : فإِنِى لَا أُجيزُ على نفْسِى إلا شاهداً مِنِّى ، قال يقولُ : كفَى بنفسِك اليومَ شهيدا ، وبالكرامِ الكاتبين شُهودا ، قال : فيختم على فِيهِ فَيُقال لأركانه : انطِقِى ، فتنطق بأعماله ، قال : ثم يُخلَّى بينه وبين الكلام ، قال فيقول : بُعْداً لكُنَّ وسُحْقاً ؛ فَعنْكُنَّ كُنتُ أُناضِل » .

(١) سورة الصافات الآيتان : ٢٢ ، ٢٣.

(٢) فليست بنافية .

واختلف فى كيفية الشهادة من الجوارح والجلود على ثلاثة أقوال ، أحدها : أن الله يخلق الفهم والقدرة والنطق فيها فتشهد كما يشهد الرجل على مايعرفه .

الثانى : أن الله – تعالى– يخلق فى تلك الأَعضاء الأَصوات والحروف الدالة على تلك المعانى كما خلق الكلام فى الشجرة التى نودى منها موسى – عليه السلام – .

الثالث : أن يظهر الله – تعالى – فى الأَعضاء أحوالا تدل على صدور تلك الأَعمال من ذلك الإِنسان ، وتلك الأَمارات تسمى شهودا .

(وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾)

المفردات :

(تَسْتَتِرُونَ) : تستخفون .

(أَرْدَاكُمْ) : أهلككم .

(مَثْوًى) : إقامة دائمة .

(وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ) : وإن يسأَلوا الرضا من الله –تعالى –، أو : وإن يعتذروا .

(فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ) : فما هم من المجابين إلى مايسأَلون .

التفسير

٢٢ - (وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللهَ لَايَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ) :

أى : ماكان استتارهم واستخفاؤهم عندما كانوا يقارفون الموبقات والأعمال القبيحة خوفا من أن يشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم ، وذلك لأنهم كانوا منكرين للبعث والقيامة ، ولكن كان هذا التستر والاختفاء لأجل أنهم كانوا يظنون أن الله لايعلم كثيرا من الأعمال التى يقدمون عليها فى خفية واستتار .

وعن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : كنت مستترا بأستار الكعبة فدخل ثلاثة نفر علىَّ : ثقفيان وقرشى ،فقال أحدهم : أترون الله يسمع ماتقولون ، فقال الرجلان : إذا سمعنا أصواتنا سمع وإلَّا لم يسمع ، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فنزل (وَمَاكُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ) أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما .

٢٣ - (وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ) :

هذا نص صريح فى أن من ظن بالله - تعالى - أنه يخرج شىء من المعلومات عن علمه - سبحانه - فإنه يكون من الهالكين الخاسرين «الَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلاَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ»[1] .

قيل : والظن قسمان : ظن حسن بالله -تعالى - وظن فاسد ، وأما الظن الحسن فهو أن يظن به - سبحانه - الرحمة والفضل ،قال ﷺ حكاية عن الله - عز وجل - :

«أنا عندَ ظنِّ عبدِى بِى» وقال-عليه الصلاة والسلام- : « لايموتن أحدكم إلا وهو يحسنُ الظنَّ بِالله » والظن الفاسد : هو أن يظن بِالله أنه يَعْزُبُ ويغيب عن علمه بعض هذه الأحوال ، وقال قتادة : الظن نوعان : ظنٌّ مُنْجٍ ، وظن مُرْدٍ . فالمنجى قوله :

---

(١) سورة الزمر من الآية : ١٥

« إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ »[1] وأما الظن المردى فهو قوله - تعالى - : (وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ) .

٢٤ - (فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ . . . .) الآية :

أى : فإن يمسكوا عن الاستغاثة لفرج ينتظرونه لم يجدوا ذلك ، وتكون النار لهم محل ثواء وإقامة دائمة لا انفكاك لهم منها ؛ فلا يجدى صبرهم .

(وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ) وإن يطلبوا الرضا من الله فماهم من المجابين إليه. وقال الضحاك : المراد وإن يعتذروا فماهم من المعذورين .

* (وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾)

المفردات :

(وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ) أى : وأتحناهم لهم ، وجئناهم بهم ، يقال : قيض الله له رزقا ، أى :جاءه به وأتاحه له كما كان يطلب ، والقرناء :الأصحاب ، مِنْ قرن الشىء بالشىء :وصله به وأصحبه إياه ، وهو من بابىْ : نصر ، وضرب .

(فَزَيَّنُوا لَهُمْ) : فحسنوا لهم .

(مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ):من أمور الدنيا .

(وَمَا خَلْفَهُمْ) : من أمور الآخرة ، حيث حسنوا لهم التكذيب بها .

(وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ) : وجب عليهم الوعيد بالعذاب .

(خَلَتْ) : مضت .

(١) سورة الحاقة الآية : ٢٠ .

التفسير

٢٥ – (وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّابَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَاسِرِينَ) :

بعد أن بينت الآيات السابقة سوء مصير الكافرين فى الآخرة ، جاءت هذه الآية لتبين السبب فيما وصلوا إليه .

والله –تعالى– جعل للناس فى الدنيا قرناء من الجن والإنس يصحبونهم فى حياتهم ، وهؤلاء القرناء قد يكونون مؤمنين صالحين فيحضونهم على الخير ، وقد يكونون غير ذلك فيحملونهم على الشر .

وقد رزق الله الإنسان عقلا يميز به بين الخبيث والطيب ، وأعانه على هذا التمييز بشرع أنزله إليه على لسان نبى من الأنبياء ، فمن واجبه أن يستعمل عقله فى حاضره ومستقبله ، وأن يميز بين الخبيث والطيب ، والنافع والضار ، فإذا زيّن له قرينه الخير قبله ، وإذا زين له قرينه الشر رفضه .

ومن الناس من فسدت طباعهم لسوء تربيتهم ، فاختاروا قرناءهم من الإنس على منهجهم من السوء والشر ، فزينوا لهم الباطل والشر ، وترك الحق والخير ، فأطاعوهم فكانوا من الخاسرين .

وقد جاءت هذه الآية الكريمة للتوعية من القرناء والأصحاب ، فلا يقبلون منهم سوى الدعاء إلى الخير ، ويرفضون منهم غيره حتى لايكونوا من الخاسرين ، فى جملة من حقت عليهم كلمة العذاب ، وهى قوله –تعالى– لإبليس : « فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ، لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ[1] » .

والمعنى الإجمالى للآية : وأتحنا للكافرين وأصحبناهم بقرناء السوء من الجن والإنس لسوء نشأتهم ، فزينوا لهم مابين أيديهم من الحياة الدنيا ، وما فيها من حلال وحرام

(١) سورة ص ، من الآية : ٨٤ ، والآية : ٨٥

وزينوا لهم ماخلفهم من إهمال شئون الآخرة ، حيث دعوهم إلى التكذيب بها - كما قال مجاهد - ووجبَ عليهم الوعيد بعذاب الكافرين ، فى جملة أمم كافرة قد مضت من قبلهم ، إنهم كانوا خاسرين ، حيث اشتروا العذاب الدائم ، وباعوا النعيم المقيم .

(وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾)

المفردات :

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا) : مشركو مكة .

(لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ) : لاتأخذوا بهذا القرآن ، وافعلوا الباطل فيه ، مِنْ لَغَا :قال باطلا ، وبابه :عَدَا وصَدِىَ - أى :عَطِش.(يَجْحَدُونَ) :يكفرون وينكرون .

التفسير

٢٦- (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَاتَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ) :

بعد أن تحدثت الآية السابقة عن مصير مَن زين له قرينه الدنيا وترك الآخرة ، جاءت هذه الآية ومابعدها للحديث عن حال مشركى مكة ومآلهم ، وقد أشارت الآية إلى أن القرآن كان عدوهم اللدود ، لأنه شديد التأثير على النفوس ؛فلهذا تواصوا

باللغو فيه ليحولوا بينه وبين أسماع الناس ، خشية أن يحملهم على الإيمان بما فيه من الآيات البينات ، والعظات المؤثرات ، والأسلوب الفريد .

والمعنى : وقال الذين كفروا من أهل مكة : لاتسمعوا لهذا القرآن وافعلوا الباطل فيه من الصفير والتصفيق والتخليط فى المنطق حتى يصير لغوا ، ولا يستفيد به أحد ، وقال الضحاك : أكثروا الكلام ليختلط عليه مايقول : ا هـ .

(لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ) محمدا على قراءته ، فلا يظهر مايقوله ، ولايستميل القلوب .

قال ابن عباس : قال أبو جهل : إذا قرأ محمد فصيحوا فى وجهه حتى لايدرى مايقول : ا هـ . كذلك كانوا يفعلون ، ولكن الله أتم دينه ومكّن لنبيه ، وبدل المؤمنين من بعد خوفهم أمنا «وَاللهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ»[1] .

٢٧ - (فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ) :

وعيد لأولئك الكافرين اللاغين فى القرآن ومن حملوهم على اللغو .

والمعنى : فوالله لنذيقن الذين كفروا وَلَغَوْا فى القرآن وحرضوا عليه عذابا شديدا فى الدنيا بنصرك عليهم ، ولنجزينهم فى الآخرة على سيئات أعمالهم التى هى أسوأ الأعمال .

أما الأعمال الحسنة : من إغاثة الملهوف وصلة الرحم وقِرَى الأضياف ونحوها ، فلا يجزون عليها فى الآخرة ، لأنهم أحبطوها بالكفر ، لقوله -تعالى- : «وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُورًا»[2] .

٢٨ - (ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ اللهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ) :

أى : ماذكر من الجزاء الأخروى السيء ، جزاء أعده الله لأعدائه ، هو النار لهم فيها دار الخلد ، لايموتون ، ولاهم منها يخرجون ، جزاء بما كانوا بآياتنا يكفرون .

(١) سورة يوسف ، من الآية : ٢١

(٢) سورة الفرقان ، الآية : ٢٣

٢٩ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ) :

وقال الكافرون وهم فى النار : ياربنا أرنا اللَّذَين أضلانا وحملانا على الكفر والمعاصى من جنسى الجن والإنس ، ندسهما بأقدامنا انتقاما منهما ، ليكونا من الأسفلين ذُلًّا ومهانة ، وفى الدرك الأسفل من النار مكانا ومُقَامًا .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾)

المفردات :

(قَالُواْ رَبُّنَا اللَّهُ) : أقروا بربوبيته وحده .

(ثُمَّ اسْتَقَامُواْ) : عملوا الصالحات .

(تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَآئِكَةُ) : عند الموت ؛ وقيل غير ذلك ، وسيأتى بيانه .

(نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) أى : نحن الذين توليناكم فيها .

(وَفِى الْآخِرَةِ) : ونحن الذين نواليكم فى الآخرة حتى تدخلوا الجنة .

(وَلَكُمْ فِيهَا مَاتَدَّعُونَ) : ولكم فيها ماتطلبون ـ مأخوذ من الدعاء بمعنى الطلب .

التفسير

٣٠- (إِنَّ الَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَآئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَاتَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِالْجَنَّةِ الَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ) :

هذه الآية شروع فى بيان حسن أحوال المؤمنين فى الدنيا والآخرة ، بعد بيان سوء أحوال الكافرين فيهما .

والمعنى : إن الذين اعترفوا بربوبية الله وحده فقالوا: ربنا الله ليس لنا إله سواه، ثم استقاموا على هذا الاعتراف ، فلم يروغوا رَوَغَان الثعالب ، وأتبعوا هذا الاعتراف بالعمل الصالح ، فلازموا الطاعات ، وتجنبوا السيئات ، حتى لاتزل أقدامهم عن طريق مربوبيتهم وعبوديتهم لربهم – إن هؤلاء الصالحين – تتنزل عليهم الملائكة وهم لايرونهم ، يلهمونهم الخير ، وينفرونهم من الشر ، ويعدونهم فيما يعن لهم من أمور الدنيا والآخرة بما يشرح صدورهم ، ويدفع عنهم الخوف والحزن ، فى مقابل مايفعله قرناء السوء مع الكفرة من إغوائهم ودفعهم للمعاصى .

وهؤلاء الملائكة يصحبونهم فى حياتهم وعند مماتهم وبعثهم ، قائلين لهم : لاتخافوا من مكروه يقع بكم ،ولا تحزنوا على شىء فاتكم ، أو لاتخافوا ردَّ حسناتكم فهى مقبولة ، ولاتحزنوا على ذنوبكم فهى مغفورة .

والمقصود إخبارهم بأن الله كتب لهم الأمن من كل غم بسبب صلاحهم ، ولا يقتصرون على ذلك ، بل يقولون لهم : أبشروا بالجنة التى كنتم توعدونها على ألسنة المرسلين ولعل هذه البشارة عند الموت أو البعث من القبور ، ولا مانع من أن تكون إلهاما فى الحياة الدنيا ، وفقا لقوله-تعالى-: «وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً»[1].

روى الإمام أحمد بسنده ، عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال : قلت : يا رسول الله، حدثنى بأمر أعتصم به ، قال : « قُل رَبِّىَ الله ثمّ استَقِمْ » قلت يا رسول الله : ما أكثر ما تخاف علىَّ ؟ فأخذ رسول الله ﷺ بلسان نفسه ثم قال : « هذا » أى :أخافُ عليك لسانَك .

(١) سورة طه ، الآية : ١١٢

٣١ - (نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِى أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ) :

هذه الآية من تتمة بشارتهم فى الدنيا ، يقولون لهم : نحن أعوانكم فى أموركم فى الحياة الدنيا ، نلهمكم الحق ، ونرشدكم إلى ما فيه خيركم وصلاحكم ، وأولياؤكم فى الآخرة نمدكم بالشفاعة ، ونتلقاكم بالكرامة ، يقولون لهم ذلك فى مقابل ما بين الكفرة وقرنائهم ، من الإغواء فى الدنيا والجدل والخصام فى الآخرة - وقد مر بيانه -ويقولون لهم أيضاً : لكم فى الآخرة ما تشتهى أنفسكم من أنواع المتع والملذات ولكم ما تطلبون وتتمنون من الأمور الروحانية وسواها.

وقيل المراد بما تدعون : ما تقولون إنه لكم فهو لكم بحكم ربكم .

٣٢ - (نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ) :

المشهور أن النُّزُلَ ما يُهَيَّأُ للنزيل - أى :الضيف - ليأكله حين نزوله ، والمعنى : أن هذا النعيم جعله الله ثواباً لهم من غفور لما فرط من ذنوبهم ، رحيم بعباده حيث يعطى الجزيل فى مقابل العمل القليل .

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾)

المفـردات :

(وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ) : فى الجزاء ، و (لَا) : الثانية تأكيد للأولى .

(ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ) : ادفع السيئة بالخصلة التى هى أحسن فى دفعها .

(وَلِىٌّ حَمِيمٌ) : صديق مشفق .

(وَمَا يُلَقَّاهَا) : وما يتخلق بها .

(وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ) : وإمَّا يأتينك منه وسوسة بالشر .

(فَاسْتَعِذْ بِاللهِ) : فلا تطعه معتمدًا على الله .

التفسير

٣٣ ـ (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ) :

ولا يوجد أحسن قولا ممن دعا إلى توحيد الله وطاعته ، وعمل عملا صالحاً وقال : إننى من المسلمين ، ليكون قوله مطابقاً لفعله . حتى يكون قدوة لغيره ، وقد نهانا الله ـ تعالى ـ عن المخالفة بين القول والعمل فقال : « يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَالَا تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مَالَا تَفْعَلُونَ »[1] .

وكان زيد بن على ـ رضى الله عنهما ـ يفسر الدعاء إلى الله باللسان وباليد . فكان يدعو إلى الإسلام ويجاهد ، قال الآلوسى : ولعل هذا ـ والله تعالى أعلم ـ هو الذى حمله على الخروج بالسيف على بعض الظلمة من ملوك بنى أمية ، وكان زيد هذا عالماً بكتاب الله ـ تعالى ـ وله تفسير ألقاه على بعض النقلة عنه ، وهو فى حبس هشام بن عبد الملك ، وفيه من العلم والاستشهاد بكلام العرب حظ وافر ، ويقال : إنه كان إذا تناظر مع أخيه محمد الباقر ، اجتمع الناس بالمحابر ، يكتبون ما يصدر عنهما من العلم ـ رحمهما الله تعالى ، ورضى عنهما ـ : اهـ .

---

(١) سورة الصف ، الآيتان : ٢ ، ٣

٣٤ - (وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ) :

استئناف لبيان محاسن الأعمال الجارية بين العباد ، إثر بيان محاسن الأعمال الجارية بين العبد وربه - عز وجل - .

وفى الآية ترغيب لرسول الله ﷺ فى الصبر على أذية المشركين ، ومقابلة إساءتهم بالإحسان .

ومعنى الآية : ولاتستوى الخصلة الحسنة والخصلة السيئة فى الآثار والأحكام ، فإذا أساء إليك مسىء فلا تقابله بمثل ما صنع ، بل قابله بما هو خير وأفضل من سواه من أساليب المعروف ، فالفحش تقابله بالحلم والصبر ، أو تقول له :إن كنتَ صادقا فغفر الله لى ، وإن كنت كاذباً فغفر الله لك ، والغلظة تقابلها بالمداراة ، والإيذاء تقابله بالإحسان ، إلى غير ذلك من المتقابلات ، فإن فعلت ذلك صار عدوك المُشَاقُّ مثل الصديق المشفق ، بل قد تزول العداوة وتحل محلها الصداقة ، وفى ذلك يقول الشاعر :

إن العداوة تستحيل مودّة بتدارك الهفوات بالحسنات

والآية - على ما قيل - نزلت فى أبى سفيان بن حرب ، كان عدوًّا مبيناً لرسول الله ﷺ فصار عند أهل السنة وليا مصافيا - ذكره الآلوسى - وذلك لأن الرسول ﷺ لما فتح مكة عفا عنه ، وقال : « مَنْ دخلَ دارَ أبى سُفيانَ فهوَ آمِن » .

ومن الناس من لا تصلح معه الملاينة إذ يحسبها ضعفاً ويتمادى فى سيئاته ، فمثل هذا تستعمل معه المخاشنة بعد فشل استعمال الملاينة ، وذلك فى حدود الضوابط الشرعية .

٣٥ - (وَمَا يُلَقَّاهَآ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) :

وما يُؤتى خَصْلةَ دفع السيئة بالحسنة إلا الذين شأنهم الصبر والحلم ، وما يؤتاها إلا ذو نصيب عظيم من خصال الخير وكمال النفس - كما روى عن ابن عباس - أو ذو حظ عظيم من الثواب - كما قال قتادة - .

٣٦ - (وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) :

النزغ : النخس بطرف قضيب أو نحوه بقوة ، استعير لوسوسة الشيطان الباعثة على الشر ، ولفظ « ما » فى « إمّا » صلة للتأكيد ، والأصل : وإن ينزغنك فزيدت (ما) وأدغمت فى النون.

والمعنى : وإمّا يصرفنك الشيطان عن دفع السيئة بالحسنة ، حاملا لك على مقابلة السيئة بمثلها أو بأكثر منها ، فاستعذ بالله من شره ولاتطعه ، إنه – تعالى – سميع لاستعاذتك ، عليم بحسن نيتك فيعصمك ويعينك على صبرك .

وقيل إن المعنى : سميع لقول من آذاك ، عليم بفعله ، فينتقم منه مغنيا إياك عن هذا الانتقام .

(وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾)

المفـردات :

(فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ) : المراد بهم الملائكة .

(بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) المقصود بهما : الدوام ، فإن الملائكة ليس عندهم ليل ونهار .

(لَا يَسْأَمُونَ) : لا يملّون .

(خَاشِعَةً) : يابسة متطامنة ، مستعار من الخشوع بمعنى التذلل ، وقال القرطبى : الأرض الخاشعة الغبراء التى تنبت .

(اهْتَزَّتْ) : تحركت بالنبات .

(وَرَبَتْ) : انتفخت .

التفسير

٣٧ - (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) :

ومن دلائل وجود الله - تعالى - وقدرته ، ووحدانيته وحكمته ، وكمال صفاته ، أنك ترى الليل بظلامه ، والنهار بضيائه ، وتعاقبهما بانتظام من غير فتور ، وتداخل بعضهما فى بعض ، فيزيد النهار وينقص الليل ، أو يزيد الليل وينقص النهار ، ويترتب على ذلك وجود الفصول الأربعة : الربيع ، والصيف ، والخريف ، والشتاء ، ومعرفة عدد السنين والحساب .

ومن دلائله - تعالى - الشمس بنورها وأشعتها الساخنة الساطعة ، والقمر بضوئه وأشعته الخافتة وتنقلهما فى مداراتهما ومنازلهما بانتظام ، فينشأ عن تنقل الشمس فيها الفصول الأربعة وحساباتها الفلكية ، وينشأ عن تنقل القمر فيها زيادة ضوئه ونقصانه ، ومعرفة مبدأ شهره ونهايته ، كما أن لكليهما أثرًا بالغاً فى نمو الزرع وحياة الحيوان ، ومعرفة أوقات العبادات والمعاملات .

ولما كانت الشمس والقمر أظهر الكواكب بالنسبة لأهل الأرض ، وكان بعض الناس يسجدون لهما تقربًا إلى الله بعبادتهما ، أو إيماناً بألوهيتهما - لما كان الأمر كذلك - نهى الله عباده عن السجود لهما ، لأن الله - تعالى - خالقهما ، وهما من دلائل وجوده وكمال صفاته ، فقال - سبحانه - : (لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) .

فالله لا يحتاج إلى وسيط فى عبادته ، وهذا الوسيط يبعدهم عن الله ولا يقربهم منه ، وينسيهم الله ، فينسبون له النفع والضر ، والخير والشر ، فمن كان يعبد الله فلا يشرك معه أحدًا فى عبادته ، فهو أقرب إليه من حبل الوريد ، ولا يغفر أن يشرك به .

ويلاحظ أن فى المجرات ملايين الشموس والأقمار وسائر الكواكب ، وفيها أكبر من شمسنا وقمرنا وأرضنا ، ولكن الله خاطب عباده بما تقع عليه عيونهم وبما يعبدونه .

والضمير فى « خلقهن » يرجع إلى الليل والنهار والشمس والقمر ، وتأنيث الضمير الراجع عليها مع أن غالبها مذكر ، باعتبار أنها آيات ، ولأن كل جمع يصح تأنيث ضميره ، قال الناظم :

لا أبالى بجمعهم كل جمع مؤنث

وهذه الآية موضع سجدة بلا خلاف ، واختلفوا فى موضع السجود منها ، فقال مالك : موضعه (إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) لأنه متصل بالأمر ، وقال ابن وهب والشافعى : موضعه (وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ) فى الآية التالية ، لأنه تمام الكلام وغاية العبادة والامتثال ، وبه قال أبو حنيفة .

واختلف النقل عن الصحابة على هذا النحو ، قال ابن العربى : والأمر قريب : انتهى بتصرف يسير من القرطبى .

٣٨ - (فَإِنِ اسْتَكْبَرُواْ فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ) :

فإن تعاظم الكفار عن أن يسجدوا لله وحده ، فلا تعبأ بهم ، فإن الملائكة الذين هم فى حضرة القدس الإلهى يسبحون له دائماً ، وهم لا يملون التسبيح .

٣٩ - (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَآءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ الْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) :

الخطاب هنا لكل عاقل .

ومعنى الآية : ومن دلائل قدرة الله -تعالى- على إحياء الموتى أنك ترى الأرض هامدة يابسة لانبات فيها ، فإذا أنزل الله الماء عليها تحركت بالنبات حين يبدو من بذوره ، وارتفعت به بعد خروجه حيث يزداد طولا وعرضاً ، ويصير أشجارًا وزروعا تسر الناظرين ، وتطعم الآكلين ، وتفكه المتفكهين ، بعد أن كانت ميتة هامدة ، إن الذى أحياها على هذا النحو العجيب لمحيى الموتى ، وباعث من فى القبور ، كما أحياها بعد أن كانت ميتة ، إنه على كل شىء قدير ، فآمنوا بالبعث والنشور للإنسان ، فما ترونه فى النبات والأشجار بعث ونشور لهما .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾)

المفردات :

(يُلْحِدُونَ فِىٓ آيَاتِنَا) : يميلون عن الحق فيها ،والإلحاد :الميل والعدول ، والمراد بالآيات هنا القرآن .

(كَفَرُوا۟ بِالذِّكْرِ) : كفروا بالقرآن ، فإن فيه ذكر ما يحتاج إليه من الأحكام ، ويطلق الذكر على الشرف أيضاً ، والقرآن شرف للعرب ، حيث جاءت المعجزة المحمدية من لغتهم ، وحيث بدأ به عموم الرسالة من بينهم .

(كِتَابٌ عَزِيزٌ) : ليس له نظير ، أو : منيع لا تتأتى معارضته ، وأصل العز : حالة مانعة للإنسان عن أن يُغلب ، أو غالب للكتب حيث نسخ ما قبله ، وقال ابن عباس : كريم على الله تعالى .

(لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ) :المراد :أنه لا يأتيه الباطل من جميع جهاته .

(حَكِيمٍ حَمِيدٍ) الحكيم : من يضع الشىء فى موضعه ، والحميد :المحمود ، وخبر إن الذين كفروا هو جملة « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ » أى :لا يأتيه الباطل منهم – أى : من الذين كفروا. قاله أبو حيان ، أو هو مقدر ، وتقديره خاسرون ،والخبر يحذف إذا دل عليه المقام ، وقدره

عمرو بن عبيد بقوله : كفروا به . بعد قوله لما جاءهم ، أى :إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم كفروا به فى حال أنه كتاب عزيز . . . إلخ .

التفسير

٤٠ - (إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) :

إن الذين يميلون عن الحق فى شأن آياتنا ، فيكذبون القرآن ، ويصفرون ويصفقون عند قراءة النبى ﷺ له ، ويصفونه بالكذب وبالسحر وبالشعر وبأساطير الأولين - إن هؤلاء الملحدين - لا يخفون علينا ، فنحن نعلمهم ونعلم إلحادهم ، وسوف نجازيهم بالنار على هذا الإلحاد .

(أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ) جزاء له على إلحاده خَيْرٌ (أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا) منها يوم القيامة ، جزاء له على إيمانه ، ولا يقتصر أمرهم على ذلك ، بل يدخلون الجنة خالدين فيها أبدا .

ثم هدد الله الملحدين فقال :(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) فلا تخفون عليه « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ »[1] .

٤١ ، ٤٢ -(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) :

إن الذين كفروا بالقرآن حين جاءهم من غير مُهلة يفكرون فيها فى أمره - إن هؤلاء - كفروا به وإنه لكتاب عزيز منيع لاتتأتى معارضته ، ولا يأتيه الباطل من جميع جهاته لغة ، وعقيدة ، وتشريعاً ، وقصصاً ، وانسجاماً ، وترتيلا ، فهو فى هذه قمة لاترام ولاتنال ، منزَّل من إله (حَكِيمٍ) يأتى بالمعجزات التى لا يمكن معارضتها تأييدًا لرسله ، ويضع الشىء فى موضعه (حَمِيدٍ) محمود على ما أسدى من مختلف أنواع النعم ، التى منها تنزيل هذا الكتاب - محمود على ذلك - بلسان المقال أو بلسان الحال ، من كل مخلوق نالته نعمه - سبحانه - ، وإذا كان القرآن بهذه المثابة ، فكيف يكفر به الكافرون ويجحده الجاحدون؟

٤٣ -(مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ) :[2]

---

(١) سورة الشعراء ، من الآية : ٢٢٧

(٢) «إن ربك لذو مغفرة» تعليل لما فهم من السياق من الأمر بالصبر ، وقيل : هى مقول القول الثانى ، مقصود لفظها لتكون نائب فاعل لقيل .

فى هذه الآية تسلية للنبى ﷺ عما يصيبه من أذية كفار مكة ، من طعنهم فى القرآن ووصفه ﷺ بالسحر ، والشعر ، والكذب ، والجنون .

والمعنى : ما يقال لك - أيها الرسول - من الكفار ، إلا مثل ماقيل للرسل قبلك من أقوامهم كما قال - تعالى - : « كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ »[1] .

فاصبر على مقالاتهم كما صبر الرسل من قبلك على مقالات قومهم ، فلا عليك من تكذيبهم ، (إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ) لأوليائه ، (وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ) لأعدائهم ، فينصر أولياءه وينتقم من أعدائهم .

ويصح أن يكون المعنى : إن ربك لذو مغفرة لمن آمن من قومك ، وذو عقاب أليم لمن بقى منهم على كفره .

ويصح أن يكون المعنى : ما يقال لك من الله إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ، وهو : (إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ) فتلك المقالة لمواساتك ومواساة المرسلين قبلك ، فاصبر كما صبروا فسينصرك الله كما نصرهم ، ويعاقب أعداءك كما عاقب أعداءهم .

(وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾)

(١) سورة الذاريات ، الآية : ٥٢ .

المفردات :

(أَعْجَمِيًّا) : بلغة العجم .

(لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ) : هلَّا بينت بلسان نفقهه .

(أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ) : أيصح أن يأتينا كتاب أعجمي والمخاطب به عربي ؟ والعرب يقولون عمن يخالف لغتهم : أعجمي[1] .

(فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ) : صمم فلا يسمعونه .

(وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى) : فلا يبصرون هداه .

(أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ) : هؤلاء كأنما ينادون من مكان بعيد فلا يسمعون لبعده ، فاختلف فيه بالتصديق والتكذيب .

(لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ) : لفي شك يقتضي الاضطراب والقلق .

التفسير

٤٤ ـ (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ...) الآية :

لما ذكر الله ـ تعالى ـ القرآن وبلاغته وفصاحته ، وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، ومع هذا لم يؤمن به المشركون ـ لمَّا ذكر ذلك ـ نبه بهذه الآية على أن كفرهم به كفر عناد .

ومعنى الآية : ولو جعلنا القرآن بلغة غير لغة العرب ، فنزلناه على بعض الأعجمين بلغته ، فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين ، ولقالوا : لولا بينت آياته بلغتنا حتى نفهمه أيصح أن يكون قرآننا أو رسولنا أعجميا ، والمرسل إليه عربي ؟ فلهذا أنزله الله بلغتهم العربية ليفهموه ويعقلوه ويتدبروا آياته .

وعقب ذلك ببيان أن الناس بالنسبة للقرآن قسمان : مؤمنون يهتدون به ، وكافرون

---

(١) وقال القرطبي : والعجمي الذي ليس من العرب ـ فصيحاً كان أو غير فصيح ـ والأعجمي : الذي لا يفصح من العرب أو من العجم .

يعرضون عنه ، وذلك فى قوله : (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ) :

ومعناه : قل-أيها الرسول-لهؤلاء المعاندين : القرآن للذين آمنوا به هدى وشفاء من الشك والعلل ، لصفاء قلوبهم ، ونقاء عقولهم ، وبعد نظرهم ، وهو للذين كفروا بعيد عن قلوبهم ، فهم لذلك لا يسمعونه ، كأنهم صم لا يسمعونه ، فلهذا تواصوا بعدم سماعه واللغو فيه ، كما قال - تعالى-فى هذه السورة : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ) .

وهم بعيدون عن النظر فيه ، كأنهم عمى لا يبصرون ، كأن من يدعوهم إلى الحق يناديهم من مكان بعيد ، لا يصل منه صوته إليهم ، لصممهم المصنوع ، ولا يرونه لتعاميهم عن رؤيته .

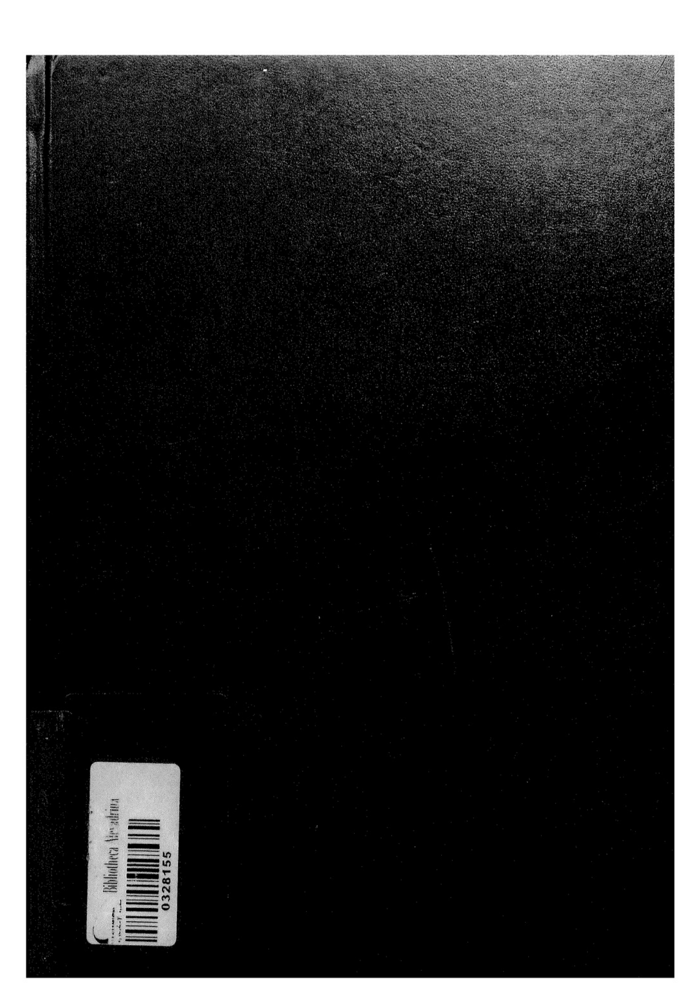
٤٥ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ) :

فى هذه الآية تسلية للنبى - صلى الله عليه وسلم - عن حزنه لاختلاف قريش على القرآن ما بين مكذب ومصدق له .

والمعنى : وبالله لقد آتينا موسى كتاب التوراة ، فاختلف فيه قومه ما بين مكذب ، ومصدق ، فلا تحزن على اختلاف قومك على القرآن ، فتلك عادة قديمة فى الأمم ، ولولا كلمة سبقت من ربك فى حق أمتك ، وهى العدة بتأخير عذاب المكذبين منهم إلى أجل مسمى ، وهو يوم القيامة - لولا ذلك - لاستأصلهم بالعذاب كما استأصل المكذبين قبلهم وإن كفار قومك لفى شك من القرآن موقع فى القلق والاضطراب .

٤٦ - (مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ) :

من عمل صالحًا بالإيمان بالكتب السماوية والعمل بموجبها فلنفسه نفعه لا لغيره ، ومن أساء بالكفر والعصيان فعلى نفسه ضره لا على غيره ، وما ربك بظلام للعبيد ، فلا يعذب أحدًا بغير ذنب .


Bibliotheca Alexandrina
0328155